

لوسي مود مونتغمري

آن في إنغلسايد





آن 6

مكتبة

ترجمة

فاطمة حوّا



مراجعة وتدقيق

سارة شيبان





Anne of Green Gables

THE BIRCH PATH
VIOLET VALE
LOVER'S LANE
GREEN GABLES
THE HAUNTED WOOD
ORCHARD SLOPE
LYNDE'S HOLLOW

إهداء لـ ..

من قضوا عيدا جميلا .. مع آن

هذا عيد آخر ..

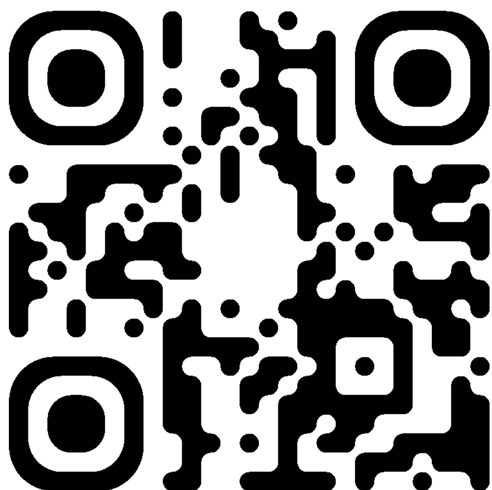
آن في إنجلسايد

الجزء السادس

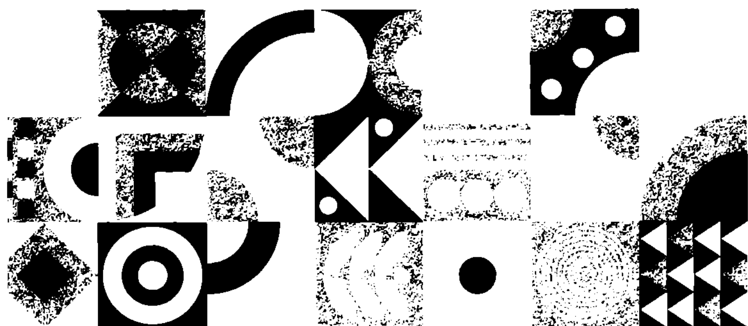


انضم لـ مكتبة .. تستمر الحكاية

انقر هنا .. اتبع الرابط!



telegram @soramnqraa



لوسي مود مونتغمري

آن في إنجلسايد

الجزء السادس

ترجمة: فاطمة حوّا

مراجعة وتدقيق: سارة شيبان

فلامينغو

Little Puffin
Publishing house

رواية
آن في إنجلسايد
لوسي مود مونتغمري
ترجمة: فاطمة حوّا
التدقيق اللغوي: سارة شيبان

novel
6 Anne of Ingleside
Lucy Maud Montgomery
Translated by: Fatima Hawa
Proofreading by: Sarah Sheban

التوزيع في الخليج العربي لدى
Little Puffin

Business Center, Sharjah, Publishing City Free Zone, Sharjah, United Arab Emirates

Littlepuffinpublishing@gmail.com

البريد الألكتروني: info@flamingopupl.com




الطبعة الأولى 2023

الرقم الدولي ردمك (ISBN)
978-9922-9289-7-5



تصميم الغلاف: ماهر عدنان
الاخراج الفني: اية نبيل

Lucy Maud Montgomery

ANNE OF INGLESIDE

Part Sixth

Translated by:
Fatima Hawa

فلامينغو

Little Puffin
Publishing house

1



بينما كانت آن بلايث تصعد إلى باب ديانا رايت الأماميّ في ممرّ حديقة رايت، وكانت بتلاتٌ صغيرةٌ من أزهار الكرز تتطاير في نسيم البحر قالت مبتهجة:

"يا لبياض ضوء القمر هذه اللّيلة!"

توقّفتْ للحظةٍ تنظر إلى التّلال والغابات الّتي أحبّتها في الأيّام الخوالي وما زالت تحبّها إلى الآن. كانت سعيدةً للغاية لرؤية العزيزة آفونلي! كانت جلين سانت ماري موطنًا لها الآن، ولطالما كانت كذلك لسنواتٍ عديدة، لكن كان في آفونلي ما لم يكن في جلين سانت ماري أبدًا. لقد قابلت آن أطيافها في كلِّ منعطف، فالحقول التي جابت فيها رحّبت بها، والذّكريات الّتي لا تُنسى من الحياة الحلوة القديمة جميعها تدور حولها، وكلّ مكانٍ نظرت إليهِ كان فيه ذكرى جميلة. كانت الحدائق مسكونةٌ هنا وهناك، حيث ازدهرت كلّ ورود العام الماضي. لطالما أحبّت آن العودة إلى المنزل في آفونلي حتّى عندما كان سبب زيارتها حزينًا، كما هو الحال الآن. حضرت مع جيلبرت لجنازة والده وبقيت لمدّة أسبوع فلم تستطع ماريلا والسيّدة ليند تحمّل رحيلها في

وقتٍ قريبٍ جدًا.

كانت غرفة الجملون القديمة في الشّرفة الخاصّة بها دائمًا محفوظةً لها وعندما ذهبت آن إليها ليلة وصولها وجدت أنّ السيّدة ليند قد وضعت باقةً كبيرةً من أزهار الرّبيع فيها، عندما اقتربت آن لتشمّها، وجدتها تحمل كلّ عبير السّنوات التي لا تُنسى. شعرت وكأنّ آن الصغيرة تنتظرها هناك. تحرّكت في قلبها مشاعر الفرح الذي كانت تشعر به قديمًا، أحسّت بأنّ غرفة الجملون مشتاقةٌ إليها، وكأنّها تضمّها، تطوّقها وتلفّها. نظرت بحبٍّ إلى غطاء سريرها القديم وطبعة ورقة التّفاح عليه، كانت السيّدة ليند قد حاكته هو والوسائد ناصعة البياض المزيّنة بدانتيلٍ عميقٍ أضافت إليه الكروشيه...

ثمّ نظرت إلى بساط ماريلا المضفر على الأرض وإلى المرآة التي عكست الوجه الطفوليّ لليتيمة الصّغيرة، التي كانت قد بكت حتّى غفت هناك في تلك اللّيلة الأولى منذ زمنٍ بعيد. نسيت آن أنّها كانت أمًّا سعيدةً لخمسةِ أطفال مع سوزان بيكر التي كانت تحيك مرّةً أخرى جوارب غريبة الشّكل في إنجلسايد.

شعرت حينئذٍ أنّها عادت آن فتاة المرتفعات الخضراء مرّةً أخرى.

عندما أتت السيّدة ليند بمناشف نظيفة، وجدتها لا تزال تحدّق في المرآة شاردة.

"من الجيّد حقًّا عودتك إلى المنزل يا آن، هذا ما يهمّ الآن. لقد مرّت تسع سنواتٍ منذ أن ذهبتِ، لكن يبدو أنّني وماريلا لا نستطيع التعوّد على غيابك. لم نعد نشعر بالوحدة الآن منذ أن تزوّج ديفي، ميلي فتاةٌ صغيرةٌ وظريفةٌ للغاية، رغم أنّها كالسّنجاب فضوليّةٌ حول كلّ شيء! لكنّني لطالما قلت وسأقول دائمًا إنّ لا أحد مثلك."

قالت آن بشكلٍ غريب: "آه لكن لا يمكن خداع هذه المرآة يا سيّدة

ليند، إنّها تخبرني بوضوح، أنّني لم أعد صغيرةً كما كنت من قبل."
قالت السيّدة ليند لتواسيها: "لقد حافظتِ على بشرتك بشكلٍ جيّدٍ للغاية، من المؤكد أنّك لم تفقدي لونها."
قالت آن بابتهاج: "على أيّ حال، ليس لديّ ذقنٌ ثانٍ حتى الآن، وغرفتي القديمة تتذكّرني يا سيّدة ليند. أنا سعيدة، فقد كانت ستُجرح مشاعري لو عدت يومًا ووجدت أنّها نسيتني، ومن الرائع رؤية طلوع القمر فوق الغابة المسكونة مرّةً أخرى."
قالت السيّدة ليند وهي تشعر بأنّها تتحدّث بطريقةٍ جامحةٍ وشاعريّة، شاكرةً أنّ ماريلا لم تكن هناك لتسمعها: "يبدو القمر كأنّه قطعةٌ كبيرةٌ من الذهب في السماء، أليس كذلك؟"
"انظري إلى أشجار التنوب المدبّبة تلك التي تظهر تجاهه، وما زالت أشجار البتولا في الجوف تمدّ أغصانها نحو السماء الرماديّة. أصبحت أشجارًا كبيرة الآن، كانت مجرّد شجيراتٍ عندما أتيت إلى هنا، هذا الأمر يشعرني بأنني كبيرةٌ بالسن نوعًا ما."
قالت السيّدة ليند: "الأشجار مثل الأطفال، مروّعةٌ هي الطريقة التي يكبرون بها في اللحظة التي تديرين فيها ظهرك لهم. انظري إلى فريد رايت، يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا فقط لكنّه تقريبًا بطولِ والده. أعددت فطيرة دجاجٍ ساخنة للعشاء، وقد صنعتُ لك بعض بسكويت اللّيمون، ولا داعي لأن تخافي من النوم في ذلك السرير. لقد قمتُ بتهوئة الملاءات اليوم، ولم تكن ماريلا تعلم أنّني فعلت ذلك فقامت بتهوئتهم مجدّدًا، ولم تكن ميلي تعرف أيضًا أنّ كلتانا فعلت ذلك ففعلتها للمرّة الثالثة. آمل أن تخرج ماري ماريا بلايث غدًا، إنّها تستمتع دائمًا بجنازةٍ كهذه."
قالت آن: "كان جيلبرت يناديها بالعمّة ماري ماريا على الرغم من

أنّها فقط ابنة عمّ والده، كانت دائمًا تناديني آني، وفي المرة الأولى التي رأتني فيها بعد أن تزوّجت، قالت لي: "أرى أنّه من الغريب جدًا أن يختارك جيلبرت، فقد كان من الممكن أن يحظى بالكثير من الفتيات الجميلات." ربّما لهذا السبب لم أحبّها أبدًا، وأنا أعلم أنّ جيلبرت لا يحبّها أيضًا على الرّغم من أنّه متعّصبٌ لنسلهِ ولا يعترف بذلك."

"هل سيبقى جيلبرت هنا لوقتٍ طويل؟"

"لا، عليه أن يعود ليلة الغد لأنّه ترك مريضًا في حالةٍ حرجةٍ للغاية."

"أوه حسنًا، أعتقد أنّه ليس هناك الكثير ليبقى من أجله في آفونلي الآن، بما أنّ والدته توفيت العام الماضي. لم يرفع السيّد بلايث العجوز رأسه أبدًا بعد وفاتها، لم يتبقّ له أحدٌ ليعيش من أجله. لطالما كان آل بلايث هكذا، يعلّقون عواطفهم دائمًا بالأمور الدنيوية. إنّ التفكير بأنّه لم يتبقّ أيٌّ منهم في آفونلي محزنٌ للغاية، فلقد كانوا أسرةً قديمة ورفيعة. ولكن بعد رحيلهم، نجد الكثير من آل سلوان. أفراد عائلة سلوان لا يزالون كما هم يا آن، وسيبقون كذلك إلى الأبد."

"فليكن هناك أكبر عددٍ ممكن من آل سلوان، سأخرج بعد العشاء لأمشي في جميع أنحاء البستان القديم عند ضوء القمر. أظنّ أنّني أخيرًا سأخلد للنوم، على الرغم من أنّني اعتقدت دائمًا أن النّوم في ليالي ضوء القمر مضيعةٌ للوقت، لكنني سأستيقظ باكرًا لأرى ضوء الفجر الخافت وهو يغطّي الغابة المسكونة. ستصبح السماء مرجانيّة اللون وسترقص عصافير أبو الحناء في الأرجاء، وربّما سيأتي عصفورٌ صغيرٌ رماديّ اللون يقف على حافّة النافذة وسوف أنظر إلى زهور الثالوث الأرجوانيّة والذهبيّة."

قالت السيّدة ليند بحزن: "لكنّ الأرانب أكلت أزهار الزنبق."

كانت تتجوّل في الطابق السفليّ، وهي تشعر بالارتياح سرًّا لعدم

الحاجة إلى مزيدٍ من الحديث عن القمر. كانت آن دائمًا غريبةً بعض الشيء بحديثها عن القمر، ويبدو أنّه لم يعد هناك فائدة من الأمل في توقّفها عن هذه العادة.

نزلت ديانا إلى الممرّ لمقابلة آن، وكان من الممكن رؤية شعرها الأسود وخدّيها الورديّين وعينيها اللامعتين حتى تحت ضوءِ القمر. لكنّ الضوء لم يستطع إخفاء أنّها كانت أسمن ممّا كانت عليه في سنواتٍ مضت، ولم تكن ديانا نحيفةً كما وصفها أهل آفونلي.

"لا تقلقي يا عزيزتي، لم آتِ لأبقى."

قالت ديانا بتأنيب: "لن أقلق حيال هذا الأمر، أنتِ تعلمين أنني أُفضّل قضاء الليلةِ معكِ بدلًا من الذهاب إلى حجرة الاستقبال. أشعر أنّني لم أرَكِ بما يكفي وستعودين بعد غد. لكنّكِ تعلمين طبعَ شقيق فريد، لذلك علينا أن نذهب."

"بالطبع عليكِ الذهاب. لقد ركضتُ قليلًا، جئت بالطريقة القديمة يا دي، مررتُ بجانبِ نهر فقاعة الحورية، وعبرتُ الغابة المسكونة وحديقتك القديمة وبعدها ذهبتُ إلى بِركةِ ويلومير، حتى أنني توقّفتُ لمشاهدة أشجار الصفصاف مقلوبةً في الماء كما كنّا نفعل دائمًا، ورأيتُ أنّها قد كبرت."

قالت ديانا بحسرة: "كلّ شيءٍ قد كبر، عندما أنظر إلى فريد أرى أنّه أصبح شابًّا! لقد تغيرنا جميعًا، إلّا أنتِ، إنّكِ لا تتغيّرين أبدًا يا آن. كيف تحافظين على نحافتكِ؟ انظري إليّ كم أصبحت سمينة!"

ضحكت آن قائلة: "رشيقةٌ بعض الشيء بالطبع، لكنّك نجوتِ حتى الآن من الدهون التي تتراكم في منتصف العمر يا دي. أما بالنسبة لعدم تغيّري، فالسيدة إتش بي دونيل تتّفق معك، فقد أخبرتني في الجنازة أنّني لم أبدُ أكبرَ ولا حتى بيومٍ واحد، على عكسِ السيّدة هارمون

أندروز التي قالت لي: "يا إلهي آن، لقد فشلتِ حتمًا!" إنّ الأمر كلّه يرتبط بعينِ النّاظرِ أو ضميره. المرّة الوحيدة التي أشعر فيها أنني أتأقلم بعض الشيء هي عندما أنظر إلى الصور في المجلات. لقد بدأ الأبطال والبطلات فيها يبدون صغارًا بالنسبة لي، لكن لا تقلقي يا دي، سنعود صغيرتَينِ مرّةً أخرى، فقد جئت لإخبارك أنّنا سنأخذ إجازةً بعد الظهر وفي المساء ونزور جميع أماكننا القديمة بلا استثناء. سنمشّي فوق حقول الربيع وعبر تلك الغابات القديمة السرخسية، وسنرى كل الأشياء المألوفة القديمة التي أحببناها والتلال التي سنجد فيها شبابنا مجدّدًا. كما تعلمين لا شيء يبدو مستحيلًا في الربيع. سنتوقّف عن الشعور بالمسؤوليّة وبأنّنا والدتين وسنكون طائشتين بقدر ما تعتقد السيّدة ليند في أعماق قلبها أنني طائشة. ليست هناك متعةٌ حقًا في أن تكونين عاقلةً طوال الوقت يا ديانا."

"يا إلهي! يذكّرني كلامك هذا بنفسك القديمة. كنت أودُّ ذلك لكن..."

"لا أودّ أن أسمع كلمة لكن بعد الآن. أعلم أنّكِ تفكّرين بمن سيحضّر العشاء للرجال."

ردّت ديانا بفخر: "كلّا، هذا ليس صحيحًا. يمكن لآن كورديليا أن تحضّر العشاء كما أفعل أنا على الرغم من أنّها في الحادية عشرة من عمرها فقط، كانت ستفعل ذلك بكلّ الأحوال. كنت أودّ الذهاب إلى جمعيّة النساء الدينيّة لكنّني سأذهب معك بدلًا من ذلك، فهذا بالنسبة لي كحلمٍ يتحقّق. أتعلمين يا آن، في الكثير من اللّيالي أجلس وأتظاهر بأننا فتاتينِ صغيرتينِ مرّةً أخرى. سآخذ عشاءنا معنا."

"وسوف نأكله مجدّدًا في حديقة هستر جراي، أفترض أنّ الحديقة ما تزال موجودة، أليست كذلك؟"

قالت ديانا بريبة: "أعتقد ذلك، لم أذهب إلى هناك منذ أن تزوّجتُ. تستكشف آن كورديليا الكثير، لكنني دائمًا أخبرها أنّه لا يجب أن تبتعد كثيرًا عن المنزل. إنّها تحب التجوّل في الغابة، وفي أحد الأيّام عندما وبّختها لتحَدُّثها مع نفسها في الحديقة، قالت إنّها لا تتحدث مع نفسها، بل كانت تتحدّث إلى روح الزهور. أتعلمين أنّ طقم شاي الدمى مع براعم الورد الصغيرة الذي أرسلته إليها في عيد ميلادها التاسع لم تكسر منه قطعةً واحدة؟ إنّها فتاةٌ حريصةٌ للغاية، لا تستخدمه إلّا عندما يأتي الأشخاص الخضر الثلاثة لتناول الشاي معها. لا يمكنني إخراج من رأسها ما تعتقد أنّهم عليه. أعترف أنّها في بعض الأحيان تشبهك يا آن أكثر ممّا تشبهني بكثير."

"ربّما للاسمِ تأثيرٌ أكبر مما كان شيكسبير يعتقد. لا تحقدي على آن كورديليا بسبب خيالها يا ديانا، دائمًا ما أشعر بالأسف تجاه الأطفال الذين لا يقضون فترات في عالم الخيال."

قالت ديانا بريبة: "أوليفيا سلوان هي معلمتنا الآن، إنها حاصلة على شهادة بكالوريوس كما تعلمين، وقد عملت في المدرسة لمدّة عامٍ لتكون بالقرب من والدتها. تقول إنّه ينبغي تربية الأطفال على مواجهة الواقع."

"هل عشت لأسمعك تصادقين آل سلوان، يا ديانا رايت؟"

"لا لا وألف لا! أنا لا أحبّها على الإطلاق. لديها عينين زرقاوتين مستديرتين محدّقتين مثل كلّ أفراد تلك العشيرة. وأنا لا أمانع تخيّلات آن كورديليا، أعتقد أنّها جميلةٌ تمامًا كما كانت تخيّلاتك. أظنّ أنّها ستعيش ما يكفي من الواقع لاحقًا."

"حسنًا، لقد اتّفقنا إذًا. تعالي إلى المرتفعات الخضراء حوالي الساعة الثانية وسنشرب نبيذ الكشمش الأحمر الذي تصنعه ماريلا بين

الحين والآخر على الرغم من القس والسيّدة ليند، فقط لنشعر بأنّنا حقًا كالشياطين."

ضحكت ديانا وقالت: "هل تتذكرين اليوم الذي جعلتِني أثمل فيه؟" ولم تمانع قول آن كلمة "الشياطين" كما لو كانت ستفعل إن قالها شخصٌ غير آن. يدرك الجميع أن آن لا تعني حقًا أشياء من هذا القبيل، كانت هذه طريقة كلامها فقط.

"سنحظى غدًا بيومٍ نسأل فيه بعضنا عن ذكرياتنا سويًّا يا ديانا. لن أؤخرك أكثر، سيأتي فريد مع العربة. بالمناسبة، أحببتُ فستانكِ."

"لقد جعلني فريد أشتري فستانًا جديدًا لحفل الزفاف. لم أكن أشعر أنّنا قادرين على تحمّل تكاليفه منذ أن قمنا ببناء الحظيرة الجديدة، لكنّه قال إنّه لن يجعل زوجته تبدو وكأنّها فتاةٌ عاديّةٌ أُجبرت بالزواج به بينما يرتدي الجميع أجمل ملابسهم. ألم يكن هذا تصرُّفَ رجلٍ نبيل؟"

قالت آن بجديّة: "أوه، تبدين مثل السيّدة إليوت في جلين. عليكِ الحذر من هذه الميول. هل ترغبين في العيش في عالمٍ لا رجال فيه؟"

اعترفت ديانا: "سيكون الأمر مروعًا." ثمّ صاحت: "نعم، نعم يا فريد، أنا قادمة. أوه، حسنًا! أراكِ غدًا يا آن."

توقّفت آن في طريق عودتها عند نهر فقّاعة الحورية، لقد أحبّت ذلك النهر القديم جدًّا، لأنّه كان يحمل كلّ رنّةٍ من ضحكات طفولتها ويبدو الآن أنّه سمح لها مرة أخرى بالاستماع. وتمكّنت من رؤية أحلامها القديمة منعكسةً في النهر الصافي الذي حفظ جميع العهود والهمسات القديمة لآن وهمس بها. ولكن لم يكن هناك من يستمع إليه باستثناء شجرة التنوب القديمة في الغابة المسكونة، التي كانت بجواره منذ وقتٍ طويل.

***

2



قالت

ديانا: " إنّه يومٌ جميل، ويناسبنا تمامًا لكنّني أخشى أن يتغيّر الطقس، فالسماء ستمطر غدًا. "

"لا تهتمّي سوف نستغلّ جمال الطقس اليوم، حتّى لو غابت أشعة الشمس غدًا. سنستمتع بصداقتنا اليوم حتى لو افترقنا في الغد. انظري إلى تلك التلال الواسعة بلونيها الذهبي والأخضر، وتلك الوديان الرائعة، إنها ملكنا يا ديانا. لا يهمّني إن كان ذلك التل الأبعد مسجلًّا باسم أبنر سلوان، إنّه ملكنا اليوم. تهبّ رياح غربيّة وأشعر دائمًا بالمغامرة عندما تهبّ الرياح الغربيّة. أعتقد أننا سنحظى بنزهةٍ مثاليّة. "

كانت آن محقّة، فقد حظيتا بنزهةٍ رائعة. قامت الصديقتان بزيارة جميع المواقع العزيزة القديمة: ممر العشاق والغابة المسكونة وأيدلوايلد والوادي البنفسجي وممر البتولا وبحيرة الكريستال. كانت هناك بعض التغييرات، فلقد نمت حلقة صغيرة من شتلات البتولا في أيدلوايلد لتصبح أشجارًا كبيرة، حيث كانوا يلعبون منذ فترةٍ طويلة وكان مسار البتولا الطويل مغطّى بالسّرخس، واختفت بحيرة الكريستال تمامًا، ولم يتبقَّ منها سوى جوفٍ مطحلب رطب. غطّت أزهار البنفسج

الوادي البنفسجي، وكانت شجيرة التفاح التي وجدها جيلبرت ذات مرّة بعيدًا في الغابة عبارةً عن شجرةٍ ضخمةٍ تتخلّلها براعم صغيرة قرمزيّة الرؤوس.

سارتا عاريتا الرأس وكان شعر آن لا يزال متلألئًا مثل خشب الماهوجني المصقول في ضوء الشمس بينما لا يزال شعر ديانا أسودًا لامعًا. تبادلتا نظراتٍ دافئة وودّية، وفي بعض الأحيان كانتا تمشيان في صمت. أكّدت آن دائمًا أن شخصين متعاطفين مثلها هي وديانا يشعران بأفكار بعضهما البعض. تخلّلت في بعض الأحيان محادثتهما أسئلة عن ذكرياتهما. "هل تتذكرين اليوم الذي سقطت فيه من بيت البط الخاص ب "كوب" على طريق توري؟" و"هل تتذكرين عندما قفزنا على العمّة جوزفين؟" و"هل تتذكرين نادي القصة؟" و"هل تتذكرين زيارة السيدة مورجان عندما لطخت أنفك باللون الأحمر؟" و"هل تتذكرين كيف كنا نشير لبعضنا البعض من نوافذنا بالشموع؟" و"هل تتذكرين المرح الذي حظينا به في حفل زفاف الآنسة لافندر وأقواس شارلوتا الزرقاء؟" و"هل تتذكرين مجتمع الإصلاح؟" بدا لهما أنهما سمعتا صدى ضحكهما القديم يتردّد على مر السنين.

يبدو أن مجتمع الإصلاح قد مات، لقد تلاشى بعد وقتٍ قصير من زواج آن.

"لم يتمكنوا من مواكبة الأمر يا آن فالشباب في آفونلي الآن ليسوا كما كانوا في أيّامنا."

"لا تتحدّثي كما لو أن أيّامنا قد انتهت يا ديانا. كنا فقط في الخامسة عشرة من العمر ولدينا أرواحٌ متقاربة. الأمل موجودٌ في كلّ مكان. لست متأكدّة من أنّه لم تنبت لي أجنحة."

قالت ديانا متناسيةً أنّ إبرة الميزان توقّفت عند الرقم مائةٍ وخمسةٍ

وخمسين في ذلك الصباح: "أشعر غالبًا أنّني أحبّ أن أتحوّل إلى طائرٍ لفترةٍ قصيرةٍ أيضًا، لا بدّ أنّ الطيران رائع."

كانت كل الأماكن حولهما جميلة، وكانت ألوانٌ غريبة تلمع في الغابة المظلمة وتتوهّج في الطرقات الجانبيّة الفاتنة. تغربلت أشعة الشمس الربيعيّة من خلال الأوراق الخضراء الصغيرة، وكانت ترانيم الأغاني في كلّ مكان. وكانت هناك تجاويفٌ صغيرةٌ تشعرك بأنّك تستحمّ في بركةٍ من الذهب السائل. في كلّ منعطف، كانت بعض رائحة الربيع المنعشة تضرب وجهيهما آتيةً من سرخس التوابل وبلسم التنوب والرائحة النقيّة للحقول المحروثة حديثًا. كان هناك ممرٌّ محاط بستائر من أزهار الكرز البري وحقل عشبيٌّ قديمٌ مليءٌ بأشجارِ التنوب الصغيرة التي بدأت للتو في النمو، وكانت تجلس بين الأعشاب كائناتٌ تشبه الجنيّات الصغيرات، وجداول ليست واسعة، وزهور النجوم تحت التنوب وصفائح من السرخس الصغير المجعّد، وشجرة البتولا حيث قام بعض المخربون بتمزيق الغلاف ذو الجلد الأبيض في عدّة أماكن، لتظهر ألوان اللحاء في الأسفل. نظرت آن إلى المكان طويلًا ما جعل ديانا تتعجّب ولم ترَ ما فعلته آن. تتراوح الألوان من الأبيض الكريمي النقي، إلى درجات اللون الذهبي الرائعة، وتنمو بشكلٍ أعمق وأعمق حتى تكشف الطبقة الداخليّة عن أغنى وأعمق لونٍ بنيّ، كما لو كانت تخبرنا أنّ جميع أنواع البتولا الشبيهة بالعذراء والرائعة من الخارج، تتمتع بمشاعر دافئة من الداخل.

تمتمت آن: "تحتضن في أعماقها جذور الأرض."

وأخيرًا، بعد عبور وادٍ صغيرٍ مليءٍ بالفطر، وجدت الفتاتان حديقة هيستر جراي التي لم تتغير كثيرًا. كانت لا تزال حلوةً بزهورها المميّزة، وكان لا يزال هناك الكثير من أزهار النرجس التي كانت تسميها ديانا

زنابق حزيران. كان صف أشجار الكرز قد كبر ولكنّه كان مليئًا بأزهارٍ مغطّاةٍ بالثلج. كان لا يزال بإمكانك العثور على ممشى الورد وسط الحديقة، وكان السد القديم أبيض مع أزهار الفراولة وأزرق مع البنفسج وأخضر مع نبات السرخس. تناولتا عشاء النزهة في أحد أركانه، جالستين على بعض الأحجار الطحلبية القديمة، وخلفهما شجرةٌ أرجوانيّة اللون تتطاير منها الأزهار مقابل شمسٍ منخفضة. كانت كلتاهما جائعتين وأظهرتا كم كان لذيذًا طبخهما.

تنهّدت ديانا بارتياح وقالت: "ما أطيب الطعام عندما يُؤكَلُ في الخارج! لا أستطيع أن أعبّر لك عن مدى لذة كعكة الشوكولاتة التي صنعتها يا آن، يجب أن تعطيني الوصفة، سيحبّها فريد. يمكنه أن يأكل مختلف أنواع الأطعمة ويبقى نحيفًا، أمّا أنا فأقول دائمًا أنني لن آكل المزيد من الكعك لأنني أصبح أكثر بدانةً كلّ عام. أخاف أن أصبح مثل العمة سارة، فقد كانت سمينةً جدًا، كان علينا دائمًا مساعدتها على الوقوف. ولكن عندما أرى كعكةً من هذا القبيل كما حدث الليلة الماضية في حجرة الاستقبال، فعليّ أن أتذوقها لأنّهم سيشعرون جميعًا بالإهانة لو لم أفعل."

"هل استمتعت بوقتك؟"

"نعم، لقد استمتعت قليلًا، لكنّني لم أستطع التخلّص من ابنة عم فريد هنريتا التي كانت تشعر بالفرح عندما تتحدث عن كل عمليّاتها وأحاسيسها أثناءها وعن كيف كانت ستنفجر زائدتها الدودية لو لم تخضع لعمليّة. وشكت لي: "لقد أصبح فيها خمس عشرة غرزة. آه يا ديانا، العذاب الذي عانيته!" لم أستمتع بحديثها لكنّها استمتعت. وقد عانت، فلماذا لا تستمتع بالحديث عن ذلك الآن؟ كان جيم مضحكًا للغاية، لا أعرف ما إذا كانت ماري أليس قد أحبّته بالإجمال. سآخذ

قطعةً صغيرةً واحدة فقط، مجرّد قطعةٍ من الجبن لا يمكن أن تحدث فرقًا كبيرًا. قال أمرًا واحدًا في اللّيلة التي سبقت الزفاف، أنّه كان خائفًا للغاية لدرجة أنّه شعر أنّ عليه الذهاب وركوب القطار. وقال إنّ جميع العرسان يحسّون بهذا الشعور لكنّهم يخفون ذلك. هل تعتقدين أنّ جيلبرت وفريد مثلهم يا آن؟"

"هذا ما قاله فريد عندما سألته عن شعوره. أخبرني أنّ كلّ ما كان يخاف منه هو أنّني سأغيّر رأيي في اللحظة الأخيرة مثل روز سبنسر. لكن لا يمكنك أبدًا معرفة ما يفكر فيه الرجال. على كلّ حال، لا فائدة من القلق حيال هذا الموضوع. يا له من وقتٍ جميلٍ أمضيناه بعد ظهر هذا اليوم! لقد شعرنا بالسعادة القديمة التي كنا نشعر بها في الماضي. أتمنّى ألا تضطّرين إلى الذهاب غدًا يا آن."

"ألا يمكنك القدوم لزيارة إنجلسايد في وقتٍ ما هذا الصيف يا ديانا؟ قبل أن أتوقّف عن استقبال الزوّار لبعض الوقت."

"كنت سأحبّ ذلك، لكن يبدو أنّه من المستحيل الابتعاد عن المنزل في الصيف فهناك دائمًا الكثير لفعله."

"ستأتي ريبيكا ديو أخيرًا، وأنا سعيدةٌ بذلك لكنّني أخشى أن تكون العمة ماري ماريا قادمة أيضًا لأنّها ألمحت إلى جيلبرت بذلك كثيرًا وهو مثلي لا يحبُّها، لكنها قريبته لذلك لا يستطيع تفاديها."

"ربما آتي في الشتاء فأنا أودُّ أن أرى إنجلسايد مرة أخرى. لديك منزلٌ جميلٌ يا آن وعائلة لطيفة."

"إنجلسايد جميلة وأنا أحبّها الآن. اعتقدت ذات مرّة أنّني لن أحبّها أبدًا لأنّني كرهتها عندما ذهبنا إلى هناك أولًا، كرهتها لفضائلها التي كانت إهانةً لمنزل أحلامي العزيز. أتذكر أنني قلت لجيلبرت بحزنٍ عندما تركناه: "لقد كنا سعداء للغاية هنا، لن نكون سعداء أبدًا في أيّ

منزلٍ آخر." استمتعت برفاهيّة الحنين إلى الوطن لفترةٍ من الوقت، لكنّني بعد ذلك شعرت أنّ أزهارًا من المحبة لإنجلسايد بدأت تنبت في قلبي. حاولت أن أقاوم هذه المشاعر لكنّني في النهاية استسلمت واعترفت أنني أحببتها. ومنذ ذلك الوقت ويزداد حبّي لها كلّ عام. لم يكن المنزل قديمًا جدًا ولا حديثًا جدًا، فالمنازل القديمة جدًّا حزينة والمنازل الحديثة جدًّا بسيطة. كان منزلًا مليئًا بالفرح، أحبّ كلّ غرفةٍ فيه. لدى كلّ شخصٍ منّا بعض العيوب لكنّنا نملك بعض الخصال الحسنة التي تميّزنا عن الآخرين وتصنع شخصيّاتنا...

أحبّ كلّ تلك الأشجار الرائعة على العشب، لا أعرف من زرعها ولكن في كلّ مرّةٍ أصعد فيها الدرج أتوقّف عند تلك النافذة الجذابة ذات المقعد العميق الواسع بين الدرجين وأجلس هناك أتأمّلها للحظةٍ وأقول: "بارك الله في الرجل الذي زرع تلك الأشجار أيًّا كان." لدينا بالفعل الكثير من الأشجار حول المنزل لكنّنا لن نتخلى عن أيٍّ منها."

"يحب فريد الأشجار مثلك، فهو يعشق شجرة الصفصاف الكبيرة جنوب المنزل. أخبرته مرارًا وتكرارًا إنّها تفسد المنظر من نوافذ الصالة، لكنّه يسألني" هل تقطعين شجرةً جميلةً كهذه حتى لو أفسدت المنظر؟" لذا فإنّ الشجرة صامدة وتبدو جميلة، ولهذا السبب أطلقنا على مزرعتنا اسم مزرعة شجرة الصفصاف الوحيدة. أحبّ اسم إنجلسايد فهو اسمٌ لطيفٌ وجميل."

"هذا ما قاله جيلبرت. لقد قضينا وقتًا طويلًا في اتّخاذ قرارٍ بشأن الاسم فلقد جرّبنا عدّة أسماء لكن لا يبدو أنّها تلائمه. ولكن عندما فكرنا في إنجلسايد، علمنا أنّه الاسم المناسب. أشعر بالسعادة لأنّنا نملك منزلًا رائعًا وفسيحًا فنحن بحاجةٍ إليه بما أنّنا عائلة كبيرة، كما أنّ الأطفال يحبّونه أيضًا."

ثم قالت ديانا وهي تأخذ قطعةً أخرى من كعكة الشوكولاتة دون أن تلاحظ آن: "أعتقد أنّ أطفالي لطفاء للغاية ولكنني أحبّ أطفالك كثيرًا خاصّةً التوأمان. أحسدك لأنّني لطالما أردت إنجاب توأمين."

"آه لم أستطع تفادي إنجاب توأمين، كان هذا قدري، لكنّني أشعر بخيبة أمِل لأنّهما لا يبدوا متشابهين أبدًا. مع ذلك، نان جميلةٌ بشعرها البنيّ وعينيها وبشرتها الجميلة. يفضّل جيلبرت دي، لأنّها تملك عينين خضراوين وشعرٌ أحمر مجعّد. تعتبر سوزان شيرلي قرّة عينها، بقيت مريضةً لفترةٍ طويلةٍ بعد ولادته فاعتنت به سوزان حتى بدأت أعتقد حقًا أنّها تظنّ أنّه ابنها. لقد أطلقت عليه لقب "الولد البنيّ الصغير" وكانت تدَلّله بطريقةٍ مخجلة."

قالت ديانا بحسد: "إنّه لا يزال صغيرًا للغاية بحيث يمكنك التسلّل إليه وهو في السرير لتري ما إذا كان قد انزاح الغطاء عنه وتغطّيه مرّةً أخرى، أمّا جاك في التاسعة من عمره كما تعلمين، ولا يريدني أن أفعل ذلك الآن. يقول إنّه أصبح كبيرًا جدًا. كنت أحبُّ فعل ذلك، أتمنّى لو أن الأطفال لا يكبرون بسرعة."

قالت آن بحسرة: "لم يصل أيٌّ من أولادي إلى تلك المرحلة بعد، رغم أنني لاحظت أنّه منذ بدأ جيم الذهاب إلى المدرسة لم يعد يريد أن يمسك بيدي عندما نسير في القرية، لكنّه ووالتر وشيرلي جميعًا يريدون منّي أن أضعهم في أسرّتهم وأغطّيهم، يعتبرها والتر عادةً أساسيّة."

"ولا ينبغي أن تقلقي بعد الآن حيال ما سيعملون في المستقبل. يريد جاك أن يصبح جنديًّا عندما يكبر، إنه مهووس بهذا الأمر، لكنه مجرّد خيال!"

"لن أقلق بشأن ذلك. سوف ينسى الأمر عندما يأسره خيالٌ آخر فالحرب من الماضي. يتخيّل جيم أنه سيكون بحارًا مثل الكابتن جيم

ويبدو أنّ ووالتر في طريقه ليصبح شاعرًا، إنّه ليس كالبقية. لكنّهم جميعهم يحبّون الأشجار ويحبون اللعب في "الحفرة" كما يطلق عليه، وهو وادٍ صغيرٌ أسفل إنجلسايد مباشرةً فيه مساراتٌ خرافيّة ونهرٌ صغير. إنّه موقعٌ عاديٌّ جدًّا، وهو بالنسبة للآخرين مجرّد وادٍ، لكنّه أرض الخيال بالنسبة للأطفال.

يقترف جميعهم بعض الأخطاء، لكنهّم ليسوا سيّئين، ولحسن الحظ سأبقى أحبّهم بكل أحوالهم. آه، يسعدني أن أفكّر أنني في مثل هذا الوقت غدًا سأعود إلى إنجلسايد وأروي قصصًا لأطفالي في وقت النوم، وأمدح نباتات المرموزة وسراخس سوزان التي أعتبرها محظوظةً عندما يتعلق الأمر بالسراخس، فلا أحد يستطيع أن يجعلها تنمو مثلها. أستطيع أن أمدح سراخسها بصدق، لكنّ المرموزة يا ديانا لا تبدو لي مثل الزهور على الإطلاق. لكنني لم أخبر سوزان بذلك كي لا أجرح مشاعرها فأنا أنجح دائمًا في ذلك. لا أستطيع تخيُّلَ ما كنت سأفعله بدون سوزان، أعتبرها سندًا لي، وأتذكّر عندما وصفتها ذات مرّة بالدخيلة. من الجميل التفكير في العودة إلى المنزل بالطبع، ومع ذلك أشعر بالحزن لمغادرة المرتفعات الخضراء أيضًا. أرى المكان جميلًا هنا بوجودك أنتِ وماريلا، لطالما كانت صداقتنا جميلةً للغاية يا ديانا."

"نعم، لا أستطيع أبدًا التحدّث مثلك يا آن، لكن ما أريد قوله أنّنا حافظنا على عهدنا ووعدنا القديم، أليس كذلك؟"

"نعم، لطالما فعلنا ذلك، وسنحافظ عليه إلى الأبد."

أمسكت آن يد ديانا وجلستا لفترةٍ طويلةٍ في صمتٍ كان أجمل من الكلام. وبعد لحظات، سقطت ظلال المساء الساكن على الأعشاب والزهور والمروج الخضراء في الخلف. غابت الشمس وأصبحت السماء ذات اللون الرمادي والوردي داكنة ثمّ باهتة خلف الأشجار

المذهلة. استحوذ شفق الربيع على حديقة هيستر جراي حيث لا أحد يسير الآن أبدًا. كانت عصافير الدوري تزقزق في السماء وكأنّها تعزف على الناي، وبرزت نجمةٌ كبيرة فوق أشجار الكرز البيضاء.

قالت آن حالمة: " تبدو النجمة الأولى دائمًا كالأعجوبة. "

قالت ديانا: "يمكنني أن أبقى هنا إلى الأبد، أنا أكره فكرة ترك هذا المكان. "

"أكره ذلك أيضًا، ولكن في النهاية كنّا نتظاهر بأننا في الخامسة عشرة من عمرنا. علينا أن نتذكّر اهتمام عائلتنا بنا، وكيف كانت رائحة أزهار الليلك! هل فكرت يومًا يا ديانا أن رائحة أزهار الليلك تخفي أمرًا ما؟ يضحك جيلبرت دائمًا على هذه الفكرة وهو يحبّ هذه الأزهار ولكن يبدو لي دائمًا أنها تذكره بأمرٍ سريّ ولطيفٍ للغاية. "

قالت ديانا: "أعتقد دائمًا أنها عبء ثقيل على المنزل." حملت الطبق الذي كان يحوي ما تبقّى من كعكة الشوكولاتة، ونظرت إليه بشهوةٍ وهزّت رأسها ثم وضعته في السلة وعلامات الفخر تظهر على وجهها لأنّها استطاعت السيطرة على نفسها ومقاومة الكعك. "

"ألن يكون الأمر ممتعًا يا ديانا لو التقينا الآن في طريق عودتنا إلى المنزل بأنفسنا القديمة تسير على طول ممرّ العشاق؟ "

شعرت ديانا بقشعريرة وأجابت: "لا، لا أعتقد أن هذا سيكون ممتعًا يا آن. لم ألاحظ أن الظلام يزداد، لا بأس في التخيّل في وضح النهار، لكن... "

ذهبت الصديقتان بهدوءٍ وصمتٍ محبّ إلى المنزل معًا، مع غروب الشمس الجميل الذي كان يشعُّ على التلال القديمة خلفهما وكان حبهما القديم الذي لا يُنسى يشتعلُ في قلبيهما.

***

3



في اليوم التالي أنهت آن أسبوعًا، كان مليئًا بالأيّام السارّة، بأخذ الزهور إلى قبر ماثيو في الصباح، وفي فترة ما بعد الظهيرة استقلّت القطار من كارمودي. لفترةٍ من الوقت، فكرت في كل الأمور القديمة العزيزة التي تركتها ورائها، ثمّ سارت أفكارها نحو الأمور الجميلة التي تنتظرها، فرقص قلبها فرحًا طوال الطريق لأنّها كانت في طريقها إلى المنزل الذي تملؤه البهجة والذي يعرف فيه كل من تجاوز عتبته أنّه كان مليئًا طوال الوقت بالضحكات والأكواب الفضيّة واللحظات الحلوة والأطفال الصغار، والأبناء الغوالي ذوو الشعر المجعّد والرُّكبِ الممتلئة، والغرف التي سترحب بها. كانت في طريقها إلى منزلٍ حيث الكراسي تنتظرها بصبر، والفساتين في خزانة ملابسها تتوق شوقًا لها وحيث يُحتفَلُ دائمًا بالذكريات البسيطة وتُهمس الأسرار الصغيرة.

فكّرت آن أنه من الجميل أن يحبّ المرء العودة إلى المنزل وهي تسحب من حقيبتها رسالةً من ابنها الصغير كانت قد ضحكت عليها في الليلة السابقة وهي تقرأها بفخر لأهل المرتفعات الخضراء، وكانت أوّل رسالة تلقّتها من أيٍّ من أبنائها. لقد كانت رسالةً صغيرةً ولطيفةً

للغاية من طفلٍ يبلغ من العمر سبع سنوات، كان قد ذهب إلى المدرسة لمدّة عامٍ واحد فقط للكتابة، على الرغم من أنّ كتابة حرف الجيم كانت غير دقيقةً إلى حدٍّ ما، ولاحظت آن في إحدى الزوايا نقطةً كبيرةً من الحبر.

"بكت دي كثيرًا طوال الليل لأنّ تومي درو أخبرها أنّه سيحرق دميتها في شريحة اللحم. تقصّ سوزان علينا حكايا جميلةً في الليل لكنّها ليست مثلك يا أمي. لقد سمحت لي بمساعدتها في الزرع الليلة الماضية."

ثم فكّرت آن سيّدة قصرِ إنجلسايد وقالت موبّخةً نفسها: "كيف أمكنني الشعور بالسعادة لمدّة أسبوع كامل وأنا بعيدةٌ عنهم جميعًا؟"

وهي تنزل من القطار في جلين سانت ماري ليضمّها جيلبرت بذراعيه صاحت آن: "ما أجمل أن يقابلك أحدٌ في نهاية الرحلة!" لم تكن متأكّدةً من أن جيلبرت سيلاقيها. دائمًا ما كان يموت شخصٌ أو يولد آخر، ولكن لم تكن العودة إلى الديار بالنسبة لآن جميلةً إن لم يستقبلها جيلبرت الذي كان يرتدي بدلةً جديدةً رماديّة اللّون، ما جعل آن سعيدةً بارتداء البلوزة المزخرفة ذات اللون الأبيض الكريمي مع البدلة البنية، حتى لو اعتقدت السيدة ليند أنّها مجنونةٌ لارتدائها أثناء السفر. فرأت آن أنّها لم تكن لتبدو جميلةً جدًّا بنظر جيلبرت لو لم ترتديها.

كانت إنجلسايد مضيئة بالكامل بالفوانيس اليابانيّة المعلّقة على الشرفات. ركضت آن بمرحٍ على طول الممشى المليء بأزهار النرجس على جانبيه، وصاحت: "إنجلسايد، أنا هنا!"

كانوا جميعهم حولها يضحكون ويهتفون ويمرحون وسوزان بيكر تبتسم في الخلف.

كان كلّ واحدٍ من الأطفال يحمل باقةً مختارة خصيصًا لها، حتى شيرلي البالغ من العمر عامين.

"آه، يا له من ترحيبٍ لطيف بعودتي إلى الديار! يبدو كلّ شيءٍ في إنجلسايد سعيدًا للغاية. إنّه لأمرٌ رائع أن أجد عائلتي مسرورة جدًا برؤيتي."

قال جيم بجديّة: "سأصاب بالتهاب الزائدة الدوديّة إذا غبت عن المنزل مرّةً أخرى يا أمّي."

سأله والتر: "كيف ستفعل ذلك؟"

نكزَ جيم والتر سرًّا وهمسَ: "اصمت! أشعر بالألم في مكانٍ ما، لكنّني أريد فقط إخافة أمّي حتى لا تذهب بعيدًا."

أرادت آن أن تفعل الكثير، أولًا معانقة الجميع والركض وقت الشفق، وجمع بعضٍ أزهار الزنبق التي تنتشر في جميع أنحاء إنجلسايد والتقاط الدمية الصغيرة البالية الملقاة على البساط والاستماع إلى كلّ الحكايات المثيرة والقيل والقال والأخبار، راح كل واحد منهم يحكي لها شيئًا، فأخبروها كيف قامت نان بإزالة الجزء العلويّ من أنبوب الفازلين فوق أنفها عندما اضطر الطبيب للذهاب بسبب حالةٍ طارئة، وكانت سوزان حينها مشتّتة الذّهن، قالت:

"أؤكد لك أنه كان وقتًا عصيبًا أيتها الطّبيبة."

وكيف أكلت بقرة السيدة جود بالمر سبعةً وخمسين مسمارًا وكان عليها أن تستدعي طبيبًا بيطريًّا من شارلوت تاون، وكيف ذهبت السيدة فينير دوغلاس بلا وعيها إلى الكنيسة وهي عارية الرأس وكيف أخرج الوالد كل الهندباء من العشب، فقالت سوزان:

"عزيزتي زوجة الطبيب، لقد ساعد في إنجاب ثمانية أطفال"، وكيف صبغ السيد توم فلاج شاربه بعد وفاة زوجته بعامين فقط،

وكيف هجرت روز ماكسويل من "هاربور هيد" جيم هدسون من "جلين" الشماليّة وأرسل لها فاتورةً بكلّ ما أنفقه عليها، وكم كان الإقبال رائعًا في جنازة السيدة أماسا وارين، وكيف تعرّضت قطة كارتر فلاج للعض في ذيلها، وكيف عُثِر على شيرلي في إسطبلٍ يقف تحت أحد الخيول وقالت سوزان بندم:

"زوجة الطبيب العزيزة، أعدك أنّني سأتغيّر."

وكيف كان هناك للأسف، سببٌ كبير للخوف من أن تنمو عقدةٌ سوداء في أشجار البرقوق الأزرق، وكيف صارت دي تُغنّي طوال اليوم "أمي ستعود للمنزل اليوم، المنزل اليوم، المنزل اليوم،" على أنغام أغنية "نركض سويًا بمرح" وكيف كان جو ريزس يملك قطّةً حولاء لأنها ولدت وعيناها مفتوحتان، وكيف جلس جيم عن غير قصدٍ على ورقةٍ لاصقةٍ لاصطياد الذباب قبل أن يرتدي سرواله الصغير، وكيف سقط القطّ "شرمب" في برميل الماء العسر.

وأكملت سوزان: "كاد يغرق يا زوجة الطبيب العزيزة، لكن لحسن الحظ سمع الطبيب صيحاته في الوقت الحاسم وأخرجه من رجليه الخلفيتين."

سمعت آن أحد الأطفال يسأل: "ما معنى الوقت الحاسم يا أمي؟"

كانت آن تداعب المنحنيات اللامعة للقطّ الأبيض والأسود وهو يبتسم بخدّيه الممتلئين، ويخرخر على الكرسيّ في ضوء النار وقالت آن: "يبدو أنّه تعافى تمامًا."

لم يكن الجلوس على كرسيّ في إنجلسايد آمنًا أبدًا دون التأكّد أولًا من عدم وجود قطّةٍ عليه. تعهّدت سوزان التي لم تهتم كثيرًا بالقطط في البداية، أن تتعلّم كيف تحبّها لحماية نفسها. أما بالنسبة لشرمب، فقد أطلق عليه جيلبرت هذا الاسم قبل عامٍ عندما أحضرت نان القط البائس

الهزيل إلى المنزل من القرية حيث كان بعض الأولاد يعذّبونه ولم يغيّر الاسم رغم أنّه لا يناسبه كثيرًا الآن.

ثم سألت آن: "لكن ماذا حدث ليأجوج ومأجوج يا سوزان؟ هل تكسّرا؟"

احمرَّ وجه سوزان احمرارًا شديدًا من شدة العار الذي شعرت به وقالت بقلق: "لا، لا، يا زوجة الطبيب العزيزة." ثمّ خرجت من الغرفة. وعادت بعد فترةٍ وجيزةٍ مع الكلبين الصينيين اللذان كانا يترأسان دائمًا قلب إنجلسايد وقالت:

"لا أرى كيف أمكنني نسيان إعادتهما قبل مجيئك. كما ترين، جاءت السيدة تشارلز داي من شارلوت تاون إلى هنا في اليوم التالي لمغادرتك، وتعلمين أنّها سيّدةٌ محترمة. اعتقد والتر أنّ عليه أن يسلّيها وبدأ في الإشارة إلى الكلاب لها وصار يتكلّم بكلامٍ غير لائق وغير منطقيّ. أشفقت عليه. لقد كنت مذعورةً ممّا حصل، ورغم ذلك، كنت أتوق لرؤية تعابير وجه السيدة داي. شرحت ذلك بأفضل ما يمكنني، لأنّني لم أكن أريدها أن تعتقد أننا عائلة مدنّسة، لكنّني قرّرت وضع الكلاب في الخزانة الصينيّة بعيدًا عن الأنظار حتى عودتك."

قال جيم بشكلٍ مثير للشفقة: "ألا يمكننا تناول العشاء قريبًا يا أمّي؟ معدتي تؤلمني. آه، نسيت أن أخبرك أننا صنعنا الطّبق المفضّل للجميع!"

قالت سوزان بابتسامة: "نحن صنعنا ذاك الطّبق بالتّحديد. اعتقدنا أنّه ينبغي الاحتفال بعودتك بشكلٍ مناسب. والآن أين والتر؟ دَورُه هذا الأسبوع في قرع الجرس لتناول الوجبات، بارك الله فيه."

كان العشاء فخمًا وكأنّه عشاء احتفال وكان وضع جميع الأطفال في الفراش بعده متعةً رائعة. حتى أنّ سوزان سمحت لآن بوضع شيرلي

في الفراش، ورأت كم كانت مناسَبةً خاصّةً للغاية.

قالت بجديّة: "هذا ليس يومًا عاديًّا يا زوجة الطبيب العزيزة."

ردّت آن: "آه يا سوزان، ليس هناك يومٌ عاديّ. في كلّ يومٍ يحدث أمرٌ لم يحصل في اليوم الذي سبقه. ألم تلاحظي؟"

وافقتها سوزان قائلةً: "كلامك صحيحٌ بالفعل. حتى يوم الجمعة الماضي، عندما أمطرت السماء طوال اليوم وكانت باهتة جدًا، نبتت براعم إبرة الراعي الوردية أخيرًا بعد أن رفضت الإزهار لمدّة ثلاث سنوات. وهل لاحظت نباتات المرموزة يا زوجة الطبيب العزيزة؟"

"نعم لاحظتها! لم أر قط مثل هذه المرموزة في حياتي يا سوزان. كيف جعلتها هكذا؟" فكّرت آن عندها بأنّها جعلت سوزان سعيدةً دون أن تكذب، فهي حقًّا لم تر قطّ مثل هذه المرموزة، وحمدت الله على ذلك.

"إنّها نتيجة رعايةٍ واهتمامٍ مستمرّين. ولكن أعتقد أنّه من الضّروريّ أن أخبرك بما حدث، أظنّ أنّ والتر يشكّ في أمرٍ ما. لا شكّ أنّ بعض أطفال جلين أخبروه بعض الأمور. يعرف الأطفال في هذه الأيّام أكثر بكثير مما ينبغي لهم معرفته. قال لي والتر في ذلك اليوم وهو يفكّر: "هل الأطفال مكلّفون للغاية يا سوزان؟" لقد شعرت بالذهول قليلًا لكنني عدتُ لرشدي وقلت: "يعتقد بعض النّاس أنّهم من الكماليّات، ولكن في إنجلسايد نعتقد أنّهم أساسيّون." ولمتُ نفسي لأنني كنت أتذمّرُ بصوت عالٍ من أسعار البضاعة المخزي في جميع متاجر جلين. أخشى أنّ ذلك يقلق الطّفل. ولكن إذا قال لك أمرًا ما فستكونين مستعدّة."

قالت آن بجدية: "أنا متأكدّة من أنّك تعاملت مع الموقف بطريقةٍ جميلة يا سوزان، وأعتقد أنّ الوقت قد حان لأن يعرفوا جميعًا ما نأمله."

لكنّ أكثر ما أسعد آن كان عندما أتى جيلبرت إليها وهي واقفة عند نافذتها، تراقب الضّباب يتسلّل من البحر فوق الميناء والكثبان الرمليّة المضاءة بضوء القمر، مباشرة إلى الوادي الضيّق الطّويل أسفل إنجلسايد الذي تقع فيه قرية جلين سانت ماري.

قال لها جيلبرت: "أعود في نهاية يومٍ شاقٍّ وأجدك! هل أنت سعيدة، يا أغلى آن؟"

أجابت: "سعيدةٌ فقط!" انحنت آن لتشمّ رائحة أزهار التّفاح التي وضعها جيم على منضدة التزيين. شعرت بأنها محاطة ومحاصرة بالحب وقالت: "عزيزي جيلبرت، لقد كان من الرائع أن أعود إلى المرتفعات الخضراء مرّةً أخرى لمدّة أسبوع، ولكن أن أعود إلى إنجلسايد هو أجمل بمئة مرّة."

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

4



قال الطبيب بلايث بنبرة فهمها جيم: "بالتأكيد لا."

عرف جيم أنّه لا أمل في أن يغيّر أباهُ رأيه أو أنّ الأمّ ستحاول تغييره من أجله. كان من الواضح أنّ الأمّ والأب في هذه المرحلة كانا واحدًا. احمرّت عينا جيم العسليتين بعد شعوره بالغضب وخيبة الأمل حين نظر إلى والديه القاسيين وحدّق فيهما، وكان واضحًا أنهما كانا غير مباليين بنظراته أبدًا، واستمرّا في تناول عشائهما كما لو أنّ ما حدث أمرٌ عاديّ. بالطبع لاحظت العمّة ماري ماريا نظراته بعينيها الزرقاوتين الحزينتين اللتين لا يفوتهما حدث، لكنها بدت مستمتعة بتلك النّظرات.

كان بيرتي شيكسبير درو يلعب مع جيم طوال فترة ما بعد الظهر وانتقل والتر إلى "منزل الأحلام" القديم ليلعب مع كينيث وبيرسيس فورد، وكان بيرتي شكسبير قد أخبر جيم أن جميع الأولاد في جلين سيذهبون إلى هاربور ماوث في ذلك المساء لرؤية القبطان بيل تايلور يرسم وشم ثعبانٍ على ذراع ابن عمّه جو درو. اعتقد جيم بأنه إنّ كان بيرتي شيكسبير بنفسه سيذهب، فعليه أن يذهب هو أيضًا، سيكون الأمر ممتعًا للغاية. أراد جيم بشدّةٍ الذهاب معهم والآن قيل له أنّ الأمرَ غير

واردٍ على الإطلاق.

قال الوالد: "لا يمكنك الخروجُ إلى هاربور ماوث مع هؤلاء الأولاد لأسبابٍ كثيرة. لن يعودوا حتّى وقتٍ متأخر، ويُفترض أن موعد نومك في الثامنة يا بنيّ."

علّقت العمّة ماري ماريا: "عندما كنت طفلة، كنت أنام في السّاعة السابعة كلّ ليلة."

قالت الأمّ: "عليك أن تنتظر حتى تكبر يا جيم ليصبح بإمكانك الخروج في المساء."

صاح جيم ساخطًا: "لقد قلتِ ذلك الأسبوع الماضي، وأنا أكبر سنًّا الآن. كنتِ تعتقدين أنّني كنت طفلًا! بيرتي ذاهبٌ وأنا في مثل عمره."

قالت العمّة ماري ماريا: "الحصبة منتشرة في الجوار، قد تصاب بها يا جيمس."

يكره جيم أن يُدعى جيمس، وكانت دائمًا تناديه بهذا الاسم.

تمتم جيم: "أريد أن أصاب بالحصبة." ثمّ صمت بعد أن نظر لعينيّ والده. لم يسمح الأب أبدًا لأيّ شخصٍ بالتّحدث مع العمة ماري ماريا بهذه الطّريقة. كان جيم يكرهها مع أنّه كان يحبّ العمة ديانا والعمة ماريلا اللتين كانتا عمّتينِ رائعتين، لكنّ العمة ماري ماريا كانت شخصًا مختلفًا تمامًا، ولم يقابل جيم أحدًا مثلها في حياته.

كان ينظر إلى والدته حتى لا يظنّ أحدٌ أنّه يتحدّث إلى العمة ماري ماريا، وقال بتذمّر:

"حسنًا، إن كنت لا تريدين أن تحبينني، فلا داعي لذلك. ولكن هل ستحبين ذهابي بعيدًا لإطلاق النّار على النّمور في أفريقيا؟"

قالت الأمّ بلطف: "لا نمور في أفريقيا يا عزيزي."

اعتقد جيم أنهم كانوا مصممين على إظهار أنّه مخطئ، وأرادوا أن

يضحكوا عليه، فقرّر أن يردّ عليهم وصاح: "الأسود إذًا! لا يمكنك القول أنه لا أُسود في إفريقيا، فهناك ملايين الأُسود في إفريقيا، تملأ الأسودُ تلك القارّة!"

ابتسم الوالدان مرةً أخرى، ممّا أثار استهجان العمّة ماري ماريا التي اعتقدت أنّه لا ينبغي التّغاضي عن نفاد الصّبر عند الأطفال.

كانت سوزان محتارةً بين حبّها وتعاطفها مع جيم الصّغير وقناعتها بأن الطبيب وزوجته كانا محقَّينِ تمامًا في رفضهما السماح له بالذهاب إلى هاربور ماوث مع عصابة القرية تلك لزيارة القبطان بيل تايلور المخمور سيئ السمعة، وقالت: "ها هو خبز الزنجبيل والقشدة المخفوقة يا جيم العزيز."

كان خبز الزنجبيل والقشدة المخفوقة حلوى جيم المفضلة، لكن في تلك الليلة لم يكن مفعولها ساريًا، ولم تهدّئ من روع الفتى الغاضب.

قال عابسًا "لا أريدها!" ثمّ نهض وسار بعيدًا عن الطاولة واستدار عند الباب لتكون هذه آخر تمرّداته.

"بكلّ الأحوال، لن أنام حتى الساعة التاسعة. وعندما أكبر، لن أنام أبدًا. سأبقى مستيقظًا طوال اللّيل وفي كلّ ليلة، وأضع وشومًا على كلّ جسدي. سأكون سيئًا إلى أقصى حدّ."

ألا يمكنهم أن يشعروا به؟

قالت العمة ماري ماريا: "أعتقد أنّ لا أحد يريد رأيي يا آني، لكن لو تحدثت مع والديّ بهذه الطريقة عندما كنت طفلة، لكنتُ تعرّضت للجلد المبرح. أعتقد أنّه لأمرٌ مؤسف إهمال قضيب البتولا الآن في بعض المنازل وعدم استعماله في ضرب الأطفال."

قالت سوزان بغضب: "ليس جيمس هو المُلام."

فقد رأت أنّ الطبيب وزوجته لن يردّا على العمّة ماري ماريا، ولكن إذا كانت ستفلت بفعلتها، فستعرف سوزان سبب ذلك. وأكملت: "شجّعه بيرتي شكسبير درو على الذهاب عندما صار يحدّثه عن الوقت الممتع الذي سيحظون به عند رؤية القبطان بيل تايلور يرسم وشمًا على ذراع جو درو. لقد كان هنا طوال فترة بعد الظهر، وتسلّل إلى المطبخ وأخذ أفضل وعاء من الألمينيوم لاستخدامه كخوذة. قالا إنّهما يؤديّان دور الجنود، ثمّ صنعا قوارب من الألواح الخشبيّة التي تبلّلت كثيرًا وهما يستخدمانها كزوارق في جدول الجوف. وبعد ذلك، ذهبا يقفزان حول الفناء لساعةٍ كاملة، محدثين أغرب الأصوات، ويتظاهران بأنّهما ضفادع! لا عجب أنّ جيم الصّغير متعبٌ وليس على طبيعته. أنا أعتبره أكثر طفلٍ مهذّب على الإطلاق عندما لا يكون متعبًا، ويمكنكم الاعتماد على كلامي."

لم تعلّق العمة ماري ماريا على ما قالته سوزان. لم تكن تتحدث أبدًا إلى سوزان بيكر في أوقات الوجبات، وبالتالي أعربت عن رفضها السماح لسوزان بالجلوس مع العائلة.

كانت آن وسوزان قد ناقشتا ذلك قبل مجيء العمة ماري ماريا، فسوزان التي "عرفت مكانها"، لم تجلس أبدًا و لم تتوقّع أن تجلس مع العائلة عندما يأتي زوّارٌ إلى إنجلسايد.

قالت آن: "لكنّ العمّة ماري ماريا ليست زائرة، إنها فردٌ من العائلة وكذلك أنت يا سوزان."

في النهاية، استسلمت سوزان وكانت قلبيًّا سعيدةً جدًّا لأنّ ماري ماريا بلايث سترى أنّها ليست مجرّد فتاةٍ عاملة. لم تقابل سوزان العمّة ماري ماريا مطلقًا، لكنّ ابنة أخت سوزان التي تُدعى ماتيلدا، عملت معها في شارلوت تاون وأخبرت سوزان كل التّفاصيل عنها.

قالت آن بصدق: "لن أتظاهر أمامك يا سوزان بأنّني مسرورةٌ باحتمالية زيارة العمة ماري ماريا، خاصّةً الآن. لكنّها كتبت لجيلبرت تسأله عمّا إذا كان بإمكانها القدوم لبضعة أسابيع وأنت تعرفين كيف يتعامل الطّبيب مع مثل هذه الأمور."

قالت سوزان: "لديه الحقّ الكامل في أن يكون كذلك. من المهمّ أن يقفَ الرجل بجانب أقاربه من لحمه ودمه. لكن بالنّسبة لبضعة أسابيع يا زوجة الطبيب العزيزة، فلا أريد أن أنظر إلى الجانب المظلم للأمور، لكنّ شقيقة زوج ماتيلدا جاءت لزيارتها لبضعة أسابيع وبقيت لمدّة عشرين عامًا."

ابتسمت آن: "لا أعتقد أنّنا بحاجةٍ إلى الخوف من مثل هذه الأمور يا سوزان. تملك العمّة ماري ماريا منزلًا جميلًا جدًّا في شارلوت تاون، لكنّها تجده كبيرًا للغاية ويُشعرها بالوحدة. توفيت والدتها قبل عامين كما تعلمين، كانت في الخامسة والثمانين من عمرها، وكانت العمة ماري ماريّا تعاملها بطريقةٍ جيّدة، وهي تفتقدها الآن بشدّة. فلنجعل زيارتها ممتعةً قدر الإمكان يا سوزان."

أجابت سوزان: "سأفعل ما في وسعي يا زوجة الطبيب العزيزة. ينبغي أن نضع لوحًا آخر على الطّاولة، لكن بعد كلّ ما قيل وحدث، من الأفضل إطالة الطّاولة بدلًا من تقصيرها."

قالت سوزان: "لا ينبغي أن نضع أزهارًا على المائدة يا سوزان، لأنّها تسبّبُ لها الربو، والفلفل يجعلها تعطس، لذلك من الأفضل ألّا نضع الفلفل أيضًا. علينا أن نحاول ألّا نصدر ضجّة لأنّها عرضةٌ لصداعٍ شديدٍ متكرّرٍ أيضًا."

"يا إلهي! حسنًا، أنتِ والطبيب لا تصدران الكثير من الضوضاء، وإذا أردتُ الصّراخ يمكنني الذهاب إلى منتصف شجيرة القيقب،

ولكن إذا كان على الأطفال المساكين الصمت طوال الوقت بسبب الصداع الذي تعاني منه ماري ماريا بلايث سوف تعذرينني لقولي بأنّني أعتقد أنّ الأمر زاد عن حدّه قليلًا يا زوجة الطبيب العزيزة."

"ستبقى فقط لبضعة أسابيع يا سوزان."

قالت سوزان أخيرًا: "فلنأمل ذلك. حسنًا يا زوجة الطبيب العزيزة، علينا أحيانًا أن نخضع للأمر الواقع في هذا العالم."

جاءت العمّة ماري ماريا إذًا، وسألت فور وصولها ما إذا كان قد تم تنظيف المداخن مؤخّرًا. بدا أنّها كانت تعاني خوفًا شديدًا من النّار إذ قالت: "لطالما قلت إنّ مداخن هذا المنزل ليست طويلةً بما فيه الكفاية. أتمنّى أن يكون أحدهم قد قام بتهوئة سريري جيدًا يا آن، فأنا أكره أغطية السّرير الرّطبة."

استحوذت العمّة ماري ماريا على غرفة الضيوف في إنجلسايد وعلى جميع الغرف الأخرى في المنزل ما عدا غرفة سوزان، ولم يكن أحدٌ سعيدٌ بوصولها. بعد نظرةٍ واحدة إليها، تسلّل جيم إلى المطبخ وهمس لسوزان:

"هل يمكننا أن نضحك بينما هي هنا يا سوزان؟" امتلأت عينا والتر بالدّموع على مرأى منها واضطرّ إلى الخروج من الغرفة بشكلٍ مخز. لم ينتظر التوأمان أحدًا ليخرجهما بل ركضا من تلقاء نفسيهما. وحسبما أفادت سوزان، فحتى شرمب ذهب وأصابتهُ نوبةٌ في الفناء الخلفيّ. صمد شيرلي وحده في الملجأ الآمن في حضن سوزان وبين ذراعيها وهو يحدّق بالعمّة بعينيْهِ البنيّتينِ المستديرتين غير خائفٍ منها. اعتقدت العمّة ماري ماريا أن الأطفال الإنجليزيّين لديهم أخلاقٌ سيئة للغاية. لكنّها لم تتوقّع غير ذلك من أطفالٍ لديهم أمٌّ تكتب في الصحف وأبٌ يعتقد أنهم مثاليّون لمجرّد أنّهم أطفاله، وفتاةٌ عاملةٌ مثل سوزان بيكر لم

تعرف حجمها أبدًا، لكن بصفتها ماري ماريا بلايث، ستبذل قصارى جهدها من أجل أحفاد ابن عمّها جون المسكين طالما هي في إنجلسايد.

قالت خلال وجبتها الأولى مستنكرة: "دعائك قصيرٌ جدًّا يا جيلبرت. هل تريد منّي أن أتلو الدعاء عنك وأنا هنا؟ سيكون مثالًا أفضل لعائلتك."

قال جيلبرت إنّه سيقول مع العمة ماري ماريا دعاء العشاء ما أثار رعب سوزان التي قالت وهي تستنشق رائحة الأطباق: "يشبه الصلاة أكثر من كونه دعاء عشاء." رأت سوزان أنّ وصف ابنة أختها لماري ماريا بلايث كان صحيحًا. قالت غلاديس:

"يبدو أنّ العمّة سوزان تشمّ رائحةً بشعةً دائمًا، ليست رائحةً كريهة لكنّها بشعة."

فكّرت سوزان في أن غلاديس تملك طريقةً خاصّةً في استنتاج الأمور. ومع ذلك، فإنّ أيّ شخصٍ أقلّ تحيزًا من سوزان، سيرى أنّ الآنسة ماري ماريا بلايث لم تكن سيّئة المظهر بالنّسبة لسيّدةٍ في الخامسة والخمسين من عمرها. كان لديها ما اعتقدت أنّها "سماتٌ أرستقراطيّة" محاطةٌ بشعرٍ رماديٍّ مموّج وناعم يسيءُ لسوزان ذات الشعر الرّماديّ الشائك. كانت ترتدي ملابس أنيقةً للغاية، وأقراطًا طويلةً في أذنيها وياقاتٍ شبكيّة عالية على حلقها النّحيل.

قالت سوزان: "على الأقل لسنا بحاجةٍ إلى أن نخجل من مظهرها."

لكن من الصعب تخيّل ما كان من الممكن أن تفكّر فيه العمّة ماري ماريا لو عرفت أنّ سوزان كانت تواسي نفسها بمثل هذه الأفكار في إنجلسايد.

***

5



كانت آن في المكتبة تجهّز باقةً من زنابق حزيران لغرفتها، وأخرى من زهور الفاوانيا الخاصّة بسوزان لمكتب جيلبرت، كانت الفاوانيا البيضاء مع الرقط الحمراء في وسطها تبدو كقبلة جميلةٍ نادرة. وكان الهواء منعشًا بعد يومٍ حارٍّ بشكلٍ غير معتاد في شهر حزيران، وبالكاد يمكن للمرء أن يعرف ما إذا كان المرفأ غائمًا أم مشمسًا.

قالت آن ناظرةً إلى نافذة المطبخ وهي تمرّ منه: "سيكون الغروب رائعًا اللّيلة، يا سوزان."

احتجّت سوزان قائلةً: "لا أستطيع أن أتأمّل غروب الشّمس حتّى أغسل أطباقي يا عزيزتي زوجة الطبيب."

"سوف تنهين غسيلها بحلول ذلك الوقت يا سوزان. انظري إلى تلك السحابة البيضاء الضخمة الشاهقة فوق الجوف بقمّتها الورديّة. ألا ترغبين في التّحليق فوقها؟"

كانت سوزان وفي يدها قماشة لغسل الصحون، تتخيّل نفسها تطير فوق الوديان نحو تلك السحابة. لم يرق لها غسل الصّحون لكن عليها فعل ذلك لأجل زوجة الطبيب العزيزة.

قالت آن: "هناك نوعٌ جديدٌ ومتوحشٌ من الحشرات يلتهم شجيراتِ الورد، لذلك ينبغي أن أرشّها غدًا. أودُّ رشّها الليلة ففي مثل هذا المساء أحبّ أن أعملَ في الحديقة، لأنّ النباتات تنمو في اللّيل. أتمنّى أن تكون في الجنّة يا سوزان حدائقٌ يمكننا العمل فيها ومساعدةُ النباتات على النّمو."

احتجّت سوزان قائلة: "لكنني أتمنّى ألّا نجد فيها حشرات."

"لا، لا أعتقد ذلك. لكنّ الحديقة المكتملة لن تكون ممتعةً حقًا يا سوزان. عليكِ أن تعملي في الحديقة بنفسكِ أو ستفقدين المتعة. أريد إزالة الأعشاب الضّارة والحفر والزرع والتغيير والتخطيط و التقليم. وأريد الزّهور التي أحبها، أُفضّل أزهار الثالوث على الزنبق يا سوزان."

اعتقدت سوزان أنّ السيّدة العزيزة كانت تتمادى قليلًا وسألتها: "لماذا لا يمكنك أن ترشيها في المساء إن كنتِ تريدين ذلك؟"

"لأنّ الطبيب يريدني أن أذهب معه لرؤية السيّدة العجوز المسكينة جون باكستون. إنّها تحتضر ولا يستطيع أن يساعدها فلقد فعل كلّ ما في وسعه لكنّها تحبّ رؤيته."

"آه حسنًا يا عزيزتي زوجة الطبيب، نعلم جميعًا أن وجود الطبيب أساسيٌّ هنا عند ولادة أحدهم أو وفاته، وأظن أنّها أمسيةٌ جميلة للذهاب بالسّيارة. أعتقد أنّني سأذهب إلى القرية وأقوم بتجديد مخزوننا بعد أن أضع التوأمين وشيرلي في الفراش وأضع السماد لنبتة آرون وارد لأنّها لا تتفتّح كما ينبغي. لقد صعدت الآنسة بلايث للتوّ إلى الطابق العلويّ، وكانت تتنهّد في كلّ خطوةٍ قائلةً إنّها تعاني صداعًا، لذا كوني هادئةً قليلًا في المساء على الأقلّ."

قالت آن بينما كانت تغادر المنزل: "تأكّدي من أن يذهب جيم إلى الفراش في الوقت المناسب يا سوزان. إنه حقًا متعبٌ أكثر ممّا يعتقد،

ومع ذلك لا يريد الذهاب إلى الفراش أبدًا. لن يعود والتر إلى المنزل الليلة لأنّه سيبقى عند ليزلي."

كان جيم جالسًا على درجات الباب الجانبيّ واضعًا قدمه الحافية على ركبته، ينظر بعبوسٍ إلى الغرفة بشكلٍ عام، وإلى القمر الهائل خلف برج كنيسة جلين بشكلٍ خاصّ، ولم يعجبه حجم القمر.

قالت العمّة ماري ماريا أثناء مرورها قربه وهي في طريقها إلى المنزل: "احرص على ألّا يتجمّد وجهك بوقوفك هنا."

عبس جيم أكثر من أيّ وقتٍ مضى ولم يهتمّ إذا كان وجهه قد تجمّد هكذا بل كان يأمل حدوث ذلك. قال لأخته نان: "اذهبي بعيدًا وتوقّفي عن اللّحاق بي طوال الوقت." كانت نان قد تسلّلت إليه بعد ذهابِ والديها.

صاحت نان: "أيّها العصبيّ!" ولكن قبل أن تركض، وضعت على الدرج بجانبه حلوى حمراء كانت قد أحضرتها له.

تجاهلها جيم، وكان يشعر بالإساءة أكثر من أيّ وقتٍ مضى. لم يتعامل معه أحدٌ بطريقةٍ حسنة واستفردوا به. فقد قالت له نان ذلك الصباح:

"أنت لم تولد في إنجلسايد مثل بقيتنا."

وفي المرّة الماضية أكلت دي الشوكولاتة خاصته التي كانت على شكل أرنب، رغم أنّها كانت تعلم أنها له. حتى والتر كان قد هجره وذهب لحفر الآبار في الرّمال مع كين وبيرسيس فورد. يا لها من متعة! أراد كثيرًا أن يذهب مع بيرتي لرؤية الوشم. لقد أراد أن يرى السفينة الرائعة المجهّزة بالكامل التي قال بيرتي إنّها موضوعة على رفّ القبطان بيل. كان متأكّدًا من أنّه لم يرغب أبدًا في أيّ أمرٍ أكثر من هذا في حياته كلها. وشعر أنّ عدم السّماح له بالذهاب عارٌ شديدٌ.

أحضرت له سوزان قطعةً كبيرةً من الكعكة المغطاة بكريمة القيقب والمكسّرات، لكنّه رفضها بقلبٍ بارد. لماذا لم تحتفظ له ببعضٍ من خبز الزنجبيل والقشدة؟ يبدو أنّ البقيّة أكلوها كلّها. يا لهم من خنازير! أحسّ أنّه يغرق في هوّةٍ عميقةٍ من الكآبة. لم يستطع تحمّل فكرة أن تكون العصابة في طريقها إلى هاربور ماوث الآن. كان عليه أن يفعل أمرًا يجعل أحدهم يوافق على الذهاب مع أصحابه. ماذا لو قطع زرافة دي الخشبيّة على بساط غرفة المعيشة؟ هذا من شأنه أن يجعل العجوز سوزان مجنونة. سوزان التي جلبت له كعكةً مغطّاةً بالمكسّرات مع أنّها تعلم أنّه يكره المكسرات مع الكريمة. ماذا لو ذهب ورسم شاربًا على صورة الطفل الظريف المطبوعة على التقويم في غرفتها؟ كان دائمًا يكره ذلك الطفل السمين الظريف المبتسم لأنّه بدا تمامًا مثل سيسي فلاج التي أخبرت المدرسة أنّ جيم بلايث كان حبيبها. حبيب سيسي فلاج! لكنّ سوزان اعتقدت أنّ صورة الطفل جميلة.

ماذا لو خلع رأس دمية نان؟ أو ضرب أنف يأجوج أو مأجوج أو كليهما؟ ربّما سيجعل ذلك أمّه ترى أنّه لم يعد طفلًا. فلتنتظر الربيع القادم، فقد أحضر لها أزهار نيسان لسنواتٍ وسنواتٍ وسنوات منذ أن كان في الرابعة من عمره، لكنّه عزم ألّا يفعل ذلك في الربيع المقبل.

ماذا لو أكل الكثير من التفاح الأخضر الصغير الذي لم ينضج بعد ومرض بعدها؟ ربما هذا من شأنه أن يخيفهم. ماذا لو لم يغسل خلف أذنيه مرّة أخرى أو قام بفعل تعابير مثيرة للسّخرية بوجهه أمام الجميع في الكنيسة الأحد القادم؟ ماذا لو وضع يرقةً كبيرة ومخطّطة على العمة ماري ماريا ؟ ماذا لو هرب إلى الميناء واختبأ في سفينة القبطان ديفيد ريس وأبحر من الميناء في الصباح في طريقه إلى أمريكا الجنوبيّة؟ هل سيأسفون بعد ذلك؟ ماذا لو لم يعد؟ ماذا لو ذهب لصيد الفهود في

البرازيل؟ هل سيأسفون عندئذٍ؟ لا، متأكدٌ أنهم لن يأسفوا، فلا أحد يحبه. كان هناك ثقبٌ في جيب بنطاله ولم يصلحه أحد. حسنًا، لم يهتمّ، بل كان سيُظهر هذا الثّقب للجميع في جلين ويجعل النّاس يرون مدى إهماله. كثرت أخطائه وأغرقته.

صارت ساعة الجدّ العجوز التي تم إحضارها إلى إنجلسايد بعد وفاة الجد بلايث تدق. إنّها ساعةٌ قديمةٌ متقنة تعودُ إلى الأيّام التي كان يُعدُّ فيها الوقت مهمًّا. عمومًا أَحبّها جيم، لكنّهُ الآن يكرهها. بدت وكأنّها تضحك عليه وتقول: "ها ها صار وقت النوم. يمكن لزملائك الآخرين الذهاب إلى هاربور ماوث لكنّك ستذهب إلى الفراش!"

لماذا عليه أن ينام كلّ ليلة؟ لماذا؟

خرجت سوزان في طريقها إلى جلين ونظرت بحنانٍ إلى جيم المتمرّد الصغير.

قالت بلطف: "لا داعي للذهاب إلى الفراش الآن يا جيم. يمكنك النّوم حين أعود يا صغيري."

قال جيم بشراسة: "أنا لن أنام اللّيلة! سأهرب، هذا ما سأفعله يا سوزان بيكر العجوز. سأذهب وأقفز في البركة."

لم تحبّ سوزان أن يناديها أحدٌ بالعجوز حتى جيم الصغير. ذهبت بصمتٍ وهي محبطة، وشعرت أنّه احتاج إلى القليل من التأديب. تبعها شرمب الذي كان بحاجةٍ شديدة إلى الرفقة، وجلس على أطرافه السوداء أمام جيم الذي كان ينظر إليه بغضب. "انصرف! تجلس هناك على مؤخرتك، وتحدّق مثل العمّة ماري ماريا! اذهب! آه، أنت لا تريد الذهاب أليس كذلك؟!"

ألقى جيم على شرمب عربةً صغيرة من الصفيح كانت بالقرب من شيرلي، فهرب القطّ بصريرٍ حزينٍ إلى سياج الورد البرّي الذي يعتبره

مأوى له. اعتقد جيم أنّ حتى قط العائلة كان يكرهه! ما الفائدة من عيش حياةٍ كهذه؟

التقط الحلوى التي وضعتها له نان والتي كانت على شكل أسد. أكلت نان الذيل والأطراف الخلفيّة لكنّه كان لا يزال أسدًا يؤكل، وقد يكون آخر أسدٍ يأكله على الإطلاق. بحلول الوقت الذي قضى فيه جيم على الأسد ولعق أصابعه، كان قد اتّخذ قرارًا بشأن ما كان سيفعله. كان هذا هو الأمر الوحيد الذي يمكن أن يفعله المرء عندما لا يُسمح له بفعل أي أمرٍ آخر.

***



كانت آن قد وصلت مع جيلبرت إلى بوّابة المنزل في الساعة الحادية عشرة وصاحت: "لماذا المنزل مضيءٌ هكذا؟ يبدو أن لدينا زوّارًا."

لكن لم تر آن أي زوّارٍ عندما دخلت بسرعةٍ إلى المنزل، ولم ترَ أيّ شخصٍ آخر. رأت ضوءًا في المطبخ وفي غرفة المعيشة وفي المكتبة وفي غرفة الطعام وفي غرفة سوزان وفي ممرّ الطّابق العلويّ ولكن لم يكن هناك أثرٌ لأيّ مخلوق.

سبقت آن جيلبرت بسؤاله: "ماذا تظن أنّه قد حدث؟" لكنّ رنين الهاتف قطع حديثها. أجاب جيلبرت، واستمع للحظةٍ ثمّ صاح مرعوبًا، وخرج دون أن ينظر إلى آن. من الواضح أنّ أمرًا مروّعًا قد حدث ولم يكن هناك وقت يضيّعه في التفسيرات.

اعتادت آن على هذا كما هو مطلوبٌ من زوجة رجلٍ طبيبٍ يتوقع الحياة والموت. خلعت قبّعتها ومعطفها متجاهلةً ما حدث. تضايقت من سوزان، التي لم يكن عليها حقًّا أن تخرج وتترك كلّ الأضواء مشتعلةً وكلّ الأبواب مفتوحة.

ثمّ سمعت صوتًا لا يمكن أن يكون صوت سوزان تقول: "عزيزتي

زوجة الطبيب..." لكنّه كان صوتها.

حدّقت آن في سوزان التي كانت عارية الرّأس وكان شعرها الرماديّ مليئًا بقطعٍ من القشّ، وكان فستانها ملطّخًا كثيرًا، أمّا وجهها فكان لا يوصف.

سألتها آن بتعجّب: "سوزان! ماذا حدث يا سوزان؟"

"اختفى جيم الصغير."

"اختفى!" حدقت آن بغباء وقالت: "ماذا تقصدين؟ لا يمكن أن يختفي!"

كانت سوزان تلهث وتفرك يديها عندما قالت: "لقد كان على الدرج الجانبيّ عندما ذهبت إلى جلين. وحين عدت قبل حلول الظلام لم يكن هناك. في البداية لم أكن خائفةً، لكنّني لم أجده في أيّ مكان. لقد فتّشت كلّ غرفةٍ في المنزل، قال إنه سوف يهرب."

"هذا هراء! لن يفعل ذلك يا سوزان، لقد أتعبتِ نفسك بلا سبب. لا بدّ أنه في مكانٍ ما، ربّما نام، لا بدّ أنه في مكان ما."

"لقد بحثت حرفيًّا في كلّ مكان، فتّشتُ الأرضيّات والمباني الخارجيّة. انظري إلى ثوبي! تذكّرت أنه كان يقول دائمًا إنّه سيكون من الممتع أن ينام في غرفة القش، لذلك ذهبت إلى هناك وسقطت في تلك الفتحة في الزاوية في أحد المعلفَين في الإسطبل ووقعت على عشّ البيض. إنّها نعمة أنّني لم أكسر ساقي، لكنني مستعّدةٌ لفعل المستحيل عندما يكون جيم الصّغير ضائعًا."

ما زالت آن ترفض فكرة أن يكون جيم ضائعًا أو أنّ مكروهًا قد أصابه.

"هل تعتقدين أنّه قد ذهب إلى هاربور ماوث مع الأولاد بعد كلّ ما حصل يا سوزان؟ لم يخالف أمرًا من قبل ولكن..."

"لا ، لم يذهب يا زوجة الطبيب العزيزة إنّه لم يعصِ أوامرك قبل. هرعتُ إلى آل درو بعد أن بحثت في كلّ مكان وكان بيرتي شكسبير قد عاد لتوّه إلى المنزل وقال إنّ جيم لم يذهب معهم! ما أثار خوفي وقلقي وصارت معدتي تؤلمني فلقد أمّنتني به. اتّصلتُ بآل باكستون وقالوا إنّك كنتِ عندهم وذهبتِ ولم يعرفوا إلى أين."

"ذهبنا إلى لوبريدج لزيارة آل باركر."

"اتّصلت في كل مكان اعتقدت أنك قد تذهبين إليه، ثمّ عدتُ إلى القرية. بدأ الرجال في البحث هناك."

"آه يا سوزان، هل كان ذلك ضروريًّا؟"

"زوجة الطبيب العزيزة، لقد بحثت في كلّ مكانٍ يمكن أن يذهب إليه هذا الطفل. آه، ما مررت به هذه الليلة كان فظيعًا! قال إنّه سيقفز في المستنقع!"

أحسّت آن بقشعريرةٍ غريبة. بالطبع لن يقفز جيم في المستنقع، هذا هراء. ولكن كان هناك قاربٌ صغيرٌ قديمٌ يستخدمه كارتر فلاج لصيد الأسماك، وربّما حاول جيم بعد أن كان غاضبًا في الليلة السّابقة، أن يجدف به في المستنقع لأنّه كان يرغب في ذلك كثيرًا. رّبما يكون قد سقط في المستنقع محاولًا فكّ قيد القارب. وعندها، بدأت ملامح الخوف والقلق تظهر على وجه آن.

قالت آن لنفسها: "وليس لديّ أدنى فكرة عن مكان جيلبرت."

ظهرت العمّة ماري ماريا فجأةً على الدّرج ورأسها محاطٌ بهالةٍ من الشّعر المجعّد وجسدها مغطّى برداءٍ مطرّزٍ على شكل تنّين وسألت: "ما سبب كلّ هذه الجلبة؟ ألا يستطيع المرءُ أن يقضي ليلةً هادئةً في هذا المنزل؟"

قالت سوزان مرّةً أخرى مستاءةً من نبرة الآنسة بلايث: "لقد اختفى

جيم الصّغير، والدته وثقت بي."

ذهبت آن للبحث في المنزل بنفسها. لا بدّ أن يكون جيم في مكانٍ ما! لم يكن في غرفته، كان السّرير مرتّبًا ولم يكن في غرفة التوأمين ولا في غرفتها، لم يكن في أيّ غرفةٍ في المنزل. عادت آن بعد رحلةٍ طويلةٍ من الحجرة إلى القبو، إلى غرفة المعيشة في حالةٍ كانت تبدو فيها مذعورة.

قالت العمّة ماري ماريا، وهي تخفض صوتها بطريقةٍ مخيفة: "لا أريد أن أجعلك متوتّرة يا آن، لكن هل نظرت في برميل مياه الأمطار؟ لقد غرق جاك ماكجريجور الصغير في برميل مياه الأمطار في المدينة العام الماضي."

قالت سوزان وهي تفرك يديها مرّةً أخرى: "نظرتُ في البرميل، أخذتُ عصا ونخزت بها."

عاد قلب آن ينبض بشكلٍ طبيعيّ بعد أن كاد يتوقف بسبب سؤال العمّة ماري ماريا. هدأت سوزان قليلًا وتوقّفت عن فركِ يديها، لأنّها تذكّرت بعد فوات الأوان أنّ التّوتر يؤذي السيدة العزيزة.

قالت بصوتٍ مرتجف: "دعونا نهدأ ونتكاتف، كما قلتِ يا زوجة الطبيب العزيزة، يجب أن يكون في مكانٍ ما. لا يمكن أن يختفي فجأةً بهذه الطّريقة."

سألت العمة ماري ماريا: "هل بحثتِ في صندوق الفحم والسّاعة؟"

نظرت سوزان في صندوق الفحم ولكن لم يفكّر أحدٌ في السّاعة. كانت كبيرةً بما يكفي ليختبئ فيها صبيٌّ صغير. لم تستطع آن أن تتحمّل فكرة افتراض أنّ جيم سيجلس هناك لمدّة أربع ساعات، فهرعت نحو السّاعة لكنّها لم تجده.

قالت العمة ماري ماريا وهي تضغط بيديها على جانبَيّ رأسها:

"شعرت أنّ أمرًا ما سيحدث عندما ذهبت إلى الفراش الليلة. كنت أقرأ كتابًا ووصلت إلى عبارة "أنتم لا تعرفون ما قد يحدث بيوم واحد." لقد كانت إشارة. من الأفضل أن تتوتري يا آن لتتحمّلي الأسوأ. ربّما تجوّل بجانب المستنقع، إنّه لأمرٌ مؤسفٌ أنّنا لا نملك كلاب صيد."

ضحكت آن رغمًا عنها وقالت: "أخشى أنّه ليس على اليابسة يا عمّتي. لو كنا ما زلنا نملك كلب جيلبرت القديم ريكس الذي تعرّض للتّسمم فكنّا سنجد جيم قريبًا. أنا متأكّدة من أنّنا جميعًا نقلق أنفسنا بلا سبب."

"اختفى تومي سبنسر في كارمودي في ظروفٍ غامضة منذ أربعين عامًا ولست متأكّدة ما إذا كانوا قد عثروا عليه، لكنّهم إن فعلوا فإنّهم لم يجدوا سوى هيكله العظميّ. هذه ليست مسألةً مضحكةً يا آن. لا أعرف كيف يمكنك أن تتعاملي مع هذا الموقف بهدوء."

رنّ الهاتف فنظرت آن وسوزان إلى بعضهما البعض. قالت آن بصوتٍ هامس: "لا أستطيع، لا أستطيع أن أردّ على الهاتف يا سوزان."

قالت سوزان بشكلٍ قاطع: "لا يمكنني الردّ أيضًا."

كانت ستكره نفسها لبقيّة حياتها لإظهار هذا الضّعف أمام ماري ماريا بلايث، لكنّها لم تستطع السّيطرة على نفسها. أصبحت سوزان محطّمة بعد ساعتين من البحث المرعب والتخيّلات الرّهيبة.

توجّهت العمّة ماري ماريا إلى الهاتف ورفعت السّماعة، لاحظت سوزان على الرّغم من بؤسها أن العمّة تشبه نيك العجوز بسبب ظلّ شعرها المجعّد الذي يظهر على الحائط.

قالت العمّة ماري ماريا ببرود: "يقول كارتر فلاج إنّهم بحثوا في كل مكان لكن لم يعثروا على أي أثر له بعد. لكنّه يقول إن القارب في وسط البحيرة ولم يجدوا أحدًا بداخله. سوف يبحثون في المياه."

أمسكت سوزان بآن في الوقت المناسب عندما أحسّت أنّها ستفقد وعيها.

قالت آن: "لا لن أفقد الوعي يا سوزان، ساعديني في الجلوس على كرسي."

ساعدتها سوزان وأجلستها على الكرسيّ فقالت آن: "علينا أن نجد جيم بأسرع وقت."

قالت العمة ماري ماريا لتقديم مزيدٍ من المواساة: "إذا غرق جيمس يا آني، يجب أن تذكّري نفسك أنّه قد نجا وارتاح من الكثير من المتاعب في هذا العالم البائس."

قالت آن بمجرّد أن تمكّنت من الوقوف: "سأحضر الفانوس وأبحث في الأرض مرّةً أخرى، أعلم أنّك فعلتِ ذلك يا سوزان، لكن دعيني أذهب، لا أستطيع أن أجلس بلا حراكٍ وأنتظر."

"يجب أن ترتدي سترةً إذن يا زوجة الطبيب العزيزة. هناك ندى كثيف والهواء رطب. سأحضر سترتك الحمراء، إنّها معلّقةٌ على كرسيٍّ في غرفة الأولاد. انتظري هنا حتى أحضرها."

أسرعت سوزان إلى الطّابق العلويّ. وبعد لحظاتٍ قليلة سُمع صوتٌ لا يمكن وصفه إلّا بأنّه صرخةٌ يتردّد صداها في إنجلسايد. هرعت آن والعمّة ماري ماريا إلى الطّابق العلويّ حيث وجدا سوزان تضحك وتبكي في الممرّ. كانت في وضعٍ أقرب إلى الهستيريا أكثر ممّا كانت أو ستكون عليه سوزان بيكر في حياتها مرّةً أخرى.

"عزيزتي زوجة الطبيب، انظري هناك! جيم الصغير هناك، إنّه نائمٌ على مقعدِ النّافذة خلف الباب. لم أنظر هناك أبدًا فالباب أخفاه، وعندما لم يكن في سريره..."

دخلت آن إلى الغرفة وكانت منهكة من الارتياح والفرح، ركعت

على ركبتيها بجوار مقعد النّافذة. بعد قليل، ستكون هي وسوزان تضحكان على حماقتهما، لكن الآن لم يكن هناك سوى دموع الشّكر. كان جيم الصغير نائمًا على مقعد النّافذة، وفوقه بطّانية ملوّنة، ودمية الدبّ بين يديه الصغيرتين اللّتين أحرقتهما الشمس، وتمدّد شرمب المتسامح على ساقيه. كان شعره الأحمر المجعّد ممددًا على الوسادة. بدا أنّه يحلم حلمًا سعيدًا ولم تقصد آن إيقاظه. لكنّه فجأةً فتح عينيه اللّتين كانتا مثل نجمَتَين عسليّتين ونظر إليها.

"عزيزي جيم، لماذا لست في سريرك؟ لقد شعرنا بالقلق قليلًا، لم نتمكّن من العثور عليك ولم نفكّر أبدًا في البحث هنا."

"أردت أن أستلقي هنا كي أستطيع رؤيتك أنت وأبي عند البوّابة عندما تصلان إلى المنزل. لقد شعرت بالوحدة لدرجة أنني اضطررت إلى النوم."

رفعته والدته بين ذراعيها وحملته إلى سريره. كان من اللطيف أن تقبّله ليشعر بها وهي تضع الملاءات حوله مع القليل من التربيتات التي أعطته إحساسًا بأنّه محبوب. من يهتم برؤية وشم ثعبانٍ على أيّ حال؟ كانت الأمّ لطيفةً جدًّا، ألطف أمٍّ على الإطلاق. دعا الجميع في جلين والدة بيرتي شكسبير بالسيّدة "القاسية" لأنّها كانت لئيمةً للغاية وكان يعرف ذلك لأنه رآها وهي تصفع وجه بيرتي لأتفه الأسباب.

قال بنعاس: "بالطبع سأحضر لك أزهار نيسان في الرّبيع المقبل يا أمّي، سأحضرها في كلّ ربيع. يمكنك الاعتماد عليّ."

قالت الأم: "بالطبع أعتمد عليك يا حبيبي."

قالت العمّة ماري ماريا بنبرةٍ مريحة في صوتها: "حسنًا، بما أنّنا جميعنا تجاوزنا نوبات الهلع، أفترض أنّه يمكننا أن نتنفّس بهدوء ونعود إلى أسرّتنا."

قالت آن: "كنت غبيّةً لعدم تذكّر مقعد النّافذة. يا للسخرية! لن يسمح الطّبيب لنا بنسيان ما حدث، أنا متأكّدة من ذلك. سوزان من فضلك اتّصلي بالسيّد فلاج وأخبريه أنّنا وجدنا جيم."

قالت سوزان بسعادة: "وسيضحك عليّ أيضًا، لكنني لن أكترث، يمكنه أن يضحك عليّ بقدر ما يريد بما أنّ جيم آمن الآن."

تنهّدت العمّة ماري ماريا بحزن وقالت: "أريد أن أشرب فنجان شاي."

قالت سوزان بخفّة: "سأحضره لك في لمح البصر، سنستعيد نشاطنا بعد أن عثرنا على جيم. عزيزتي زوجة الطبيب، عندما سمع كارتر فلاج أنّ جيم الصّغير بخير حمد الله كثيرًا. لن أقول كلمة واحدة ضدّ هذا الرّجل مرّةً أخرى، بغضّ النّظر عن أسعاره. ما رأيك بأن نتناول دجاجٍ على العشاء غدًا؟ سيكون احتفالًا صغيرًا إذا جاز التّعبير، وسيتناول جيم الصغير فطائره المفضّلة على الإفطار."

رنّ الهاتف مرّة أخرى، وهذه المرة كان المتّصل جيلبرت قال إنّه سيأخذ طفلًا مصابًا بحروقٍ شديدةٍ من هاربور هيد إلى المستشفى في المدينة وأنّه لن يعود حتّى الصّباح.

انحنت آن من نافذتها لإلقاء نظرةٍ على العالم قبل النّوم. كانت رياحٌ باردةٌ تهبّ من البحر، وكان ضوء القمر يجري عبر الأشجار في الجوف. استطاعت آن أن تبتسم مع غصّةٍ في قلبها بسبب ذعرها منذ ساعة وفرضيّات العمّة ماري ماريا السّخيفة وذكرياتها المروّعة. كان طفلها بأمان وكان جيلبرت يكافح في مكانٍ ما لإنقاذ حياة طفلٍ آخر. يا ربّ أعِنه وساعد والدته، أعِن كلّ الأمّهات في كلّ مكان. نحن بحاجةٍ إلى الكثير من المساعدة، نحتاج القلوب والعقول الحساسة والمحبّة التي تنتظر منّا الإرشاد والحبّ والتّفاهم.

كانت ليلةً هادئةً ولطيفةً على إنجلسايد وعلى الجميع، حتّى سوزان التي شعرت أنّها ترغب في الزحف إلى حفرةٍ هادئةٍ والنّوم فيها بأمان.

***

7



"سيكون لديه الكثير من الصحبة، لن يكون وحيدًا فنحن أربعة وسيزورنا ابن أخي وابنة أخي من مونتريال. ما لا يفكّر فيه المرء يفعله الآخرون."

ابتسمت السيّدة باركر لوالتر وكانت بشوشة ويافعة المظهر، فابتسم لها. لم يكن متأكّدًا تمامًا من أنّه يحبّ السيدة باركر على الرغم من ابتساماتها ومرحها، لكنّه أحبَّ الطبيب باركر. أما بالنّسبة للأربعة وابن الأخ وابنة الأخ من مونتريال، فلم يرَ والتر أيًا منهم. كانت لوبريدج حيث عاش آل باركر على بعد ستّة أميالٍ من جلين، ولم يزرها والتر من قبل، على الرّغم من زيارة الطبيب والسيدة باركر وجيلبرت والسيّدة بلايث المتكررة لبعضهم البعض. كان الطّبيب باركر وجيلبرت صديقين حميمين، على الرّغم من أنّ والتر كان يشعر بين الحين والآخر بأنّ من الممكن أن تتأقلم أمّه بشكلٍ جيّدٍ للغاية من دون السيّدة باركر. حتى في السادسة من عمره، كان والتر كما أدركت آن، يستطيع إدراك بعض الأمور التي لا يستطيع أطفالٌ آخرون رؤيتها.

لم يكن والتر متأكدًا أيضًا من أنّه يريد حقًّا الذهاب إلى لوبريدج.

كانت بعض الزيارات رائعة، كالرحلة إلى آفونلي. آه، كان الوقت ممتعًا هناك! وكانت الليلة التي أمضاها مع كينيث فورد في منزل الأحلام القديم أكثر متعة، على الرّغم من أنّ هذه لا يمكن تسميتها حقًا بالزّيارة، لأنّ منزل الأحلام لطالما كان بيتًا ثانيًا لأبناء إنجلسايد. لكنّ الذّهاب إلى لوبريدج لمدّة أسبوعين كاملَين وقضاء الوقت مع الغرباء كان أمرًا مختلفًا تمامًا. ومع ذلك، يبدو أنّه أمرٌ متّفقٌ عليه. فقد شعر والتر بأنّ هناك سببًا لم يستطع فهمه يجعل والديه سعيدين بهذه الزيارة. تساءل والتر بحزنٍ شديدٍ وقلق، هل كانا يريدان التخلّص من جميع أطفالهم؟ كان جيم بعيدًا بعد أن نقلوه إلى آفونلي منذ يومين، وقد سمع سوزان تدلي بملاحظاتٍ غامضةٍ حول إرسال التّوأمين إلى السيّدة مارشال إليوت عندما يحين الوقت. متى يحين الوقت؟ بدت العمّة ماري ماريا قاتمةً للغاية بشأن أمرٍ ما وكانت طوال الوقتِ تقول إنّها تتمنى أن يتمّ الأمر بخير. ما الذي كانت تتمنّاه أن يتمّ بخير؟ لم يكن لدى والتر أدنى فكرة. ولكن كان هناك أمرٌ غريب يحصل في إنجلسايد.

قال جيلبرت: "سآخذه غدًا."

أجابت السيّدة باركر: "سيتطلّع الصغار إلى ذلك."

شكرتها آن قائلةً: " أنا متأكّدة، ذلك لطفٌ كبيرٌ منكِ."

قالت سوزان لشرمب في المطبخ: "هذا أفضل للجميع."

علّقت العمّة ماري ماريا عندما غادرت عائلة باركر: "إنّه لمن دواعي سرور السّيدة باركر أن تأخذ والتر يا آني، لقد أخبرتني أنّها أحبّته، أتعجّب من حبّها لطفلٍ مثل والتر. حسنًا ربّما الآن لمدّة أسبوعين على الأقلّ، سأتمكّن من الذهاب إلى الحمّام دون الدّوس على سمكةٍ ميّتة."

"سمكةٍ ميّتة يا عمّتي! ماذا تقصدين؟"

"أعني بالضبط ما أقوله يا آني. دستُ على سمكةٍ ميّتة! هل دستِ يومًا على سمكةٍ ميّتةٍ بقدميك العاريتين؟"

"كلّا ولكن كيف حدث هذا؟"

أجابتها سوزان: "اصطاد والتر سمكة سلمون مرقّطة الليلة الماضية، ووضعها في حوض الاستحمام لإبقائها على قيد الحياة يا زوجة الطبيب العزيزة. لو بقيت في الحوض لكانت على ما يرام، لكنّها خرجت بطريقةٍ ما وماتت في الليل. بالطّبع إذا استمرّ المرء بالمشي حافي القدمين..."

قاطعتها العمّة ماري ماريا وهي تنهض وتغادر الغرفة: "لديّ قاعدة، ألا وهي عدم التّشاجر مع أيّ شخص."

قالت سوزان بعد ذهابها: "أنا مصمّمةٌ على عدم السّماح لها بإزعاجي يا زوجة الطبيب العزيزة."

"آه إنّها تثير غضبي قليلًا، لكن بالطّبع لن أمانع كثيرًا عندما ينتهي كلّ هذا، ولا بدّ أنّ الدَّوس على سمكةٍ ميّتة يخلّف شعورًا سيّئًا."

قالت دي بدهاء: "أليست السمكة الميّتة أفضل من الحيّة يا أمّي؟ السّمكةُ الميّتة لن تتحرّك."

نظرًا لأنه ينبغي قول الحقيقة مهما كلّف الأمر، ينبغي الاعتراف بأنّ سيّدة إنجلسايد وخادمتها ضحكتا لحديث دي.

سألت آن جيلبرت في تلك الليلة عمّا إذا سيكون والتر سعيدًا في لوبريدج.

قالت بحزن: "إنّه حسّاسٌ وخياليٌّ للغاية."

قال جيلبرت الذي كان متعبًا بعد أن ساعد في إنجاب ثلاثة أطفالٍ في ذلك اليوم على حدّ تعبير سوزان: "سيكون في غاية الفرح. لماذا أعتقد يا آن أنّ الطّفل يخاف الصّعود إلى الطّابق العلويّ في الظلام؟

سيفيده كثيرًا العيش مع عائلة باركر لبضعة أيّام. سيكون طفلًا مختلفًا لدى عودته إلى المنزل."

لم تقل آن شيئًا بعد ذلك، فلا شكّ أنّ جيلبرت كان محقًّا تمامًا. كان والتر وحيدًا بدون جيم، وبالنظر إلى ما حدث عندما ولدت شيرلي، سيكون من الجيّد أيضًا أن تتحمّل سوزان أقلّ قدرٍ ممكنٍ من المسؤوليّة بخلاف إدارة المنزل وتحمّل العمّة ماري ماريا التي امتدّت من أسبوعين إلى أربعة بالفعل.

كان والتر مستلقيًا مستيقظًا في سريره محاولًا الهروب من الفكرة المؤلمة بأنّه سيذهب بعيدًا في اليوم التّالي، وكان يفعل ذلك عبر إطلاق العنان لخياله. كان لدى والتر خيالٌ واسع. فيتخيّل حصانًا أبيضًا رائعًا، مثل المرسوم في الصّورة على الحائط، يمكّنُه من السّفر عبر الزمان والمكان.

كان اللّيل يهبط مثل ملاكٍ طويلٍ قاتمٍ بأجنحةٍ كأجنحة الخفافيش عاش في غابات السيّد أندرو تايلور على التلّ الجنوبيّ. في بعض الأحيان كان يرحّب به والتر، ولكنّه أحيانًا كان يصوّره بوضوحٍ شديدٍ لدرجة أنّه أصبح يخافه. قام والتر بتجسيد كلّ شيءٍ في عالمه الصّغير، الريح التي كانت تروي له القصص في اللّيل، والصّقيع الذي يقضم الزّهور في الحديقة، والنّدى الذي سقط بصمت، والقمر الذي شعر بأنّه متأكّدٌ من أنّه يستطيعُ الإمساك به لو كان بإمكانه فقط الذّهاب إلى قمّة ذلك التلّ الأرجوانيّ البعيد، والضّباب الذي جاء من البحر، وحتّى البحر العظيم الذي كان يتغيّر دائمًا، والمدّ المظلم الغامض. كانت جميعها شخصيّات بالنّسبة لوالتر. كانت إنجلسايد والجوف وبستان القيقب والمستنقعات وشاطئ المرفأ مليئين بالجانّ وعشب البحر والجافيات وحوريّات البحر والعفاريت. كانت القطّة السّوداء

المصنوعةُ من جص باريس على رفّ المكتبة، ساحرةً خرافيّةً حسب مخيّلة والتر. فكانت تنبض بالحياة ليلًا وتصبح كبيرة الحجم وتدور حول المنزل. وضع والتر رأسه تحت أغطيةِ السّرير وارتجف. كان دائمًا يخيف نفسه بأوهامه الخاصّة.

ربما كانت العمّة ماري ماريا على حقّ عندما قالت أنّه كان عصبيًا للغاية وسريع الانفعال، على الرّغم من أنّ سوزان لن تسامحها أبدًا على ما قالته. ربما كانت العّمة كيتي ماكجريجور من جلين الشماليّة التي قيل إنّها منجّمة، على حقٍّ عندما قالت ذات مرّة، بعد أن ألقت نظرةً عميقةً على عينيّ والتر صاحب الرموش الطّويلة والعينين الرّماديّتين، إنّه يملك في جسده الصغير روح شخصٍ كبير السنّ. قد تكون روح كبير السنّ تعرف الكثير بحيث لا يستطيع دماغ الشاب فهمها دائمًا.

قيل لوالتر في الصّباح أنّ والده سيأخذه إلى لوبريدج بعد العشاء. لم يقل شيئًا، لكن أثناء العشاء، أحسّ بالاختناق وأخفض عينيه بسرعةٍ لإخفاء دموعه التي نزلت فجأة، لكن لم يتحرك بالسرعة الكافية، فقد رأته العمّة ماري ماريا.

سألته: "أنت لن تبكي أليس كذلك يا والتر؟"

كما لو أنّ الطّفل البالغ من العمر ستّ سنواتٍ سيصاب بالعار إلى الأبد إذا بكى. وأضافت: "إذا كان هناك أمرٌ أحتقره فهو طفلٌ يبكي. وأنت لم تأكل اللّحم الذي في طبقك."

قال والتر وهو يرمش ببسالة لكنّه لم يجرؤ بعد على رفع عينيه: "أكلت كل الطّعام ما عدا الدهون، فأنا لا أحبّها."

قالت العمة ماري ماريا: "عندما كنت طفلةً، لم يكن مسموحًا لي بإبداء الإعجاب والكره. حسنًا، من المحتمل أن تعالجك السيّدة باركر من بعض مفاهيمك. لقد كانت من عائلة ونتر على ما أعتقد أو كانت

من عائلة كلارك؟ لا، لا بدّ أنّها كانت من عائلة كامبل. لكنّ لدى كلٍّ من آل ونتر وآل كامبل العقليّة نفسها، وهم لا يتحمّلون أيّ نوع من الهراء."

قالت آن بلمعةٍ في عينيها: "آه من فضلك يا عمّة ماري ماريا، لا تدعي والتر يخاف بشأن زيارته إلى لوبريدج."

قالت العمّة ماري ماريا بتواضعٍ كبير: "أنا آسفة يا آني، كان عليّ أن أتذّكر أنه ليس لديّ الحقّ في محاولةِ تعليم أطفالك أيّ شيء."

تمتمت سوزان: "يا لوقاحتها!" وذهبت لتحضّر حلوى البودينغ المفضلّة لدى والتر.

شعرت آن بالذّنب ونظر لها جيلبرت نظرةً توحي بأنّها يجب أن تكون أكثر صبرًا مع سيّدةٍ عجوزٍ فقيرةٍ ووحيدة.

كان جيلبرت نفسه يشعر بقليلٍ من التعب، فالحقيقة كما يعلم الجميع هي أنّه كان يعمل فوق طاقته بشكلٍ رهيبٍ طوال الصّيف، وربّما كانت العمّة ماري ماريا أكثر إجهادًا مما قد يعترف به. قرّرت آن أنها في الخريف في حال كان كلّ أمرٍ على ما يرام، ستأخذه رغمًا عنه إلى نوفا سكوتشا ليمارس القنص هناك لمدّة شهر.

سألت آن العمّة ماري ماريا: "هل أعجبك الشاي؟"

زمّت العمّة ماري ماريا شفتيها وقالت: "طعمه خفيفٌ للغاية، لكن لا يهمّ. من يهتم بما إذا كانت امرأةٌ مسنّةٌ فقيرةٌ تحب الشاي أم لا؟ ومع ذلك، يعتقد بعض النّاس أنّي رفيقةٌ جيّدةٌ حقًا."

مهما كان المقصود من حديث العمّة ماري ماريا، شعرت آن أنّها كانت متعبة في ذلك الوقت لمعرفته، وكانت شاحبةً جدًّا.

أحسّت بالدوار قليلًا وقالت وهي تقوم من كرسيّها: "أعتقد أنني سأصعد إلى الطّابق العلويّ وأستلقي، ومن الأفضل ألّا تبقى لوقتٍ

طويلٍ في لوبريدج يا جيلبرت، وأقترح أن تقدم خاتمًا كهدية للآنسة كارسون."

قبّلت والتر قبلة الوداع على عجلٍ إلى حدٍّ ما، كما لو أنّها لم تكن تفكّر فيه على الإطلاق. على الرّغم من ذلك، لم يبكِ والتر. ثمّ قبّلته العمّة ماري ماريا على جبهته، وكان يكره والتر أن يقبّله أحدهم على جبهته و قالت: "حافظ على آداب المائدة في لوبريدج يا والتر. وتذكّر أنّك لست جشعًا، وإذا كنت كذلك، فسوف يأتي عليك رجلٌ أسودُ كبيرٌ حاملًا حقيبةً سوداء كبيرة لإدخال الأطفال المشاغبين فيها."

ربّما كان من الجيّد أنّ جيلبرت قد خرج ليضع السرج للحصان غراي توم، ولم يسمع ما قالته العمّة ماري ماريا. لقد حرص هو وآن دائمًا على عدم إخافة أطفالهما أبدًا بمثل هذه الأفكار أو السّماح لأيّ شخصٍ آخر بفعلها. سمعت سوزان ذلك أثناء تنظيفها الطّاولة ولم تعرف العمّة ماري ماريا أبدًا كم كانت محظوظةً لأنّ سوزان لم تسكب عليها وعاء صلصة اللحم بعد كلامها هذا.



8



كان والتر يستمتع بشكلٍ عامّ بالرحلة مع والده. فهو يحبّ الجمال وكانت الطّرق المحيطة بجلين سانت ماري جميلة. كان الطّريق إلى لوبريدج عبارةً عن خطٍّ مزدوجٍ من الأعشاب المائلة من هنا وهناك مع الحافّة السرخسيّة الخضراء لبستانٍ جذّاب. لكن، لا يبدو اليوم أنّ الوالد يريد التّحدث كثيرًا وقد قاد جراي توم بطريقةٍ غريبة، لم يتذكر والتر مطلقًا رؤيته وهو يقوده هكذا من قبل. عندما وصلا إلى لوبريدج قال بعض الكلمات المستعجلة للسيدة باركر على انفراد واندفع خارجًا دون أن يودّع والتر. كافح والتر مرّةً أخرى لمنع نفسه من البكاء، فكان من الواضح جدًا أنّ لا أحد يحبّه. كان والداه يحبّانه، لكن ليس بعد الآن.

لم يكن مرتاحًا عند رؤيته منزل باركر الكبير الفوضويّ في لوبريدج، لكن هكذا كانت جميع المنازل في ذلك الوقت. أخذته السيّدة باركر إلى الفناء الخلفيّ، حيث كانت صرخات الفرح الصّاخبة تعلو، وعرّفته على الأطفال الذين بدوا متحمّسين للغاية برؤيته. ثمّ عادت على الفور لتكمل الخياطة، وتركتهم ليتعرّفوا على بعضهم البعض. كانت هذه

الخطّة قد نجحت في تسعِ حالاتٍ من أصل عشرة. ربّما لا يمكن إلقاء اللّوم على السيّدة باركر لفشلها في رؤية أنّ والتر بلايث الصّغير كان الحالة العاشرة. كانت تحبّه، وكان أطفالها الصّغار مرحين، وكان فريد وأوبال يميلان إلى إظهار جذورهما المونترياليّة، لكّنها شعرت أنّها متأكّدةٌ تمامًا من أنّهما لن يكونا قاسيين مع أيّ شخص، وسيكون كلّ شيءٍ على ما يرام. كانت سعيدةً للغاية لأنّها استطاعت مساعدة المسكينة آن بلايث، حتّى لو كان ذلك فقط عن طريق إراحتها من أحد أطفالها. كانت السيّدة باركر تأمل في أن يسير كل شيء على ما يرام. كان أصدقاء آن يقلقون عليها أكثر ممّا كانت تقلق هي على نفسها، ودائمًا ما يذكّرون بعضهنّ البعض بما حدث يوم ميلاد شيرلي.

عمّ صمتٌ مفاجئٌ الفناء الخلفيّ الذي كان ممتدًّا إلى بستان تفّاحٍ كبير. وقف والتر ينظر بجديّةٍ وخجلٍ إلى أطفال باركر وأقربائهم من عائلة جونسون من مونتريال. كان بيل باركر في العاشرة من عمره، شعره أحمر ووجهه مستديرٌ كوجه والدته وبدا كبير السّن والحجم في نظر والتر. كان آندي باركر في التّاسعة من عمره ويعلم أطفال لوبريدج أنّه لُقّب بباركر السيّئ والخنزير لأسبابٍ وجيهة. لم يحبّ والتر مظهره منذ البداية، كان يملك شعيراتٍ قصيرةً للغاية، وكان وجهه شيطانيًّا ومليئًا بالنّمش، وعيناه الزرقاوان منتفختان. كان فريد جونسون في عمر بيل ولم يحبّه والتر أيضًا، على الرّغم من أنّه كان شابًّا حسن المظهر بشعرٍ بنيٍّ وعينين سوداوين. تملك شقيقته أوبال البالغة من العمر تسع سنوات، شعرًا مجعّدًا أيضًا وعينيها سوداوين كعينيّ أخيها. وقفت واضعةً ذراعها حول كورا باركر ذات الشعر الأشقر البالغة من العمر ثماني سنوات، وكانتا تنظران إلى والتر بتكبّر. ولولا أليس باركر، لكان من الممكن أن يستدير والتر ويذهب.

كانت أليس في السّابعة من عمرها، وكانت لديها أجمل الضفائر الذهبية المتموّجة تغطّي رأسها، كانت عيناها زرقاوين وناعمتين كأزهار البنفسج التي تنبت في الجوف. وكان خدّاها ورديّين غطّتهما البثور. ترتدي فستانًا أصفر مكشكشًا صغيرًا بدت فيه وكأنّها زهرة حوذان راقصة. ابتسمت أليس لوالتر كما لو أنّها كانت تعرفه منذ زمنٍ بعيد، وأحسّ هو أنّها صديقةٌ له.

بدأ فريد المحادثة فقال باستخفاف: "مرحبًا يا بني."

شعر والتر بأنّهم يتعالون عليه في الحال فتجاهل كلامهم وقال بجرأةٍ وشجاعة: "اسمي والتر."

التفت فريد إلى الآخرين بذهولٍ متصنّعٍ ليقدّم لهم الفتى الريفي.

قال لبيل بلمسةٍ كوميديّة: "يقول إنّ اسمه والتر."

قال بيل لأوبال بدوره: "يقول إنّ اسمه والتر."

قالت أوبال لآندي: "يقول إنّ اسمه والتر."

قال آندي لكورا: "يقول إنّ اسمه والتر."

ضحكت كورا وقالت لأليس: "يقول إنّ اسمه والتر."

لم تتفوّه أليس بكلمة، بل نظرت بإعجابٍ إلى والتر ومكّنته نظرتها من تحمّل الهتاف عندما هتف الباقون معًا:

"يقول إنّ اسمه والتر." ثم انفجروا ضحكًا ساخرين منه.

اعتقدت السيّدة باركر أنّ أطفالها الأعزّاء يستمتعون بوقتهم وشعرت بالرّضا.

قال آندي بوقاحة: "سمعت أمّي تقول إنّك تؤمن بوجود الجنيات."

حدّق والتر به طويلًا، لم يُرد أن يبدي حزنه أمام أليس وقال بجرأة: "نعم أؤمن بوجودها."

قال آندي: "لا توجد جنيّات."

ردّ والتر: "بل توجد جنيّات."

قال آندي لفريد: "يقول إنّ الجنيّات موجودة."

ثمّ قال فريد لبيل: "يقول إنّ الجنيّات موجودة." وأعادوا ما فعلوه سابقًا مرّةً أخرى.

لقد كان بمثابة تعذيبٍ لوالتر الذي لم يكن قد سخر منه أحدٌ من قبل ولم يستطع تحمّل الأمر. عضّ شفتيه لمنع نفسه من البكاء، فلا يجب أن يبكي أمام أليس.

سأل آندي الذي كان قد قرّر أنّ والتر مخنّث وأنّه سيكون من الممتع استفزازه: "كيف تريد أن يتم لدغك؟"

أمرته أليس: "اصمت، يا لك من خنزير!" فهي على الرّغم من هدوئها الشّديد ولطفها، لكنّها كانت تملك نبرةً لم يجرؤ حتّى آندي على الاستخفاف بها.

تمتم آندي بخجل: "بالطّبع لم أقصد ذلك."

مالت الكفّة قليلًا لصالح والتر، وأمضى الجميع وقتًا ممتعًا بلعب الغمّيضة في البستان. ولكن عندما اجتمعوا لتناول العشاء، أحسّ والتر مرّةً أخرى بالحنين إلى الديار. كان شعورًا فظيعًا جدًّا لدرجة أنّه للحظةٍ خشي أن يبكي أمامهم جميعًا، حتّى أمام أليس التي نكزته نكزةً صغيرةً وودودةً أثناء جلوسهما، ساعدته قليلًا على الصّمود أمامهم. لكنّه لم يستطع أن يأكل، وكان بإمكان السيّدة باركر أن تطلب منه تناول الطّعام لكنّها لم تفعل لكي لا تجعله يقلق بشأن ذلك، واستنتجت أنّ شهيّته ستتحسن في الصّباح، وأنّ الآخرين كانوا منشغلين كثيرًا في الأكل والحديث فلن يلاحظوا أنّه لم يتناول طعامه.

تساءل والتر لماذا كان جميع أفراد الأسرة يتكلّمون بصوتٍ مرتفع جدًّا، جاهلًا حقيقة أنّهم لم يتخلّصوا من هذه العادة بعد وفاة جدّتهم

الصّماء والحسّاسة، وقد سبّب له الضّجيج وجعًا في رأسه. بدأ يتخيّل عائلته وهي تتناول العشاء الآن أيضًا في المنزل، وأمّه تبتسم من على رأس المائدة، ووالده يمزح مع التّوأمين، وسوزان تسكب الكريمة في كوب حليب شيرلي، ونان تمرّر الطّعام سرًّا لشرمب. وتخيّل حتّى العمّة ماري ماريا وهي تجلس معهم، بدت في خياله ناعمةً ورقيقة. ثمّ بدأ يفكّر في من سيقرع الجرس الصينيّ لتناول العشاء، فلقد كان دوره هذا الأسبوع في قرعه وجيم ليس في المنزل أيضًا. كان يتمنّى فقط أن يجد مكانًا يبكي فيه! ولكن يبدو أنّه لا مكان يمكنك فيه البكاء في لوبريدج. على الأقلّ، كانت معه أليس. شرب والتر كوبًا كاملًا من الماء المثلّج ووجد أنّه يريحه قليلًا.

قال آندي فجأة: "قطّتنا تغضب."

قال والتر: "وكذلك الحال بالنسبة لقطّنا." كان شرمب يغضب مرّتين، ولم يكن والتر ليقبل بأن تحصل قطط لوبريدج على تصنيفٍ أعلى من قطط إنجلسايد.

قال آندي ساخرًا: "أراهن أنّ قطّتنا تغضب أكثر من قطّكم."

أجاب والتر: "أراهن أنّها ليست كذلك."

أرادت السيّدة باركر أمسيةً هادئةً لكتابة ورقة المعهد الخاصّة بها عن "الأطفال الذين أسيء فهمهم" فقالت: "توقّفوا عن الجدال حول القطط واذهبوا والعبوا في الخارج، سيحين موعد النّوم بعد وقتٍ قصير."

قالت وقت النّوم! أدرك والتر فجأةً أنّ عليه البقاء هنا طوال الليل، ولليالٍ كثيرة، ولمدّة أسبوعين. كان الأمر مروّعًا بالنّسبة له. خرج إلى البستان بقبضتيه المشدودتين، ليجد بيل وآندي على العشب غاضبين، يركلان ويخدشان بعضهما ويصرخان.

كان آندي يصرخ قائلًا: "أعطيتني التّفاحة المدوّدة يا بيل باركر! سأعلّمك أن تعطيني تفاحًا مدوّدًا! سأقضم أذنيك!"

كانت المعارك من هذا النّوع تحدث يوميًّا مع آل باركر. لكنّ السيّدة باركر أكّدت أنّ العراك لا يؤذي الأولاد. قالت إنهم بهذه الطّريقة يخرجون الشر الذي بداخلهم ويصبحون أصدقاء حميمين بعد ذلك. لكنّ والتر لم يرَ اثنين يتعاركان من قبل فكان مذعورًا.

كان فريد يهتف لهما، وأوبال وكورا تضحكان، لكن كانت عينا أليس تدمعان، ولم يستطع والتر تحمّل ذلك فألقى بنفسه بين المقاتلين اللذين انفصلا للحظةٍ لالتقاط أنفاسهما قبل إكمال المعركة.

قال والتر: "توقّفا عن القتال، أنتما تخيفان أليس."

حدّق بيل وآندي به في ذهولٍ للحظة، فقد صدمهما تدخّل الطّفل والتر في قتالهما وانفجرا ضحكًا، ثمّ صفع بيل والتر على ظهره وقال بسخرية: "لقد صار شجاعًا، سيصبح رجلًا في وقتٍ ما عندما يكبر. كل تفّاحةً لتساعدك على النّمو يا والتر، إنّها ليست مدوّدة."

مسحت أليس دموعها عن خديها الورديّين الناعمين ونظرت بحبٍّ إلى والتر لدرجة أنّها أثارت غضب فريد. بالطّبع لم تكن أليس سوى طفلة، ولكن حتّى الأطفال لم يكن مسموحًا لهم النّظر بإعجابٍ إلى الأولاد الآخرين عندما يكون فريد جونسون المونترياليّ في الجوار، كانت هذه قاعدة ينبغي تطبيقها.

كان فريد في المنزل وسمع العمّة جين تتحدّث مع العمّ ديك عبر الهاتف.

قال لوالتر: "والدتك مريضةٌ للغاية."

صرخ والتر: " لا ليست مريضة!"

قال فريد: "إنّها مريضةٌ للغاية، سمعت العمّة جين تخبر العمّ ديك."

كان فريد قد سمع عمّته تقول أنّ آن بلايث مريضة، وكان من الممتع بالنّسبة له القول بأنّها مريضةٌ للغاية حتّى أنّه قال: "من المحتمل أن تكون ميّتةً قبل أن تصل إلى المنزل."

نظر والتر حوله بعينيه الحزينتين، ووقفت أليس بجانبه مرّةً أخرى، واجتمع الباقون بالقرب من فريد. شعروا بشيءٍ غريبٍ تجاه هذا الطّفل الوسيم الغامض، شعروا برغبةٍ في مضايقته.

قال والتر: "إذا كانت مريضة سيعالجها والدي."

بالطّبع سيعالجها، عليه ذلك!

قال فريد متصنّعًا الحزن وهو يغمز آندي: "أخشى أن يكون ذلك مستحيلًا."

لكنّ والتر كان مصرًّا وقال: "لا يعرف والدي المستحيل."

قال بيل: "ذهب روس كارتر إلى شارلوت تاون لمدّة يومٍ واحدٍ فقط الصّيف الماضي، وعندما عاد إلى المنزل كانت والدته ميّتة."

وقال إنّها كانت مدفونةً أيضًا وكان يفكّر في إضافة لمسةٍ دراميّةٍ أخرى سواءً كانت حقيقيّةً أم لا فقال: "روس كان غاضبًا للغاية لأنّ الجنازة فاتته، فالجنازات ممتعةٌ للغاية."

قالت أوبال بحزن: "وأنا لم أرَ جنازةً واحدةً قطّ."

قال آندي: "سترين جنازاتٍ كثيرة في المستقبل، أمامك الكثير من الوقت فأنت ما تزالين صغيرة."

ثمّ نظر لوالتر وقال: "لكن كما ترى حتّى أبي لم يستطع إنقاذ السيّدة كارتر وهو طبيبٌ أفضل بكثيرٍ من والدك."

"لا، ليس أفضل منه."

"بلى إنّه كذلك، وهو أوسم منه أيضًا."

"كلّا، ليس كذلك."

قالت أوبال: "دائمًا ما يحدث أمرٌ ما عندما تغيب عن المنزل، ما هو شعورك إذا وجدت إنجلسايد محترقة عندما تعود إلى الديار؟"

قالت كورا بفرح: "إذا ماتت أمّك، فمن المحتمل أن يفصلونكم جميعًا أنت وأخواتك، ربمّا تأتي وتعيش هنا معنا."

قالت أليس بلطف: "نعم، تعال وعش معنا."

قال بيل: "أظنّ أنّه في حال حدوث هذا فسيريد والده إبقاءهم معه، وسوف يتزوّج مرّةً أخرى بعد وفاة الأمّ بفترةٍ قصيرة. لكن قد يموت والده أيضًا، فلقد سمعت أبي يقول أنّ الدكتور بلايث عمل بجدٍّ حتّى أهلكَ نفسه. انظروا إليه كيف يحّدق بي."

ثمّ قال مستهزئًا به: "عيناك كعيون الفتيات." وكرّر الجملة عدّة مرّاتٍ ليضايقه.

طفح كيل أوبال من استفزاز بيل لوالتر فقالت فجأة: "اخرس! لن يصدّقك والتر، فهو يعلم أنّك تفعل هذا لمضايقته فقط. دعنا نذهب إلى المتنزه ونشاهد مباراة البيسبول. يمكن لوالتر وأليس البقاء هنا، لا يمكننا أن نجعل الأطفال يتبعوننا في كل مكان."

لم يشعر والتر وأليس بالحزن عند رؤيتهم ذاهبين. جلسا على جذع شجرة التفّاح ونظرا بخجلٍ وسرورٍ لبعضهما البعض.

قالت أليس: "سأعلّمك كيف تلعب لعبة جاكستون، وسأعطيك لعبة الكنغر خاصّتي."

عندما جاء موعد النّوم، كان والتر وحيدًا في غرفة نومٍ صغيرةٍ في الرّدهة. تركت له السيّدة باركر شمعةً وغطّته جيّدًا لأنّ ليلة تمّوز كانت باردة بشكلٍ غير معقول مثلما تكون ليلة الصّيف في ماريتايمز في بعض الأحيان. بدا كما لو كان هناك صقيع.

لكنّ والتر لم يستطع النّوم حتّى مع وجود كنغر أليس الذي احتضنه

على خدّه. آهٍ لو كان الآن في البيت في غرفته التي تطلّ نافذتها الكبيرة على جلين والنّافذة الصّغيرة بسقفها الصّغير على خشب الصنوبر الاسكتلندي! كانت ستأتي أمّه إليه وتقرأ له الشّعر بصوتها الجميل.

ردّد والتر: "أنا فتى كبير ولن أبكي، لن أبكي." سالت دموعه على خدّيه رغمًا عنه. ما فائدة لعبة الكنغر؟ لقد أحسّ أنّه قد غادر المنزل منذ سنوات.

عاد الأطفال الآخرون من المنتزه واجتمعوا في الغرفة، جلسوا على أسرّتهم وراحوا يتناولون التفّاح.

سخر آندي من والتر قائلًا: "لقد كنت تبكي أيّها الصّغير، أنت لست سوى فتاةٍ صغيرةٍ مدلّلةٍ لدى أمّها."

قضم بيل تفّاحةً وقال لوالتر: "خذ قضمة يا فتى وابتهج، لن أتفاجأ إذا تحسّنت والدتك، إذا كانت لديها ضمانًا صحيًّا فستتحسّن. يقول والدي إن السيّدة ستيفن فلاغ كانت ستموت منذ سنوات لو لم يكن لديها ضمانًا صحيًّا. هل تملك أمّك ضمانًا؟"

قال والتر: "بالطّبع."

لم يكن لديه أيّ فكرةٍ عن معنى الضمان الصحي، ولكن إذا كان لدى السيّدة ستيفن واحدًا فبالطّبع سيكون لدى أمّه أيضًا.

قال آندي: "ماتت السيّدة أب سويير الأسبوع الماضي وتوفّيت والدة سام كلارك في الأسبوع الذي سبقه."

قالت كورا: "توفّيتا في اللّيل، وتقول أمّي أنّ النّاس يموتون في الغالب في هذا الوقت. أتمنّى ألّا أموت في الليل. تخيّل الذّهاب إلى الجنّة مرتديًا ملابس النّوم!"

نادتهم السيّدة باركر: "يا أطفال! يا أطفال! انزلوا إلى غرفتكم."

ذهب الأولاد بعد أن تظاهروا بخنق والتر بالمنشفة. رغم كلّ ما

حدث، لقد شعروا أنّهم أحبّوا الولد. أمسك والتر يد أوبال عندما استدارت وسألها بهمس: "أوبال، هل صحيحٌ أنّ أمّي مريضة؟ كنتِ تكذبين أليس كذلك؟" لم يستطع تحمّل البقاء وحيدًا مع هذه الفكرة المخيفة في رأسه.

لم تكن أوبال طفلة سيّئة كما قالت السيّدة باركر، لكنّها لم تستطع مقاومة الإثارة التي يشعر بها المرء عند نقل الأخبار السيئة.

"قالت العمّة جين إنّها مريضة وقالت إنّه لا يجب عليّ إخبارك بالأمر. لكن أعتقد أنّه يجب عليك أن تعلم، ربّما تكون مصابةً بالسّرطان."

"هل يجب أن يموت الجميع يا أوبال؟" كانت هذه فكرةً جديدةً ومروّعة لوالتر، الذي لم يفكّر في الموت من قبل.

قالت أوبال مازحة: "بالطّبع أيّها السخيف! لكنّهم لا يموتون حقًّا، إنّهم يذهبون إلى الجنّة."

كان آندي واقفًا خلف الباب يستمع إلى حديثهما، فهمس: "لا يذهب الجميع إلى الجنّة."

سأل والتر: "هل الجنّة أبعد من شارلوت تاون؟" ضحكت أوبال من قلبها على سؤاله.

"هل أنت غبيّ؟ تقع الجنّة على بعد ملايين الأميال، لكنّني سأخبرك بما يجب أن تفعله. يجب عليك أن تصلّي، فالصّلاة جيّدة. لقد خسرت مرّةً عشر قروشٍ وصلّيت فوجدت ربع دولار. هذا ما أعرفه عن الجنّة."

نادت السيدة باركر من غرفتها: "أوبال جونسون هل سمعتِ ما قلتُه؟ وأطفئي تلك الشمعة في غرفة والتر لأنني أخشى النّار. كان ينبغي أن يكون والتر نائمًا منذ فترةٍ طويلة."

أطفأت أوبال الشّمعة وذهبت. كانت العمّة جين لطيفة، ولكنّها

تصبح شخصًا مختلفًا عندما تغضب! طلّ آندي من الباب لتمنّي ليلةٍ سعيدة.

قال: "من المحتمل أن تكون الطيّور المرسومة على ورق الحائط حيّةً فتهاجمك في اللّيل."

بعد ذلك ذهب الجميع إلى الفراش ليناموا، وشعروا أنّها كانت نهاية يومٍ مثاليّ وأنّ والتر بلايث لم يكن طفلًا صغيرًا سيئًّا وسيستمتعون أكثر بمضايقته غدًا.

عندما رأتهم السيّدة بالركر في أسرّتهم نائمين قالت: "ما ألطف أعزّائي الصّغار!"

ساد هدوءٌ غير مألوف منزل آل باركر وعلى بعد ستّة أميال، كانت بيرثا ماريلا بلايث الصّغيرة في إنجلسايد تنظر بعينيها العسليّتين المستديرتين إلى الوجوه السّعيدةِ حولها وإلى العالم الذي أتت إليه في أبرد ليلةٍ من شهر تمّوز التي مرّت بها المنطقة منذ ثمانٍ وسبعين سنة!

***

9



كان والتر وحيدًا في الظّلام، لا يزال يجد صعوبةً في النّوم. لم يكن قد نام بمفرده من قبل، لأن جيم أو كين بقيا دائمًا بالقرب منه، فكان يشعر بالدّفء والرّاحة. أصبحت الغرفة الصّغيرة مرئيّةً بشكلٍ خافتٍ عندما تسلّل ضوء القمر الباهت إليها، لكنّها صارت مخيفةً أكثر مما كانت عليه في الظّلام. بدت الصورة المعلّقة على الحائط عند سفح سريره وكأنّها تحدّق به. تبدو الصّور دائمًا مختلفة تحت ضوء القمر، ترى فيها أمورًا غريبة لا تلاحظها أبدًا في وضح النّهار. بدت ستائر الدانتيل الطويلة وكأنّها نساءٌ طويلاتٌ ونحيفات، واحدة على كلّ جانبٍ من النّافذة تبكي. كانت هناك ضوضاءٌ حول المنزل، صريرٌ وتنهّداتٌ وهمسات. ماذا لو أنّ الطيور في ورق الحائط كانت تنبض بالحياة حقًّا وتستعدُّ لمهاجمته؟ استحوذ الخوف على والتر فجأةً، ثمّ طردَ خوفٌ عظيمٌ كلّ المخاوف الأخرى، فقد تذكّر أنّ والدته مريضة. كان عليه أن يصدّق الخبر لأنّ أوبال قالت إنّه صحيح. ربّما كانت أمّه تحتضر! ربّما ماتت! لن تكون أمّه في المنزل عند عودته! رأى والتر إنجلسايد بدون أمّه!

وفجأةً أدرك والتر أنّه لا يستطيع تحمّل ذلك وينبغي أن يذهب إلى المنزل فورًا ليرى أمّه قبل وفاتها. هذا ما قصدته العمّة ماري ماريا، فقد كانت تعلم أنّ والدته ستموت. لم يكن من المفيد التفكير في أن يوقظ أيّ شخصٍ ويطلب منه أخذه إلى المنزل. لن يأخذوه، كانوا سيسخرون منه فقط. وكان الطّريق إلى المنزل طويلًا ومروّعًا، لكنّه كان سيمشي طوال الليل من أجل رؤية والدته.

نزل من السرير بهدوءٍ شديدٍ وارتدى ملابسه، ثمّ أمسك حذائه في يده. لم يكن يعرف أين وضعت السيّدة باركر قبّعته لكنّه لم يكترث فلا يجب أن يُحدث أيّ ضوضاء، ينبغي عليه فقط الهروب والوصول إلى والدته. كان يشعر بالأسف لأنّه لن يستطيع توديع أليس، لكنّها ستتفهّم الأمر. مشى والتر عبر الردهة المظلمة ثمّ نزل السّلم خطوةً بخطوة حابسًا أنفاسه، شعر بأنّ الطّريق طويل وأحسّ أنّ الأثاث يستمع لخطواته.

بئسًا! لقد أسقط والتر حذائه! سقط الحذاء وتدحرج على الدرج حتّى ارتطم بالباب الأماميّ محدثًا صوتًا كان بالنسبة لوالتر يصمّ الآذان.

وقف والتر يائسًا بجانب درابزين السلّم. كان متأكّدًا أنّ الجميع قد سمعوا هذه الضجّة وكانوا سيخرجون من غرفهم مسرعين ولن يسمحوا له بالعودة إلى المنزل. كاد يخنقه شعوره بالحاجة إلى البكاء.

لم يستطع والتر تصديق أنّ الضجة التي تسببّ بها لم توقظ أحدٌ، وتجرّأ على استئناف طريقه بحذرٍ أسفل الدّرج. وفي النّهاية استطاع اجتيازه، وجد حذائه وأدار مقبض الباب الأماميّ بحذر، لم تكن الأبواب مقفلةً في منزل آل باركر. قالت السيّدة باركر إنّهم لا يملكون ما يستحقّ السرقة سوى الأطفال ولا أحد يريدهم.

خرج والتر وأغلق الباب خلفه، ثمّ لبس حذائه ونزل إلى الشارع.

كان المنزل على حافّة القرية وسرعان ما وصل والتر إلى الطريق الرّئيسي. شعر بالقلق، فلقد انتهى خوفه من أن يتمّ القبض عليه ومنعه من الذهاب، لكنّ مخاوفه القديمة من الظّلام والعزلة قد عادت فكان مذعورًا. لم يخرج وحده في الليّل من قبل، وكان يخاف من العالم، فلقد كان عالمًا ضخمًا وكان هو صغيرًا للغاية. حتّى أنّ الرّياح الشرقيّة الباردة بدت تهبّ في وجهه كما لو كانت تدفعه إلى الخلف.

كان والتر طوال الوقت يفكّر بأنّ أمّه تحتضر، بلع ريقه توتّرًا ووجّه وجهه نحو المنزل ومضى يقاتل الخوف بشجاعة. كان ضوء القمر ساطعًا ولكنّه يجعلك تتوهّم أشياءً لا تبدو مألوفة، لم يكن أيّ شيءٍ مألوفًا في ضوء القمر. ذات مرّةٍ عندما كان خارج المنزل مع والده، كان يعتقد أنّه لم ير أبدًا شيئًا جميلًا مثل الطريق تحت ضوء القمر، تتقاطع معه ظلال الأشجار. لكن الآن، أصبحت الظّلال سوداء وحادّة لدرجة أنّها قد تطير نحوك. كانت الحقول تبدو غريبةً، ولم تعد الأشجار لطيفة. شعر بأنّهم كانوا يراقبونه من الأمام والخلف. نظرت إليه عينان لامعتان من الخندق وعبرت الطّريق قطّةٌ سوداء بحجمٍ لا يصدّق. هل كانت قطّة أم ماذا؟ كان اللّيل باردًا فصار والتر يرتجف في بلوزته الرّقيقة، لكنه لم يكن ليمانع البرد لو توقّف فقط خوفه من كلّ ما حوله، من الظّلال والأصوات الغامضة والكائنات المجهولة التي تتسلّل في الغابة التي مرّ بها. تمنّى لو كان مثل جيم لا يخاف شيئًا.

قال بصوت عالٍ: "سأفعل ذلك، سأتظاهر أنّني لست خائفًا." ثمّ ارتجف من الذّعر من نبرة صوته المتعبة في هذه الليلة الباردة.

لكنّه استمرّ في المسير، فعلى المرء أن يستمرّ عندما تكون والدته على أبواب الموت. واجه الكثير من المتاعب، سقط على حجرٍ فأصيب بكدماتٍ وجرح ركبته. ثمّ سمع عربةً قادمة من ورائه فاختبأ خلف

شجرةٍ حتى مرّت، خائفًا من أن يكتشف الطبيب باركر أنّه ذهب فيلاحقه. فجأةً رأى كائنًا أسودًا مغطًا بالفرو جالسًا على جانب الطّريق، فتوقّف مرعوبًا وشعر أنّه غير قادرٌ على تخطّيه، لكنّه استطاع بعد ذلك. فقد بدا أنّه كلبٌ أسودٌ كبير، هل كان حقًّا كلبًا؟ لكن ما يهمّ هو أنّه استطاع اجتيازه. لم يجرؤ على الجري لكي لا يطارده، ثمّ استرق نظرةً فرأى أنّه قد نهض وكان يمشي في الاتّجاه المعاكس. وضع والتر يده السّمراء الصّغيرة على وجهه ووجده مبلّل بالعرق.

سقط نجمٌ في السماء أمامه ناثرًا شرارات اللّهب. تذكّر والتر سماع العمّة كيتي تقول إنّه عندما يسقط نجمٌ يموت شخصٌ ما. هل كان دور الأمّ أن تموت هذه المرّة؟ لقد كان يشعر أنّ ساقيه لن تحملانه خطوة أخرى، لكنّه استمرّ في المشي. كان يشعر بالبرد الآن لدرجة أنّه لم يعد يشعر بالخوف. ألن يصل إلى المنزل أبدًا؟ لا بد أن تكون قد مرّت ساعاتٌ وساعات منذ مغادرته لوبريدج.

كانت قد مرّت ثلاث ساعات، فهرب والتر من منزل آل باركر في الحادية عشرة وأصبحت الساعة الآن الثانية. شعر والتر بالرّاحة عندما وجد أنّه على الطريق الذي يؤدي إلى جلين، ولكن عندما كان يتعثر في القرية، بدت المنازل النائمة بعيدةً للغاية. لقد رأى أنّهم نسوه. وفجأةً خارت بقرةٌ في وجهه من فوق السياج، فتذكّر والتر أنّ السيّد جو ريس كان يحتفظ بثورٍ متوحّش. هلع والتر وركض بسرعةٍ رهيبةٍ حتّى وصل أعلى التّل إلى بوّابة إنجلسايد. لقد وصل إلى المنزل، حقًّا وصل إلى المنزل!

ثم وقف مرتجفًا يغلبه شعورٌ مروّعٌ بالكآبة. كان يتوّقع أن يرى أضواء المنزل الجميلة ولكن لم يكن هناك أي ضوءٌ في إنجلسايد!

بالحقيقة لم يستطع رؤية الضوء في غرفة النّوم الخلفيّة حيث تنامً

الممرّضة مع سلّة الطّفل بجانب سريرها. ولكن لكثير من الأسباب، كانت إنجلسايد مظلمة مثل منزلٍ مهجور وقد حطّم هذا المنظر قلب والتر. لم يسبق له أن رأى ولم يتوقّع أبدًا أن يرى الظّلام في إنجلسايد ليلًا.

هذا يعني أنّ الأمّ ماتت!

مشى والتر على العشب متوجّهًا إلى الباب الأماميّ المقفل. دقّ الباب بهدوء لأنّه لم يستطع الوصول إلى المطرقة بسبب ذراعيه الصغيرتين، لم يردّ عليه أحد وهذا ما توقّعه. لم يكن هناك صوت أحدٍ في المنزل. كان يعلم أنّ والدته ماتت وأنّ الجميع قد رحلوا.

لقد كان يشعر بالبرد ومرهقًا حتّى أنّه لم يقدر على البكاء، لكنّه تسلّل إلى الحظيرة وصعد السلّم ليصل إلى كومة القشّ. التي كان يخاف منها في السابق، أما الآن فكان كل ما يريده هو فقط الهروب من تلك الرّيح والاستلقاء حتّى الصّباح. ربّما يعود أحدهم بعد دفن والدته.

سمع قطّةٌ صغيرةٌ ناعمة تموء له، وكان أحدهم قد أعطى تلك القطة للطّبيب، كانت تفوح منها رائحة قش البرسيم. حملها والتر بكلّ سرور، وكانت دافئة وجميلة. لكنّها سمعت الفئران الصّغيرة تتدافع على الأرض فلم تبقَ معه. دخل ضوء القمر إليه من خلال نافذةٍ مغطّاةٍ بنسيج العنكبوت ولكن لم يكن هناك راحةٌ في مشاهدة ذلك القمر البعيد البارد وغير المبالي. كان الضوء المشتعل في منزلٍ أسفل جلين أشبه بصديق. كان والتر قادرًا على تحمّل الوضع طالما بإمكانه رؤية هذا الضوء.

لم يستطع النوم، بسبب ألمٍ شديدٍ في ركبته المصابة، وكان يشعر بالبرد وبشعورٍ غريبٍ في معدته. ربّما كان يحتضر أيضًا، وكان يأمل أن يكون كذلك، لأنّ الجميع ماتوا أو رحلوا. ألا تنتهي الليالي؟ كانت

الليالي الأخرى تنتهي دائمًا ولكن ربّما لن تنتهي هذه اللّيلة. لقد تذكّر قصّةً مروّعةً سمعها مفادها أنّ القبطان جاك فلاج في هاربور ماوث قال إنّه عندما يجنّ لن يدع الشمس تشرق. ماذا لو أصيب القبطان جاك أخيرًا بالجنون؟

ثمّ انطفأ ال ضوء القادم من جلين ولم يستطع تحمّل الأمر. وعندما غادرت صرخة اليأس شفتيه أدرك أنّ الوقت قد حان.

***

10



نزل والتر السلّم وخرج. برزت إنجلسايد في ضوء الفجر الأوّل الغريب، وكانت السماء تُظهِر فوق البتولا في الجوف شعاعًا خافتًا وردي اللون يتماوج مع الفضي. فكّر والتر في أنّ بإمكانه الدّخول من الباب الجانبيّ، لأنّ سوزان تتركه مفتوحًا في بعض الأحيان لجيلبرت.

تمكّن والتر من فتح الباب الجانبيّ، فتنهّد تنهيدة شكر، ثمّ تسلّل إلى الصالة. كان لا يزال الظلام يعمّ المنزل، وبدأ الصبيّ يمشي بهدوءٍ في الطّابق العلويّ. أراد الذهاب والنّوم في غرفته، في سريره، وإذا لم يعد أحد، فقد يموت هناك ويذهب إلى الجنّة ويجد أمّه. لكنّه تذكّر ما قالته أوبال، إنّ الجنّة بعيدةٌ للغاية. في موجة الخراب الجديدة التي اجتاحته، نسي والتر أن يخطو بحذر، ووضع قدمه بقوّةٍ على ذيل شرمب الذي كان نائمًا عند منحنى الدّرج. صرخ شرمب من الألم ودوّى صوته في أرجاء المنزل.

كانت سوزان التي غلبها النّعاس فغفت، قد استيقظت عند سماعها صوت شرمب الرّهيب. كانت قد ذهبت إلى فراشها عند منتصف اللّيل، مرهقةً إلى حدٍّ ما بعد فترة ما بعد الظهيرة والمساء، والتي كان لماري

ماريا بلايث دورٌ فيها لإصابتها بالتشنّج في أكثر اللحظات توترًا. كان لابدّ أن تحضر لها سوزان قنّينة ماءٍ ساخن وأن تدلك لها جسمها بمرهم، وانتهت بوضع قطعة قماشٍ مبلّلة على عينيها لأنّها بدأت تعاني من "أحد أنواع صداعها."

استيقظت سوزان في السّاعة الثالثة من نومها وشعرت بغرابةٍ شديدة بأنّ هناك من يريدها بشدّة. نهضت ونزلت بهدوءٍ إلى الرّدهة متوجّهةً إلى باب غرفة السيّدة بلايث. كان الصّمت يسود الغرفة، وسمعت فقط آن تتنفّس بشكلٍ طبيعيّ. جابت سوزان المنزل وعادت إلى سريرها مقتنعةً أنّ هذا الشعور الغريب لم يكن سببه سوى كابوس. لكن طوال حياتها، اعتقدت سوزان أنّها كانت تملك ما كانت تسخر منه دائمًا آبي فلاج التي تعمّقت في الرّوحانية وما وصفته بالتجربة الفيزيائيّة أو لنفترض الحاسة السادسة نوعًا ما.

قالت: "كان والتر يناديني وسمعته."

نهضت سوزان وخرجت مرّةً أخرى، معتقدةً أنّ إنجلسايد كانت مسكونة حقًا في تلك الليلة. كانت ترتدي فقط ثوب نوم، تقلّص في الغسيل المتكرّر حتى أصبح يعلو كاحليها النّحيلين، لكنّها بدت أجمل مخلوقٍ في العالم للصبيّ الصّغير ذي الوجه الأبيض والذي كان يرتجف محدّقًا بها بعينيه الرماديّتين المذعورتين وهي تنزل.

"والتر بلايث!"

في خطوتين، حملته سوزان بذراعيها القويّتين، فسألها والتر: "هل ماتت أمّي يا سوزان؟"

تغيّرت الأحوال في وقتٍ قصيرٍ جدًّا. كان والتر في السّرير دافئًا ومرتاحًا بعد أن تناول الطّعام. أحضرت له سوزان كوبًا ساخنًا من الحليب، وشريحةً من الخبز المحمّص الذهبيّ البنيّ وطبقًا كبيرًا من

كعكاته المفضلة "وجه القرد"، ثمّ وضعته في فراشه مع زجاجة ماءٍ ساخنٍ عند قدميه بعد أن قبّلته ودهنت ركبته الصغيرة المصابة بالكدمات. لقد كان شعورًا رائعًا أن تعرف أنّ شخصًا ما يعتني بك، ويريدك، وأنّك مهمٌ لدى أحدهم.

"أنت متأكّدةٌ يا سوزان أنّ أمّي لم تمت؟"

"والدتك سليمةٌ نائمة وسعيدة يا صغيري."

"ألم تمرض على الإطلاق؟ أخبرتني أوبال أنّها مريضة."

"حسنًا يا عزيزي، لم تكن والدتك بخيرٍ في الأمس، لكنّها بصحّةٍ جيّدة الآن، ولم تكن أبدًا في خطر الموت هذه المرّة. عليك أن تنام وسوف تراها غدًا وترى شخصًا آخر أيضًا. لو أستطيع فقط أن أمسك بهؤلاء الشياطين الصّغار في لوبريدج! أنا فقط لا أصدّق أنّك سرت طوال الطّريق إلى المنزل من لوبريدج. لقد مشيت ستّة أميال! وفي مثل هذه اللّيلة!"

قال والتر بجديّة: "لقد ذقت عذابًا شديدًا يا سوزان."

ولكن انتهى كلّ العذاب، كان الآن آمنًا وسعيدًا لأنّه كان في المنزل. غلبه النّعاس وهو يحدّث سوزان فغفى.

استيقظ والتر بعد الظهر ليرى أشعّة الشمس تدخل إلى غرفته من خلال النّافذة، نهض من سريره وعرج لرؤية أمّه. بدأ يعتقد أنّه كان أحمقًا للغاية وربّما لن تكون والدته سعيدةً بفراره من لوبريدج. لكن عندما رأته آن وضعت ذراعها حوله وحضنته بلطف. لقد سمعت القصّة كاملةً من سوزان وفكّرت فيما ستقوله لجين باركر.

"أنتِ لن تموتي يا أمّي، وما زلتِ تحبّينني أليس كذلك؟"

"أنا بعيدةٌ عن الموت يا حبيبي، وأنا أحبّك كثيرًا لدرجة أنّني أضّحي بنفسي من أجلك. لا أصدّق أنّك مشيت طوال الطّريق من

لوبريدج في الليل!"

قالت سوزان مرتجفة: "وعلى معدةٍ فارغة، العجيب أنّه ما زال على قيد الحياة ليخبرنا بذلك. يبدو أنّ أيّام المعجزات لم تنته بعد ويمكننا الاعتماد عليها."

ضحك الوالد الذي جاء حاملًا شيرلي على كتفه وقال: "إنّه فتى صغيرٌ شجاع." وربّت على رأس والتر فأمسك والتر يد والده وعانقها. لم يكن هناك أحدٌ مثل والده في العالم، لكن لا يجب أن يعرف أحد كم كان والتر خائفًا تلك اللّيلة.

"لا أحتاج أبدًا إلى الابتعاد عن المنزل مرّة أخرى أليس كذلك يا أمّي؟"

وعدته الأمّ وقالت: "إلّا إذا كنت تريد ذلك."

بدأ والتر: "لن أريد ذلك." ولم يكمل كلامه حين تذكّر أنّه بعد كلّ ما حدث، لن يمانع رؤية أليس مرّة أخرى.

قالت سوزان مشيرةً إلى سيّدةٍ شابّةٍ في مئزرٍ أبيض وقبّعة كانت تحمل في يدها سلّة: "انظر هنا يا صغيري."

نظر والتر وذُهل لرؤية طفلةٍ رضيعةٍ ممتلئة الجسم، بشعيراتٍ مجعّدةٍ ناعمة تغطّي رأسها ويدٍ صغيرةٍ ظريفة.

قالت سوزان بفخر: "أليست جميلة؟ انظر إلى رموشها، لم أر قطّ طفلةً بمثل هذه الرّموش الطّويلة، وأذنيها الصّغيرتين الجميلتين. انظر إلى أذنيها أوّلًا."

تردّد والتر.

"تبدو لطيفة يا سوزان. آه انظري إلى أصابع قدميها المجعّدة الصّغيرة كم هي ظريفة! لكن أليست صغيرةً أكثر من اللازم؟" فضحكت سوزان.

"ثمانية أرطال ليست صغيرةً يا عزيزي. وقد بدأت تلاحظ، لم تكن هذه الطّفلة بلغت من العمر ساعة عندما رفعت رأسها ونظرت إلى الطّبيب. لم أر طفلةً مثلها في حياتي."

قال الطّبيب بنبرة رضا: "سيكون شعرها أحمر، شعرٌ أحمر مذهّب جميلٌ مثل شعر والدتها."

قالت آن بابتهاج: "وعينان عسليّتان مثل عينيّ أبيها."

قال والتر وهو يفكّر في أليس: "لا أفهم لماذا لا يمكن أن يملك أحدنا شعر أصفر؟"

قالت سوزان بازدراء: "شعرٌ أصفر! مثل آل درو!"

قالت الممرّضة: "إنّها تبدو ماكرةً للغاية وهي نائمة. لم أر طفلةً تغمض عينيها بهذه الطّريقة عندما تنام."

"إنّها نادرة. كلّ أطفالنا كانوا جميلين يا جيلبرت، لكنّها أجمل منهم جميعًا."

قالت العمّة ماري ماريا: "إنّ الله يحبّك، فلم يكن هناك الكثير من الأطفال في السابق كما تعلمين يا آني."

قال والتر بفخر: "لكنّ طفلتنا لم تكن في ذلك الزمان. هل لي أن أقبّلها يا سوزان؟ مرّةً واحدةً فقط من فضلك."

ظهرت علامات السّعادة على وجه سوزان بعد تراجع العمّة ماري ماريا عن كلامها وقالت: "نعم يمكنك أن تقبّلها يا والتر، والآن سأذهب لأحضّر فطيرة الكرز لتناول العشاء. أعدّت ماري ماريا بلايث واحدةً بعد ظهر أمس، أتمنّى لو كان بإمكانك رؤيتها يا زوجة الطبيب العزيزة. بدت وكأنّها طبقٌ دعسته القطّة. ينبغي عليّ أن أتناول أكبر قدرٍ ممكنٍ منها بدلًا من إهدارها، ومثل هذه الفطيرة لا ينبغي وضعها أمام الطّبيب أبدًا طالما أنني أتمتّع بصحّتي وقوّتي، أعدك بذلك."

قالت آن: " أنت تعلمين يا سوزان أنّ ليس كلّ النّاس موهوبين في صناعة الحلويّات. "

كانت سوزان فرحةً للغاية بما قالته لها آن، وكانت تغلق الباب حين قال والتر: "أعتقد يا أمّي أنّنا عائلةٌ لطيفةٌ للغاية، ألسنا كذلك؟ "

صارت آن تفكّر بأنّ لديها حقًّا عائلةٌ لطيفةٌ للغاية، وهي مستلقيةٌ على سريرها والطفلة بجانبها. ستكون معهم قريبًا مرّة أخرى، تحبّهم وتعلّمهم وتواسيهم. كانوا سيأتون إليها بأفراحهم وأحزانهم الصّغيرة، وآمالهم الناشئة، ومخاوفهم الجديدة، ومشاكلهم الضّئيلة التي بدت لهم كبيرة جدًّا، وبحسراتهم المريرة. كانت تمسك كلّ خيوط حياة إنجلسايد في يديها مرّةً أخرى لتحيك نسيجًا من الجمال. ويجب ألّا يكون للعمّة ماري ماريا سبب لتقول ما سمعتها آن تقوله قبل يومين: "تبدو متعبًا للغاية يا جيلبرت. ألا يعتني بك أحد؟ "

كانت العمّة ماري ماريا في الطّابق السفليّ تهزّ رأسها بيأسٍ وتقول: " أعلم أنّ كلّ أرجل الأطفال حديثي الولادة ملتوية، لكن يا سوزان إن ساقي تلك الطّفلة ملتويتان للغاية. بالّطبع لا يجب أن نقول ذلك لآني المسكينة. أشدّد عليك ألّا تذكري هذا الأمر أمام آني يا سوزان. "

استطاعت سوزان أن تكتم سرًّا لأولّ مرّة.

***

11



بحلول

نهاية شهر أيلول عادت آن إلى طبيعتها وأصبحت بصحّةٍ جيّدة، وكانت تتطلّع إلى خريفٍ سعيد. نمت بيرثا ماريلا الصّغيرة وزاد جمالها يومًا بعد يوم وكان إخوتها وأخواتها يهيمون بها.

قال جيم: "اعتقدت أنّ الأطفال يصرخون طوال الوقت. هذا ما أخبرني به بيرتي شكسبير درو." كانت الطّفلة تمسك أصابع جيم بيديها الصّغيرتين.

قالت سوزان: "أعتقد أنّ أطفال درو يصرخون طوال الوقت يا جيم العزيز. وأفترض أنّهم يصرخون لفكرة أنّهم من آل درو. لكنّ بيرثا ماريلا هي طفلة إنجلسايد."

قال جيم بحزن: "أتمنّى لو أنّني وُلدت في إنجلسايد يا سوزان."

كان يشعر دائمًا بالأسف لأنه لم يولد في إنجلسايد، تستفزّه دي بذلك في بعض الأحيان.

ذات يوم، سأل زميلٌ قديمٌ من شارلوت تاون آن: "ألا تجدين الحياة هنا مملّةً إلى حدٍّ ما؟"

كادت آن تضحك في وجهه لقوله إنّ إنجلسايد مملّ. كيف

لإنجلسايد أن يكون مملًّا مع طفلةٍ ظريفةٍ تأتي بعجائب جديدةٍ كلّ يوم، ومع زياراتٍ من ديانا وإليزابيث الصّغيرة وريبيكا ديو، ومع السيّدة سام إليسون من جلين الشماليّة التي يعالجها جيلبرت لأنّها تعاني مرضًا لم يُصب به سوى ثلاثة أشخاصٍ في العالم، ومع والتر الذي بدأ المدرسة، ونان التي شربت زجاجة عطرٍ كاملة فظنّوا أنّها ستموت لكنّ الأمر لم يكن أبدًا بهذا السّوء، ومع قطّةٍ سوداء غريبة لديها عددٌ لا يُحصى من القطط الصّغيرة في الشرفة الخلفيّة، ومع شيرلي يحبس نفسه في الحمّام وينسى كيفيّة فتح الباب، ومع التصاق شرمب بورقةٍ لاصقة لاصطياد الذباب، ومع العمّة ماري ماريا التي أشعلت ستائر غرفتها في اللّيل بينما كانت تجوب البيت بشمعةٍ لتوقظ الجميع بصراخها المروّع. الحياة مملّة!

كانت العمّة ماري ماريا لا تزال في إنجلسايد. كانت تقول بطريقةٍ مثيرةٍ للشفقة من حينٍ لآخر: "عندما تتعبون منّي فقط أعلموني، فأنا معتادةٌ على الاعتناء بنفسي." لم يكن هناك سوى ردًا واحدًا على كلامها وبالطّبع قاله جيلبرت. على الرّغم من أنه لم يكن نابعًا من قلبه كما كان في البداية، فحتى التعصّب للعائلة بالنّسبة لجيلبرت قد بدأ في التلاشي قليلًا، ثمّ أدرك لا إراديًا أنّ العمّة ماري ماريا كانت على وشك أن تصبح مشكلةً في منزله. لقد غامر يومًا ما بإعطاء تلميحٍ بسيط عن أنّ المنازل تعاني إذا تركت مهجورةً لفترةٍ طويلة؛ وافقته عمّته ماري ماريا، وأشارت بهدوءٍ إلى أنّها كانت تفكّر في بيع منزلها في شارلوت تاون.

شجّعها جيلبرت قائلًا: "ليست فكرةً سيّئة، وأنا أعرف كوخًا صغيرًا جميلًا في المدينة للبيع، أحد أصدقائي ذاهبٌ إلى كاليفورنيا ويريد بيعه. الكوخ يشبه ذلك المنزل الذي أعجبك كثيرًا حيث تعيش السيّدة سارة نيومان."

تنهّدت العمّة ماري ماريا قائلةً: "لكنّها تعيش بمفردها."

قالت آن آملةً بإقناع ماري ماريا: "إنّها تحبّ العيش بمفردها."

قالت العمّة ماري ماريا: "أنا لا أفهم الأشخاص الذين يحبّون العيش بمفردهم يا آن."

استطاعت سوزان أن تخفي تذمّرها بصعوبة.

جاءت ديانا في أيلول وقضت أسبوعًا، ثمّ جاءت إليزابيث الصّغيرة، التي لم تعد صغيرة، فقد أصبحت طويلة القامة ونحيفة، غدت الآن إليزابيث الجميلة ذات الشعر الذهبيّ والابتسامة الحزينة. كان والدها عائدًا إلى مكتبه في باريس وكانت إليزابيث ذاهبةً معه لإدارة المنزل. مشت مع آن طويلًا حول شواطئ المرفأ القديم، وعادتا إلى المنزل تحت نجوم الخريف الخلّابة. استعادتا حياة عزبة الصفصاف القديمة وتتبعّتا خطواتهما في خريطة أرض الخيال التي لا تزال إليزابيث تمتلكها وتعتزم الاحتفاظ بها إلى الأبد.

قالت: "تجدينها معلّقة على جدار غرفتي أينما ذهبتُ."

ذات يوم هبّت الريح في حديقة إنجلسايد، كانت أوّل رياح الخريف. في تلك اللّيلة كان اللون الورديّ في الغروب باهتًا. كان الصيف قد ولّى بغمضة عين، وجاء دور الخريف.

قالت العمّة ماري ماريا بلهجةٍ توحي بأنّ الخريف أهانها: "ما يزال الوقت مبكرًا للخريف."

لكنّ الخريف كان جميلًا، وممتعًا كان سماع صوت الرّياح التي تهب من الخليج الأزرق الدّاكن مع تمايل القمح في الحقول. كانت هناك أزهار الأسطر النجميّة في الجوف وأطفالٌ يمرحون في بستانٍ مليءٍ بالتّفاح، وأمسياتٌ هادئةٌ في مراعي التّلال العالية في جلين الشماليّة والسّماء رماديّة، تحلّق فيها الطيور المبلّلة بماء المطر. ومع

مرور الأيام، صار الضباب يتسلّل فوق الكثبان الرمليّة ويغطّي الميناء.

مع تساقط الأوراق، جاءت ريبيكا ديو إلى إنجلسايد للقيام بزيارةٍ كانت قد وعدت بها لسنوات. كانت تنوي البقاء لمدّة أسبوعٍ واحد، لكنّها مكثت لمدّة أسبوعين، كانوا كلّهم غير عجولين بعكس سوزان. ويبدو أنّ سوزان وريبيكا ديو اكتشفتا من اللقاء الأوّل أنّ أرواحهما متشابهة، ربما لأنّ كلتيهما أحبّتا آن، وكرهتا العمّة ماري ماريا.

حلَّ المساء وكان المطر يتساقط على الأوراق في الخارج وصرخت الرّياح حول زوايا إنجلسايد، كانت سوزان وقتئذٍ تخبر ريبيكا ديو عن جميع همومها فيما كانت الأخيرة تتعاطف معها وتواسيها. خرج الطّبيب وزوجته في زيارة، وكان أبناءهم الصّغار كلّهم نائمون ودافئون في أسرّتهم، ولحسن الحظّ تركتهم العمّة ماري ماريا بسبب الصّداع، وكانت تئنّ وتقول: "أشعر أنّ لديّ عصابةٌ من الحديد فوق رأسي."

وضعت ريبيكا ديو قدميها قرب المدفأة، وعلّقت قائلةً: "أيّ شخص يأكل تلك الكميّة من سمك الإسقمري المقليّ التي أكلتها تلك المرأة على العشاء يستحقّ الصّداع. أنا لا أنكر أنّني أكلت حصّتي يا آنسة بيكر، فأنا لم أرَ في حياتي أحدًا يقلي الإسقمري بطريقتك، لكنّني لم آكل أربع قطع."

وضعت سوزان ما كانت تحيكه جانبًا وحدّقت بتوسّلٍ في عينيّ ريبيكا السوداوين الصغيرتين وقالت بجديّة: "عزيزتي الآنسة ديو، منذ مجيئك إلى هذا المنزل رأيتِ جزءًا ضئيلًا من شخصيّة ماري ماريا بلايث، لكنّك لم ترَ شيئًا بعد. آنسة ديو الغالية، أشعر أنني أستطيع أن أثق بك. هل لي أن أفتح لك قلبي بثقةٍ تامّة؟"

أجابت ديو: "يمكنك يا آنسة بيكر."

"أتت تلك المرأة إلى هنا في شهر حزيران، وأعتقد أنّها تنوي البقاء

هنا بقيّة حياتها. الجميع في هذا المنزل يكرهونها، حتّى الطبيب لا يريدها لكنّه يخفي مشاعره، فهو عشائريّ ويقول إنّه لا ينبغي أن تشعر ابنة عمّ والده بأنها غير مرحّبٍ بها في منزله."

قالت سوزان بنبرةٍ توحي بأنّها جثت على ركبتيها عندما طلبت منهم ذلك: "لقد توسّلت إلى زوجة الطبيب بأن تستعمل صلاحيّاتها وتخبر الطّبيب بأنّ على ماري ماريا بلايث الرّحيل. لكنّ السيّدة آن رقيقة القلب، ولذلك نحن عاجزون يا آنسة ديو، إنّنا عاجزون تمامًا."

قالت ريبيكا ديو مذهولةً إلى حدٍّ كبير في ظلّ ما قالته سوزان عن العمّة ماري ماريا: "أتمنى لو كان بإمكاني أن أتصرّف معها. أعرف مثل أيّ شخصٍ آخر يا آنسة بيكر، أنّه علينا ألّا ننتهك عادات الضّيافة، لكنّني أؤكّد لك بأنّني كنت سأصارحها بالحقيقة."

"يمكنني التّصرف معها إن أردت لكنّ هذه ليست أخلاقي يا آنسة ديو. لا أنسى أبدًا أنّني لا أملك أيّة صلاحيّاتٍ هنا. أحيانًا يا آنسة ديو أقول لنفسي: "سوزان بيكر، أليس لك أي كلمة في هذا المنزل؟" لكنّك تعلمين يا آنسة ديو أنّ ليس بيدي حيلة، فلا يمكنني التّخلي عن السيّدة آن ولا يجب أن أزيد همّها بالشجار مع ماري ماريا بلايث. سأواصل السعيّ لأداء مهامّي هنا، وأنا مستعدّةٌ للموت من أجل الطّبيب أو زوجته. لقد كنّا أسرةً سعيدةً قبل أن تأتي ماري ماريا إلى هنا، فهي تجعل حياتنا بائسة وربّما الآتي أعظم، أنا لا أعلم الغيب لكنّني أعلم أنّها ستصيبنا بالجنون. إنّها تسبّب لنا الكثير من المشاكل وليست مشكلة واحدة فقط. يمكنك أن تتحمّلي بعوضةً واحدة يا آنسة ديو لكن تخيّلي الملايين منها!"

لم تتكلّم ريبيكا ديو، واكتفت بهزّ رأسها حزنًا.

"دائمًا ما تحاضر السيّدة آن، وتحاول أن تملي عليها كيف يجب أن

تدير منزلها وما الملابس التي ينبغي أن ترتديها. إنّها تراقبني دائمًا، وتقول إنّها لم تر مثل هؤلاء الأطفال المشاكسين. آنسة ديو العزيزة، لقد رأيتِ بنفسك أنّ الأطفال هنا نادرًا ما يتشاجرون."

"إنّهم من أكثر الأطفال تهذيبًا، إنّها تتطفلّ فقط يا آنسة بيكر."

"ودائمًا ما تشعربالإهانة وينكسر قلبها لأتفه الأسباب ولكنّها رغم ذلك لا تقرّر الرّحيل. تجلس معنا فقط وتبدو وحيدةً ومهملةً حتّى تلفت انتباه السيّدة المسكينة آن. هذا بالإضافة إلى أنّها دائمًا تشكو وتتذمّر، لا يعجبها شيء. إذا كانت النّافذة مفتوحة، تشكو من الرّيح والبرد، وإذا أغلقناها تقول إنها تحبّ القليل من الهواء النقي من حين لآخر. لا يمكنها تحمّل البصل، ولا تطيق رائحته، تقول إنّه يسبّب لها الغثيان. لذلك قالت السيّدة آن أنّنا يجب ألّا نستعمل البصل في الوقت الحاليّ. أظنّ أنّ حبّ البصل أمرٌ شائع بين النّاس يا آنسة ديو، لكنّنا جميعًا في إنجلسايد نشعر بالذنب لحبّنا لطعم البصل بسببها."

اعترفت ريبيكا ديو: "أنا شخصيًّا أحبّ البصل أيضًا."

"إنّها لا تستطيع تحمّل القطط، تقول إنّ القطط تخيفها بغضّ النظر عمّا إن كانت رأتها أم لا، يكفي أن تعرف أنّ هناك قطًّا في المكان. لذلك فإنّ شرمب المسكين بالكاد يجرؤ على إظهار وجهه في المنزل. أنا شخصيًّا لم أكن أحبّ القطط يا آنسة ديو، لكنّني أعلم أنّه يحقّ لها الوقوف أمامنا والتّلويح بذيولها. إنّها تزعجني دائمًا "سوزان، لا تنسي أنّني لا أستطيع أكل البيض" أو "سوزان، كم مرّةً عليّ أن أخبرك أنّني لا أستطيع أكل الخبز باردًا؟" أو "سوزان يمكن لبعض الناس شرب الشاي المرّ ولكنّني لست من تلك الفئة المحظوظة." تقول أنّني أقدّم لها شايًا مرًّا! لا يمكن أن أكون قد فعلت ذلك."

"لا أحد يتوقّع منك ذلك يا آنسة بيكر، الجميع يعلم أنّ الشاي الذي

تحضّريه لذيذٌ للغاية."

"إذا كان هناك سؤالٌ لا يجب طرحه، فسوف تسأله. إنّها تشعر بالغيرة لأنّ الطّبيب يخبر زوجته أمورًا قبل أن يخبرها بها، وتحاول دائمًا معرفة الأخبار منه عن مرضاه، وهو لا يغضب كثيرًا، فكما تعلمين، يجب أن يعرف الطبيب كيف يمسك لسانه. تغضب دائمًا بسبب النّار! تقول لي "سوزان بيكر، أتمنّى ألا تشعلي النّار أبدًا بزيت الفحم أو تتركي خرقًا ملوّثة بالزيت ملقاةً حولك فقد تسبّب احتراقًا تلقائيًا في أقلّ من ساعة. كيف سيكون شعورك وأنت تقفين وتشاهدين هذا المنزل وهو يحترق يا سوزان، مع العلم أنّه كان خطأك؟" المضحك في الأمر يا آنسة ديو أنّها في تلك اللّيلة بالذّات أشعلت النار بالستائر في غرفتها، وما زال صراخها يرنّ في أذني حتى يومنا هذا. وحدث هذا عندما كان الطبيب المسكين قد نام بعد أن ظلّ مستيقظًا لمدّة ليلتين! ما يثير غضبي يا آنسة ديو هو أنّها قبل أن تذهب إلى أيّ مكانٍ تذهب إلى حجرة المؤن الخاصّة بي وتقوم بعدّ البيض. أحاول بقدر الإمكان الامتناع عن قول "لماذا لا تقومين بعدّ الملاعق أيضًا؟" كيف تتوقّع من الأطفال أن يحبّونها؟ حذّرتهم السيّدة آن من إظهار مشاعرهم لها. لقد صفعت نان في أحد الأيام عندما كان الطّبيب والسيدة آن في الخارج، لأنّها دعتها بـ"السيّدة مفصالح" بعد أن سمعت صبيًّا مشاكسًا يقول ذلك."

قالت ريبيكا ديو بشراسة: "كنت سأصفعها هي."

"أخبرتها أنّها إذا فعلت ذلك مرّةً أخرى سأصفعها. قلت لها: "قد نضطرّ في بعض الأحيان أن نضرب أحد الأطفال ضربةً خفيفة، لكنّنا لا نلجأ أبدًا إلى الصّفع في إنجلسايد، تذكّري ذلك جيّدًا."

ظلّت متجهّمة وتشعر بالإهانة لمدّة أسبوع لكنّها على الأقلّ لم

تجرؤ على مسّ أحدهم منذ ذلك الحين. لكنها تشعر بالرّضا عندما يعاقب الطّبيب والسيّدة آن أبناءهما. ذات مساء قالت لجيم الصّغير: "لو كنت والدتك..." قال الطّفل المسكين: "أنتِ لن تكوني أمًّا أبدًا." قالها من كلّ قلبه، يا آنسة ديو. أمره الطبيب بالذهاب إلى الفراش دون أن يتناول عشاءه لكنني بالطّبع أخذت له بعض الطّعام دون أن يعلم أحد."

"كان سيُكسر قلبك يا آنسة ديو لو سمعتِ الدّعاء الذي ردّده بعد ما حدث، صار يقول: "يا إلهي سامحني لكوني وقحًا مع العمّة ماري ماريا. يا الله، أرجوك ساعدني أن أكون دائمًا مؤدّبًا جدًّا مع العمّة ماري ماريا." لقد أبكاني ذلك الصّغير المسكين. أنا لا أحبّذ وقاحة الصّغار وعدم احترامهم لكبار السّن يا آنسة ديو، لكن يجب أن أعترف أنّه عندما ألقى بيرتي شكسبير درو كرة من الورق عليها ذات يوم، وأخطأ أنفَها بشبرٍ واحدٍ فقط، أمسكت به عند البّوابة عندما كان في طريقه إلى المنزل وأعطيته كيسًا من الكعك، لكنّني بالطّبع لم أخبره عن السبب. فرح بيرتي به كثيرًا، فالكعك لا ينمو على الأشجار ووالدته لا تصنعه أبدًا. وأودّ إخبارك بسرٍّ لن أخبر أحدًا غيرك به يا آنسة ديو، لو يعلم الطبيب وزوجته بهذا الأمر كانوا سيضعون حدًّا له، وهو أنّ نان ودي يملكان دميةً صينيّةً قديمةً وأسمياها ذات الرأس المفصول تيمّنًا بالعمّة ماري ماريا وكلّما وبّختهما العمّة أغرقتا الدمية في برميل مياه الأمطار، وأؤكّد لكِ أنّهما أغرقتاها عشرات المرّات. لكن لا يمكنك تصديق ما فعلته تلك المرأة الليلة الماضية يا آنسة ديو."

"أتوقّع أيّ شيءٍ منها يا آنسة بيكر."

"لم تكن تريد أن تأكل لقمةً واحدةً على العشاء، فهي لسبب ما، قد جُرحت مشاعرها، لكنّها ذهبت إلى حجرة المؤن قبل أن تذهب إلى

الفراش وتناولت الغداء الذي كنت قد أعددته للطبيب المسكين، أكلته كلّه يا آنسة ديو. أرجو ألّا تسيئي الظنّ بي يا آنسة ديو لكنّني أحيانًا أتساءل كيف يمكن للمرء تحمّل مثل هؤلاء البشر."

قالت ريبيكا ديو بحزم: "يجب ألّا تسمحي لنفسك بأن تتغيّري وتفقدي حسّ الفكاهة الذي لديك يا آنسة بيكر."

"آه، أنا أدرك جّيدًا أن هناك دائمًا جانبًا مضحكًا في المشاكل التي نقع بها يا آنسة ديو. لكنّ السؤال هو، هل بإمكاننا رؤية هذا الجانب؟ يؤسفني أنّني أزعجتك بكل هذه الأحاديث لكنّني أشعر براحةٍ كبيرةٍ الآن. لا يمكنني قول هذه الأمور للسيّدة آن وقد شعرت مؤخرًا أنني إن كتمتها في قلبي فسأنفجر."

"أعلم هذا الشعور جيّدًا يا آنسة بيكر."

قالت سوزان وهي تنهض بهدوء: "والآن يا آنسة ديو العزيزة، ما رأيك باحتساء كوبٍ من الشاي قبل النوم وتناول قطعة دجاج باردة؟"

قالت ريبيكا ديو وهي تبعد قدميها الدّافئتين من قرب المدفأة: "لا أنكر أبدًا أنّ الطعام الجيّد يعدّ من الأولويّات والأمور الممتعة في حياتنا."

***

12



مارس

جيلبرت القنص لمدّة أسبوعين في نوفا سكوشا، وحتّى آن لم تستطع أن تقنعه بالبقاء لمدة شهر. جاء شهر تشرين الثّاني وبدت التّلال المظلمة المغطّاة بأزهار التنوب الدّاكنة قاتمةً في اللّيالي، لكنّ إنجلسايد ازدهرت بالضحكات والأجواء الممتعة، على الرّغم من أنّ الرّياح القادمة من المحيط الأطلسي كان صوتها حزينًا.

سأل والتر ذات ليلة: "لماذا لا تبدو الرّياح سعيدةً يا أمّي؟"

أجابت آن: "لأنّها تحمل كلّ أحزان العالم منذ أن بدأ الزمن."

علّقت العمّة ماري ماريا: "إنّها تئنّ فقط لأنّ السّماء تمطر، في حين أنّني أجلس هنا صامتةً رغم أنّ ظهري يؤلمني بشدّة."

ولكن في بعض الأيّام، كانت الريّاح تهبّ بقوّة عبر خشب القيقب الرماديّ، وفي بعض الأيّام لم تكن هناك رياحٌ على الإطلاق، بل ظهرت فقط أشعة الشمس الصيفيّة الهادئة وظلال الأشجار العارية على العشب وساد السكون البارد عند غروب الشمس.

قالت آن: "انظروا إلى نجمة المساء البيضاء تلك فوق لومباردي في الزّاوية، عندما أرى شيئًا من هذا القبيل، أتذكّر أنّ بقائي على قيد الحياة

هو بحدّ ذاته نعمة."

قالت العمّة ماري ماريا: "أنت تقولين مثل هذه الأمور المضحكة يا آني. هناك الكثير من النّجوم في جزيرة بي إي، إنّها شائعةٌ جدًا." وقالت لنفسها: "نجومٌ بالفعل! كما لو لم ير أحدٌ نجمًا من قبل! ألا تعلم آني بالهدر الكبير الذي يحدث في المطبخ كلّ يوم؟ ألم تكن تعلم بالطّريقة المتهوّرة التي رمت بها سوزان بيكر البيض واستخدمت شحم الخنزير حيث كان بإمكانها استعمال غيره؟ أم أنّها لا تهتم؟ مسكينٌ جيلبرت! لا عجب أنّ عليه أن يعمل بجدٍّ طوال الوقت!"

كان تشرين الثاني شهر الضباب والطقس الغائم، ولكن بحلول الصباح كان الثلج قد كسا القرية بحلّةٍ بيضاء جميلة، فصرخ جيم بفرحٍ وهو يندفع لتناول الإفطار وقال: "سيأتي عيد الميلاد قريبًا الآن وسيأتي بابا نويل!"

قالت العمة ماري ماريا: "ألا زلت تؤمن ببابا نويل حتّى الآن؟!"

ألقت آن نظرةً خاطفةً على جيلبرت ملمّحةً له، وقالت بجديّة: "نريد أن يبقى أطفالنا حالمين وأن يستمتعوا بعالم الخيال خاصّتهم قدرما يستطيعون يا عمّتي."

لحسن الحظ، لم ينتبه جيم إلى ما قالته العمّة ماري ماريا. كان هو ووالتر حريصين للغاية على رؤية جمال الثلج الذي حمله الشتاء والذي كان بالنسبة لهما عالمًا جديدًا. كانت آن تكره رؤية الثلج ما لم يكن كثيفًا؛ لكن لم يكن بإمكانها أن تنكر روعة المظهر وجمال الغرب الذي رسمته الشمس في نهاية النهار فوق كلّ التجاويف البيضاء في التلال البنفسجيّة. كانت جالسةً في غرفة المعيشة عندما رأت أشجار القيقب تبدو كأنّها تحترق بعد انعكاس ألوان الغروب عليها، وكانت تعتقد أنّ الألوان الناريّة جميلةٌ للغاية وسحريّة. انعكس المشهد بالكامل على

العشب في الخارج، من خلال النافذة الكبيرة، حيث بدت العمّة ماري ماريا جالسةً توحي تعابير وجهها بالصرامة والجديّة فلم تسمح لنفسها بأن تسترخي تحت أشجار الصنوبر الاسكتلندي.

كان جيلبرت متمدّدًا على الأريكة، محاولًا أن ينسى أنّه فقد مريضًا في ذلك اليوم بسبب الالتهاب الرئوي. وكانت ريلا الصّغيرة تحاول أن تأكل أصابعها في سلّتها، وكان شرمب يجرؤ على الخرخرة على السجّادة بمخالبه البيضاء الملتفّة تحت صدره، الأمر الذي أثار استهجان العمّة ماري ماريا.

لم يكن أحدٌ يتكلّم عن القطط عندما قالت العمّة ماري ماريا بشكلٍ مثيرٍ للشفقة: "بالحديث عن القطط، هل تزورنا جميع القطط في جلين ليلًا أنا حقًّا لا أفهم كيف يمكن لأيّ شخصٍ أن ينام بينما راحت القطط تتشاجر اللّيلة الماضية. وبما أنّ غرفتي في الخلف، أفترض أنّني أسمع حفلة الشّجار كلّها مجّانًا."

قبل أن يضطر أيّ شخص للرد على العمّة، دخلت سوزان قائلةً إنّها رأت السيّدة مارشال إليوت في متجر كارتر فلاج وهي قادمةٌ لزيارة آل بلايث عندما تنتهي من التسوّق.

....لم تجرؤ سوزان على قول أنّ السيّدة إليوت قالت بقلقٍ: "ما بها السيّدة بلايث يا سوزان؟ رأيتها يوم الأحد الماضي في الكنيسة وكانت تبدو متعبةً للغاية وقلقة، لم أرها هكذا من قبل."

أجابتها سوزان: "يمكنني أن أخبرك ما يحصل للسيّدة بلايث، إنّها تعاني بسبب العمّة ماري ماريا. ويبدو أنّ الطّبيب لم يلاحظ ذلك، على الرّغم من أنّه يهيم عشقًا بزوجته."

قالت السيّدة إليوت: "كلّ الرّجال هكذا."

قالت آن: "أسعدني هذا الخبر، فأنا لم أر الآنسة كورنيليا منذ فترةٍ طويلة. الآن ستعلمنا بكلّ ما هو جديد."

قال جيلبرت: "أنا متأكّدٌ من ذلك."

قالت العمّة ماري ماريا: "تلك المرأة ثرثارةٌ وخبيثة."

دافعت سوزان عن الآنسة كورنيليا لأول مرّةٍ في حياتها.

قالت: "لا ليست كذلك! أنا والآنسة بلايث لن نقف أبدًا مكتوفتي الأيدي ونحن نسمعك تقولين عنها كلامًا باطلًا. هل سمعت يومًا يا آنسة بلايث عن الذي يرى القشة في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه؟"

قالت آن متوسّلة: "توقّفي يا سوزان."

"أستميحك عذرًا يا زوجة الطبيب العزيزة، أعترف أنّني تجاوزت حدودي، ولكن بعض الأمور لا يمكن تحمّلها."

عندئذ، طرق أحدهم الباب بقوّة، وكان من النّدر أن تُقرع الأبواب بهذه الطّريقة في إنجلسايد.

قالت العمّة ماري ماريا: "أرأيتِ يا آني؟ لكنني أفترض أنه طالما أنّك على استعدادٍ للتغاضي عن تصرّف الخادمة، فليس بيدِ أيّ شخصٍ حيلة."

نهض جيلبرت وذهب إلى المكتبة حيث يمكن لرجل متعب مثله الحصول على الرّاحة والسّكينة. وذهبت العمّة ماري ماريا التي لا تحبّ الآنسة كورنيليا إلى الفراش. لذلك عندما جاءت الآنسة كورنيليا وجدت آن وحيدة، تجلس قرب سلّة الطّفلة. لم تبدأ الآنسة كورنيليا في سرد أخبار القيل والقال، على غير عادتها. وبدلًا من ذلك، عندما وضعت معطفها جانبًا، جلست بجانب آن وأمسكت يدها.

"عزيزتي آن، ما الأمر؟ أعرف أنّ هناك خطبٌ ما. هل تلك العجوز

ماري ماريا تؤذيكِ؟"

حاولت آن أن تبتسم ثمّ قالت: "آه يا آنسة كورنيليا، أعلم أنّني حمقاء لاكتراثي كثيرًا بما يحدث، لكنّ اليوم كان أحد الأيّام التي يبدو فيها أنّني لا أستطيع الاستمرار في تحمّلها، إنّها تدمّر حياتنا هنا."

"لم لا تطلبي منها الرّحيل؟"

"لا يمكننا فعل ذلك يا آنسة كورنيليا، أو على الأقلّ أنا وجيلبرت لا نستطيع فعلها. يقول إنّه سيخجل من نفسه كثيرًا إذا طرد من منزله شخصًا من لحمه ودمه."

قالت الآنسة كورنيليا: "يا لها من ملعونة! لديها الكثير من المال وتملك منزلًا جميلًا. لن يكون الأمر سيّئًا إن طلبتم منها الرّحيل وأخبرتموها أنّه من الأفضل لها أن تذهب وتعيش في ذلك المنزل."

"أعلم، لكنّني لا أعتقد أنّ جيلبرت يعلم بكلّ ما يحدث، فهو يقضي معظم أوقاته في العمل، وكلّ الأمور التي تزعجني بها تلك المرأة هي أمورٌ بسيطة وتافهة. أنا أشعر بالخجل."

"أعرف يا عزيزتي لكنّ تلك التفاصيل الصغيرة تصبح كبيرةً عندما تتراكم. لن يفهم الرجال هذا بالطّبع. أعرف امرأةً في شارلوت تاون تعرف العمّة ماري ماريا جيّدًا، تقول أنّ ماري ماريا بلايث لم يكن لديها قط أي أصدقاء في حياتها. ما تحتاجينه يا عزيزتي، هو الجرأة الكافية لتقولي إنّك لن تتحمّلينها بعد الآن."

قالت آن بكآبة: "أشعر كما لو أنني أعيش ذلك الحلم الذي تحاولين فيه الجري ولا يمكنك سوى جرّ قدميك. لو كان هذا يحدث بين الحين والآخر لكانت المشكلة بسيطة، لكنّني أواجه هذا كلّ يوم. أصبحت الوجبات مرعبة بالنّسبة لنا. يقول جيلبرت إنّه لم يعد بإمكانه تقطيع اللّحم المشويّ بعد الآن."

قالت كورنيليا: "كان يلاحظ تصرّفاتها إذًا."

"لا يمكننا أبدًا إجراء أيّ محادثاتٍ حقيقيّةٍ في أوقات الطّعام لأنّنا على يقينٍ من أنّها ستقول كلامًا غير منطقيّ في كلّ مرّة يتحدّث فيها أحدنا. إنّها تصحّح سلوك الأطفال باستمرار وتلفت الانتباه دائمًا إلى أخطائهم أمام الزوّار. اعتدنا أن نستمتع بتناول وجباتنا، أمّا الآن فالوضع مختلفٌ تمامًا!...

...تستاء من الضحك، وأنت تعلمين كم نحبّ الضحك. دائمًا ما يرى أحدٌ منّا نكتةً أو مزحةً في كلام الآخر أو فعله، لكنّنا لم نعد كذلك بعدما جاءت. لا تستطيع أن تتغاضى عن أيّ أمر. قالت اليوم: "جيلبرت، لا تتجهم. هل تشاجرت مع آني؟" سألته ذاك السّؤال فقط لأنّنا كنّا هادئين وصامتين. أنت تعلمين أنّ جيلبرت دائمًا ما يصاب بقليلٍ من الاكتئاب عندما يفقد مريضًا كان يعتقد أنّه سيعيش. ثمّ حاضرتنا عن حماقتنا وحذّرتنا من ترك الشمس تغرب دون أن نتصالح. ضحكنا عليها بعد ذلك. هي وسوزان لا تتفقان، ولا يمكننا أن نمنع سوزان من التّمتمة غير الأخلاقيّة. ولم تكتف بالتمتمة عندما أخبرتها العمّة ماري ماريا أنّها لم تر أحدًا أكذب من والتر لأنّها سمعته يخبر دي بقصّة طويلة عن لقاء رجلٍ على سطح القمر وما قالاه لبعضهما البعض. أرادت أن تمسح فمه بالماء والصابون، وحصلت بينها وبين سوزان معركةٌ في ذلك الوقت. وهي تملأ عقول الأطفال بكلّ أنواع الأفكار المروّعة، فذات مرّةٍ أخبرت نان عن طفلٍ كان شقيًا ومات أثناء نومه و منذ ذلك الوقت، أصبحت نان تخشى النّوم. وأخبرت دي أنّها إذا بقيت دائمًا فتاةً جيّدة، فإن والديها سيحبّانها كما يحبّان نان، حتّى لو كان لديها شعرٌ أحمر. غضب جيلبرت كثيرًا عندما سمع ذلك وتحدّث معها بحدّة.

كنت آمل أنّها ستشعر بالإهانة وتذهب، على الرغم من أنّني أكره

السّماح لأيّ شخصٍ بمغادرة منزلي لتعرّضه للإهانة، لكنّ عينيها الزرقاوتين الكبيرتين امتلئتا بالدّموع وقالت إنّها لم تكن تنوي أن تسبّب أيّة مشاكل. لطالما سمعت أنّنا لا نحبّ التوأمين بشكلٍ متساوٍ وكانت تعتقد أنّنا نفضّل نان وأنّ المسكينة دي شعرت بذلك! بكت طوال اللّيل بسبب ما حصل فشعر جيلبرت أنّه كان قاسيًا معها واعتذر."

قالت الآنسة كورنيليا: "بالطّبع كان سيعتذر!"

"لا ينبغي أن أتحدّث بهذه الطريقة يا آنسة كورنيليا. عندما أعدّ نعمي أشعر أنّ الاهتمام بهذه الأمور تافهٌ للغاية حتى لو كانت تعكّر مزاجي أحيانًا. وهي ليست دائمًا لئيمة، أحيانًا تكون لطيفةً جدًّا."

قالت الآنسة كورنيليا ساخرة: "أنا متأكّدة أنّها كذلك."

"نعم وتكون ودودةً أيضًا. سمعتني أقول أنّني أريد طقم شاي فذهبت إلى تورنتو وأحضرت لي واحدًا لكن عن طريق البريد! إنّه قبيحٌ للغاية يا آنسة كورنيليا!"

ضحكت آن ضحكةً انتهت بنحيب، ثمّ ضحكت مرّةً أخرى.

"لن نتحدث عنها بعد الآن، لا يبدو الأمر سيئًا للغاية الآن بعد أن بحتُ بكلّ هذا. انظري إلى ريلا يا آنسة كورنيليا. أليست رموشها جميلة عندما تكون نائمة؟ الآن دعينا نبدأ بثرثرتنا."

عادت آن إلى طبيعتها مرّةً أخرى بحلول الوقت الذي ذهبت فيه الآنسة كورنيليا. ومع ذلك، جلست متأمّلة أمام النار لبعض الوقت. لم تخبر الآنسة كورنيليا بكلّ شيء ولم تخبر جيلبرت شيئًا. كان هناك الكثير من الأمور الصّغيرة التي لا يعلم بها أحد.

قالت آن لنفسها: "إنّها أمورٌ بسيطةٌ للغاية لا تستحقّ أن أذكرها أو أشكو منها، ومع ذلك فإنّ الأشياء الصغيرة هي التي تحدث ثقوبًا في حياتنا وتفسدها مثلما تفعل حشرات العثّ. تمثّل العمّة ماري ماريا دور

المضيفة وتدعو الضيوف إلى منزلي دون علمي فأتفاجأ بهم. تجعلني أشعر وكأنّني لا أنتمي إلى منزلي. تنقل الأثاث عندما أكون في الخارج وتقول لي: "آمل ألّا تمانعي يا آني؛ اعتقدت أننا بحاجةٍ إلى الطّاولة هنا أكثر فوضعتها هنا بدلّا من أن تكون في المكتبة. إنّها فضوليّةٌ بشكلٍ طفوليّ، فتسألني أسئلةً لا معنى لها حول الأمور الحميميّة وتأتي دائمًا إلى غرفتي دون أن تطرق الباب، ودائمًا تقول إنّها تشمّ رائحة دخان وتعدّل الوسائد التي حشوتها وتلمّح أنّني أثرثر مع سوزان. تنتقد الأطفال بكثرة، يجب أن نكون معهم طوال الوقت لنجعلهم يحسنون التصرّف ولا ننجح دائمًا في ذلك."

في يومٍ من الأيّام قال شيرلي بصوتٍ عالٍ: "العمّة العجوز القبيحة مايويا." كاد جيلبرت أن يصفعه، لكنّ سوزان دافعت عنه ومنعت حدوث ذلك.

فكّرت آن: "أصبحنا نسأل أنفسنا في المنزل قبل قول أمرٍ أو فعله ما إذا كانت ستحبّه العمة ماري ماريا. لن نعترف بذلك، لكنّ هذا ما يحدث. نفضّل أن نفعل أيّ شيءٍ على أن نراها تبكي وتمسح دموعها. لا يمكننا أن نستمرّ في ذلك."

13



قال والتر بحزن: "لا يبدو أنّ فصل الشتاء سيكون جميلًا كما كان في السنين الماضية، أليس كذلك يا أمي؟"

تساقطت الثلوج في أولّ شهر تشرين الثاني ولم يكن هناك أثرٌ لها بعدها، وطوال شهر كانون الأوّل، كانت جلين سانت ماري أرضًا سوداء كئيبة، يحدّها خليجٌ رماديّ تتخلّله قممٌ متعرّجة من الرغوة البيضاء الجليدية. لم يكن هناك سوى بضعة أيّامٍ مشمسة كان فيها الميناء يتلألأ محاطًا بالتّلال الذهبيّة، أمّا الأيام الباقية فكانت قاسية للغاية. كان أفراد إنجلسايد يأملون في تساقط الثلوج لعيد الميلاد عبثًا، لكنّ التّحضيرات استمرّت، ومع اقتراب الأسبوع الأخير قبل العيد، كانت إنجلسايد مليئة بالغموض والأسرار والهمسات والروائح اللذيذة. في اليوم السابق لعيد الميلاد، كان كلّ شيءٍ جاهزًا. كانت شجرة التنوب التي أحضرها والتر وجيم من الجوف في زاوية غرفة المعيشة، وعُلّقت أكاليلٌ خضراء كبيرة مربوطةٌ بحلقاتٍ ضخمةٍ من الشريط الأحمر، على النّوافذ والأبواب. وزيّنت الدرابزينات بزخارف جميلة، وكانت حجرة الطعام المسؤولة عنها سوزان متخمة. وفي وقتٍ

متأخرٍ من فترة ما بعد الظهر، استسلم الجميع لعيد الميلاد الأخضر الكئيب، نظر أحدهم من النافذة ورأى ثلوجًا بحجم الريش تتساقط بكثافة.

صاح جيم: "ثلج! ثلج! ثلج! أخيرًا عيد ميلادٍ أبيض يا أمّي!"

ذهب أطفال إنجلسايد إلى الفراش سعداء، وناموا بدفءٍ وراحة مستمعين إلى صفير العاصفة وهي تهبّ في الخارج طوال اللّيل الثلجيّ. ذهبت آن مع سوزان لتزيين شجرة عيد الميلاد، ما جعل العمّة ماري ماريا تقول بازدراء إنّهما تتصرفان كالأطفال." لم توافق ماري ماريا على وضع الشموع على الشجرة وقالت: "ماذا لو اشتعلت النيران في المنزل بسببها؟" ولم توافق على الكرات الملوّنة قائلةً: "ماذا لو أكلها التوأمان؟" لكنّ الجميع تجاهلها، مدركين أنّ تجاهُلها هو الحلّ الوحيد للعيش معها.

صرخت آن: "لقد أنهيتها!" وهي تثبّت النّجمة الفضيّة الكبيرة على قمّة الشجرة. ثمّ سألت سوزان: " ألا تبدو جميلةً يا سوزان! أليس من الجميل أن نشعر أنّنا أطفالٌ مرّةً أخرى في عيد الميلاد دون أن نخجل منه! أنا سعيدة جدًا لتساقط الثلوج، لكنّني آمل ألّا تستمرّ العاصفة طوال اللّيل."

قالت العمة ماري ماريا بإيجابية: "أتوقّع أن تهبّ العاصفة غدًا."

دخلت آن إلى الردهة وفتحت الباب الأماميّ الكبير ونظرت إلى الخارج، كانت العاصفة الثلجيّة البيضاء قد غطّت كلّ المنطقة. كانت ألواح النوافذ رمادية اللون، وبدت شجرة الصنوبر الاسكتلندي كشبحٍ ضخمٍ مرتديًا شرشفًا أبيض.

اعترفت آن بحزن: "لا يبدو الأمر مبشّرًا للغاية."

قالت سوزان وهي تطلّ من فوق كتفها: "الطقس يتغيّر بقدرة الله يا

زوجة الطبيب العزيزة، ولا تتحكّم به الآنسة ماري ماريا بلايث."

قالت آن وهي تمضي: "آمل ألّا يزورنا أحدٌ اللّيلة". نظرت إليها سوزان نظرةً أخيرةً في الظلام قبل أن تذهب في اللّيلة العاصفة وحذّرتها مشيرةً باتجاه جلين الشماليّة حيث كانت السيّدة زوجة جورج درو تنتظر طفلها الرّابع فقالت: "لا تذهبي وتحضري طفلًا الليلة."

رغمًا عن العمّة ماري ماريا، هبّت العاصفة في الليل، وملأت في الصباح الجوف السري بالثلج وكان لون التلال نبيذيًا بعد أن انعكست عليه الشمس ساعة الشروق. استيقظت جميع اليرقات الصغيرة في وقتٍ مبكر وبدت مرصّعةً بالنجوم ومتلألئة.

"هل استطاع بابا نويل اجتياز العاصفة يا أمّي؟"

قالت العمّة ماري ماريا: "لا، لقد كان مريضًا ولم يجرؤ على المحاولة". كانت تظنّ أنّها تتمتّع بحسّ الفكاهة وأنّها مرحة، عكس ما كان يعتقده الجميع.

قالت سوزان قبل أن تدمع أعين الأطفال: "لقد وصل بابا نويل إلى هنا وهو بخير. وبعد أن تتناولوا فطوركم سترون ما فعله بالشجرة التي زينّاها."

بعد الإفطار، اختفى الأب في ظروفٍ غامضة، لكن لم يفتقده أحد لأنّهم كانوا مذهولين بالشجرة الرّائعة، بكراتها الذهبيّة والفضيّة والشموع المضاءة تحتها في الغرفة المظلمة، مع هدايا مغلّفة بمختلف الألوان ومربوطة بأجمل الشرائط. ثمّ ظهر بابا نويل، كان يرتدي ثوبًا أحمر بفراءٍ أبيض، وله لحيةٌ بيضاء طويلة وبطن كبير، فكانت سوزان قد حشت ثلاث وسائد في العباءة المخمليّة الحمراء التي صنعتها آن لجيلبرت. صرخ شيرلي من الخوف في البداية، لكنّه رفض أن يخرج من الغرفة لشدّة جمالها. وزّع بابا نويل كلّ الهدايا بعد إلقاء خطابٍ

صغيرٍ مضحكٍ للجميع بصوت بدا مألوفًا بشكلٍ غريب لهم حتّى من خلال القناع؛ وفي النّهاية، اشتعلت النّيران في لحيتهِ بسبب شمعة، وشعرت العمّة ماري ماريا ببعض الرضا الطفيف من الحادثة وإن لم يكن كافيًا لمنعها من التنهّد بحزن.

نظرت ماري ماريا إلى الهديّة التي أرسلتها إليزابيث الصّغيرة لآن من باريس وكانت عبارةً عن تمثالٍ برونزيّ جميل لأرتميس صاحبة القوس الفضي وقالت باستنكار: "يا حسرتي، لم يعد عيد الميلاد كما كان عندما كنت طفلة."

ثمّ سألت بصرامة: "من هذه الفاجرة الفاحشة؟"

تبادلت آن ابتسامةً مع جيلبرت وأجابت: "السيّدة ديانا، يعتبرها اليونانيّون إلهة."

"آه، إنّها وثنيّة! حسنًا، أعتقد أنّ الأمر مختلف. ولكن لو كنت مكانك يا آني، فلن أتركه حيث يمكن للأطفال رؤيته. أحيانًا أفكّر في أنه لم يتبقّ حياءٌ في العالم." ثمّ اختتمت العمّة ماري ماريا، بكلامٍ فارغٍ تتّسم به الكثير من ملاحظاتها فقالت: "لم ترتدِ جدّتي أقلّ من ثلاث تنانير تحتيّة شتاءً وصيفًا."

كانت العمة ماري ماريا قد حاكت كفوفًا باللون الأرجوانيّ لجميع الأطفال، وسترةً لآن أيضًا، وتلقّى جيلبرت ربطة عنقٍ صفراء وحصلت سوزان على تنورةٍ تحتيّةٍ حمراء. واعتبرت سوزان أن التنانير الداخليّة الحمراء أصبحت موضة قديمة، لكنّها شكرت العمّة ماري ماريا.

فكّرت سوزان: " إنّها تلائم إحدى المبشرات المسكينات اللواتي يرتدين ثلاث تنانير داخليّة أكثر! أنا امرأةٌ محترمة و أعجبتني تلك المرأة ذات القوس الفضيّ، صحيحٌ أنّ ملابسها ليست مقبولةً نوعًا ما، ولكن إذا كان لديّ تمثالٌ مثل هذا لم أكن لأخبّئه. والآن فما يتعلق بحشو

الدّيك الرومي، لن يكون لذيذًا بما فيه الكفاية مع عدم وجود البصل فيه."

كانت إنجلسايد مفعمة بالسعادة في ذلك اليوم، مجرّد سعادة بسيطة قديمة الطّراز، على الرغم من العمّة ماري ماريا التي لم تحبّ أن ترى الناس سعداء كثيرًا.

كانت ماري ماريا متطلّبة ومنتقدة للغاية، فخلال وجبة العشاء كانت تقول: "أريد اللّحم الأبيض من فضلك. تناول الحساء بهدوء يا جيمس. آه، أنت لا تقطّع اللّحم بطريقةٍ جيّدة كما كان يفعل والدك يا جيلبرت. كان يعطي كلّ شخصٍ على الطّاولة قطعته كما يريدها تمامًا. أيّها التوأمان، كبار السنّ يرغبون في الحصول على فرصةٍ الآن ومن ثمّ التحدث عن مواضيع خاصّة. لقد نشأت على قاعدةٍ تقضي بوجوب رؤية الأطفال وعدم سماعهم."

ثمّ قالت: "لا، شكرًا لك يا جيلبرت، لا أريد سلطة، ولا آكل الطعام النيء. نعم يا آن، سأتناول القليل من الحلوى. لا أستطيع أن أهضم تمامًا فطائر اللحم المفروم."

قال الطبيب: "فطائر اللّحمة المفرومة التي تصنعها سوزان لذيذةٌ للغاية ، كما أنّ فطائر التفاح شهيّةٌ جدًّا. أعطني قطعةً من كليهما، يا فتاتي العزيزة آن."

"هل تحبّين حقًّا أن يُقال لك فتاةٌ في مثل هذا العمر يا آني؟ لم تأكل يا والتر كلّ الخبز والزبدة! يتمنّى الكثير من الأطفال الفقراء تناولها. عزيزي جيمس، توقّف عن التنفس بصوتٍ عالٍ، لا يمكنني تحمّل هذا الصوت."

لكنّه كان بالنسبة لهم عيد ميلادٍ جميل. حتى العمة ماري ماريا فرحت قليلًا بعد العشاء، وقالت بودّ أن الهدايا التي قُدمت لها كانت

لطيفةً للغاية حتى أنّها تحمّلت شرمب فصبرت بصعوبةٍ عليه ما جعلهم جميعًا يشعرون بالخجل قليلًا من حبّه. صارت آن تنظر إلى الأشجار على التلال البيضاء وإلى سماء الغروب، والأطفال في الخارج على العشب وهم ينثرون فتاتًا للطّيور على الثلج. وكانت الريح تتنهّد بهدوءٍ في الأغصان، ناثرةً الثلوج فوق العشب وواعدةً بالمزيد من الطقس العاصف في الغد، لكنّ إنجلسايد كانت قد حظيت بيومها المميّز.

قالت آن بسعادةٍ في تلك اللّيلة: "أعتقد أنّ أولادنا الصّغار قد قضوا وقتًا ممتعًا."

وافقت العمة ماري ماريا قائلة: "أفترض أنّهم استمتعوا للغاية. على أيّ حال، أنا متأكّدة أنّهم أصدروا أصواتًا غريبةً نظرًا للطّعام الذي تناولوه، ولكن لا يهمّ طالما لديكم زيت الخروع في المنزل."

***

14



كان هذا ما وصفته سوزان بشتاء مزخرف، فقد أبقى الذوبان والصقيع المتجمّد إنجلسايد مزيّنةً برقائق الثلج الرائعة. وقام الأطفال بإطعام سبعةٍ من الطّيور الزرقاء التي كانت تأتي بانتظامٍ إلى البستان للحصول على الطّعام، والتي سمحت لجيم بحملها على الرّغم من أنّها كانت تهرب من أيّ شخصٍ آخر. جلست آن في اللّيالي تطّلع على قائمة البذور في شهري كانون الثاني وشباط. ثم حلَّقت رياح آذار فوق الرمال وفوق الموانئ والتلال. قالت سوزان إنّ الأرانب كانت تضع بيض عيد الفصح.

صرخ جيم الذي يحبّ الرياح كثيرًا: "أليس آذار شهرًا مثيرًا يا أمّي؟"

كان عليهم الحذر من حماس جيم الذي جعله يخدش يده بمسمارٍ صدئٍ ويعاني ألمًا حادًّا لبضعة أيّام، بينما كانت تروي العمّة ماري ماريا كلّ قصص تسمّم الدم بسبب المسامير التي سمعتها طوال حياتها. لكن حسبما قالت آن بعد زوال الخطر، فإنّ هذا يُعدّ أمرًا متوقّعًا من ولدٍ صغيرٍ محبٍّ للتّجارب.

وها قد أتى نيسان بأمطاره الحلوة الخفيفة. وفي الصباح، عادت

أشعة الشمس فصرخت دي: "انظري يا أمّي كيف جعلت الأمطار العالم يبدو نظيفًا وجميلًا."

كانت نجوم الربيع تلمع وتتألّق فوق الحقول الضبابيّة، وكانت شجيرات الصفصاف في المستنقع وحتى الأغصان الصغيرة على الأشجار تبدو وكأنّها فقدت قوّتها وأصبحت طريّة وواهنة. كان ظهور أولّ عصفور دليلًا على عودة الرّبيع، وازدهر الجوف مرّةً أخرى. أحضر جيم لوالدته أوّل أزهار نيسان، رغم استياء العمة ماري ماريا التي اعتقدت أنّه كان يجب أن يحضر الأزهار لها، وبدأت سوزان تفرز رفوف العليّة. بالكاد حظيت آن بدقيقةٍ واحدةٍ لنفسها طوال الشتاء، فكانت فرحةً بعودة الربيع وعاشت حرفيًا في حديقتها، بينما أظهر شرمب سعادته بالرّبيع بالتلويح بذيله في كلّ المنزل.

قالت العمّة ماري ماريا: "إنك تهتمّين بتلك الحديقة أكثر ممّا تهتمّين بزوجك يا آني."

أجابت آن حالمة: "حديقتي لطيفةٌ للغاية." وبعد أن أدركت النتائج التي قد تؤخذ من كلامها، صارت تضحك.

"أنتِ تقولين أمورًا غير عاديّة يا آني. بالطّبع أعلم أنّك لا تقصدين أنّ جيلبرت ليس لطيفًا، ولكن ماذا لو سمعك شخصٌ غريبٌ تقولين هذا؟"

قالت آن بفرح: "عزيزتي العمّة ماري ماريا، أنا لست مسؤولةً حقًّا عمّا أقوله في هذا الوقت من العام، والجميع هنا يعرف ذلك. أنا مهووسةٌ بالربيع بعض الشيء وهذا الأمر خارجٌ عن إرادتي. ألا تلاحظين أشكال الضباب كالساحرات الرّاقصات فوق الكثبان الرمليّة؟ وهل رأيت النّرجس البريّ؟ لم نر أبدًا مثل هذه الكميّة من النرجس البريّ في إنجلسايد من قبل."

قالت العمة ماري ماريا وهي تلفّ شالها حولها وتذهب إلى داخل المنزل لحماية ظهرها: "لا أهتمّ كثيرًا بأزهار النّرجس، أعتقدُ أنّ الناس يبالغون في حبّهم لها."

قالت سوزان بطريقةٍ تنذر بالسوء: "هل تعلمين يا زوجة الطبيب العزيزة ماذا حدث لتلك القزحيّة الجديدة التي أردتِ زرعها في تلك الزاوية المظلّلة؟ لقد زرعَتْها بعد ظهر هذا اليوم عندما كنتِ خارج المنزل، في أكثر مكانٍ مشمسٍ من الفناء الخلفيّ."

"يا إلهي! ولا يمكننا إزالتها فقد تُجرح مشاعرها!"

"أعطني فقط الضوء الأخضر وسأزيلها يا زوجة الطبيب العزيزة."

"كلّا يا سوزان، سنتركها هناك في الوقت الحاليّ. أذكر أنّها بكت، عندما ألمحت لها إلى أنّها لا ينبغي لها أن تقطع أزهار سبيريا قبل أن تتفتّح."

"لكنّها سخرت من أزهار النرجس يا عزيزتي زوجة الطبيب، وهي أزهارٌ مشهورةٌ في جميع أنحاء الميناء."

"إنّها تستحقّ كلّ هذه الشّهرة، انظري إليها وهي تسخر منك لأنّك مكترثة بما قالته العمّة ماري ماريا. في النّهاية يا سوزان، ستنبت أزهار السلبوت في هذه الزاوية. إنّه لشعورٌ رائعٌ عندما تفقدي الأمل في زهرةٍ لتريها تنبت فجأة...

...سأحظى بحديقة ورودٍ صغيرةٍ في الزاوية الجنوبيّة الغربيّة، يقشعر بدني لمجرّد سماع كلمة حديقة الورود. هل رأيتِ سماءً زرقاءَ بهذا الشكل من قبل يا سوزان؟ ولو كنتِ تنصتين الآن في اللّيل، سيكون بإمكانك سماع أصوات الجداول الصّغيرة في الريف. فكّرت في أن أنام في الجوف اللّيلة وأجعل من البنفسج البريّ وسادةً لرأسي."

قالت سوزان بصبر: "ستجدينه رطبًا جدًا."

كانت آن دائمًا هكذا في الربيع، إنّه أمرٌ مؤقتٌ وسينتهي.

قالت آن: "سوزان، أريد أن أقيم حفلة عيد ميلاد الأسبوع المقبل."

سألتها سوزان: "حسنًا ، ولمَ لا؟" كانت سوزان متأكّدة أن أيًا من أفراد العائلة لم يحتفل بعيد ميلاده في الأسبوع الأخير من شهر أيّار، ولكن إذا أرادت السيدة آن أن تقيم حفلة عيد ميلاد فلم التّردد في ذلك؟"

قالت آن: "من أجل العمّة ماري ماريا، عيد ميلادها الأسبوع المقبل. يقول جيلبرت إنّها أكملت الخامسة والخمسين من عمرها وأنا أفكّر في أن أقيم لها حفلةً صغيرة."

"عزيزتي زوجة الطبيب، هل تقصدين حقًا إقامة حفلة من أجلها؟"

"لا تنفعلي يا سوزان، هدّئي من روعك يا عزيزتي. سوف يسعدها ذلك، في النّهاية ليس لديها أحدٌ في هذه الحياة غيرنا."

"هذا خطؤها."

"ربّما، ولكن أريد حقًا أن أفعل هذا لها يا سوزان."

قالت سوزان بشؤم: "زوجة الطبيب العزيزة، لقد كنت دائمًا لطيفةً بما يكفي لتمنحيني إجازةً لمدّة أسبوع كلّما شعرت أنّني بحاجةٍ إليها. ربّما من الأفضل لي أن آخذها الأسبوع المقبل! سأطلب من ابنة أخي جلاديس أن تأتي و تساعدك، وبعد ذلك يمكن أن تقيم الآنسة ماري ماريا بلايث عشراتٍ من حفلات أعياد الميلاد."

قالت آن ببطء: "إن كان هذا شعورك حيال الفكرة يا سوزان، فسوف أتخلّى عنها بالطّبع."

"زوجة الطبيب العزيزة، تلك المرأة فرضت نفسها عليك وتعتزم البقاء هنا إلى الأبد. لقد أزعجتك، وهيمنت على الطّبيب وجعلت حياة الأطفال بائسة ولن أتكلّم عمّا فعلته بي. لقد وبّخت وتذمّرت و حرّضت

وانتحبت، والآن تريدين إقامة حفلة عيد ميلاد لها! حسنًا، كلّ ما يمكنني قوله هو إن كنت تريدين ذلك، فسيكون علينا فقط المضي قدمًا وإقامة الحفلة!"

"ما ألطفك يا سوزان!"

بدأ التخطيط والتحضير للحفلة، فبعد أن استسلمت سوزان، قرّرت أنّه من أجل شرف إنجلسايد ينبغي أن تكون الحفلة مثاليّة بحيث لا تجد ماري ماريا بلايث أي علّةٍ فيها.

"الأفضل أن نقيم مأدبة غداءٍ يا سوزان، وبعدها سيذهب الجميع في وقتٍ مبكر يكفيني للذهاب إلى الحفلة الموسيقيّة في لوبريدج مع جيلبرت. سنبقي الأمر سرًّا ونفاجئها، فلن تعرف شيئًا عن الحفلة حتّى اللّحظة الأخيرة. وسأقوم بدعوة جميع الأشخاص الذين تحبّهم في جلين."

"ومن يكون هؤلاء الأشخاص يا زوجة الطبيب العزيزة؟"

" ابنة عمها أديلا كاري من لوبريدج، وبعض الناس من المدينة. سيكون لدينا كعكة عيد ميلادٍ كبيرة مع خمسةٍ وخمسين شمعة."

"وبالطّبع أنا التي سأحضّرها."

"تعلمين يا سوزان أنّك تصنعين أفضل كعكة فاكهة في جزيرة بي إي."

"أعلم أنني تحت أمرك يا زوجة الطبيب العزيزة."

الأسبوع التّالي كان غامضًا، وساد إنجلسايد جوٌّ من الصّمت.

أقسم الجميع على عدم الكشف عن السرّ للعمّة ماري ماريّا. لكنّ آن وسوزان لم تأخذا في عين الاعتبار الثرثرة التي تحصل في القرية. في اللّيلة التي سبقت الحفلة، عادت العمّة ماري ماريّا إلى المنزل من زيارةٍ في جلين لتجدهما جالستين منهكتين في غرفةٍ مظلمة.

"تجلسين في الظلام يا آني؟ يوتّرني الأشخاص الذين يحبّون الجلوس في الظلام، هذا يجعلني كئيبة."

قالت آن: "إنّه ليس ظلامًا، إنّه الشفق. كان هناك حبٌ بين النّور والظلام، فكان الجمال نسلهما." كانت آن غريبةً بخيالها لأنها تتكلّم بطريقةٍ لا يفهمها أحدٌ سواها.

قالت ماري ماريا: "أفترض أنّك تعرفين ما تقصدينه يا آني. على كلّ حال، سمعت أنّك ستقيمين حفلةً غدًا، هل هذا الكلام صحيح؟"

استقامت آن فجأةً بسبب الصّدمة ولم تستطع سوزان أن تبقى جالسة كما هي.

قالت آن مرتجفة: "لماذا يا عمّتي؟"

كانت ماري ماريا تبدو حزينةً وليست غاضبة عندما قالت: "دائمًا أسمع الأخبار من الغرباء بدلًا من أن أعرفها منك أنتِ."

"قصدنا أن نفاجئك يا عمّتي..."

"لا أعرف ما الغاية من حفلةٍ في هذا الوقت من العام وفي هذا الطّقس المتقلّب يا آني."

ارتاحت آن بعد سماع هذه الجملة، فمن الواضح أنّ العمّة ماري ماريا كانت تعلم أنّها ستقيم حفلةً فقط ولا تدرك أنّها الحفلة بمناسبة عيد ميلادها.

"أردت أن أقيم حفلةً قبل أن ينتهي موسم أزهار الرّبيع يا عمّتي."

"ينبغي لي أن أرتدي ثوبي الأحمر إذًا . أظنّ يا آني أنّني لو لم أسمع بهذا الخبر في

القرية فكان سيأتي جميع أصدقائك الأثرياء ويرونني غدًا بفستانٍ قطنيّ."

"آه كلّا يا عمّتي، نوينا إخبارك في الوقت المناسب كي ترتدي

ملابس ملائمة بالطّبع."

"حسنًا، إذا كانت نصيحتي تعني لك أيّ شيءٍ يا آني، وأحيانًا أجد نفسي مجبرةً على الاعتقاد بأنّها ليست كذلك، أودّ أن أقول إنه سيكون من الأفضل لك في المستقبل ألّا تجعلي هذه الأمور سريّة. بالمناسبة، هل تعلمين أنّهم في القرية يقولون إنّ جيم هو من ألقى الحجر عبر نافذة الكنيسة الميثودية؟"

قالت آن بهدوء: "لم يفعل ذلك، قال لي إنّه لم يفعلها."

"هل أنت متأكّدة يا آني العزيزة أنّه لم يكن يكذب؟"

ما زالت "آني العزيزة" تتكلّم بهدوء: "بالتّأكيد يا عمّة ماري ماريا، لم يكذب عليّ جيم قط في حياته."

"حسنًا، اعتقدت أنه يجب أن تعرفي ما يقال في القرية."

مشت العمّة ماري ماريا بغطرسةٍ كعادتها، متجنّبةً شرمب الذي كان مستلقيًا على ظهره على الأرض متوّسلًا ليدغدغه أحد.

التقطت سوزان وآن نفسًا طويلًا.

"أعتقد أنّني سأذهب إلى الفراش يا سوزان، وآمل أن يكون غدًا يومًا جيّدًا. لا أحبّ مظهر تلك السّحابة المظلمة فوق المرفأ."

طمأنتها سوزان قائلةً: "سيكون الطّقس جميلًا يا عزيزتي زوجة الطبيب، التقويم يقول ذلك."

كان لدى سوزان تقويمٌ يتنبأ بطقس العام بأكمله وكان توقّعه صحيحًا في كثيرٍ من الأحيان.

"اتركي الباب الجانبيّ مفتوحًا للطبيب، قد يتأخر في العودة إلى المنزل من البلدة. لقد ذهب لإحضار الورود، سيشتري خمسةً وخمسين وردةً ذهبيّة يا سوزان، سمعت العمّة ماري ماريا تقول إنّ الورود الصّفراء هي الزهور الوحيدة التي تحبّها."

بعد نصف ساعة، قرأت سوزان فصلها الليلي في الإنجيل، وجدت آيةً تقول: "اسحب قدمك من منزل جارك لئلا يتعب منك ويكرهك." ووضعت عسلوجًا من خشب الشيح في الكتاب لتحديد الصّفحة التي وصلت إليها، ثمّ قالت: "حتّى في تلك الأيّام كانت هناك مشاكل بين النّاس."

استيقظت آن وسوزان مبكرًا لتكملا التحضيرات الأخيرة قبل أن تأتي العمّة ماري ماريا. لطالما أحبت آن الاستيقاظ مبكرًا والاستمتاع بالوقت السحريّ الذي يسبق شروق الشمس بنصف ساعة عندما تشعر أنّ العالم مليءٌ بالجنيّات والكائنات السحريّة. كانت تحبّ أن ترى سماء الصباح ذات اللّون الورديّ الفاتح و اللّون الذهبيّ خلف برج الكنيسة، ووهج شروق الشمس الدقيق والشفاف المنتشر فوق الكثبان الرمليّة، وأوّل دوّاماتٍ من الدخان البنفسجيّ تطفو على أسطح القرية.

قالت سوزان برضا وهي ترش جوز الهند فوق كعكة البرتقال: "يبدو الطّقس جميلًا كما أردناه تمامًا يا زوجة الطبيب العزيزة. سأحاول صنع كراتٍ جديدةٍ من الزبدة بعد الإفطار، وسأتصل بكارتر فلاج كلّ نصف ساعةٍ للتأكّد من أنّه لن ينسى إحضار المثلّجات، وسيكون هناك وقتٌ لتنظيف درج الشرفة."

"هل هذا ضروريٌّ يا سوزان؟"

"عزيزتي زوجة الطبيب، لقد دعوتِ السيّدة مارشال إليوت، أليس كذلك؟ لن ترى درج شرفتنا إلّا نظيفًا. هل ستتولّين أمر الزينة؟ أنا لست بارعةً في التّزيين."

دخل جيم وقال: "يا إلهي! أربع كعكات!"

قالت سوزان بغرور: "عندما نقيم حفلة فإنّها تكون رائعة وليست أيّة حفلة."

حضر الضيوف في الوقت المناسب واستقبلتهم العمّة ماري ماريا بثوبها الحريريّ الأحمر و ارتدت آن ثوبًا ملوّنًا جميلًا . فكّرت آن في ارتداء ثوبها الموصليّ الأبيض، لأنّ الجوّ كان دافئًا، لكنّها قرّرت خلاف ذلك بعد أن علّقت العمّة ماري ماريّا قائلةً: "أقول دائما أنّ اللّون الأبيض للشباب فقط."

سار كلّ شيء حسب المخطّط. وبدت الطّاولة جميلة مع أطباق آن الرّائعة والجمال الفريد للسوسن الأبيض والأرجواني.

أثارت كرات الزبدة التي صنعتها سوزان ضجة كبيرة، حيث لم يسبق لها مثيلٌ في جلين، وحساء الكريما كان مميّزًا. أمّا سلطة الدجاج فاستخدمت سوزان فيها "دجاجات إنجلسايد" وأرسل كارتر فلاج الآيس كريم في الوقت المثاليّ. في النّهاية، سارعت سوزان حاملةً بحرصٍ كعكة عيد الميلاد بشموعها الخمسة والخمسين المضاءة كما لو كانت تحمل تاج ملك، ووضعتها أمام العمّة ماري ماريا.

كانت آن ظاهريًّا المضيفة الهادئة المبتسمة، لكنّها كانت تشعر بعدم الارتياح لبعض الوقت. على الرّغم من هدوءها الخارجيّ، كانت مقتنعة بأنّ أمرًا ما قد حدث بشكلٍ خاطئ. عند وصول الضيوف، كانت منشغلةً للغاية لملاحظة التّغيير الذي طرأ على وجه العمّة ماري ماريا عندما تمنّت لها السيّدة مارشال إليوت أفضل الأماني في هذا اليوم. ولكن عندما جلسوا جميعًا في النّهاية حول الطاولة، لاحظت آن أنّ العمّة ماري ماريا كانت تبدو غير سعيدة. كانت في الواقع بيضاء، وهذا لا يعني أنّها غاضبة لكنّها لا تبدو راضيةً عمّا يحصل، ولم تقل كلمة واحدة عندما قُدّم لها الطّعام باستثناء الردود المختصرة على الملاحظات الموجّهة إليها. تناولت ملعقتين فقط من الحساء وثلاث ملاعق من السلطة. أمّا بالنسبة للمثلّجات، فتصرّفت وكأنّها لم ترها.

عندما وضعت سوزان كعكة عيد الميلاد مع شموعها المتوهّجة أمام ماري ماريا، أوشكت العمّة على البكاء ولم تستطع إخفاء مشاعرها، فبدت وكأنّها تختنق.

سألتها آن بقلق: "هل أنتِ بخير يا عمّتي؟"

حدّقت بها العمّة ماري ماريا ببرود.

"أنا بخيرٍ يا آني، أنا حقًّا في حالةٍ جيّدة بالنسبة لامرأةٍ مسنّةٍ مثلي."

في هذه اللّحظة الميمونة، برز التوأمين حاملين فيما بينهما سلّةً فيها خمسةٌ وخمسون وردةً صفراء، وفي جوٍّ ساد فيه الصمت المفاجئ، قدّماها إلى العمّة ماري ماريا، مع تهنئةٍ وتمنيّات طيّبة. علت أصوات الهتافات والتصفيق من الضّيوف، لكنّ العمة ماري ماريا لم تشارك معهم.

قالت آن بتوتّر: "سوف يطفئ التوأمان الشموع من أجلك يا عمّتي، وما رأيك أن تقطّعي الكعكة بعد ذلك؟"

"لست مصابةً بالخرف حتّى الآن يا آني، يمكنني أن أطفئ الشموع بنفسي."

استطاعت العمّة ماري ماريا إطفاء الشموع بشقّ الأنفس. ولم تبدُ بخيرٍ عندما قطّعت الكعكة، ثمّ وضعت السكين.

"والآن اعذريني يا آني، فامرأة عجوز مثلي بحاجةٍ إلى الرّاحة بعد الكثير من الإثارة."

ذهبت العمة ماري ماريا ومشت بغضبٍ محطّمةً سلّة الورود وهي تجتازها ثمّ صعدت السلالم بكعب حذائها العالي وأغلقت الباب بقوّة.

أكل الضيوف المذهولون قطع كعكة عيد الميلاد بعَجَل وصمتٍ لم يقطعه سوى قصّةٌ قصّتها السيدة آموس مارتن بحزنٍ عن طبيبٍ في نوفا

سكوشا قام بتسميم العديد من المرضى بالخطأ عن طريق حقنهم بجراثيم الدفتيريا. شعر الآخرون أنّ ما قامت به غير لائق، ولم يدعموا جهودها لتلطيف الأجواء وغادروا جميعًا بأسرع ما يمكنهم.

هرعت آن مشوّشة الذهن إلى غرفة العمّة ماري ماريا.

"ما الخطب يا عمّتي؟"

"هل كان من الضروريّ الإعلان عن عمري أمام الجميع يا آني؟ وأن تقومي بدعوة أديلا كاري لجعلها تعرف كم عمري، وهي التي كانت تتوق لتعرفه منذ سنوات!"

"لم نقصد ذلك يا عمّتي..."

"أنا لا أعرف ما هو هدفك يا آني، لكنّني أعرف أنّ هناك أمر ما وراء كل هذا، أعرف ذلك جيّدًا. يمكنني قراءة أفكارك يا عزيزتي آني، لكنّني لن أحاول اكتشاف ذلك، سأترك الأمر بينك وبين ضميرك."

"عمة ماري ماريا! هدفي الوحيد كان أن أمنحك عيد ميلادٍ سعيد. أعتذر كثيرًا عمّا حدث."

وضعت العمة ماري ماريا منديلها على عينيها وابتسمت بشجاعة ثمّ قالت: "بالطّبع أسامحك يا آني. لكن يجب أن تدركي أنّ بعد هذه المحاولة المتعمّدة منكِ لإيذاء مشاعري لا يمكنني البقاء هنا أكثر من ذلك."

"الأمر ليس كما تظنّين يا عمّتي.."

رفعت العمة ماري ماريا يدها الطويلة والمجعّدة: "دعينا لا نتجادل يا آني، أريد السلام فقط. هل يمكن لقلبي المكسور أن يتحمّل كلّ هذا؟"

ذهبت آن إلى الحفلة الموسيقيّة مع جيلبرت في تلك اللّيلة، لكنّها حتمًا لم تستمتع بها. تعامل جيلبرت مع الموقف برمته تمامًا مثل

الرجال كما قالت الآنسة كورنيليا.

"أتذكر أنّها كانت دائمًا حسّاسةً قليلًا بشأن عمرها، اعتاد أبي أن يزعجها. كان يجب أن أحذّرك، لكنّني نسيت. إذا ذهبت، فلا تحاولي منعها." وامتنع عن قول "تخلّصنا منها." فقط لأنّها من لحمه ودمه.

قالت سوزان بذهول: "لن تذهب. لن يكون حظّنا موفّقًا لهذه الدّرجة يا زوجة الطبيب العزيزة."

لكن لأوّل مرّة كانت سوزان مخطئة، فقد تركت العمّة ماري ماريا إنجلسايد في اليوم التالي مسامحةً الجميع.

قالت: "لا تلم آني يا جيلبرت. أنا أبرّئها من كل الإهانات المتعمّدة. لم أكن أمانع أبدًا أن تخفي بعض الأمور عنّي مع أنّني حسّاسة، ولكن على الرّغم من كلّ ما حدث، فقد أحببتُ دائمًا آني المسكينة." وكأنّها كانت تعترف بذلك، ثمّ تابعت: "لكنَ سوزان بيكر ماكرة ومختلفة تمامًا عن آن. آخر نصيحةٍ منّي لك يا جيلبرت هي أن تضع حدًّا لسوزان."

لم يستطيعوا أوّلًا تصديق أنّ الحظ سيحالفهم إلّا عندما استيقظوا على حقيقة أنّ العمّة ماري ماريا قد رحلت بالفعل وأنّه من الممكن أن يضحك أحدهم مرّةً أخرى دون جرح مشاعر أيّ شخص، أو أن يفتح جميع النّوافذ دون أن يشكو أحدٌ من نسمات الهواء البارد، أو أن يتناول وجبةً دون أن يخبره أحدٌ أنّ الطّعام الذي يحبه كثيرًا من شأنه أن يؤدّي إلى الإصابة بسرطان المعدة.

شعرت آن بالذنب قليلًا لأنّها كانت المرّة الأولى التي لم تطلب فيها من ضيفٍ البقاء لوقتٍ أطول قبل أن يرحل، بل كانت راضيةً تمامًا برحيله وقالت: "من الجيّد أن تشعر بالحريّة مرّةً أخرى."

اعتنى شرمب بنفسه وشعر أخيرًا أنّه عاد ليكون قطًّا طبيعيًا بعد أن

كانت العمّة ماري ماريا قد حبست حريّته، ولم تسمح له بالتصرّف على طبيعته أمامها.

تفتّحت أوّل زهرة فاوانيا في الحديقة.

سأل والتر: "العالم مليءٌ بالجمال، أليس كذلك يا أمّي؟"

قالت سوزان: "يقول التّقويم أنّ شهر حزيران سيكون جميلًا حقًا. سيكون هناك عددٌ قليلٌ من الأعراس وعلى الأرجح جنازتين على الأقل. ألا يبدو غريبًا أن تتمكن من التنفّس بحريّةٍ مرّةً أخرى؟ عندما أفكّر أنني فعلت كلّ ما في وسعي لمنعك من إقامة تلك الحفلة يا زوجة الطبيب العزيزة، أشكر اللّه على مشيئته، ألا تعتقدين يا زوجة الطبيب العزيزة، أنّ الطبيب سيستمتع ببعض البصل مع شرائح اللّحم المقليّة اليوم؟"

***

15



قالت

الآنسة كورنيليا: "شعرت بأنني يجب أن أصعد يا عزيزتي، وأشرح الأمر بشأن ذلك الاتصال. لقد كان كلّه خطأ، أنا آسفةٌ للغاية. ففي النّهاية، لم تفارق سارة ابنة العمّ الحياة. ابتسمت آن ووضعت كرسيًّا على الشرفة للآنسة كورنيليا، وكانت سوزان تنظر لهما وفي يدها ياقة الكروشيه الأيرلندي التي كانت تصنعها لابنة أختها جلاديس، فقالت بتهذيب: "مساء الخير سيّدة مارشال إليوت."

"جاء الخبر من المستشفى هذا الصباح بأنّها توفيّت في اللّيل، وشعرتُ أنّه يجب عليّ أن أبلّغكم، لأنّها كانت مريضة الطبيب. لكنّ التي توفيّت كانت سارة تشيس الأخرى، والحمد للّه أنّ سارة ابنة العمّ لا تزال على قيد الحياة ومن المرجح أنّها ستعيش. الجوّ جميلٌ هنا يا آن. أقول دائمًا إنّ على من يريد الاستمتاع بالنسيم أن يأتي إلى إنجلسايد."

قالت آن وهي تضع جانبًا الفستان الورديّ الذي كانت تصنعه من أجل نان: "نستمتع أنا وسوزان بسحر هذه الأمسية التي تضيئها بالنجوم." كانتا بحاجةٍ إلى التقاعس عن العمل لبعض الوقت، فلم

تستطع أيٌّ منهما أن تحظى بكثيرٍ من أوقات الفراغ طوال الفترة التي كانت فيها العمّة ماري ماريا مقيمةً في إنجلسايد.

كان سيطلع القمر وكان خبر طلوعه أكثر جمالًا من مظهره. كانت الزنابق تلمع على طول الممشى وحمل النّسيم رائحة أزهار العسل.

"انظري إلى شقائق النّعمان تلك التي تكسو جدار الحديقة يا آنسة كورنيليا. أنا وسوزان فخورتان جدًا بشقائق النّعمان التي لدينا هذا العام، على الرّغم من أنّنا لم نزرعها. أسقط والتر كيس بذورٍ هناك عن طريق الخطأ في الربيع وهذه هي النتيجة. نحصل كلّ عامٍ على مفاجأةٍ سارّةٍ من هذا القبيل."

قالت الآنسة كورنيليا: "أنا من المعجبين بشقائق النّعمان، رغم أنّها لا تدوم طويلًا."

اعترفت آن قائلة: "رغم أنّها تعيش ليومٍ واحدٍ فقط، لكنّها جميلةٌ ومذهلة! أليست أفضل من أن تكون نبتة زينيا رهيبة قاسية تدوم إلى الأبد؟ ليس لدينا زينيا في إنجلسايد، إنّها الزهور الوحيدة التي لا نحبّها، وسوزان لن تنظر لها حتى."

سألت الآنسة كورنيليا: "هل يتم قتل أحدٌ في الجوف؟"

وبالفعل، كانت الأصوات التي تأتي من الجوف تشير إلى أنّ شخصًا ما كان يُعذّب حتى الموت. لكنّ آن وسوزان كانتا معتادتين جدًّا على هذا الأمر بحيث لا يمكن أن تعيراه أيّ اهتمام.

"كان بيرسيس وكينيث هنا طوال اليوم وسيختتمان يومهما بإقامة مأدبةٍ في الجوف. أمّا بالنسبة للسيّدة تشيس، فقد ذهب جيلبرت إلى المدينة هذا الصباح حتّى يعرف حقيقة ما حدث لها. أنا سعيدةٌ لأنّها بخير، فلم يوافق الأطباء الآخرون على تشخيص جيلبرت وكان قلقًا بعض الشيء."

كانت الآنسة كورنيليا تلوّح بمروحتها اليدويّة وتتساءل كيف بإمكان زوجة الطبيب أن تكون هادئةً دائمًا ثمّ قالت: شدّدت سارة علينا عندما ذهبنا إلى المستشفى بألّا ندفنها إلّا إذا كنا متأكّدين من أنّها فارقت الحياة. كما ترين، لطالما كنّا خائفين قليلًا من أن يكون زوجها قد دُفن حيًّا فقد بدا حينها وكأنّه ما زال حيًّا، لكن لم يفكّر أحدٌ في الأمر إلاّ بعد فوات الأوان. كان شقيق ريتشارد تشيس الذي اشترى مزرعة مورسايد القديمة وانتقل إلى هناك من لوبريدج في الربيع. إنه شخصٌ ماكر، قال أنّه جاء إلى البلاد للعيش بسلام، لكنّه قضى كلّ وقته في لوبريدج في خداع الأرامل."

وقد خدع الخادمات العجائز لكنّ الآنسة كورنيليا لم تذكر ذلك مراعاةً لمشاعر سوزان.

"لقد قابلت ابنته ستيلا، جاءت لممارسة الكورال وأصبحنا صديقتين."

"ستيلا فتاة جميلة، إنّها واحدةٌ من الفتيات القلائل المهذَبات. لطالما أحببتها فقد كانت أمّها صديقةٌ مقرّبة لي. المسكينة ليزيت!"

"هل ماتت عندما كانت شابّة؟"

"نعم، تُوفّيت عندما كانت ستيلا في الثامنة من عمرها فقط. قام ريتشارد بتربية ستيلا بنفسه وكان مولعًا بها! يقول إنّ النساء مهمّاتٌ فقط من الناحية البيولوجية، لا أحد يدرك معنى ذلك وهو دائمًا يتكلّم عن هذه الأمور."

قالت آن التي اعتقدت أنّ ستيلا تشيس واحدةٌ من أكثر الفتيات جمالًا على الإطلاق: "يبدو أنه ربّاها بطريقةٍ جيّدة."

"آه، لا يمكن لأحدٍ أن يجعل ستيلا فتاةً سيّئة، وأنا لا أنكر أنّ ريتشارد ذكيٌّ وحكيمٌ. لكنّه معقّدٌ من الشباب، فلم يقبل أن يكون لستيلا

المسكينة عاشقٌ واحدٌ في حياتها! كل الشباب الذين حاولوا الارتباط بها كانوا ينفرون ببساطةٍ من سخريته، فهو أكثر شخصٍ ساخر قد تقابلينه في حياتك. لم تستطع ستيلا التّعامل معه، ولم تستطع والدتها قبلها أيضًا، لم تعرفا كيف تتصرّفان معه. لقد كان شخصًا معارضًا دائمًا ولكن لم يبد أنّهما قد أدركتا ذلك."

"ظننت أنّ ستيلا مخلصةٌ جدًّا لوالدها."

"بالطّبع هي مخلصةٌ له! إنها تعشقه. فهو يصير أكثر قبولًا عندما يحصل على ما يريد، ولكن ينبغي له أن يكون منطقيًّا بشأن زواج ستيلا، يجب أن يعرف أنّه لن يعيش إلى الأبد، على الرغم من أنّك لو تسمعينه يتحدث عن هذا الموضوع ستعتقدين أنّه جديّ في كلامه. إنه ليس رجلًا عجوزًا بالطبع، لقد كان صغيرًا جدًّا عندما تزوّج، لكنّ الجلطات الدماغيّة كانت سائدة في تلك العائلة. وماذا ستفعل ستيلا بعد رحيله؟ أفترض أنّها ستتأثر كثيرًا."

نظرت سوزان طويلًا وبيدها وردة الكروشيه الأيرلندي وقالت بثقة:

"أنا لا أطيق كبار السنّ الذين يفسدون حياة الشباب بهذه الطريقة."

"ربما لو كانت ستيلا تهتم حقًا بأيّ شابٍّ فلن تؤثر اعتراضات والدها عليها كثيرًا."

"أنتِ مخطئةٌ في هذا يا عزيزتي آن. لن تتزوج ستيلا أبدًا بشخصٍ لا يحبّه والدها. ويمكنني أن أخبرك بشخص آخر ستفسَدُ حياته، وهو ابن شقيق مارشال يُدعى ألدن تشرشل. تُصرّ ماري على ألاّ يتزوّج ما دامت تستطيع منعه من الزواج، إنّها تعارض أكثر من ريتشارد، لو كانت الرياح جنوبيّة كانت ستقول أنّها شماليّة. لا تريده أن يتزوّج لأنّ الملكيّة لها الآن وإن تزوّج ألدن تصبح له. في كلّ مرّةٍ يذهب فيها مع فتاة تنجح في وضع حدٍّ للعلاقة بطريقةٍ ما."

تساءلت سوزان: "إذًا هذا كلّه بسبب السيّدة مارشال إليوت؟"

"يعتقد بعض الناس أن ألدن متغيّرٌ للغاية. لقد سمعته يتكلّم مع فتاةٍ تغازله."

ردّت الآنسة كورنيليا: "ألدن شابٌّ وسيم وتطارده الفتيات، أنا لا ألومه على توتيرهنّ قليلًا ورفضهنّ ليعلّمهن درسًا. ولكن كانت هناك فتاةٌ أو اثنتين من الفتيات اللّطيفات اللّواتي أحبّهنّ حقًّا وكانت ماري تمنعه في كلّ مرّة. أخبرتني بذلك بنفسها وأخبرتني أنّها لجأت إلى الإنجيل فهي دائمًا "تلجأ إلى الإنجيل" وتقرأ آية وفي كلّ مرّة كانت الآية تحذيرًا من زواج ألدن. لا أتحمّلها ولا أتحمّل طرقها الغريبة. لماذا لا تستطيع الذهاب إلى الكنيسة وتكون امرأةً محترمة مثل بقيّتنا في فوروينذز؟ لكن لا، فهي تحبّ أن تؤسّس لنفسها دينًا يعتمد على "اللّجوء إلى الإنجيل". في الخريف الماضي، عندما مرض ذاك الحصان الثمين الذي كان يساوي أربعمئة دولار، بدلًا من إرساله إلى الطبيب البيطري في لوبريدج، لجأت إلى الإنجيل وصارت تقرأ الآية "الرب يعطي والرب يأخذ، تبارك اسم الربّ." وهكذا لم ترسله إلى الطبيب البيطري ومات الحصان. تخيّلي تطبيق تلك الآية بهذه الطريقة يا عزيزتي آن، أعتبر هذا قلّة احترام وأخبرتها ذلك بطريقةٍ مباشرة ولكنّ الإجابة التي حصلتُ عليها لم تكن سوى نظرةٍ لئيمة. وهي لا تحبّ استعمال الهاتف، فعندما يسألها شخصٌ عن السبب تقول: "لن أتكلّم من خلال صندوقٍ على الحائط."

توقفت الآنسة كورنيليا، بعد أن انقطع نفسها، فدائمًا ما توتّرها تقلّبات أخت زوجها.

قالت آن: "ألدن ليس مثل والدته على الإطلاق."

"ألدن شابٌ نبيلٌ ومحترم مثل والده الذي كان من أرقى الرجال. لم

يستطع آل إليوت فهم السبب الذي جعله يتزوّج امرأةً كماري، رغم أنّهم كانوا أكثر من سعداء لتزويجها برجلٍ مثله. لطالما كانت امرأةً مجنونةً طويلة القامة ونحيلة. بالطبع كانت تملك الكثير من المال، فقد ورثت عن عمّتها ماري كلّ ما تملك ولكن لم يكن هذا سبب زواجه منها، فقد كان جورج تشرشل يحبّها حقًّا. لا أعرف كيف يتحمّل ألدن عقل والدته، لكنّه ابن مطيع."

قالت آن بابتسامةٍ ماكرة: "أتعلمين ما خطر في بالي الآن يا آنسة كورنيليا؟ ألن يكون أمرًا لطيفًا إذا وقع ألدن وستيلا في حبّ بعضهما البعض؟"

"من غير الممكن أن يحدث ذلك، وإن حدث فسيصلان إلى طريقٍ مسدود. كانت ماري سترفض الموضوع وكان ريتشارد سيطلب من مزارعٍ عاديٍّ كألدن الخروج من منزله من الدقيقة الأولى، حتّى لو كان هو نفسه مزارعًا الآن. لكنّ ستيلا ليست من الفتيات اللواتي يعجبن ألدن، فهو يحبّ الفتيات المرحات، ولن تهتمّ ستيلا بما يحبّ. لقد سمعت أن القس الجديد في لوبريدج كان ينظر إليها بحبّ."

سألت آن: "ألا يعاني من فقر الدم وقصر النظر؟"

قالت سوزان: "ولديه عينين منتفختين، أظنّ أن شكلهما يبدو مروّعًا عندما ينظر إلى أحدٍ بطريقةٍ رومنسيّة."

قالت الآنسة كورنيليا: "إنّه على الأقل من الكنيسة المشيخية،" وكأنّ ذلك من شأنه أن يرفع مكانته. وأكملت: "حسنًا، يجب أن أذهب. أجد أنني إذا خرجت تحت المطر لوقتٍ طويل يتفاقم ألمي العصبي."

"سأسير معك إلى البوّابة."

قالت الآنسة كورنيليا بإعجاب: "لطالما بدوتِ كالملكة في هذا الفستان يا عزيزتي آن."

قابلت آن أوين وليزلي فورد عند البوابة وعادت معهما إلى الشرفة، وذهبت سوزان لتحضير عصير اللّيمون للطبيب الذي وصل لتوّه إلى المنزل، وجاء الأطفال من الجوف متجمّعين وكانوا سعداء ويشعرون بالنعاس.

قال جيلبرت: "كنت أقود السيّارة عندما سمعت أصواتكم، لقد كنتم تصدرون ضوضاء كبيرة، لا بدّ أنّ الريف بأسره قد سمعكم."

هزّت برسيس فورد شعرها البنيّ الكثيف المجعّد ومدّت لسانها في وجه جيلبرت. كان "العم جيل" يفضّل برسيس ويميّزها عن الآخرين.

وأوضح كينيث: "لقد كنّا نقلّد الدراويش، لذلك كان علينا أن نصرخ بصوتٍ عالٍ."

قالت ليزلي بقسوةٍ نوعًا ما: "انظر إلى قميصك كيف أصبح."

قال كينيث برضا شديدٍ في لهجته: "لقد وقعت في فطيرة الطين التي صنعتها دي." كان يكره تلك القمصان النظيفة التي جعلته أمّه يرتديها عندما يأتي إلى جلين.

قال جيم: "أمّي العزيزة، هل يمكنني استعمال ريش النعام القديم الذي في الحجرة لأخيطه في مؤخرة سروالي والحصول على ذيل؟ سوف نقيم سيرك غدًا وسأمثّل دور النعامة وسنحصل على فيل."

قال جيلبرت بجديّة: "هل تعلم أنّ إطعام فيلٍ يكلّف ستمئة دولار في السنة؟"

أوضح جيم بصبر: "الفيل الخياليّ لا يكلّف شيئًا."

ضحكت آن وقالت: "نحن لا نحتاج أبدًا إلى أن نكون اقتصاديّين في خيالنا، الحمد للّه."

لم يعلّق والتر على الموضوع، لقد كان متعبًا قليلًا ومقتنعًا بالجلوس بجانب أمّه على السلّم واضعًا رأسه على كتفها. اعتقدت ليزلي فورد

وهي تنظر إليه، أنّه وجه يوحي بأنّه شخصٌ عبقريّ وأنه يملك نظرةٌ تشير لأنّ تفكيره في كوكبٍ آخر، فلم تكن الأرض موطنه.

كان الجميع سعداء للغاية في هذه الساعة المميّزة من اليوم الفريد. رنّ جرس الكنيسة عبر المرفأ بصوتٍ خافت. كان القمر يصنع أشكالًا على الماء، وكانت الكثبان تلمع في الضباب الرماديّ، وفاحت رائحة النعناعِ في الهواء وكانت الورود جميلةً بشكلٍ لا يصدّق. كانت آن تنظر حالمةً فوق العشب بعيونِ طفلة، على الرّغم من إنجابها لستة أطفال، واعتقدت أنهّ لا يوجد شيءٌ في العالم نحيفٌ وصغير مثل شجيرات الحور تحت ضوء القمر.

ثمّ بدأت تفكّر في ستيلا تشيس وألدن تشرشل، حتى طلب منها جيلبرت أن تخبره بما تفكّر.

ردّت آن: "أفكّر بجديّة في تجربة حظي مرّةً أخرى في وساطة الزواج."

نظر جيلبرت إلى الآخرين في حالةٍ من اليأس وقال: "كنت أخشى أن يعود حبّها لهذه الأمور في يومٍ من الأيام. لقد بذلت قصارى جهدي، لكن لا يمكنك إيقاف امرأةٍ لديها حبّ وساطة الزوّاج منذ الولادة. لديها شغف كبير بها. وعدد المرّات التي نجحت فيها بتزويج النّاس لا يصدّق. لم أكن لأستطيع النّوم ليلًا إن كانت هذه المسؤوليّات تقع على عاتقي."

واحتجّت آن: "لكنّهم جميعًا سعداء، أنا حقًا بارعة. فكّر في جميع النّاس الذين زوّجتهم أو الذين اتُّهمت بتزويجهم، ثيودورا ديكس ولودوفيتش سبيد، ستيفن كلارك وبريسي جاردنر، جانيت سويت وجون دوجلاس، البروفيسور كارتر وايسمي تايلور، نورا وجيم، ودوفي وجارفيس."

"آه أنا أعترف بذلك. لم تفقد زوجتي يا أوين قدرتها على التّوقع. كل شيءٍ ممكنٌ بالنسبة لها، وأفترض أنها ستستمر في محاولة تزويج الناس حتى تكبر."

قال أوين وهو يبتسم لزوجته: "أعتقد أنّها تريد تزويج اثنين آخرين الآن."

قالت آن على الفور: "أنا لا شأن لي في ذلك، عليكَ أن تلوم جيلبرت، فقد بذلت قصارى جهدي من أجل إقناعه بعدم إجراء تلك العمليّة لجورج مور. وبالحديث عن النّوم، لقد مرّت ليالٍ استيقظت فيها وقد تجمدت أوصالي وأنا أحلم بأنني نجحت."

قال جيلبرت: "حسنًا، يقولون إنّ النساء اللواتي يملكن هذه الموهبة هنّ نساءٌ سعيدات، هذا أمرٌ إيجابيّ بالنّسبة لي. والآن من هم الضحايا الجدد الذين تفكّرين بهم يا آن؟"

ابتسمت له آن ولم تنطق بكلمة، فتزويج النّاس يتطلّب الدقة والحذر وهناك أمورٌ لا ينبغي البوح بها حتّى للزوج.

***

16



بقيت

آن مستيقظة لساعاتٍ في تلك الليلة وعدّة ليالٍ بعدها، وهي تفكّر في ألدن وستيلا. كان لديها شعورٌ بأنّ ستيلا كانت تفكّر بشوقٍ في الزواج، وأن يكون لديها بيتٌ وعائلة جميلة. ذات ليلة، توسّلت لآن لتسمح لها بأن تحمّم ريلا فقالت بخجل: "إنّه لأمرٌ ممتعٌ أن أحمّمَ جسدها الصغير الممتلىء يا سيّدة بلايث، وأن تمدّ إليّ يديها الصّغيرتين اللّطيفتين. أليس الأطفال مثاليّون؟" سيكون من العار أن يمنعها والدها المتذمر من تحقيق تلك الآمال السريّة.

سيكون زواجًا مثاليًا، ولكن كيف يمكن تحقيقه وجميعهم معاندون ومعارضون؟ فلم يكن العناد والمعارضة لدى كبار السنّ فقط، بل اشتبهت آن في أنّ كلًّا من ألدن وستيلا متّصفين بهما. يتطلب هذا أسلوبًا مختلفًا تمامًا عن أيّ علاقةٍ سابقة، وفي الوقت المناسب، تذكّرت آن والد دوفي.

تحرّكت آن فورًا لتنفيذ خطّتها، التي جعلتها متيقّنة من أنّ ألدن وستيلا سيكونان زوجين قريبًا.

لم يكن هناك وقتٌ لتضيّعه، صارت تفكّر بأنّ ألدن، الذي عاش في

هاربور هيد والذي ارتاد الكنيسة الأنجليكانيّة فوق الميناء، لم يقابل ستيلا تشيس حتّى الآن، وربّما لم يرها حتى. لم يكن قد واعد أيّ فتاةٍ منذ عدّة أشهر، لكنّه قد يبدأ في أيّ لحظة. كان لدى السيّدة جانيت سويفت من جلين الشماليّة، ابنة أختٍ جميلةٍ للغاية تزورها وكان ألدن دائمًا مهتمًّا بالفتيات الجديدات. أوّل ما ينبغي فعله إذًا، هو جمع ألدن وستيلا في مكانٍ واحد. لكن كيف ستجمعهما آن؟ يجب أن يحدث هذا دون أن يلاحظ أحد أو يشتبه بأنّ آن جمعتهم عمدًا. حاولت آن جاهدةً التّفكير في حلٍّ مناسب، لكنّها لم تستطع سوى التّفكير في إقامة حفلةٍ ودعوة كليهما. لم تعجبها الفكرة تمامًا، لأنّ الطقس كان حارًّا لإقامة حفلة، وكان شباب فور ويندز صاخبين للغاية، كما أنّ آن تعلم أنّ سوزان التي تشعر بالحرّ الشديد هذا الصّيف، لن توافق أبدًا على حفلةٍ من دون تنظيف إنجلسايد بأكملها. لكنّ القضيّة المهمّة تتطلّب بعض التضحيات. كتبت لهم جين برينجل، أنّها قادمة إلى إنجلسايد في زيارةٍ وعدت بها منذ فترةٍ طويلةٍ وسيكون هذا سببًا لإقامة الحفلة. بدا أنّ الحظ ابتسم لآن.

جاءت جين، وأرسِلت الدّعوات ونظّفت سوزان إنجلسايد ثمّ طبخت مع آن الطعام للحفلة وسط موجة الحرّ.

كانت آن متعبةً للغاية في اللّيلة التي سبقت الحفلة، وكانت حرارة الطّقس لا تُحتمل، وكان جيم مريضًا فقلقت سرًّا خوفًا من أن يكون مصابًا بالتهاب الزائدة الدوديّة، على الرغم من أنّ جيلبرت نفى ذلك وقال إنّه مجرّد ألمٍ في البطن. وكاد شرمب يحترق حتى الموت عندما أوقعت جين برينجل قدرًا من الماء الساخن من على الموقد وهي تحاول مساعدة سوزان. كانت آن تعاني ألمًا شديدًا، كلّ عظمةٍ في جسدها تؤلمها، حتّى رأسها وقدميها وعينيها. ذهبت جين مع مجموعةٍ

من أطفال إنجلسايد لرؤية المنارة، وطلبت من آن أن تذهب إلى الفراش مباشرةً، لكن بدلًا من الذهاب إلى الفراش جلست على الشرفة في الجوّ الرطب الذي أعقب العاصفة الرعديّة بعد الظهر، وتحدّثت إلى ألدن تشرشل الذي جاء لزيارتهم للحصول على بعض الأدوية لعلاج التهاب الشعب الهوائيّة الذي تعانيه والدته، ولكنّه لم يعد بعد إلى المنزل. اعتقدت آن أنّها فرصة ذهبيّة، لأنّها أرادت كثيرًا التحدث معه. لقد كانا صديقين حميمين، فألدن غالبًا ما كان يزورهم لذات السبب.

جلس ألدن على درج الشرفة وألقى رأسه على العمود. كان رفيقًا وسيمًا للغاية كما اعتقدت آن دائمًا، طويل القامة وعريض الأكتاف، بوجهٍ أبيض لا يسمرّ أبدًا، وعينين زرقاوين زاهيتين، وشعرٍ أسود غامق. كان لديه صوتٌ جميل وأسلوبٌ لطيفٌ ومحترم يعجب النساء من جميع الأعمار. ذهب إلى جامعة كوين لثلاث سنوات وفكّر في الذهاب إلى ريدموند، لكنّ والدته رفضت السماح له بالذهاب بحجّة أسبابٍ توراتية واستقرّ ألدن باقتناعٍ في المزرعة. أخبر آن أنّه يحبّ الزراعة لأنّها عملٌ مجانيٌّ وخارجيّ ومستقلّ. ورث عن والدته موهبة كسب المال، وعن والده الشخصيّة الجذابة. لا عجب أنّ الزواج به كان يُعتبر إنجازًا.

قالت آن: "ألدن، أريد أن أطلب منك خدمة، هل ستفعلها لأجلي؟"

أجاب بحرارة: "بالتأكيد يا سيّدة بلايث، أنت تعلمين أنّني سأفعل أيّ شيءٍ من أجلك."

كان ألدن يحبّ السيّدة بلايث وكان سيفعل الكثير لأجلها حقًّا.

قالت آن بقلق: "أخشى أن تشعر بالملل، لكن الأمر فقط أنّني أريدك أن تجعل ستيلا تشايس تقضي وقتًا ممتعًا في حفلتي ليلة الغد. أخشى أنّها لن تستمتع لأنّها لا تعرف الكثير من الشباب هنا حتّى الآن،

ومعظمهم أصغر منها بالأخصّ الذكور. اطلب منها أن ترقص وتأكّد من ألّا تشعر بالوحدة. إنّها خجولةٌ جدًّا مع الغرباء، وأنا أريدها أن تقضي وقتًا ممتعًا."

قال ألدن على الفور: "سأبذل قصارى جهدي."

حذرت آن ضاحكة: "لكن كما تعلم، لا يجب أن تقع في حبها."

لا تكوني قاسية يا سيّدة بلايث، لم لا؟"

همست آن: "حسنًا، أعتقد أن السيّد باكستون من لوبريدج معجبٌ بها."

انفجر ألدن بشكلٍ غير متوقّع وقال: "ذاك الشاب المغرور؟"

نظرت له آن نظرة توبيخ وقالت: "لماذا يا ألدن؟ قيل لي إنّه شابٌ لطيفٌ للغاية. هذا النوع الوحيد من الرجال الذي يملك فرصةً مع والد ستيلا كما تعلم."

قال ألدن غير مبالٍ: "هكذا إذًا؟"

"نعم، ولا أعرف حتى ما إذا كان سيفعل ذلك. أنا أفهم أن السيّد تشايس يعتقد أنه لا يوجد شخصٌ جيّد بما يكفي لستيلا. أخشى أنّه لن يكترث لمزارعٍ عاديّ، لذا فأنا لا أريدك أن تثير المشاكل لنفسك من خلال الوقوع في حبّ فتاةٍ لا يمكنك أن تحصل عليها أبدًا. أنا فقط أحذرك وأنصحك، وأنا متأكّدة من أنّ والدتك ستفكّر مثلي."

"آه شكرا لكِ. أيّ نوعٍ من الفتيات هي على أيّ حال؟ هل تبدو جميلة؟"

"حسنًا، أعترف بأنّها ليست فائقة الجمال. أحبّ ستيلا كثيرًا، لكنّها شاحبةٌ قليلًا وخجولة. قيل لي إنّ السيّد باكستون لديه أموالٌ كثيرة، لكنّني لست متأكّدة من ذلك. أعتقد أنّهما سيشكّلان ثنائيًّا مثاليًّا، ولا أريد أن يفسد أحدٌ الأمر."

"لماذا لم تقومي بدعوة السيّد باكستون إلى حفلتك وتطلبي منه أن يمنح ستيلا وقتًا ممتعًا؟"

"أنت تعرف أنّ القس لا يأتي إلى حفلةٍ يا ألدن. لا تكن غريب الأطوار الآن، وتأكد من أن تقضي ستيلا وقتًا لطيفًا."

ردّ ألدن بطريقةٍ فظة غير متوقّعة: "آه، سأجعلها تقضي وقتًا صاخبًا. تصبحين على خير يا سيّدة بلايث."

ضحكت آن بعد أن تركها وحدها وقالت لنفسها: "الآن حسب معرفتي بالطبيعة البشريّة فأتوقّع أن يندفع هذا الشاب ليُظهر للعالم أنّ بإمكانه الحصول على ستيلا إذا كان يريدها على الرّغم من أيّ شخصٍ آخر. لقد وقع في الفخ الذي وضعته عن القس. لكنّني أفترض أنّني سأقضي ليلةً سيّئة بسبب هذا الصداع."

لقد قضت ليلة سيّئة ومعقّدة بسبب ما أسمته سوزان "تشنّج في الرقبة"، وكانت في الصباح شاحبة للغاية؛ ولكن في المساء كانت مضيفةً لطيفة وشجاعة. كانت الحفلة ناجحة. بدا أنّ الجميع يقضون وقتًا ممتعًا، خصوصًا ستيلا. اعتقدت آن أنّ ألدن حرص بحماسٍ شديدٍ على جعلها تستمتع بالحفلة. كان الوضع شيّقًا إلى حدٍّ ما بالنسبة للاجتماع الأوّل، لدرجة أنّ ألدن أخذ ستيلا إلى زاويةٍ مظلمة في الشرفة بعد العشاء وبقي معها هناك لمدّة ساعة. ولكن بشكلٍ عامّ، كانت آن في صباح اليوم التالي راضيّة عندما فكّرت فيما حدث. من المؤكد أنّ سجّادة غرفة الطعام قد توسّخت بالكامل بسبب انسكاب صحنين من المثلّجات والدوس على طبقٍ من الكعك عليها؛ كما وحُطّمت شمعدانات بريستول الزجاجيّة الخاصة بجدّة جيلبرت وصارت قطعًا صغيرة؛ وعبث شخصٌ بجرّة المياه في الغرفة الاحتياطية فانسكب الماء منها وتغيّر لون سقف المكتبة بطريقةٍ مأساويّة، وتمزقت

أطراف الأريكة؛ ويبدو أنّ شخصًا كبير الحجم وثقيل قد جلس على نبتة السرخس العزيزة الخاصة بسوزان. ولكن وفق حسابات آن، كانت الحقيقة أنّ كلّ العلامات توحي بأنّ ألدن قد وقع في حبّ ستيلا، وعندها اعتقدت أنّ الكفّة قد مالت لصالحها.

أكّدت الإشاعاتُ في القرية خلال الأسابيع القليلة المقبلة هذا الأمر، فقد أصبح من الواضح بشكلٍ كبير أنّ ألدن مغرم. لكن ماذا عن ستيلا؟ لم تعتقد آن أنّ ستيلا كانت فتاةً يميل قلبها لأيّ شابٍّ يمدّ يده لها، فقد كانت تعارِض أحيانًا كوالدها، وكان هذا بالنّسبة لها استقلالٌ رائع.

مرّةً أخرى، حالف الحظّ وسيطة الزواج آن، فقد جاءت ستيلا لرؤية أزهار الدلفينيوم في إنجلسايد ذات مساء، وبعد ذلك، جلست مع آن في الشرفة وتحدّثتا. كانت ستيلا تشايس شاحبةً ونحيلة، وخجولةً نوعًا ما ولكنّها جميلةٌ للغاية. كان لديها شعرٌ ذهبيٌّ ناعم وعينان بنيّتان. اعتقدت آن أنّ رموشها هي سرّ جمالها، لأنّها لم تكن جميلة حقًا. لقد كانت رموشها طويلةً بشكلٍ لا يصدّق، كانت عندما ترمش بعينيها تذيب قلوب الذكور. وكان لديها أسلوبٌ مميّز جعلها تبدو أكبر من فتاةٍ تبلغ من العمر أربعةً وعشرين عامًا، وأنفٌ معقوف.

قالت آن: "لقد سمعت أخبارًا عنك يا ستيلا، و أنا لا أعرف إذا أحببتها. هل تسامحيني لقولي إنّني أتساءل عمّا إذا كان ألدن تشرشل هو العاشق المناسب لك؟"

نظرت لها ستيلا مذهولة وقالت: " لماذا يا سيّدة بلايث؟ اعتقدت أنك تحبّين ألدن."

"أنا أحبّه لكن كما ترين يتمتّع بسمعةٍ سيّئة، يقولون أنّه زير نساء. قيل لي إنّه لا يمكن لأيّ فتاةٍ الاحتفاظ به لفترة طويلة. لقد حاول الكثير

منهنّ وفشلن. لا أريد أن أراك بهذه الحالة إن ارتبطتما."

قالت ستيلا ببطء: "أعتقد أنّك مخطئة بشأن ألدن يا سيّدة بلايث."

"آمل ذلك يا ستيلا. ربّما كان سينجح الأمر إذا كنت من الفتيات المرحات والفرحات مثل إيلين سويفت."

قالت ستيلا بغموض: "آه حسنًا، لا بدّ لي من العودة إلى المنزل، والدي هناك وحده."

ذهبت ستيلا فضحكت آن مرّةً أخرى.

"أعتقد أنّ ستيلا ذهبت وتعهّدت سرًّا أنّها ستظهر للأصدقاء الفضوليين أنّ بإمكانها الحصول على ألدن وأنّ إيلين سويفت لن تمسّه أبدًا. علمت ذلك من هزّها لرأسها والاحمرار المفاجئ لخدّيها. عليّ فعل الكثير من أجل الشباب، وأخشى أنّ التعامل مع الأشخاص الأكبر سنًا سيكون أكثر صعوبة."

***

17



صمد

حظ آن، فسألتها جمعيّة مساعدة التبشير النسائيّة عمّا إذا كانت ستستدعي زوجة السيّد جورج تشرشل لمساهمتها السنويّة في المجتمع. نادرًا ما ذهبت السيدة تشرشل إلى الكنيسة ولم تكن عضوًا في الجمعيّة، لكنّها "آمنت بالتبشير" ودائمًا ما كانت تقدّم مبلغًا سخيًّا إذا اتصّل بها أحدٌ وطلب منها ذلك. استمتع الناس بفعل هذا لدرجة أنّ الأعضاء اضطروا إلى أخذ دورهم فيه وكان دور آن هذا العام.

سارت في إحدى الأمسيات، متّخذة دربًا مليئًا بالأقحوان يؤدي إلى قمة التل الجميلة والرائعة، ثمّ إلى الطريق الذي تقع فيه مزرعة تشرشل على بعد ميل من جلين. كان بالأحرى طريقًا مملًا، حيث كانت الأسوار الرمادية تعلو المنحدرات، ومع ذلك كان فيها أضواءٌ وجدول ورائحة حقول القش التي تتدفق إلى البحر وحدائق جميلة. توقّفت آن لتنظر إلى كلّ حديقة مرّت بها، كانت دائمًا تهتمّ بالحدائق. كان جيلبرت يقول إنّ آن ستشتري كل كتاب كُتبت كلمة "حديقة" في عنوانه.

رأت آن قاربًا بطيئًا أسفل المرفأ وسفينة بعيدة. كانت تتسارع نبضات قلبها عندما تشاهد سفينة تبحر. لقد فهمت الكابتن فرانكلين درو عندما

سمعته يقول ذات مرّة، وهو يصعد على متن سفينته في رصيف الميناء: "يا إلهي، كم أشعر بالأسف على الناس الذين نتركهم على الشاطئ!"

يطلّ منزل تشرشل الكبير، بالزخارف الحديديّة القاتمة حول سقفه المسطّح، على الميناء والكثبان الرمليّة. استقبلتها السيّدة تشرشل بتهذيب مبالغٍ به، وأدخلتها إلى ردهةٍ رائعة معتمة، عُلّق على جدرانها المغطّاة بالورق البنيّ صورٌ لا تُحصى لتشرشل وإليوت الراحلين. جلست السيّدة تشرشل على أريكةٍ خضراء فاخرة، ووضعت إحدى يديها الطويلتين النحيفتين فوق الأخرى، وحدّقت بثباتٍ في زائرتها.

كانت ماري تشرشل طويلة ونحيلة وعابسة، لديها ذقنًا بارزة، وعينين زرقاوين غائرتين مثل ألدن، وفم عريض. لا تتفوه بالكلام الفارغ ولا تثرثر. لذلك وجدت آن صعوبةً في الوصول إلى هدفها بشكلٍ طبيعيّ، لكنّها تمكنت من النّجاح في ذلك من خلال وسيط وهو القس الجديد على طرف الميناء الذي لم تحبّه السيّدة تشرشل.

قالت السيّدة تشرشل ببرود: "إنّه ليس رجلًا روحانيًا."

قالت آن: "لقد سمعت أنّ خُطبَه مثيرة للإهتمام."

"لقد سمعت خطبةً واحدة ولا أرغب في سماع المزيد. شعرت بالجوع وأحسست كأنّني في محاضرة. إنّه يعتقد أنّ ملكوت السماوات يمكن أن يؤخذ عن طريق العقول، أي بطريقةٍ روحانيّة. لا يمكن ذلك."

"بالحديث عن القساوسة، هناك قسٌّ ذكيّ جدًّا في لوبريدج الآن. أعتقد أنّه مهتمٌ بصديقتي ستيلا تشايس. تقول الإشاعات إنّهما سيرتبطان."

سألتها السيّدة تشرشل: "هل تقصدين أنّهما قد يتزوّجان؟"

شعرت آن بالازدراء لكنّها فكّرت أنّه يجب عليها تحمّل هذه النّتائج حين تتدخل فيما لا يعنيها.

"أعتقد أنّه سيكون زواجًا مناسبًا جدًا يا سيّدة تشرشل. ستيلا هي الفتاة المناسبة لتكون زوجة القس. لقد أخبرت ألدن أنّه لا يجب أن يحاول إفساد الزواج."

سألتها السيّدة تشرشل بفضول: "لماذا؟"

"حسنًا كما تعلمين، أخشى أنّ ألدن لن يحظى بأيّ فرصةٍ معها مهما حاول. لا يعتقد السيد تشايس أنّ هناك شخص جيّد بما يكفي ليكون زوجًا لستيلا. يكره جميع أصدقاء ألدن رؤيته يفشل فجأة، إنّه ولدٌ لطيف للغاية ولا يستحقّ ذلك."

قالت السيّدة تشرشل وهي تضغط على شفتيها الرفيعتين: "لم تجعل أيّ فتاةٍ ابني يفشل. كان الأمر دائمًا عكس ذلك. لقد كان يحبّهن من أجل شعرهنّ وضحكاتهنّ، وحركاتهنّ وأناقتهنّ. يمكن لابني أن يتزوّج أيّ امرأةٍ يختارها يا سيّدة بلايث، حرفيًّا أيّ امرأة."

قالت آن: "آه بالطبع أنا مؤدّبة لذا لن أعارضك لكنّك لم تغيّري رأيي."

فهمت ماري تشرشل واحمرّ وجهها الأبيض المجعّد وهي تخرج من الغرفة لإحضار مساهمتها التبشيريّة.

قالت آن عندما أوصلتها السيدة تشرشل إلى الباب: "لديك منظرٌ جميلٌ للغاية هنا."

نظرت السيّدة تشرشل للخليج بنظرةٍ توحي بعدم الموافقة.

"إذا شعرت بلسعة الريّاح الشرقية في الشتاء يا سيّدة بلايث، فقد لا تهتمّين كثيرًا بالمنظر. الجوّ باردٌ اليوم، أخشى أنك ستصابين بالبرد في هذا الفستان الرقيق، ولا أنكر أنّه فستانٌ رائع. ما زلت صغيرةً بما يكفي للاهتمام بالمظاهر والزينة. لقد توقّفت عن الاهتمام بمثل هذه الأمور العابرة."

وفي طريق عودتها إلى المنزل تحت ضوء الشفق الأخضر الخافت، شعرت آن بالرضا التّام عن هذا اللّقاء الذي جمعها بالسيّدة تشرشل.

كانت تمشي بجانب مجموعةٍ من طيور الزرزور الذين كانوا مجتمعين في حقلٍ صغيرٍ خارج الغابة وقالت: "بالطبع لا يمكن للمرء أن يعوّل على السيّدة تشرشل، لكنني أعتقد أنني أقلقتها قليلًا. لاحظتُ أنّها تكره أن يعتقد الناس أنّ ألدن قد فشل في أمرٍ ما. حسنًا، لقد بذلت قصارى جهدي مع جميع المعنيّين باستثناء السيّد تشايس ولا أعلم ما يمكنني فعله معه بما أنّني لا أعرفه حتّى. أتساءل عمّا إذا كان لديه أدنى فكرةٍ أنّ ألدن وستيلا معجبان ببعضهما البعض. أظنّ أنّه لا يعلم بهذا، بالطبع لن تجرؤ ستيلا أبدًا على اصطحاب ألدن إلى المنزل. كيف سأتكلّم معه؟"

لقد كان غريبًا حقًا كيف حالفها الحظ، ففي إحدى الأمسيات، جاءت الآنسة كورنيليا وطلبت من آن مرافقتها إلى منزل آل تشايس.

"سأزورهم لأطلب من ريتشارد تشايس المساهمة في موقد مطبخ الكنيسة الجديد. هل ستأتين معي يا عزيزتي كي تدعمينني معنويًّا؟ أكره التعامل معه بمفردي."

وجدت آن وكورنيليا السيّد تشايس واقفًا على السلّم الأماميّ، ينظر إليهما، بساقيه الطويلتين وأنفه الطويل كطائر الكركي. كان لديه شعرات معدودات لامعة على رأسه الأصلع وكانت عيناه الصغيرتان الرماديتان تتلألآن في وجههما. يبدو أنّه كان يفكّر فيما إذا كانت تلك المرأة الحسناء الفاتنة مع كورنيليا العجوز هي زوجة الطبيب. أمّا القريبة كورنيليا، فقد كانت تملك بنية جسديّة قويّة جدًا وكانت ذكيّة، لكنّها لم تكن سيّئة على الإطلاق إذا عاملتها بالطريقة المناسبة.

دعاهما بلطفٍ إلى مكتبته الصغيرة، حيث جلست الآنسة كورنيليا

على كرسيّ وبدت غير سعيدة.

"الجوّ حار للغاية اللّيلة، أخشى أن تحدث عاصفة رعديّة. يا إلهي! ريتشارد، تلك القطّة أصبحت بحجم الفيل!"

كان لريتشارد تشايس قطّ أشقر ذو حجمٍ غير طبيعيّ والذي صعد الآن على ركبته فربّت عليه ريتشارد بحنان.

وقال: "توماس ذي ريمر يجعل العالم يثق بالقطط، أليس كذلك يا توماس؟ انظر إلى خالتك كورنيليا يا ريمر. راقب النظرات المريعة التي تلقيها عليك بحدقتي عينيها اللتين خُلقتا للتعبير عن اللّطف والمودة فقط."

احتجت السيدة إليوت بحدّة: "أنا لست خالة ذلك الوحش! لا تناديني بخالته. أعلم أنّها مجرّد مزحة، ولكنّك تخطّيت حدودك هذه المرّة."

سألها ريتشارد تشايس بحزن: "ألا تفضّلين أن تكوني خالة ريمر على أن تكوني خالة نيدي تشرشل؟ نيدي شره وسكّير، أليس كذلك؟ لقد سمعت أنّك صنعت قائمةً بخطاياه. ألا تفضّلين أن تكوني خالةً لقطٍّ لطيفٍ مثل توماس مع سجلٍّ خالٍ من الخطايا كالويسكي؟"

ردّت الآنسة كورنيليا: "المسكين نيد يبقى إنسان، أنا لا أحبّ القطط. هذا هو العيب الوحيد في ألدن تشرشل الذي يحبّ القطط بطريقةٍ غريبة. الله وحده يعلم من أين ورث حبّه للقطط، لقد كان والداه يكرهانها."

"إنّه حتمًا شابٌّ حسّاسٌ إذًا!"

"حسّاس! حسنًا، إنّه حسّاسٌ بما فيه الكفاية، باستثناء مسألة القطط وشغفه بنظريّة التطوّر، لم يرث هذا أيضًا عن والدته."

قال ريتشارد تشيس بجديّة: "أتعلمين يا سيّدة إليوت، أنا شخصيًا

أصدّق سرًّا نظريّة التطوّر أيضًا."

"لقد أخبرتني ذلك من قبل. حسنًا، صدّق ما تريده يا ديك تشايس تمامًا مثل بقيّة الرجال. الحمد للّه، لا أحد يستطيع أن يجعلني أصدّق أنّ أصلي قرد."

"أعترف أنّه لا يبدو عليكِ أنّ أصلكِ قرد، أنتِ امرأةٌ جميلة. لا أرى شبهًا قرديًّا في ملامح وجهك الوردي الناعم. ومع ذلك، فإنّ جدتك الكبرى منذ ملايين السنين كانت تتأرجح بذيلها من غصنٍ إلى غصن. العلم يثبت ذلك يا كورنيليا، تقبّلي الأمر أو تجاهليه."

"سأتجاهله إذًا، لن أجادلك في ذلك أو في أيّ نقطة، لديّ ديني الخاصّ ولا يوجد فيه أسلاف القردة. بالمناسبة يا ريتشارد، لا تبدو ستيلا بخير هذا الصيف كما أحبّ أن أراها."

"إنّها تكره الطقس الحار، ستأتي عندما يصبح الجوّ أكثر برودة."

"آمل ذلك. كانت ليزيت تأتي كلّ صيف باستثناء الأخير يا ريتشارد، لا تنس ذلك. ستيلا مثل أمّها، لكنّني أظنّ أنّها لن تتزوّج."

"لماذا لا يحتمل أن تتزوّج؟ لديّ فضولٌ لأعرف السبب يا كورنيليا. تثير اهتمامي طرق التفكير الأنثوي. ما هي المعطيات أو البيانات التي جعلتك تستنتجين بطريقتك الخاصة الرائعة أنّه من غير المحتمل أن تتزوّج ستيلا؟"

"حسنًا يا ريتشارد بصراحة، إنّها ليست من النوع الذي يحظى بشعبيّةٍ كبيرةٍ بين الرجال. إنها فتاةٌ طيّبة وجميلة، لكنّها ليست من النوع الذي يعجب الرجال."

"لقد كان لديها معجبين. لقد أنفقت الكثير من أموالي في شراء وصيانة بنادق الصيد والبولدوج."

"أظنّ أنّهم أعجبوا بحقائب أموالك. لقد أصيبوا بالإحباط بسهولة،

أليس ذلك صحيحًا؟ إظهارك لمجرّد جانبٍ واحدٍ من السخرية كان كافٍ لجعلهم يذهبون، وإذا كانوا يريدون ستيلا حقًا فلن يستسلموا. لا يا ريتشارد، ربّما تعترف أيضًا بحقيقة أن ستيلا ليست الفتاة التي تكسب العشاق، فليزيت أيضًا لم تكسبهم، لم يكن لديها عاشق أبدًا حتى جئت أنت."

"لكن ألم أستحقّ الانتظار؟ بالتأكيد كانت ليزيت شابّةٌ حكيمة. أنتِ لن تقبلي بأن أعطي ابنتي لأيّ شابّ، أليس كذلك؟ هل تصلح نجمتي الصغيرة على الرّغم من ملاحظاتك المهينة، سوى للتألّق في قصور الملوك؟"

ردّت الآنسة كورنيليا: "ليس لدينا ملوكٌ في كندا، وأنا لا أقول أنّ ستيلا ليست فتاةً جميلة، أنا فقط أقول أن الرجال لا يرونها كذلك على ما يبدو، والأمر كذلك بالنسبة لمزاجها. يعتبر هذا أمرًا جيّدًا بالنسبة لك أيضًا، فلا يمكنك الاستمرار بدونها، ستكون عاجزًا كطفلٍ رضيع. حسنًا، عِدنا بمساهمةٍ في نطاق مواقد الكنيسة وسوف نرحل. أعلم أنّك تموت شوقًا لإكمال قراءة كتابك."

"يا لك من امرأةٍ رائعة وسريعة البديهة! أنتِ كنزٌ لابنِ عمّك! أنا أعترف بذلك، أنا أموت شوقًا. ولكن لا أحد غيرك يملك الفطنة بما يكفي لرؤية الأمر أو يملك الودّ بما يكفي لإنقاذ حياتي من خلال اتخاذ إجراءاتٍ بشأنها. بكم أدين لكِ؟"

"يمكنك دفع خمسة دولارات."

"أنا لا أجادل سيّدة أبدًا، خمسة دولارات إذًا. آه، أنت ذاهبة؟ إنّها لا تضيّع الوقت أبدًا هذه المرأة الغريبة! تتركك على الفور في سلام بمجرّد بلوغ هدفها، تمامًا مثل القطط. ليلة سعيدة يا نسيبتي."

لم تتفوّه آن بكلمة واحدةٍ طوال وقت الزيارة. لماذا يجب عليها أن

تتكلّم إن كانت السيّدة إليوت تقوم بعملها بذكاءٍ وبلا وعي؟ ولكن عندما أوصلهم ريتشارد تشايس إلى الخارج، انحنى فجأةً إلى الأمام بشكلٍ سريّ.

"لديك أفضل زوجٍ كاحلين رأيته على الإطلاق يا سيّدة بلايث وإن لم أكن قد رأيت الكثير منها في حياتي."

قالت الآنسة كورنيليا وهي تسير مع آن في الممرّ: "أليس مروّعًا؟ دائمًا ما يقول أمورًا شنيعة كهذه للنساء. لا تهتمّي بما يقوله يا عزيزتي آن."

وبالفعل لم تهتمّ آن، فقد كانت بالأحرى تشعر أنه لطيف.

قالت: "لا أعتقد أنّه أحبّ فكرة أنّ ستيلا لا تحظى بشعبيّةٍ لدى الرجال، على الرغم من حقيقة أنّ أجدادهم كانوا من القردة. أعتقد أنه يودّ أن يُري الشباب أيضًا أنّ ستيلا بإمكانها أن تتزوّج. حسنًا، لقد فعلت كل ما في وسعي، لقد جعلت ألدن وستيلا يهتمّان ببعضهما البعض وأعتقد أنّنا أنا والآنسة كورنيليا قد جعلنا السيّدة تشرشل والسيّد تشيس مع هذه العلاقة وليس ضدّها. الآن عليّ أن لا أفعل أيّ شيء وأن أرى كيف ستسير الأمور."

بعد شهر، جاءت ستيلا تشايس إلى إنجلسايد وجلست مرّةً أخرى، بجانب آن على سلّم الشرفة وهي تفكّر أنّها تأمل في أن تبدو امرأةً ناضجة مثل السيّدة بلايث في يومٍ من الأيّام، السيّدة بلايث التي عاشت عيشةً كريمة وجميلة.

أعقب الأمسية الباردة الغائمة يومًا باردًا رماديًّا مائلًا للصفرة في أوائل أيلول، مصحوبًا بأنين البحر الخفيف.

قال والتر عندما سمع هذا الصوت: "البحر ليس سعيدًا اللّيلة". بدت ستيلا شاردة الذهن وهادئة وهي تنظر إلى سحر النجوم الذي تم

نسجه في الليل الأرجواني، ثمّ قالت فجأة: "سيّدة بلايث، أريد أن أخبرك أمرًا."

"ما هو يا عزيزتي؟"

قالت ستيلا بيأس: "أنا مخطوبةٌ لألدن تشرشل منذ عيد الميلاد الماضي. أخبرنا والدي والسيّدة تشرشل على الفور ولكنّنا أبقينا الأمر سرًّا عن أيّ شخصٍ آخر لمجرّد أنه من الرّائع أن يكون لدينا مثل هذا السر. لقد كرهنا مشاركته مع العالم، لكننا سنتزوّج الشهر المقبل."

انصدمت آن وجمدت في مكانها ولم تحرّك ساكنًا وكأنّها تحوّلت إلى حجر. كانت ستيلا لا تزال تحدّق في النجوم، لذلك لم تر التعابير على وجه السيّدة بلايث، فواصلت الحديث بارتياحٍ أكبر: "التقيت بألدن في حفلٍ في لوبريدج في شهر تشرين الثاني الماضي، لقد أحببنا بعضنا البعض منذ اللحظة الأولى. قال إنّه كان يحلم بي دائمًا، ويبحث عنّي. قال لنفسه " تلك هي زوجتي المستقبليّة "عندما رآني أدخل من الباب، وشعرت بمثل هذا الشعور. آه، نحن سعداء جدًّا يا سيّدة بلايث!"

لا تزال آن صامتة ولم تتفوّه بكلمةٍ واحدة.

"الأمر الوحيدة الذي قد يؤثر على سعادتي هو موقفك من هذه المسألة يا سيّدة بلايث. هل توافقين عليها؟ لقد كنتِ صديقةً عزيزةً بالنسبة لي منذ أن جئت إلى جلين سانت ماري، شعرت كما لو أنّ لي أختًا كبيرة، وسأشعر بضيقٍ شديدٍ إذا شعرت أنّك ضدّ هذا الزواج."

كان صوت ستيلا يوحي بأنّها على وشك البكاء. استعادت آن قدرتها على الكلام وقالت: "عزيزتي، سعادتك هي كلّ ما أردته، وأحبّ ألدن، فهو صديقٌ رائع، مشكلته فقط أنّه كان يتمتّع بسمعةٍ سيّئة كونه زيّر نساء."

"لكنّه ليس كذلك، بل كان يبحث فقط عن الفتاة المناسبة، ألا ترين ذلك يا سيّدة
بلايث؟ ولم يتمكّن من العثور عليها."

"كيف ينظر والدك إلى ذلك الأمر؟"

"آه إنّ والدي سعيدٌ للغاية. لقد انسجم مع ألدن منذ البداية، فقد اعتادا على الجدل لساعاتٍ حول نظريّة التطوّر. قال أبي إنّه كان يقصد دائمًا السماح لي بالزواج عندما يأتي الرجل المناسب. أشعر بالحزن لأنّني سأتركه، لكنّه يقول إنّ الزواج سنّة الحياة. ستأتي ابنة عمّي ديليا تشايس للاهتمام بالمنزل وهو يحبّها كثيرًا."

"ماذا عن والدة ألدن؟"

"إنها تؤيّد زواجنا أيضًا، عندما أخبرها ألدن في عيد الميلاد الماضي أنّنا قد خطبنا، فتحت الإنجيل وكانت أوّل آية تظهر هي "سيترك الرجل أبًا وأمًّا ويستقرّ مع زوجته،" قالت إنّه كان واضحًا تمامًا ما يجب أن تفعله ووافقت على الفور. ستذهب إلى منزلها الصغير في لوبريدج."

قالت آن: "أنا سعيدة لأنّك لن تضطرّي إلى العيش مع تلك الأريكة الخضراء الفاخرة."

"الأريكة؟ آه، نعم، إنّ الأثاث قديم الطراز، أليس كذلك؟ لكنّها ستأخذه معها وسيقوم ألدن بتجديد الأثاث بالكامل. لذلك كما ترين الجميع مسرور يا سيّدة بلايث، أفلا تتمنّين لنا أفضل التمنيّات أيضًا؟"

انحنت آن إلى الأمام وقبّلت خدّي ستيلا الناعمين.

"أشعر بالفرح لأجلك، بارك الله في أيّامك القادمة يا عزيزتي."

عندما رحلت ستيلا، ذهبت آن إلى غرفتها الخاصّة لتجنّب رؤية أيّ شخصٍ لبعض الوقت. بدا القمر كئيبًا ومائلًا خلف بعض السحب الكثيفة في الشرق وبدت الحقول وراءه كأنّها تلوّح لآن

وتشمت بها بوقاحة.

راجعت آن جميع أحداث الأسابيع السابقة، لقد أفسدت سجادة غرفة الطعام، ودمّرت إرثين عزيزين وأفسدت سقف مكتبتها؛ كانت تحاول استغلال السيدة تشرشل للقيام بالمهمّة الصعبة، ولا بدّ أن السيّدة تشرشل كانت تضحك عليها طوال الوقت.

بدأت آن تحدّث القمر وتقول: "من هو أكبر أحمق في هذه القضية؟ أعرف ماذا سيكون رأي جيلبرت. كلّ المشاكل التي واجهتها لتحقيق الزواج بين شخصين كانا بالفعل مخطوبين؟ لقد اكتفيت تمامًا من وساطة الزواج، ولن أحرّك ساكنًا أبدًا للترويج للزواج حتى إذا لم يتزوّج أحدٌ في العالم مرّةً أخرى. حسنًا ، هناك أمرٌ إيجابيّ واحد وهو رسالة جين برينجل اليوم التي قالت فيها إنّها سوف تتزوّج لويس ستيدمان الذي التقت به في حفلتي. إذًا لم تذهب التضحية بشمعدانات بريستول سدًى."

ثمّ صاحت آن: "يا أولاد، أيّها الأولاد! توقّفوا عن إصدار هذه الضوضاء الغريبة!"

علا صوت جيم المصاب من الشجيرات المظلمة: "نحن بوم، علينا أن نصيح." كان يعلم أنّه كان يصيح بشكلٍ جيّد، فقد كان بإمكانه تقليد صوت أيّ كائنٍ بريّ صغير في الغابة. أمّا والتر فلم يبرع في ذلك، ولم يعد في الوقت الحاليّ بومة بل أصبح صبيًّا صغيرًا محبطًا إلى حدٍّ ما، يلجأ إلى والدته من أجل الشعور بالراحة.

"أمّي، اعتقدت أنّ صراصير اللّيل تغنّي، وقال السيّد كارتر فلاج اليوم إنّها لا تفعل ذلك، هي فقط تصدر هذا الضجيج وهي تحكّ أرجلها الخلفيّة. هل كلامه صحيحٌ يا أمّي؟"

"شيءٌ من هذا القبيل، لست متأكدّة تمامًا من العمليّة. لكنّ هذه هي

طريقتهم في الغناء كما تعلم."

"أنا لا أحبّ ذلك، لن أحبّ سماعهم يغنّون مرّةً أخرى."

"آه بلى ستحبّ ذلك، ستنسى الأرجل الخلفيّة حينها وتفكّر فقط في جوقتها السحريّة في جميع أنحاء مروج الحصاد وتلال الخريف. ألم يحن وقت نومك يا طفلي الصغير؟"

"هل ستقصّي عليّ حكايةً قبل النّوم تقشعر بدني يا أمّي وتجلسي بجانبي بعد ذلك حتّى أنام؟"

"أليست هذه وظيفتي كأمٍّ يا حبيبي؟"

***

18



قال جيلبرت: "لقد حان الوقت ليتحدّث الفتى الصغير عن امتلاك كلب."

لم يكن لديهم كلبٌ في إنجلسايد منذ أن تسمّم ريكس، لكن ينبغي أن يحظى الأولاد بكلب، فقرر الطبيب أنّه سيجلب لهم واحدًا. لكنّه كان مشغولًا في ذلك الخريف لدرجة أنه ظلّ يؤجل الأمر، وفي النّهاية، في أحد أيّام تشرين الثاني، وصل جيم إلى المنزل في فترة ما بعد الظهر التي أمضاها مع صديقه بالمدرسة، وكان يحمل كلبًا صغيرًا من فصيلة كارولينا ذا أذنين سوداوين مرفوعتين بغرور.

"جو ريس أعطاني إيّاه يا أمّي، واسمه جيب. ألا يملك أروع ذيل على الإطلاق؟ يمكنني الاحتفاظ به، أليس كذلك يا أمّي؟"

سألته آن بشكّ: "أيّ نوعٍ من الكلاب هو يا حبيبي؟"

قال جيم: " أعتقد أنّ يجمع عدّة أنواعٍ هذا يجعله أكثر راحة، ألا تعتقدين ذلك يا أمي؟ إنّه أكثر إثارةً ممّا لو كان من نوعٍ واحد. أرجوك يا أمّي."

"آه، لا أمانع إذا وافق والدك."

وافق جيلبرت وطار جيم من الفرح. رحّب الجميع في إنجلسايد بجيب كفرد جديد في العائلة، باستثناء شرمب، الذي أظهر كرهه للوافد الجديد بأفعاله. حتى سوزان أحبّته وعندما كانت تحيك في الحجرة في الأيّام الممطرة، كانت تبقي جيب معها أثناء غياب جيم الذي كان في المدرسة. وراح يصطاد جرذانًا خياليّة في الزوايا المظلمة ويطلق صرخةً من الرعب كلّما دفعه حماسه إلى الاقتراب من عجلة الغزل الصغيرة التي لم يتم استخدامها قط. فقد تركها آل مورجان هناك عندما غادروا، وقبعت في الزاوية المظلمة مثل امرأةٍ عجوزٍ منحنية. لا أحد يستطيع أن يفهم خوف جيب منها، لم يكن يمانع في وجود العجلة الكبيرة على الإطلاق ولكنّه جلس بالقرب منها بينما كانت سوزان تديرها بدبوس العجلة، وهرع إلى الأمام والخلف بجانبها بينما كانت تقيس طول الحجرة، وتلفّ خيط الصوف الطويل. اعترفت سوزان أنّ الكلب يمكن أن يكون رفيقًا حقيقيًا، واعتقدت أنّ خدعته المتمثلة في الاستلقاء على ظهره، والتلويح بأقدامه الأماميّة في الهواء، عندما يريد عظمة، هي الخدعة الأكثر ذكاءً على الإطلاق. غضبت مثل جيم عندما قال بيرتي شكسبير بسخرية: "أتعتبر هذا كلبًا؟"

قالت سوزان بهدوءٍ ينذر بالسوء:

"يمكنك أن تعتبره فرس نهرٍ إن شئت، لكنّنا نعتبره كلبًا."

اضطرّ بيرتي إلى العودة إلى المنزل في ذلك اليوم دون الحصول على حصّةٍ من الخلطة الرائعة التي تسميها سوزان "فطيرة التفاح المقرمشة" والتي تعدها بانتظام للصبيّين ورفاقهما. لم تكن في الجوار عندما قال ماك ريس أنّه يبدو وكأنّه كلبٌ جرفته مياه البحر، لكنّ جيم كان قادرًا على الدفاع عن كلبه وعندما قال نات فلاج إنّ سيقان جيبسي كانت طويلة جدًا بالنسبة لحجمه، ردّ جيم أن أرجل الكلب ينبغي أن

تكون طويلةً بما يكفي لتلمس الأرض. لم يكن ناتي حادّ الذكاء، فاستطاع جيم أن يهزمه بهذا الردّ.

لم تزرهم أشعة الشمس كثيرًا في شهر تشرين الثاني من ذلك العام، وهبّت الرياح العاتية في بستان أشجار القيقب عارية الأغصان، وغالبًا ما غطّى الضباب الجوف. لم يكن ضبابًا خفيفًا وعاديًّا ولكن ما وصفه الأب بالضباب الرطب، المظلم، والكئيب. كان على أطفال إنجلسايد أن يقضوا معظم وقت اللعب في العليّة، لكنّهم أصبحوا أصدقاء مع طائرين من طيور الحجل يأتيان كلّ مساء إلى شجرة تفاحٍ قديمةٍ ضخمة، وخمسةٍ من طيور القيق الأوراسيّ الرائعة التي كانت مخلصة، تقرقر بخفّة وهي تأكل الطعام الذي يقدمه الأطفال لها، باستثناء أنّها كانت طيورًا جشعة وأنانيّة، لم تسمح لبقيّة الطيور بالاقتراب.

حلّ الشتاء مع حلول شهر كانون الأوّل وتساقط الثلج بلا انقطاع لمدّة ثلاثة أسابيع. كانت الحقول الواقعة خلف إنجلسايد عبارة عن مروجٍ بيضاء ناصعة، وارتدت الأسوار وأعمدة البوابة قلنسواتٍ بيضاء طويلة، وأصبحت النوافذ بيضاء مع أشكالٍ سحريّة ولمعت أضواء إنجلسايد وسط الشفق القاتم والثلجيّ، مرحّبةً بجميع المتجوّلين. بدا لسوزان أنّه لم يكن هناك عدد كبير من الأطفال في الشتاء كما كان في ذلك العام، وعندما تركت حصّة الطبيب في حجرة المؤن من أجله ليلةً بعد ليلة، رأت أنّها ستكون أعجوبة أن يأكلها قبل الربيع نظرًا لانشغاله.

"الطفل التاسع لعائلة درو! كما لو أنّه لم يكن هناك بالفعل عددٌ كافٍ من آل درو في العالم!"

"أفترض أنّ السيدة درو تعتقد أنّ الطفل جميلٌ ونادر كما اعتقدنا عند ولادة ريلا يا سوزان."

"هذه مزحةٌ بنظري يا زوجة الطبيب العزيزة، فلا أحد مثل ريلا."

لكنّ الأطفال في المكتبة أو المطبخ الكبير، خطّطوا لغرفة ألعابهم الصيفيّة في الجوف بينما كانت الرياح تعصف في الخارج، و كانت السحب البيضاء الرقيقة تركض فوق النجوم الثلجيّة. بكلّ الأحوال، كانت هناك دائمًا نار للتدفئة مشتعلة في إنجلسايد، وراحة، ومأوى من العاصفة، وهتافاتٌ جميلة، وأسِرّةٌ للأطفال المتعبين.

جاء عيد الميلاد وذهب هذا العام بسلامٍ بما أنّ العمّة ماري ماريا لم تكن في إنجلسايد.

كان الوقت مجيدًا، كيف لا؟ وكان هناك مساراتٌ للأرانب في الثلج لتتبّعها، وحقولٌ مكسوّةٌ كبيرة تتسابق عليها، وتلالٌ متلألئة للتزلج على الجليد، ومزالج جديدة لتجربتها على البركة في الجوّ الورديّ البارد لغروب شمس الشتاء. وبالطبع كلبٌ أصفر ذو أذنين سوداوين يركض معك أو يقابلك وهو ينبح بفرحٍ مرحّبًا بعودتك إلى المنزل، وينام عند سفح سريرك عندما تنام ويستلقي على قدميك بينما تتعلّم القراءة، ويجلس بقربك خلال وجبات الطعام وينكزك بين الحين والآخر بمخلبه الصغير.

"أمّي العزيزة، لا أعرف كيف عشتُ قبل أن يأتي جيب. يمكنه التحدّث يا أمّي، يمكنه حقًا التحدّث بعينيه."

ثمّ حدثت المأساة! ذات يوم، بدا جيب متعبًا بعض الشيء، لم يكن يأكل على الرغم من أنّ سوزان أغوته بعظام الضلع التي يحبّها؛ في اليوم التالي، تم استدعاء الطبيب البيطري من لوبريدج الذي هزّ رأسه بعد فحص جيب. كان من الصعب القول أنّ الكلب ربما قد تناول شيئًا سامًّا في الغابة، ربّما يتعافى وربّما لا. استلقى الكلب الصغير بهدوءٍ شديد، ولم ينتبه لأحدٍ باستثناء جيم؛ حاول في النهاية هزّ ذيله عندما لمسه الولد الصغير.

"أمّي العزيزة، هل يُعدُّ الدعاء لجيب خطأ؟"

"بالطبع لا يا عزيزي. يمكننا الدعاء دائمًا للذين نحبّهم. لكنني خائفة، لأن جيبي كلبٌ صغيرٌ ومريضٌ بشدّة."

"أمّي، أنتِ لا تعتقدين أنّ جيبي سيموت، أليس كذلك؟"

مات جيب في صباح اليوم التالي. كانت المرّة الأولى التي يدخل فيها الموت عالم جيم. لا أحد منّا ينسى تجربة رؤية أحدٍ نحبّه يموت، حتّى لو كان مجرّد كلبٍ صغير. لم يستخدم أحدٌ في إنجلسايد الحزين هذا التعبير، ولا حتّى سوزان، التي بكت حتّى احمرّ أنفها احمرارًا شديدًا وتمتمت: "لم أتعلّق بكلبٍ من قبل، ولن أفعل ذلك أبدًا. هذا الشعور يؤلم كثيرًا."

لم تكن سوزان على درايةٍ بقصيدة الشاعر كيبلينج عن حماقة إعطاء قلبك لكلبٍ فيكسره، لكن لو كانت تعرفها، لكانت قد اعتقدت لمرّةٍ واحدة أنّ الشاعر قد كتب كلامًا منطقيًّا، على الرغم من ازدرائها للشعر.

كان الليل صعبًا على جيم المسكين، واضطرّ الوالدان للخروج لبعض الوقت. بكى والتر حتّى غفى وكان بمفرده حيث أنّه لم يعد هناك كلبٌ ليتحدّث معه. كان الموت قد خطف تلك العينين البنيّتين العزيزتين اللتين لطالما نظر بهما جيب إليه بثقة.

دعا جيم: "يا الله، أرجوك أن ترعى كلبي الصغير الذي مات اليوم، يتميّز بأذنيه السوداوين، لا تجعله يشعر بالوحدة والاشتياق لي."

أخفى جيم وجهه في غطاء سريره ليحبس بكاءه. عندما ينطفئ الضوء، سيرى الليل المظلم عبر النافذة ولن يكون هناك جيب، وسيأتي صباح الشتاء البارد ولن يكون هناك جيب، وسيأتي يومٌ بعد يوم لسنواتٍ وسنوات، ولن يكون هناك جيب. لم يستطع تحمّل الفكرة.

ثمّ مدّ أحدهم ذراعه حول جيم وحضنه حضنًا دافئًا. آه، ما زال هناك

حبٌّ في العالم، حتّى لو رحل جيبي.

"هل ستكون الحياة دائمًا على هذا النحو يا أمّي؟"

لم تخبره آن أنّه سينسى قريبًا، وأنه بعد فترةٍ قصيرة لن يكون جيبي سوى ذكرى عزيزة، فقالت: "كلّا يا جيم الصغير. سوف يلتئم هذا الجرح في وقتٍ ما كما تلتئم يدك المحترقة على الرغم من أنّها تؤلم كثيرًا في البداية."

"قال أبي إنّه سيحضر لي كلبًا آخر، لكنّ هذا ليس ضروريًّا، أليس كذلك؟ لا أريد كلبًا آخر أبدًا يا أمي."

"أعلم يا عزيزي."

كانت أمّه تعرف كلّ شيء، لا أحد لديه أمٌّ مثل أمّه، أراد أن يفعل شيئًا جميلًا لها، وفورًا لمعت فكرةٌ في رأسه.

قرّر أن يحضر لها قلادةً مصنوعةً من اللؤلؤ من متجر السيد فلاج. لقد سمعها تقول ذات مرّة إنّها ترغب حقًّا في الحصول على قلادةٍ من اللؤلؤ وعندها قال والده: "عندما تأتي سفينتنا، سأحضر لك واحدةً يا عزيزتي آن."

يجب مراعاة الطرق والوسائل، فقد كان مسموحٌ له بأخذ المال للحاجات الضروريّة ولم تكن قلائد اللؤلؤ من بين العناصر المدرجة في القائمة. إلى جانب ذلك، أراد أن يجني المال بنفسه لشراء القلادة، عندها ستعتبر حقًّا هديّته. كان عيد ميلاد أمّه في شهر آذار، أي بعد ستّة أسابيع فقط. وستكلّفه القلادة خمسين سنتًا!

***

19



لم يكن من السهل كسب المال في جلين ولكنّ جيم عزم على ذلك. صنع بلوزات من البكرات القديمة للأولاد في المدرسة مقابل سنتين لكلّ واحدة. باع ثلاثة أسنان حليب ثمينة بثلاثة سنتات، وباع شريحة فطيرة التفاح المقرمشة بعد ظهر كلّ سبت لبيرتي شكسبير درو. كلّ ليلة كان يضع ما ربحه في الخنزير النحاسيّ الصغير الذي أهدته إيّاه نان في عيد الميلاد، كان لامعًا لطيفًا مع شقٍّ في ظهره يسقط فيه العملات المعدنية. عندما تضع خمسين نحاسيّة، سيفتح الخنزير بدقّةٍ من تلقاء نفسه إذا لويت ذيله وستستردّ ثروتك. أخيرًا لتعويض آخر ثمانية سنتات، باع سلسلة بيض الطيور الخاصّة به إلى ماك ريز. لقد كانت أفضل سلسلة في جلين وشعر جيم بالحزن للتخلّي عنها. ولكن كان عيد ميلاد والدته يقترب وعليه أن يجمع المال. أسقط جيم الثمانية سنتات في الخنزير بمجرد أن دفع له ماك وشمت به.

قال ماك: "قم بلفّ ذيله ومعرفة ما إذا كان سيفتح حقًا". ولم يكن ماك يعتقد أنّه سيفتح. لكنّ جيم رفض أن يلفّ الذيل، لم يكن سيفتحه حتّى يصبح مستعدًا لشراء القلادة.

اجتمع أعضاء المساعدة التبشيريّة في إنجلسايد بعد ظهر اليوم التالي ولن ينسوا ما حصل أبدًا. في منتصف صلاة السيّدة نورمان تايلور التي كانت معروفةً في اعتزازها بصلواتها، اقتحم صبيٌّ صغيرٌ مسعور غرفة المعيشة.

"اختفى خنزيري النحاسيّ يا أمّي، اختفى خنزيري النحاسيّ!"

قامت آن بدفعه للخارج لكنّ السيّدة نورمان اعتبرت أنّه قد أفسد صلاتها، وبما أنّها أرادت بشكلٍ خاصّ إثارة إعجاب زوجة القس الزائرة، فقد تمرّ سنواتٌ طويلة قبل أن تسامح جيم أو أن تتعالج عند والده مرّةً أخرى. بعد أن عادت السيّدات إلى المنازل، تمّ تفتيش إنجلسايد من أعلى إلى أسفل للعثور على الخنزير دون نتيجة. ورغم التوبيخ الذي تلقّاه بعد سلوكه أمام الضيوف ورغم قلقه على خسارته، استطاع جيم أن يتذكّر متى رأى الخنزير وأين. اتّصلوا بماك ريس، الذي أجاب وقال إنّ آخر مرّةٍ رأى فيها الخنزير كان على مكتب جيم.

"أنت لا تفترضين يا سوزان أنّ ماك ريس..."

"لا يا زوجة الطبيب العزيزة، أنا متأكّدة من أنّه لم يفعل ذلك. آل ريس لديهم عيوب، وهم حريصون للغاية على المال، ولكن من الواضح أنّ شخصًا ما استحوذ عليه. أين يمكن أن يكون هذا الخنزير؟"

قالت دي: "ربّما أكلته الفئران." سخر جيم من الفكرة لكنّها أقلقته، بالطبع لم تستطع الفئران أكل خنزيرٍ نحاسيّ بداخله خمسون قطعة نقديّة نحاسيّة. لكن هل يمكنهم ذلك؟

أكدّت الأمّ: "لا، لا، يا عزيزي. سنجد الخنزير."

في اليوم التالي، عندما ذهب جيم إلى المدرسة، لم يكن قد وجد أحدٌ الخنزير. وصلت أخبار فقدانه إلى المدرسة قبل وصول جيم وقيلت له أمورٌ كثيرة، لم تكن مطمئنة تمامًا. ولكن أثناء الفسحة،

توجّهت سيسي فلاج نحوه بلهفة. كانت سيسي فلاج تحبّ جيم وهو لم يحبّها، على الرغم من شعرها الأشقر الكثيف المجعّد وعينيها البنيتين الضخمتين أو بالأحرى كان هذا سبب عدم حبّه لها. حتّى في الثامنة من العمر، قد يعاني المرء من مشاكل تتعلّق بالجنس الآخر.

"يمكنني أن أخبرك من أخذ خنزيرك."

"من؟"

"عليك أن تختارني من أجل لعبة "كلب داخل وكلاب خارج" وعندها سأخبرك."

كانت أمرًا صعبًا لكنّ جيم قبل به، كان سيفعل أيّ شيء للعثور على الخنزير! جلس إلى جانب سيسي المنتصرة وهو يتعذّب من الخجل بينما كانا يلعبان كلاب إن وكلاب أوت وعندما رنّ الجرس طالب بمكافأته.

"أليس بالمر تقول أنّ ويلي درو أخبرها أنّ بوب راسل أخبره أنّ فريد إليوت قال إنّه يعرف مكان خنزيرك. اذهب واسأل فريد."

صرخ جيم محدّقًا بها: "هذا غش! غشاشة!"

ضحكت سيسي بغطرسة، فلم تكن تهتمّ للخنزير، كلّ ما كان يهمّها هو أن يجلس معها جيم بلايث ولو لمرّةٍ واحدة.

ذهب جيم إلى فريد إليوت، الذي صرّح في البداية أنّه لا يعرف شيئًا عن الخنزير القديم. كان جيم في حالةٍ من اليأس، فكان فريد إليوت أكبر منه بثلاث سنوات وكان متنمّرًا معروفًا. وفجأةً أحسّ جيم بالقوّة، وأشار بصرامةٍ بإصبعه المتّسخ إلى فريد إليوت الضخم ذي الوجه الأحمر.

قال بوضوح: "أنت مؤمن بالاستحالة الجوهريّة."

"اسمع يا هذا، لا تنعتني بعباراتٍ بذيئة يا بلايث الصغير."

قال جيم: "هذه ليست مجرّد عبارة بذيئة، هذه عبارة تجلب الحظ السيء. إذا قلتها مرّةً أخرى ووجّهت إصبعي إليك، قد يظل حظك سيّئًا لمدّة أسبوع. قد تصغر أصابع قدمك. سأعدّ إلى عشرة، وإذا لم تخبرني قبل أن أصل إلى عشرة، سأقول لك عبارةً أخرى."

لم يصدّق فريد ذلك. لكن سباق التزلج كان سيبدأ في تلك الليلة ولم يرد المجازفة، إلى جانب ذلك، لم يرغب في أن تصبح أصابع قدمه صغيرة. وعندما وصل جيم إلى ستّة، استسلم فريد.

"حسنًا، حسنًا، لا تقلها مرّةً ثانية كي لا أحطّم فكّك. قال ماك إنّه يعرف مكان خنزيرك."

لم يكن ماك في المدرسة، ولكن عندما سمعت آن قصة جيم، اتصلت بوالدته. جاءت السيّدة ريس بعد ذلك بقليل، محرجة ومعتذرة.

"لم يأخذ ماك الخنزير يا سيّدة بلايث. لقد أراد فقط أن يرى ما إذا كان سيفتح، لذلك عندما كان جيم خارج الغرفة قام بلف الذيل، فانقسم إلى قطعتين ولم يتمكّن من جمعهما معًا مرّةً أخرى. لذلك وضع نصفي الخنزير والمال في أحد أحذية جيم في الخزانة. لم يكن يجب أن يلمسها، ولقد أبرحه والده ضربًا، لكنّه لم يسرقها يا سيّدة بلايث."

بعد العثور على الخنزير المشطور وعدّ النقود سألت سوزان: "ما تلك العبارة التي قلتها لفريد إليوت، يا عزيزي الصغير جيم؟"

قال جيم بفخر: "مؤمن بالاستحالة الجوهريّة. وجدها والتر في القاموس الأسبوع الماضي، أنتِ تعلمين أنّه يحبّ الكلمات الكبيرة يا سوزان وكلانا تعلّم كيفيّة نطقها. قلناها لبعضنا البعض إحدى وعشرين مرّةً في السرير قبل أن ننام حتى نتذكرها."

الآن وقد تمّ شراء القلادة وتخزينها في الصندوق الثالث من أعلى الدرج الأوسط لمكتب سوزان التي كانت مطّلعة على الخطّة طوال

الوقت، صار جيم يشعر بأنّ الوقت طويل وكأنّ عيد ميلاد أمّه لن يأتي أبدًا. كان شامتًا بأمّه لأنّها لم تكن تعلم بما يجري. هل كانت تعرف ما كان يخبّئ لها جيم الصغير في درج مكتب سوزان؟ هل كانت تعرف ما ستكون هديّة عيد ميلادها؟ هل كانت تعرف ما ستجلب لها السفينة عندما غنّت للتوأمين قبل النوم: مكتبة سُر مَن قرأ

"رأيت سفينةً تبحر، تبحر في البحر،
وآه كم كانت مليئةً بأشياء جميلة لي!"

أصيب جيلبرت بنوبة الأنفلونزا في أوائل شهر آذار وكادت أن تتطوّر إلى التهابٍ رئوي. مرّت على إنجلسايد أيّامٌ صعبة. راحت آن كالمعتاد، تحاول حلّ المشاكل، وتواسي زوجها، وتنحني على الأسرّة التي أنارها ضوء القمر لمعرفة ما إذا كان أطفالها الأعزّاء الصغار دافئين، لكنّ الأطفال اشتاقوا لضحكاتها.

همس والتر وعلامات القلق تظهر على وجهه: "كيف سيصبح العالم إذا مات أبي؟"

"لن يموت يا عزيزي، لم يعد في خطرٍ الآن."

تساءلت آن عمّا كان سيفعله عالمهم الصغير المكوّن من فورويندز و جلين والميناء إذا حدث أيّ شيءٍ لجيلبرت. كانوا جميعًا يعتمدون عليه. بدا أنّ سكّان جلين الشماليّة على وجه الخصوص يعتقدون حقًّا أنّه يمكن لجيلبرت أن يحيي الموتى وامتنعوا عن اعتقاد ذلك فقط لأنّ الله وحده قادرٌ على فعل ذلك. أكّدوا أنّه فعل ذلك مرّةً واحدة، عندما كان العمّ العجوز أرشيبالد ماكجريجور قد أكّد لسوزان بجديّة أنّ صاموئيل هيويت كان ميتًا عندما أعاده الدكتور بلايث إلى الحياة. بغضّ النظر عن كيفيّة حدوث ذلك، عندما يرى المرضى وجه جيلبرت الأسمر النحيل وعينيه العسليّتين الجميلتين بجانب سريرهم ويسمعون

تشجيعه وهو يقول: "لماذا؟ أنتَ على ما يرام." كانوا يصدّقون ذلك حتّى يصبح حقيقة. أما بالنسبة للتسميّات، فقد أطلق الكثير من الأهالي اسم جيلبرت على أبنائهم بحيث كان عددهم لا يحصى. كانت منطقة فوروويندز مليئة بالشباب الذين يُدعون جيلبرت، كانوا يشكّلون شعبًا خاصًّا بهم.

في النّهاية، استعاد الوالد عافيته، وراحت آن تضحك مرّةً أخرى، وبعد طول انتظار، جاءت اللّيلة السابقة لعيد ميلاد آن.

أكّدت سوزان: "إذا ذهبت إلى الفراش مبكرًا يا جيم الصغير، فسيأتي الغد بشكلٍ أسرع."

حاول جيم ذلك، لكن يبدو أنّه لم ينجح. نام والتر على الفور، لكنّ جيم ظلّ يتقلّب في سريره، فقد كان خائفًا من النوم. ماذا لو لم يستيقظ في الوقت المناسب وقدّم الجميع هداياهم لأمّه إلّا هو؟ أراد أن يكون الأوّل. لماذا لم يطلب من سوزان أن تتأكد من استيقاظه باكرًا وتناديه؟ كانت قد خرجت للقيام بزيارةٍ إلى مكانٍ ما لكنّه كان سيطلب منها ذلك عند عودتها، لكن من الممكن أنه لن يسمعها! حسنًا، قرّر أن ينزل ويستلقي على أريكة غرفة المعيشة كي يسمعها عندما تأتي.

تسلّل جيم إلى الأسفل واستلقى على الأريكة. كان بإمكانه رؤية جلين، جعل ضوء القمر الأجواف في الكثبان البيضاء الثلجيّة تبدو ساحرة. ومدّت الأشجار العظيمة التي كانت تبدو غامضةً جدًّا في الليل، أغصانها حول إنجلسايد. سمع جميع الأصوات التي تصدر في الليل في المنزل، صرير الأرضيّة، شخص يتقلّب في سريره، فتات الفحم وسقوطه في المدفأة، هروب الفأر الصغير في الخزانة الصينية. هل كان ذلك الصوت ناجمٌ عن انهيارٍ جليدي؟ لا، يبدو أنّ الثلج ينزلق من على السطح. لقد أحسّ بالوحدة. لماذا لم تأتِ سوزان؟ لو فقط

كان جيب معه الآن، العزيز جيبي. لم يكن جيم قد نسي تمامًا جيب، لكنّه لم يعد يحزنه التفكير فيه كثيرًا الآن، فمن الجيّد التفكير في أمورٍ أخرى في هذا الوقت المخيف. تمنّى جيم أن يرقد جيبي بسلام، ربّما في نهاية الأمر قد يكون لديه كلبٌ آخر في وقتٍ ما. سيكون من الرائع لو كان بجانبه واحدٌ الآن، أو لو كان شرمب معه، لكنّه لم يكن في الأرجاء. ذلك القّط العجوز الأنانّي! لا يفكّر إلّا في نفسه!

لا أثر لسوزان حتّى الآن، القادمة على طول الطريق الطويل الذي تعصف فيه الرياح باستمرار والمضاء بنور القمر والذي كان بالنسبة لجيم جلين المألوف في النهار. حسنًا، كان عليه فقط تخيّل الأشياء لتمضية الوقت. في يومٍ من الأيام سيذهب إلى بافين لاند ويعيش مع الأسكيمو. وفي يومٍ من الأيّام سيبحر إلى أقصى البحار ويطبخ سمكة قرش لعشاء عيد الميلاد مثل الكابتن جيم. وسيذهب في رحلةٍ استكشافيّةٍ إلى الكونغو بحثًا عن الغوريلا. سيكون غوّاصًا ويتجوّل في قاعات الكريستال المشعّة تحت البحر. سيطلب من العمّ ديفي أن يعلمه كيف يضع الحليب في فم القّط في المرّة التالية التي يذهب فيها إلى آفونلي، فقد كان العمّ ديفي خبيرًا في ذلك. ربّما سيصبح قرصانًا، أرادته سوزان أن يكون وزيرًا، يمكن للوزير أن يفعل أفضل الأمور ولكن ألا يحظى القراصنة بأكبر قدرٍ من المتعة؟ ماذا لو قفز جنديٌّ خشبيّ من على رفّ الموقد وأطلق النّار من بندقيته!

ماذا لو بدأت الكراسي تتجوّل في الغرفة؟ وماذا لو أصبحت سجادة جلد النمر حيّة؟ لنفترض أنّ الدبب المتوحّشة التي كان يقلّدها هو ووالتر في أرجاء المنزل عندما كانا صغيرين جدًا، أصبحت حقًّا في إنجلسايد! فجأةً، شعر جيم بالخوف، ففي النّهار لم ينس كثيرًا الفرق بين الخيال والواقع، لكنّ الوضع كان مختلفًا في هذه الليلة الطويلة.

صارت الساعة تدق تيك تاك تيك تاك، ومقابل كلّ دقّةٍ كان جيم يتخيّل دبًّا متوحّشًا جالسًا على درج السلم. كانت السلالم سوداء في مخيّلته مع الدبب المتوحشة، التي كانت تجلس هناك وتثرثر حتى ضوء النهار.

ماذا لو أنّ الشمس لم تشرق! كانت الفكرة مروّعةً لدرجة أنّ جيم دفن وجهه في البطانيّة ليتوقف عن تخيّلها. عندما عادت سوزان إلى المنزل عند شروق الشمس، وجدته نائمًا.

صاحت سوزان: "جيم الصغير!"

نهض جيم وجلس وهو يتثاءب. لقد كانت ليلةً مزدحمة بالنسبة إلى غابة سيلفرسميث وكانت الغابة عبارةً عن أرضٍ خياليّة. غطّت الأزهار القرمزيّة أعالي التلال، وكانت جميع الحقول البيضاء خلف جلين ورديّة اللّون. وأتى صباح يوم ميلاد الأمّ.

"كنت في انتظارك يا سوزان لأطلب منك أن تناديني، لكنّك لم تأتِ."

أوضحت سوزان: "نزلت لزيارة آل جون وارينز، لأنّ خالتهم ماتت، وطلبوا منّي البقاء والجلوس مع الجثة. لم أتوقّع أنّك ستصاب بالتهابٍ رئويّ أيضًا، في اللّحظة التي أدير فيها ظهري. اذهب إلى سريرك وسأناديك عندما أسمع صوت والدتك."

" كيف تطعنين أسماك القرش يا سوزان؟" أراد جيم أن يعرف ذلك قبل أن يصعد إلى الطابق العلوي.

أجابت سوزان: "أنا لا أطعنهم."

كانت الأم مستيقظة عندما دخل غرفتها، وتمشط شعرها الطويل اللامع أمام المرآة. لمعت عيناها عندما رأت القلادة.

قالت بحماس: "جيم حبيبي! هل هذه لي؟"

قال جيم: "الآن لن تضطرّي إلى الانتظار حتّى تصل سفينة أبي.

تساءل جيم بقلقٍ عن الشيء الذي كان يلمع باللّون الأخضر على يد أمّه. رأى أنّه خاتم، هديّةٌ من والده. كلّ شيء على ما يرام إذًا، فالخواتم كانت شائعة، حتّى سيسي فلاج تمتلك واحدًا. لكن قلادةٌ من اللؤلؤ! تلك كانت نادرة.

قالت الأمّ: "تليق القلادة يا كنزي الثمين بأن تكون هديّة عيد ميلاد جميلة."

***

20



عندما ذهب جيلبرت وآن لتناول العشاء مع الأصدقاء في شارلوت تاون ذات مساء في أواخر شهر آذار، ارتدت آن فستانًا جديدًا باللّون الأخضر مرّصعًا بالفضّة حول العنق والذراعين؛ وارتدت خاتم جيلبرت الزمرّدي وقلادة جيم.

سأل الأب بفخر: "أليست زوجتي فاتنة يا جيم؟"

اعتقد جيم أنّ والدته كانت فاتنة للغاية ولباسها جميلٌ جدًّا. كم تبدو جميلةً اللآلئ على عنقها الأبيض! كان يحب دائمًا رؤية والدته متأنّقة، لكنه لا يزال يحبّها أكثر إن لم تكن مرتدية فستانًا رائعًا، فقد كانت تبدو مختلفةً كثيرًا فيه، لم تكن أمّه التي يعرفها.

بعد العشاء، ذهب جيم إلى القرية للقيام بمهمّةٍ لسوزان وأثناء انتظاره في متجر السيد فلاج، خائفًا من أن تأتي سيسي كما تفعل في بعض الأحيان وتبدأ بالتودّد إليه، جاءت الضربة الكبرى، الضربة التي جلبت معها خيبة الأمل المروّعة لجيم لأنّها غير متوقّعة ويبدو أنّه لا مفرّ منها.

كان هناك فتاتان تقفان أمام واجهة العرض الزجاجيّة، حيث كان

السيّد كارتر فلاج يحتفظ بقلائد وأساور ومشابك شعر.

قالت آبي راسل: "أليست قلائد اللؤلؤ جميلة؟"

قالت ليونا ريس: "سأكاد أصدّق أنّها لآلئ حقيقيّة."

ذهبت الفتاتان بعد ذلك، غير مدركتين لما فعلتاه بالصبيّ الصغير الجالس على البرميل. جلس جيم هناك لبعض الوقت، كان غير قادر على الحركة.

استفسر السيّد فلاج: "ما الأمر يا بنيّ؟ يبدو أنّك مشغول البال."

نظر جيم إلى السيّد فلاج بعينين حزينتين، وتلعثم قائلًا: "من فضلك يا سيّد فلاج، تلك القلائد، إنّها لآلئ حقيقيّة، أليس كذلك؟"

ضحك السيّد فلاج.

"لا يا جيم، أخشى أنّه لا يمكنك الحصول على لؤلؤٍ حقيقيّ بخمسين سنت، كما تعلم. عقدٌ من اللؤلؤ الحقيقيّ قد يكلّف مئات الدولارات. إنّها مجرّد خرزات لؤلؤ جيّدة بالنّسبة لسعرها. لقد حصلت عليها من شخصٍ مفلس، لهذا السبب يمكنني بيعها بسعر زهيد، فهي بالعادة تباع مقابل دولارٍ واحد. لم يبق منها سوى واحدة، لقد بيعت بسرعةٍ كبيرة."

نزل جيم عن البرميل وخرج، ناسيًا تمامًا ما أرسلته سوزان من أجله. مشى بسرعةٍ كبيرة في الطريق المتجمدّ المؤدّي إلى المنزل. كانت سماء الشتاء فوقه مظلمةً وقاسية. كان هناك ما أسمته سوزان "شعور" بالثلج في الهواء، وقطعة من الجليد فوق البرك. كان المرفأ أسودًا وكئيبًا بين ضفّتيه العاريتين. قبل أن يصل جيم إلى المنزل، بدأ الثلج يتساقط. تمنّى لو تساقطت الثلوج باستمرار حتى دفن ودُفن الجميع في عمق أمتار. لم يكن هناك عدالةٌ في أيّ مكانٍ في العالم.

كان جيم حزينًا. ولا ينبغي لأحدٍ أن يسخر من حسرة قلبه ويحتقر

سببها. لقد شعر بإذلالٍ كبير، فقد أعطى الأمّ ما كان يفترض أنّها قلادةٌ من اللّؤلؤ، لكنّها كانت مزيّفة. ماذا ستقول أمّه وكيف ستشعر عندما تعلم؟ بالطّبع ينبغي له إخبارها. لم يخطر ببال جيم أن يخفي الأمر عنها، فيجب ألّا تبقى أمّه مخدوعةً أكثر من ذلك، ينبغي أن تعرف أنّ لآلئها لم تكن حقيقيّة. الأم المسكينة! كانت فخورةً جدًّا بها، فقد رأى الفخر يلمع في عينيها وهي تقبّله وتشكره عليها.

تسلّل جيم من الباب الجانبيّ وذهب مباشرةً إلى الفراش، حيث كان والتر نائمًا، لكنّ جيم لم يستطع النوم وكان مستيقظًا عندما عادت أمّه إلى المنزل ودخلت لترى أنّه ووالتر كانا دافئين.

"عزيزي جيم، أما زلت مستيقظًا حتّى هذه الساعة؟ هل أنت مريض؟"

قال جيم وهو يضع يده على بطنه، معتقدًا باعتزاز أنّ هذا قلبه: "لا، لكنّ قلبي ليس سعيدًا للغاية يا أمّي العزيزة."

"ما الأمر يا عزيزي؟"

"هناك أمرٌ عليّ أن أخبرك به يا أمّي، ستشعرين بخيبة أملٍ كبيرة، لكنّني لم أقصد خداعك يا أمّي، حقًّا لم أقصد ذلك."

"أنا متأكّدة من أنّك لم تقصد يا عزيزي. ما الذي تودّ أن تقوله؟ لا تخف."

"آه يا أمّي العزيزة، هذه اللآلئ ليست لآلئ حقيقيّة، اعتقدت أنّها كانت... اعتقدت أنّها كانت كذلك."

كانت عيون جيم مليئةً بالدموع، ولم يستطع الاستمرار في الكلام.

إذا أرادت آن أن تبتسم، فلم يبدُ ذلك على وجهها. كان شيرلي قد صدم رأسه في ذلك اليوم، وأصيبت نان في كاحلها، وفقدت دي صوتها بنزلةِ برد. كانت آن قد قبّلت وضمّدت وسكّنت الآلام؛ لكنّ

هذا الأمر كان مختلفًا، ما حدث مع جيم كان يحتاج إلى كلّ الحكمة السريّة التي تمتلكها الأمّهات.

"جيم، لم أعتقد قط أنّك افترضت أنّها كانت لآلئ حقيقيّة. كنت أعلم أنّها مزيّفة، منطقيًا هي كذلك. من الجانب الآخر، إنّها أكثر الهدايا الحقيقيّة التي قُدّمت لي على الإطلاق، لأنّ فيها حبٌّ وجهدٌ وتضحية، وهذا يجعلها أغلى بالنسبة لي من كلّ الجواهر التي اصطادها الغوّاصون من البحر لترتديها الملكات. عزيزي، لن أستبدل خرزاتي الجميلة بالعقد الذي قرأت عنه اللّيلة الماضية والذي قدّمه مليونير لعروسه، وتبلغ قيمته نصف مليون. وهذا يوضح لك ما تعنيه هديّتك بالنسبة لي، يا أعزّ الصغار. هل تشعر بتحسّنٍ الآن؟"

كان جيم فرحًا للغاية لدرجة أنّه كان يخجل من سعادته، كان يخشى أن تكون سعادته طفوليّةً للغاية. قال بحذر: "آه، الحياة جميلةٌ مرّةً أخرى."

لم تعد هناك دموعٌ في عينيه اللامعتين. كلّ شيء على ما يرام، كانت ذراعا أمّه حوله، تلفّه كما تلفّ القلادة عنقها، لم يكن يهمّه شيءٌ آخر. في يومٍ من الأيّام سيهديها واحدةً لا تكلّف نصف مليونٍ فقط، بل مليونًا كاملًا. في ذلك الوقت، كان جيم متعبًا، وكان سريره دافئًا للغاية، كانت رائحة يدَي أمّه تشبه رائحة الورود، ولم يعد يكره ليونا ريس.

قال وهو نائم: "أمّي العزيزة، تبدين جميلةً جدًّا في هذا الفستان، جميلة ولطيفة."

ابتسمت آن عندما عانقته وفكّرت في مقالٍ سخيف قرأته في مجلّةٍ طبيّةٍ في ذلك اليوم، موقّعًا من الدكتور ف.ز. توماتشوسكي.

"يجب ألا تقبّلي ابنك الصغير أبدًا خشية أن يحدث لك ما حدث لجاكوستا."

كانت قد ضحكت عليه في ذلك الوقت وكانت غاضبةً قليلًا أيضًا، أمّا الآن فشعرت فقط بالشفقة على كاتب المقال. يا له من رجلٍ مسكين! بالطبع كان ف.ز. توماتشوسكي رجلًا، فلن تكتب أيّ امرأة نصًّا سخيفًا وقاسيًا كهذا.

***

21



جاء شهر نيسان جميلًا في ذلك العام مع أشعة الشمس ونسمات الهواء التي استمرّت لبضعة أيّام؛ وبعد ذلك جاءت عاصفةٌ ثلجيّة شماليّة شرقيّة، جعلت القرية ترتدي ثوبها الأبيض مرّةً أخرى. قالت آن: "لا أحبّ الثلج في نيسان، كأنّك تلقّيت صفعةً على الوجه في حين كنت تتوقّع قبلة."

كانت إنجلسايد محاطة بالجليد ولمدّة أسبوعين طويلين كانت الأيّام باردة والليالي قاسية. بعد فترة، اختفى الثلج وعندما انتشر الخبر أنّ أوّل طائر روبن قد شوهد في الجوف، عمّ السرور إنجلسايد، فالربيع السحريّ سيعود بالفعل مرّةً أخرى.

صاحت نان وهي تشمّ الهواء النقيّ الرطب بسعادة: "آه يا أمّي، أشمّ رائحة الربيع. ألا تعتقدين أنّ الربيع فصلٌ رائع؟"

بانت علامات الربيع شيئًا فشيئًا، وظهرت أوراق الأشجار على الأغصان العارية وأحضر جيم مرّةً ثانية أوّل أزهار نيسان. لكنّ سيّدةً بدينةً للغاية، جالسة على أحد الكراسي المريحة في إنجلسايد، تنهّدت

وقالت بحزن أنّ الربيع لم يعد جميلًا كما كان عندما كانت صغيرة.

ابتسمت آن وقالت: "ألا تعتقدين أنّنا نحن من تغيّرنا وليس الربيع يا سيّدة ميتشل؟"

"قد يكون كلامك صحيح يا آن، أعلم أنّني تغيرت. أظنّ أنّك بالنظر إليّ الآن، لن تصدّقي أنني كنت أجمل فتاةٍ في هذه المنطقة."

أدركت آن أنّها بالتّأكيد لن تصدّق ذلك، فكان شعر السيّدة ميتشل خفيف تحت غطاء قلنسوتها السوداء المصنوعة من الحرير وحجابها الطويل الخاص بالأرامل مُخطّطًا باللّون الرماديّ، وكانت عيناها الزرقاوين اللّامعتين باهتتين ومجوّفتين؛ ولديها ذقنًا مزدوجة. لكنّ السيدة أنتوني ميتشل كانت تشعر بالرضا عن نفسها في ذلك الوقت فقط لأنّها كانت تملك أفخم ثيابِ حدادٍ في فوروينذز. كان فستانها الأسود الضخم الذي يصل إلى ركبتيها مصنوعًا بالكامل من الحرير. كان المرء يلبس الحداد في تلك الأيّام بانتقام.

نجت آن من ضرورة قول أيّ شيء، لأنّ السيّدة ميتشل لم تمنحها أيّ فرصة.

"جفّ نظام المياه في منزلي هذا الأسبوع، هناك تسرّبٌ فيه، لذلك توجّهت إلى القرية هذا الصباح لإحضار ريمون راسل ليأتي ويصلحه. عندها قرّرت أن آتي إلى إنجلسايد وأطلب منك أن تكتبي نعيًا لأنطوني."

قالت آن باستغراب: "نعي؟"

أوضحت السيّدة ميتشل: "نعم كما تعلمين، تلك الكتابات التي ينشرونها في الصحف عن الموتى. أريد أن يكون لأنطوني نعيًا جميلًا، وفريدًا من نوعه. أنتِ بارعةٌ في الكتابة، أليس كذلك؟"

اعترفت آن: "أكتب أحيانًا قصّصًا قصيرة، لكنّ الأمّ المشغولة ليس

لديها الكثير من الوقت لتلك الأمور. كانت لديّ أحلامٌ رائعةٌ ذات مرّة، ولكن الآن أخشى ألاّ أكون أبدًا من الأشخاص المشهورين يا سيّدة ميتشل، ولم أكتب أبدًا نعيًا في حياتي."

"آه، لا يمكن أن يكون من الصعب كتابته، يكتب العجوز تشارلي بيتس الذي يقطن في شارعنا معظم النعايا لمنطقة جلين السفلى، لكنّ كتابته ليست شاعرية أبدًا، وأنا أردت بشدّة أن يحظى أنطوني بنعيٍ شعريّ، فقد كان دائمًا مغرمًا بالشعر. لقد كنت حاضرةً عندما كنت تتكلّمين عن الضمادات في معهد جلين في الأسبوع الماضي، وفكّرت "أيّ شخصٍ بإمكانه التحدث بسلاسةٍ هكذا يمكنه على الأرجح كتابة نعيٍ شعريّ جميل. ستفعلين ذلك من أجلي، أليس كذلك يا سيّدة بلايث؟ كان سيحبّ أنتوني ذلك. لطالما كان معجبًا بك. قال ذات مرّةٍ أنك عندما تدخلين غرفة، تجعلين جميع النساء الأخريات يبدون عاديّات وغير مميّزات. كان يتحدّث أحيانًا بشاعريّة، لكنّ نيّته كانت صافية. لقد كنت أقرأ الكثير من النعايا، لديّ دفترٌ كبير مليءٌ بها، لكن لم يبد لي أنّه أحبّ أيًّا منها. كان يضحك عليها كثيرًا، ولكنّ وقت الضحك قد انتهى، فلقد مات قبل شهرين، مات ببطء لكنّه لم يتألّم. الربيع فصلٌ سيّءٌ ليموت فيه أيّ شخص يا سيّدة بلايث، لكنّني استطعت الاستفادة من ذلك. أفترض أنّ العمّ تشارلي سيجنّ جنونه إذا طلبت من شخصٍ غيره كتابة نعي أنطوني، لكنني لا أكترث. يتمتّع العم تشارلي بطلاقةٍ في اللّغة، لكنّه لم يكن على وفاقٍ أبدًا مع أنطوني، وملخّص ذلك أنّني لن أجعله يكتب نعيه. لقد كنت زوجة أنطوني، امرأته المخلصة والمحبّة لخمسٍ وثلاثين عامًا، يا سيّدة بلايث." كما لو كانت تخشى أن تفكّر آن بأربعةٍ وثلاثين عامًا فقط. ثمّ أكملت: "هذا ما قالته لي ابنتي سيرافين، إنّها متزوّجة وتقطن في لوبريدج، كما

تعلمين. سيرافين اسمٌ جميل، أليس كذلك؟ لقد قرأته على أحد القبور وأعجبني، لكنّه لم يعجب أنطوني الذي أراد أن يسميّها جوديث تيّمنًا بوالدته. لكنّني قلت إنّه اسمٌ مهيبٌ للغاية واقتنع فورًا. لم يكن يحبّ الجدال، على الرغم من أنّه دعاها دائمًا سيراف. حسنًا، أين كنت؟"

"كانت ابنتك تقول..."

"آه نعم، قالت لي سيرافين إنّها لا يهمّها الآن سوى أن يحظى والدها بنعيٍ لطيفٍ ومميّز. كانت هي ووالدها دائمًا مقرّبين، على الرّغم من أنّه كان يسخر منها قليلًا بين الحين والآخر، تمامًا كما كان يفعل معي. إذًا هل ستكتبينه يا سيّدة بلايث؟"

"أنا حقًّا لا أعرف الكثير عن زوجك يا سيّدة ميتشل."

"آه، يمكنني أن أخبركِ كلّ شيء عنه باستثناء لون عينيه. أتعلمين يا سيّدة بلايث، عندما كنت أنا وسيرافين نتحدّث بعد الجنازة لم أستطع أن أعرف لون عينيه، على الرغم من أنّني عشت معه لمدّة خمسةٍ وثلاثين عامًا. لقد كانت عيناه نوعًا ما بريئتين وحالمتين. كان ينظر بهما إليّ بتضرّعٍ عندما كان يغازلني. لقد واجه صعوبة كبيرة في الحصول عليّ يا سيّدة بلايث. لقد كان مجنونًا بي لسنوات، فلقد كنت متردّدة كثيرًا في ذلك الوقت، وكنت أحبّ أن أفكّر وأختار. ستكون قصة حياتي مثيرةً للاهتمام حقًّا إذا كنت لا تجدين قصّةً تكتبينها يا سيّدة بلايث. آه، لقد ولّت تلك الأيّام. كان لديّ عددٌ كبيرٌ من العشاق، لكنّهم استمروا في القدوم والذهاب، إلّا أنطوني جاء ولم يذهب. لقد كان وسيمًا أيضًا، نحيلًا ولطيفًا. أنا لا أحبّ أبدًا الرجال البدينين، وكان أعلى شأنًا منّي، سأكون آخر من ينكر ذلك. قالت أمّي: "ستكون خطوة للأمام بالنسبة إلى آل بلامر إذا تزوّجتِ من آل ميتشل." لقد كنت من آل بلامر يا سيّدة بلايث، ابنة جون أ. بلامر، ومع ذلك فلقد كان أنطوني

دائمًا رومانسيًّا معي ويغازلني باستمرار. أخبرني ذات مرّةٍ أنّني أمتلك السحر الأثيريّ لضوء القمر. كنت أعرف أنّه يعني أمرًا لطيفًا على الرغم من أنّني لا أعرف حتّى الآن ما تعنيه كلمة أثيريّ. لطالما كنت أرغب في البحث عنها في القاموس ولكنّي لم أجدها مطلقًا. حسنًا، على أيّ حال، لقد قلت بأنني سأكون عروسه، أعني أنّني قبلت به. يا إلهي، أتّمنى لو كنت قد رأيتني في فستان زفافي يا سيّدة بلايث، قالوا جميعًا أنني كنت أيقونة جمال. كنت نحيفةً مثل سمك السلمون المرقط مع شعرٍ أصفر من الذهب، وبشرةٍ جميلةٍ صافية. آه، الوقت يحدث تغييراتٍ مروّعةٍ فينا. أنت لم تصلي إلى تلك المرحلة بعد يا سيّدة بلايث، ما زلت فاتنة، ومثقّفة للغاية. حسنًا، لا يمكننا جميعًا أن نكون أذكياء، على بعضنا أن يقوم بالطهي. هذا الفستان الذي ترتدينه جميلٌ للغاية. لاحظت أنّك لا ترتدين الأسود أبدًا، لكنّني لا ألومك، سيتعيّن عليك ارتدائه لاحقًا. لا ترتديه حتّى تضطّري إلى ذلك. حسنًا، أين كنت؟"

"كنت تحاولين إخباري بشيءٍ عن السيّد ميتشل."

"آه، نعم. حسنًا، لقد كنا متزوّجين، وكان هناك مذنّبٌ كبيرٌ في تلك الليلة، أتذكّر رؤيته أثناء عودتنا إلى المنزل. إنّه لأمرٌ مؤسف أنّك لا تستطيعين رؤية ذلك المذنّب يا سيّدة بلايث. كان جميلًا للغاية. لا أفترض أنّه يمكنك ذكره في النّعي، أليس كذلك؟"

"قد يكون هذا صعبًا قليلًا."

تخلّت السيّدة ميتشل عن فكرة المذنّب بحسرة وقالت: "حسنًا، عليك أن تفعلي ما بوسعك، لم تكن حياته مثيرةً للاهتمام. لقد ثمل مرّة، قال إنّه يريد أن يعيش تلك التجربة لمرّةٍ واحدة فقط، لقد كان دائمًا يمتلك عقليّةً خاصّة. ولكن بالطّبع لا يمكنك وضع ذلك في النعي، ولا

شيء آخر يذكر. لقد كان كسولًا وليّنًا، لست أشكو، ولكنّني فقط أردت ذِكر بعض الحقائق عنه. كان يجلس لمدّة ساعةٍ يتأمّل نبتة، فقد كان عزيزي مغرمًا بالزهور، وكان يكره قصّ الحوذان. لم يكن يهمّه إن فشل محصول القمح طالما كانت هناك أزهارٌ في الأرض. وكنت دائمًا أقول له مازحةً أنّه يهتمّ بأشجاره التي في البستان أكثر ممّا يهتمّ بي. كان يحبّ مزرعته كثيرًا، لدرجة أنّه يعتبرها إنسانًا وليس مزرعة. لقد سمعته في كثيرٍ من الأوقات يقول: "أعتقد أنّني سأخرج وأتحدّث قليلًا إلى مزرعتي". عندما تقدّمنا في السن، أردته أن يبيعها بما أنّنا لم نرزق بأبناء، وأن نقضي بقية أيامنا في لوبريدج، لكنّه كان يقول: "لا يمكنني بيع مزرعتي، لا يمكنني بيع قلبي." أليس الرجال مضحكين؟ قبل وقتٍ قصيرٍ من وفاته، أراد فجأةً أن يتناول دجاجةً مسلوقةً على العشاء قال: "لقد طهيتِها بتلك الطريقة التي أحبّها." لقد كان دائمًا متحيّزًا لطبخي، الطعام الوحيد الذي لم يستطع أن يطيقه هو سلطة الخس التي أعدّها مع المكسرات. قال إنّ فيها مكسّرات أكثر من اللازم. ولكن لم يكن هناك دجاجةٌ لطهيها، كانت جميع الدجاجات تبيض بكثرة، ولم نكن نملك سوى ديكٍ واحدٍ فقط وبالطبع لم أكن أستطيع قتله. آه، أحبّ رؤية الديوك تتبختر، أهناك شيءٌ أكثر وسامةً من ديكٍ جميل يا سيّدة بلايث؟ حسنًا، أين كنت؟"

"كنت تقولين أنّ زوجك يريدك أن تطهي له دجاجة."

"آه نعم، منذ ذلك الوقت وأنا أشعر بالأسف لأنّني لم أفعل ذلك من أجله. أستيقظ أحيانًا في اللّيل وأفكّر في الأمر، لكنّني لم أكن أعرف أنّه سيموت يا سيّدة بلايث. كان نادرًا ما يشتكي، ودائمًا ما كان يقول إنّه يشعر بتحسّن، و يكون مهتمًّا حتى النهاية. لو كنت أعلم أنّه سيموت يا سيّدة بلايث، لكنت طبختُ له دجاجةً غير مكترثةٍ فيما إن كانت تضع

البيض أم لا. "

خلعت السيّدة ميتشل قفازات الدانتيل السوداء ومسحت عينيها بمنديلٍ أسود طوله بوصتين.

صارت تبكي وتقول: "كان سيستمتع بها. عزيزي المسكين لم يكن قد فقد أسنانه عندما مات." قامت بطيّ المنديل وارتدت القفازات وأكملت: "حسنًا على أيّ حال، كان يبلغ من العمر خمسةً وستّين عامًا، كان في الفئة العمريّة التي يموت فيها الناس كثيرًا. ولديّ لوحة نعشٍ أخرى، فلقد بدأت أنا وماري مارثا بلامر في جمع لوحات النعوش في الوقت عينه، لكنّها سرعان ما سبقتني، فلقد مات الكثير من أقاربها، ناهيك عن أطفالها الثلاثة. لديها لوحات نعشٍ أكثر من أيّ شخصٍ آخر في هذه الأرجاء. لا يبدو أنّني محظوظةٌ كثيرًا ولكنّني حصلت أخيرًا على لوحةٍ خشبيّةٍ كاملة. دُفن ابن عمّي، توماس بيتس، الأسبوع الماضي، وأردت من زوجته أن تعطيني لوحة النعش، لكنّها دفنتها معه. قالت إنّ جمع لوحات النعوش من سمات البربريّين، لا عجب من أنّها كانت تعتقد ذلك، فهي من آل هامبسون وكان آل هامبسون غريبي الأطوار. حسنًا، أين كنت؟"

لم تستطع آن حقًّا إخبار السيدة ميتشل إلى أين وصلت هذه المرّة بحديثها، لأنّها كانت مذهولةً بلوحات النعوش.

"آه حسنًا، على أيّ حال، مات أنطوني المسكين. كان آخر ما قاله: "سأرحل بسعادةٍ وسلام." لكنّه ابتسم في النهاية ناظرًا إلى السقف، ليس إلى وجهي ولا إلى وجه سيرافين. أنا سعيدةٌ لأنه كان فرِحًا قبل وفاته، فلقد مرّ بأوقاتٍ كنت أعتقد أنّه ربما لم يكن سعيدًا تمامًا فيها يا سيّدة بلايث، كان متوتّرًا بشدّة وحسّاسًا، لكنّه بدا نبيلًا ورائعًا في نعشه. كانت جنازةً كبيرة، وكان يومًا جميلًا. أحضر له الناس الكثير من

الزهور. وشعرت في النهاية بقليلٍ من الدوار ولكن سار كلّ شيء على ما يرام. دفنّاه في مقبرة لوير جلين مع أنّ كلّ أفراد عائلته قد دُفنوا في لوبريدج، لكنّه اختار مقبرته منذ فترةٍ طويلة، فقال إنّه يريد أن يُدفن بالقرب من مزرعته وحيث يمكنه سماع صوت البحر والرياح تعصف في الأشجار، فهناك أشجارٌ حول ثلاثة جوانب من تلك المقبرة. كنت سعيدةً أيضًا لأنّني اعتقدت دائمًا أنّها كانت مقبرةً صغيرةً ومريحة ويمكن لنبتة إبرة الراعي النمو على قبره. لقد كان رجلًا صالحًا، من المحتمل أن يكون في الجنّة الآن، لذلك لا داعي للقلق. أعتقد دائمًا أنّه من الصّعب كتابة نعيٍ عندما لا تعرفين مكان الراحل. يمكنني الاعتماد عليك إذًا يا سيّدة بلايث؟"

وافقت آن التي شعرت أنّ السيّدة ميتشل ستبقى مكانها وتتحدّث حتّى توافق. نهضت السيّدة ميتشل من كرسيّها، شاعرةً بالارتياح بعد موافقة آن على طلبها.

"يجب أن أذهب الآن، أتوقع أن يفقس الديك الرومي اليوم. لقد استمتعت بحديثي معك وأتمنّى لو أستطيع البقاء لفترةٍ أطول. كَوني أرملة يجعلني أشعر بالوحدة. قد لا يكون الرجل مهمًّا للغاية ولكنّك تشتاقين إليه نوعًا ما عندما يموت."

مشت معها آن بأدبٍ إلى أسفل الممرّ، ورأت الأطفال يطاردون طيور أبي الحناء على العشب وكانت رؤوس أزهار النرجس البري تظهر في كلّ مكان.

"لديك منزلٌ ضخمٌ وجميلٌ حقًّا يا سيّدة بلايث. لطالما شعرت أنّني أحبّ العيش في منزلٍ كبير، ولكنّنا فقط ثلاثة أشخاصٍ ولا نملك المال الكافي. على أيّ حال، لم يكن أنطوني ليقبل أبدًا، فقد كان متعلّقًا بذلك المنزل القديم. أريد بيعه إذا حصلت على عرضٍ مغرٍ وأعيش إمّا في

لوبريدج أو موبراي ناروز، فالعيش فيهما سيكون مناسبًا لأرملةٍ مثلي. سيكون تأمين أنطوني مفيدًا، قولي ما تشائين عنّي، لكنّه من الأسهل أن أتحمّل الحزن بتأمينٍ ومنزلٍ جيّد، بدلًا من حزنٍ بلا شيء. ستكتشفين ذلك إن أصبحتِ أرملة، على الرغم من أنّني لا أتمنى أن تمرّي بهذه التجربة. كيف حال الطبيب؟ لقد كان شتاءً قارسًا حقًّا، لذا يجب أن يكون قد قام بعمله على أكملِ وجه. لديك عائلةٌ صغيرة ولطيفة! ثلاث فتيات! يبدو الأمر جميلًا في البداية، لكن انتظري حتّى يبلغن سنّ المراهقة ويبدأن في مواعدة الشباب. لا يعني ذلك أنّني كنت أعاني من مشاكل مع سيرافين، لقد كانت هادئةً وعنيدةً مثل والدها. عندما وقعت في حبّ جون ويتاكر، أصرّت على الاستمرار بعلاقتها رغم كلّ ما قلته لها. لديك شجرة غبيراء هنا؟ لماذا لم تزرعيها عند الباب الأماميّ لتبعد الجنيّات؟"

"من منّا لا يحبّ الجنيّات يا سيّدة ميتشل؟ ومن يريد إبعادها؟"

"الآن أنت تتحدّثين مثل أنطوني، كنت أمزح فقط. بالطبع أنا لا أؤمن بوجود الجنيّات، لكن في حال وجودها، فقد سمعت أنّها كائناتٌ مؤذية ومزعجة. حسنًا، وداعًا يا سيّدة بلايث، سآتي الأسبوع المقبل من أجل النعي."

***

22



سمعت سوزان معظم الحديث وهي تلمّع الفضة في خزانة المؤن: "لقد سبّبت ذلك لنفسك يا زوجة الطبيب العزيزة."

"أعلم يا سوزان، لكنّني أريد حقًّا أن أكتب هذا النعي. أحببتُ أنطوني ميتشل، على الرّغم من أنّني لم أعرفه جيّدًا، وأنا متأكّدة من أنّه سيغضب في قبره إن لم يكن نعيه مميّزًا. كان أنطوني مضحكًا بغرابة."

"كان أنطوني ميتشل زميلًا لطيفًا حقًّا عندما كان شابًّا يا زوجة الطبيب العزيزة. على الرغم من أنهم قالوا أنّه كان حالمًا بعض الشيء. لم يكن يعمل بما يكفي لينال بيسي بلامر، لكنّه كسب عيشًا لائقًا ودفع ديونه. بالطبع تزوّج من آخر فتاةٍ يجدر به أن يتزوّجها. ولكن على الرّغم من أنّ بيسي بلامر تبدو وكأنّها ممثلة كوميديّة الآن، إلّا أنّها كانت أيقونة جمال في ذلك الوقت."

واختتمت سوزان بحسرة: "البعض منّا لا يستطيع تذكّر كلّ تلك الأمور يا زوجة الطبيب العزيزة."

قال والتر: "تحطّ الطيور بكثافةٍ على الشرفة، وبدأ زوجٌ من طيور

الروبينز في بناء عشٍّ على عتبة نافذة المخزن. ستسمحين لهم، أليس كذلك يا أمي؟ لن تفتحي النافذة وتخيفينهم، أليس كذلك؟"

التقت آن بأنطوني ميتشل مرّةً أو مرّتين، على الرّغم من أنّ المنزل الرماديّ الصغير حيث كان يعيش بين غابات التنوب والبحر، الذي تعلوه شجرة صفصاف كبيرة مثل مظلّةٍ ضخمة، كان في جلين السفلى. لكنّ جيلبرت كان يشتري منه التبن بين الحين والآخر، وذات مرّة عندما أحضر حمولة، قام بجولةٍ مع آن في أنحاء حديقتها واكتشفا أنّهما يملكان العقليّة نفسها. لقد أحبّت وجهه النحيل المجعّد، والظريف، وعينيه العسليّتين المصفرتين اللّتين توحيان بشجاعته وذكاءه، واللتين لم تعرفا الخسارة أو الخداع، باستثناء مرّةٍ واحدة ربّما، عندما خدعه جمال بيسي بلامر الفاني، وأوقعه في زواجٍ أحمق. ومع ذلك لم يبد أبدًا غير سعيد أو غير راض. كان راضيًا طالما كان يستطيع الحرث والبستنة والحصاد. كانت تتخلّل شعره الأسود شعيراتٌ فضيّة، وظهرت شخصيّته الناضجة والهادئة في ابتساماته الجميلة النادرة. أعطته حقوله القديمة الخبز والبهجة، وفرح الربح، والراحة في الحزن. كانت آن راضيةً لأنّه دفن بالقرب منهم. كان من الممكن أن يموت بسعادة، لكنّه عاش بسعادةٍ أيضًا. قال طبيب موبراي ناروز إنّه عندما أخبر أنطوني ميتشل أنّه لا يمكنه التمسك بأمل الشفاء، ابتسم أنطوني وأجاب: "حسنًا، الحياة مملّةٌ في هذا العمر، وسيشكّل الموت تغييرًا، وأشعر بالفضول حيال ذلك." حتّى السيّدة أنطوني، من بين كلّ سخافاتها المتناثرة، سهت عن بعض الأمور التي تكشف حقيقة أنطوني. كتبت آن "قبر الرجل العجوز" بعد بضع ليالٍ بجوار نافذة غرفتها، وراحت تقرأها بشعورٍ من الرضا.

"اجعلها حيث تهبّ الرياح
وتهزّ أغصانَ الصنوبر الناعمة،
حيث تأتي همسات البحر
من شرق المرجة الحالمة،
حيث تغنّي قطرات المطر
بلطفٍ لينام.

"اجعلها حيث المروج الواسعة
خضراء تمتدُّ على كلّ الجنبات،
حصدَ الحقول وقطفَ،
أزهار البرسيم غرب المنحدرات،
أراضي البستان حيث تتفتّح وتزهر
الأشجار التي زرعها منذ فترات.

"اجعلها حيث لمعان النجوم الخافت
يكون دائمًا منه قريب،
وحيث تنتشر أشعة الشمس
بسخاءٍ حول السرير،
والأعشاب النديّة تنبت
بحنانٍ عند نومه.

"لأنّ هذه الأمور كانت عزيزة
عليه طوال سنوات كثيرة،
إن هي إلّا نعمة

فوق قبره وفي نعيه،
سيكون صوت مياه البحر
ترنيمته للأبد."

قالت آن وهي تفتح النافذة لتشاهد جمال الربيع: "أعتقد أن أنطوني ميتشل كان سيحبّ هذا النعي." كانت هناك صفوفٌ من الخسّ الصغير في حديقة الأطفال؛ كان غروب الشمس رقيقًا وورديّ اللون خلف بستان القيقب، وكان الجوف يغنّي ضحكات الأطفال الحلوة.

قالت آن: "الربيع جميلٌ لدرجة أنّني أكره أن أنام وأفوّت شيئًا منه."

حضرت السيّدة أنطوني ميتشل بعد أسبوع عند الظهر للحصول على النعي. قرأتها آن عليها وهي تشعر سرًّا بالفخر، لكنّ علامات الرضا لم تظهر على وجه السيّدة أنطوني.

"عزيزتي، أنا أعتبر هذا نعيًا خفيفًا، أنت تكتبين بشكلٍ جيّد، لكنّك لم تقولي كلمةً واحدةً عن وجوده في الجنة. ألست متأكّدة من وجوده فيها؟"

"متأكّدة من أنّه لم يكن من الضروريّ ذكر ذلك يا سيّدة ميتشل."

"حسنًا، قد يشكّ بعض الناس في هذا، فهو لم يذهب إلى الكنيسة كثيرًا رغم أنّه كان عضوًا جيّدًا. ولماذا لم تذكري عمره ولا حتّى الزهور؟ كان عدد أكاليل الزهور على التابوت لا يحصى، و أظنّ أنّ الزهور شاعريّةٌ بما فيه الكفاية!"

"أنا آسفة..."

"آه، أنا لا ألومك على الإطلاق، فلقد بذلت قصارى جهدك وكتبتِ نعيًا جميلًا. بكم أدين لك؟"

"ماذا؟! لا تدينين لي بشيءٍ يا سيّدة ميتشل، لم أستطع التفكير في

شيءٍ من هذا القبيل."

"حسنًا، اعتقدت على الأرجح أنّك ستقولين ذلك، لذلك قمت بإحضار زجاجةٍ من نبيذ الهندباء. إنّه مفيدٌ للمعدة في حال عانيتِ من الغازات. كنت أريد إحضار زجاجةٍ من شاي اليارب أيضًا، لكنّني كنت خائفةً من عدم موافقة الطبيب، ولكن إذا كنت ترغبين في القليل منه وتعتقدين أنّه بإمكانك تهريبها دون علمه، فما عليك سوى أن تعلميني بذلك."

قالت آن بشكل قاطع: "لا ، لا ، شكرًا لك."

لم تكن قد تخطّت تمامًا بعد، صدمةَ قولها نعيًا خفيفًا.

"كما تريدين، سيكون من دواعي سروري إحضارها. لن أحتاج إلى المزيد من الأدوية هذا الربيع. عندما توفيّ ابن عمّي الثاني، ملاخي بلامر في الشتاء، طلبت من أرملته أن تعطيني زجاجات الدواء الثلاثة المتبقّية، كان لديهم الكثير منها. كانت تريد رميها لكّنني كنت دائمًا شخصًا لا يحبّ إهدار أيّ شيء. لم أستطع أخذ أكثر من زجاجةٍ واحدة، لكنّني جعلت رجلنا المأجور يأخذ الزجاجتين الأخريين. قلت له: "إذا لم تفيدك المحاولة فلن تضرّك." لن أقول إنّني لم أشعر بالارتياح لأنّك لا تريدين أيّ نقودٍ مقابل النعيّ، فأنا لا أملك المال الآن. الجنازة باهظة الثمن على الرغم من أنّ د. ب. مارتن هو أقل متعهّد دفن الموتى كلفةً في هذه الأنحاء. لم أدفع ثمن ثيابي السوداء حتى الآن، لن أشعر أنّني في حدادٍ حقًا حتى أنتهي من دفع ثمنها. لحسن الحظ لم أحصل على قبّعةٍ جديدة، كانت هذه القبّعة التي صنعتها لجنازة والدتي قبل عشر سنوات. أظنّ أنّني محظوظةٌ باللون الأسود، ألستُ كذلك؟ إذا رأيت أرملة ملاخي بلامر الآن، بوجهها الشاحب! حسنًا، عليّ أن أذهب، وأنا ممتنّةٌ لك كثيرًا يا سيّدة بلايث،

حتّى لو..." كانت تريد القول أنّه ليس كما أرادته أن يكون، لكنّها أكملت قائلةً: " لكنّني متأكّدة من أنّك بذلت قصارى جهدك، ولقد كتبتِ شعرًا جميلًا."

سألتها آن: "ألن تبقي وتتناولي العشاء معنا؟ أنا وسوزان وحدنا في المنزل، ذهب الطبيب، وراح الأطفال في نزهةٍ لتناول العشاء في الجوف لأوّل مرّة."

قالت السيّدة أنطوني، وهي ترجع إلى كرسيّها: "لا أمانع، سأكون سعيدةً بالبقاء لوقتٍ أطول. عندما تتقدّمين في السنّ، يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لترتاحي." وأضافت بابتسامةٍ حالمة على وجهها الورديّ "هل أشمّ رائحة الجزر الأبيض المقلي؟"

كادت آن تكره الجزر الأبيض المقليّ عندما أصدرت صحيفة ديلي إنتربرايز الأسبوع التالي عددها الجديد. كانت الصحيفة قد كتبت في عمود النعي "قبر الرجل العجوز" بخمس أبيات بدلًا من الأربع الأصلية! وكان البيت الخامس:

"زوجٌ رائعٌ ورفيقٌ ومساعد،
واحدٌ من خيرة الرجال،
زوجٌ رائعٌ صادقٌ وحنون
شخصًا مميّزًا كنت،
يا عزيزي أنطوني."
صعقت تلك الكلمات آن.

قالت السيّدة ميتشل لآن في اجتماع المعهد التالي: "آمل ألّا تكوني قد انزعجت من أنّني أضفتُ بيتًا آخر. أردت فقط أن أمدح أنطوني أكثر

من ذلك بقليل، وقد كتبه ابن أخي، جوني بلامر. لقد جلس وكتبه بلمح البصر. إنّه مثلك، لا يبدو ذكيًّا لكنّه شاعرٌ جيّد. لقد ورث موهبة الشعر عن والدته، كانت من آل ويكفورد، أمّا آل بلامر فلم يكونوا موهوبين بالشعر على الإطلاق."

قالت آن ببرود: "للأسف لم تفكّري في أن تطلبي منه كتابة نعي السيّد ميتشل."

"نعم، لكنّني لم أكن أعلم أنّه يستطيع كتابة الشعر وكنت مصمّمةً على نعيٍ شعريّ لتوديع أنطوني، ثمّ أرتني والدته قصيدةً كتبها عن سنجابٍ غرق في سطلٍ من شراب القيقب، كانت مؤثرة حقًّا. لكنّ ما كتبتِه كان جميلًا أيضًا يا سيّدة بلايث. أعتقد أنّ الاثنين معًا شكّلا نعيًا مميّزًا، ألا توافقينني الرأي؟"

قالت آن: "بلى، أتّفق معك."

***

23



كان حظّ أطفال إنجلسايد سيئًا مع الحيوانات الأليفة، فالجرو الأسود الصغير المجعد الذي أحضره الوالد من شارلوت تاون في أحد الأيّام، خرج بعد أسبوعٍ من مجيئه ولم يعد. لم يُر أو يُسمع عنه أيّ شيءٍ مرّةً أخرى، وعلى الرغم من الأقاويل عن أنّ بحارًا من هاربور هيد قد شوهد وهو يأخذ جروًا أسودًا صغيرًا على متن سفينته في الليلة التي أبحر فيها، ظلّ مصيره أحد الألغاز الغامضة التي لم تحلّ في سجلّات إنجلسايد. وكان الأمر صعبًا على والتر ممّا كان على جيم، الذي لم ينس بعد معاناته من موت جيب ولم يكن أبدًا سيسمح لنفسه التعلّق بكلب. وكان هناك أيضًا تايجر توم الذي كان يعيش في الحظيرة ولم يُسمح له أبدًا بدخول المنزل لأنّه كان يتصرّف مثل اللّصوص ولكنّه كان محبوبًا للغاية. وجدوا تايجر توم متحجّرًا على أرضية الحظيرة وكان لا بدّ من دفنه في الجوف حيث تمّ دفنه في ظلّ ظروفٍ صعبة. أخيرًا، مرض أرنب جيم، الذي كان يدعى بون، والذي اشتراه من جو راسل مقابل ربع دولار، ومات. ربّما سرّعت جرعة دواء أعطاه إيّاها جيم من موته، وربّما لا. لقد نصحه جو بها ولا بدّ أنّ جو يعرف أكثر

منه، لكنّ جيم شعر كما لو أنّه قتل بون.

وعندما دُفن بون بجانب تايجر توم تساءل جيم بكآبة: "هل هناك لعنة على إنجلسايد؟" كتب والتر نقشًا على ضريحه، وارتدى هو وجيم والتوأم شرائط سوداء مربوطةً حول أذرعهم لمدّة أسبوع، ممّا أثار رعب سوزان التي اعتبرتها تدنيسًا للمقدّسات. لم تكن سوزان حزينةً جدًا على فقدان بون، الذي كانت قد خرج مرّةً وعاث فسادًا في حديقتها. ومع ذلك، وافقت على وجود ضفدعين كان قد أحضرهما والتر ووضعهما في القبو. أخرجت أحدهما عندما حلّ المساء، لكنّها لم تستطع العثور على الآخر ما أبقى والتر مستيقظًا وقلقًا عليه.

صار والتر يفكّر ويقول: "ربّما كانا زوجًا وزوجة. ربّما هما وحيدان وغير سعيدان الآن بعد افتراقهما. كانت تلك التي أخرجتها سوزان صغيرة، لذلك أعتقد أنّها كانت أنثى وربّما كانت خائفةً حتّى الموت لوحدها في ذلك الفناء الكبير دون أن يحميها أحد، تمامًا مثل الأرملة."

لم يستطع والتر تحمّل التفكير في مصيبة الضفدعة الأرملة، لذلك نزل إلى القبو للبحث عن الضفدع النبيل، لكنّه نجح فقط في إسقاط كومةٍ من الأواني الصفيحيّة الخاصة بسوزان مصدرًا ضجةً ربّما تكون قد أيقظت الموتى. لكنّها أيقظت سوزان فقط، التي جاءت حاملةً شمعةً، عكس لَهَبُها ظلَّ وجهِ سوزان الهزيل.

"والتر بلايث، ماذا تفعل؟"

قال والتر يائسًا: "سوزان، يجب أن أجد ذلك الضفدع. ضعي نفسك مكانها يا سوزان، كيف سيكون شعورك من دون زوجك، إذا كان لديك زوج؟"

سألته سوزان بحيرةٍ: "عن ماذا تتحدث؟"

في هذه المرحلة، قفز الضفدع النبيل من خلف برميل المخلّلات

بعد أن كان من الواضح أنّه استسلم عندما ظهرت سوزان. انقضّ عليه والتر ودفعه من النافذة، في أمل أن يعود إلى حبيبته الضفدعة ويعيشا بسعادةٍ دائمة بعد ذلك.

قالت سوزان بصرامة: "أنت تعلم أنّه ما كان يجب عليك إحضار تلك المخلوقات إلى القبو، ماذا سيأكلون هنا؟"

قال والتر بنبرةٍ حزينة: "بالطبع قصدت أن أصطاد الحشرات لهما، كنت أرغب في مراقبتهما ودراستهما."

كان تتبع سوزان جيم الغاضب عندما تذمّرت: "ببساطة لا يمكن لأحدٍ السيطرة عليهم." ولم تكن تقصد الضفادع في كلامها.

كان حظّهم أفضل مع عصفور أبو الحناء الذي وجدوه على عتبة الباب بعد عاصفةٍ من الرياح والأمطار في الليل في شهر حزيران، وكان يبدو أنّ عمره لا يتعدّى الأيّام. كان ظهره رماديًّا وصدره مرقّط وعيناه ساطعتان، ومن البداية بدا أنّه يثق تمامًا في كلّ شعب إنجلسايد، حتّى شرمب، الذي لم يحاول أبدًا التحرش به، ولا حتّى عندما كان العصفور يقفز بذكاء إلى طبقه ويساعد نفسه. أطعموه الديدان في البداية وكانت شهيّته كبيرة لدرجة أنّ شيرلي قضى معظم وقته في إطعامه، وقام بتخزين الديدان في علبٍ وتركها في جميع أنحاء المنزل، ممّا أثار اشمئزاز سوزان، لكنّها كانت ستتحمّل أكثر من ذلك من أجل كوك روبن، الذي وقف بلا خوفٍ على إصبعها الذي خشّنه العمل وصار يزقزق ناظرًا إليها. كانت سوزان قد أحبّت كوك روبن واعتقدت أنّ صدره الذي بدأ يتحوّل إلى اللّون الأحمر يستحقّ الذكر في رسالةٍ إلى ريبيكا ديو.

كتبت: "أتوسل إليك يا آنسة ديو العزيزة لا تظنّي أنّني جننت، أفترض أنّه من السخف أن أكون مغرمةً بطائر، ولكنّ قلب الإنسان

ضعيف. إنه ليس مسجونًا مثل طائر الكناري، فأنا لا أتحمّل رؤية طائرٍ مسجون يا آنسة ديو العزيزة، ولكنّه يدور حول المنزل وينام على قوسٍ بجوار المنصّة التي يدرس عليها والتر، في أعلى شجرة التفاح التي تطّل على نافذة ريلا. وعندما أخذوه إلى الجوف طار بعيدًا لكّنه عاد في المساء، ووجد الجميع فرحين بعودته وسأكون صريحةً معك، كنت أنا من ضمنهم."

لم يعد الجوف كما كان، وبدأ والتر يشعر بأنّ مثل هذا الموقع المبهج يستحقُّ اسمًا يليق أكثر بأهميّته وجماله. بعد ظهر أحد الأيّام الممطرة، كان عليهم أن يلعبوا في الحجرة ولكنّ الشمس غابت في وقتٍ مبكرٍ من المساء وغمرت جلين بالروعة. صاحت ريلا التي كانت تتحدث دائمًا بلثغة صغيرة ساحرة: "آه، انظروا إلى قوث المطر الجميل!"

كان أجمل قوس قزح رأوه على الإطلاق، بدا أنّ أحد طرفيه يقع على برج الكنيسة المشيخية بينما كان الآخر في ركن المستنقع الذي يصل إلى الطرف العلويّ للوادي. وسمّى حينها والتر ذلك الموقع، وادي قوس المطر. أصبح وادي قوس المطر عالمًا بحدّ ذاته لأطفال إنجلسايد. كانت نسمات الهواء تهبّ هناك بلا توقّف وتردّدت أصداء أغاني الطيور من الفجر إلى الظلام. لمعت البتولا البيضاء في كلّ مكان ومنها السيّدة البيضاء، فلقد تظاهر والتر أنّ جنيّةً صغيرةً تخرج كلّ ليلة للتحدّث معهم.

تنمو شجرة القيقب وشجرة التنوب معًا لدرجة أنّ أغصانهما تتشابك، فأطلق عليهما اسم "الشجرتان العاشقتان" وعلّق عليها سلسلةً قديمةً من الأجراس، ما جعلها تتناغم مع الرياح عندما تعصف وتهزّها. وكان هناك تنّينٌ يحرس الجسر الحجريّ الذي بنوه عبر النهر.

كانت الأشجار تبدو كأنّها تنحني فوق سجادةٍ عريقةٍ من الطحالب الخضراء على طول ضفاف النهر. كان روبن هود ورجاله العظماء مختبئين في جميع الجهات، وسكنت في النبع ثلاثة جنيّات ماء. أمّا منزل باركلي القديم المهجور في نهاية جلين بسدّه الذي نبتت عليه الأعشاب وحديقته المليئة بالكراوية، فلقد تحوّل إلى قلعةٍ محاصرة. كان سيف الصليبيين قد صدأ منذ فترةٍ طويلة، لكنّ سكّين إنجلسايد كانت قد سُنّت في أرض الخيال، وكلّما أضاعت سوزان غطاء مقلاة الشواء الخاصة بها، علمت أنّها حلّت بمثابة درعٍ لفارسٍ نبيلٍ في مغامرةٍ عظيمة في وادي قوس القزح.

كانوا في بعض الأحيان يلعبون لعبة القراصنة، لإرضاء جيم، الذي منذ أن كان عمره عشر سنوات بدأ يحبّ العنف في اللعب، لكنّ والتر امتنع دائمًا عن المشي على اللوح الخشبيّ، رغم اعتقاد جيم أنّه الأفضل في أداء هذا الدور. في بعض الأحيان، كان يتساءل عمّا إذا كان والتر شجاعًا بما يكفي ليكون قرصانًا، مع ذلك، فلقد أزال تلك الفكرة من رأسه وخاض أكثر من معركة ضارية وناجحة مع الأولاد في المدرسة، الذين أطلقوا على والتر اسم "سيسي بلايث"، أو فعلوا ذلك حتّى اكتشفوا أنّ فعلتهم تلك تعني مواجهة جيم، الذي كان موهوبًا بالقتال بقبضتيه.

كان يُسمح أحيانًا لـجيم بالنزول إلى هاربور ماوث في الأمسيات لشراء السمك. كانت مهمّةً يسعد بها، لأنّها تعني أنّه يمكنه الجلوس في مقصورة الكابتن ملاشي راسل عند سفح حقلٍ بالقرب من الميناء، والاستماع إلى الكابتن ورفاقه، الذين كانوا في يوم من الأيام قباطنة متهوّرون في البحار ويروون الحكايات. كان لدى كلّ واحدٍ منهم حكايةٌ يقصّها. أوليفر ريس، الذي كان في الواقع يشتبه في كونه قرصانًا

في شبابه، تمّ أسره من قبل ملكٍ متوحّش، وكان سام إليوت في سان فرانسيسكو عندما ضربها الزلزال. وخاض بولد ويليام ماكدوجال معركةً شرسةً مع سمكة قرش. أمّا آندي بيكر فلقد علق في دوّامة مياه. علاوة على ذلك، يمكن أن يبصق آندي أفضل من أيّ رجلٍ في فوروينذز. كان الكابتن ملاشي، ذو الأنف المعقوف، والفكّ النحيل، بشاربه الرماديّ الخشن، المفضّل لدى جيم. كان قبطان سفينة بريجانتين عندما كان عمره فقط سبعة عشر عامًا، حيث كان يبحر إلى بوينس آيرس مع شحناتٍ من الخشب. كان يملك وشم مرساةٍ على كل خدّ، وكان لديه ساعةٌ قديمةٌ رائعة تستطيع تعبئتها بالمفتاح. عندما يكون بمزاجٍ جيّدٍ يسمح لـجيم بملئها وعندما يكون سعيدًا، كان يأخذ جيم لصيد سمك القدّ أو استخراج المحار عند انخفاض المدّ، وعندما يكون في أفضل حالاته، كان يُري جيم العديد من نماذج السفن التي كان قد نحتها. اعتقد جيم أنّ تلك النماذج كانت الفنّ بحدّ ذاته. كان من بينها قارب فايكنغ، به شراعٌ مربّعٌ مخطّط وأمامه تنّينٌ مخيف، وقارب كولومبوس، وماي فلاور، وسفينةٌ فخمةٌ تدعى الهولندي الطائر، وعددٌ لا يحصى من سفن البريجانتين الجميلة والمراكب الشراعيّة والباركيات والقوارب.

سأل جيم: "هل تعلّمني كيفيّة نحت السفن أيّها القبطان ملاشي؟"

هزّ القبطان ملاشي رأسه وبصق في المياه.

"لا يأتي ذلك بالتعليم، يا بنّي. عليك أن تبحر في البحار لمدّة ثلاثين أو أربعين عامًا، وبعد ذلك ربّما يكون لديك ما يكفي من فهم السفن للقيام بذلك، تحتاج للكثير من الفهم والحبّ. السفن مثل النساء يا بنيّ، عليك أن تفهمها وتحبّها وإلا لن تفصح عن أسرارها. ومع ذلك، قد تعتقد أنك تعرف السفينة بأكملها، من الداخل والخارج، وستجد

أنّها لا تزال تفاجئك وتخفي الكثير عنك. ستهرب منك كالطائر إذا أبعدتَ قبضتك عنها. هناك سفينةٌ واحدةٌ أبحرت فيها ولم أتمكّن أبدًا من نحت نموذجٍ عنها، لقد فقدت عقلي وأنا أحاول ذلك مرّاتٍ عدّة. لقد كانت سفينةً صلبةً وعنيدة! وكانت هناك امرأةٌ واحدة، ولكن كان قد حان الوقت لأرتاح قليلًا. لديّ سفينةٌ جاهزةٌ تمامًا لوضعها في زجاجة، وسأخبرك عن السرّ في ذلك يا بنيّ."

لذلك لم يسمع جيم أبدًا أيّ شيء عن تلك المرأة ولم يهتم، لأنّه لم يكن مهتمًّا بالجنس الآخر، باستثناء أمّه وسوزان اللّتين لم تكونا امرأتين عاديّتين بالنسبة له، بل أمّه العظيمة وسوزان الغالية.

عندما مات جيب شعر جيم أنّه لا يريد كلبًا آخر، لكنّ الوقت جعله ينسى بشكلٍ مثيرٍ للدهشة وبدأ جيم يشعر بحبّ الكلاب مرّةً أخرى. لم يكن الجرو كلبًا حقًا، كان مجرّد حادثة. كان لدى جيم كثيرٌ من الكلاب حول جدران عرينه حيث احتفظ بمجموعة تحف الكابتن جيم، قصص الكلاب من المجلات، كلب الدرواس، وكلب بلدغ لطيف، وكلبٌ ألمانيّ بدا كما لو أنّ شخصًا ما قد أخذ كلبًا من رأسه وكعبه وسحبه للخارج مثل المطّاط، وكلب بودل بشرابةٍ في آخر ذيله، وكلب فوكس تيرير، وكلب وولف هاوند روسي. تساءل جيم عمّا إذا كانت كلاب وولف هاوند الروسية لديها أي طعامٍ لتأكله، وكان هناك كلب بوميرانيان جميل، وكلب الدلماسي المرقط، وكلب سبنيلي بعيونٍ جذابة. كلّ الكلاب من الدرجة العالية ولكنّ جميعها يفتقر إلى شيءٍ في عيون جيم، لم يكن يعرف فقط ما هو.

ثمّ ظهر إعلانٌ في صحيفة ديلي إنتربرايز جاء فيه: "كلبٌ للبيع. تواصلوا مع رودي كروفورد، هاربور هيد." لم يُكتب شيءٌ آخر . لم يكن بإمكان جيم أن يعلم سبب تفكيره في الإعلان طوال الوقت أو

سبب شعوره بالحزن لأنّه مختصرٌ كثيرًا. اكتشف من كريج راسل من كان رودي كروفورد.

"توفيّ والد رودي منذ شهر، وعليه أن يذهب للعيش مع عمّته في المدينة. توفيّت والدته منذ سنوات، واشترى جيك ميليسون المزرعة. ولكنّ المنزل سوف يُهدم، وربّما لن تقبل عمّته بالاحتفاظ بالكلب. إنّه ليس بالكلب الرائع، لكنّ رودي كان مولّعًا به."

قال جيم: "أتساءل كم يريد مقابل ذلك الكلب، ليس لديّ سوى دولار واحد."

قال كريج: "أعتقد أنّ كلّ ما يريده هو منزلٌ جيّدٌ له، لكنّ والدك سيعطيك المال لشرائه، أليس كذلك؟"

قال جيم "نعم. لكنّني أريد شراء كلبٍ من مالي الخاص، هكذا سأشعر أنّه حقًّا ملكٌ لي."

هز كريج كتفيه. رأى أنّ أطفال إنجلسايد مضحكين، فلماذا يهمّ من دفع المال لكلبٍ عجوز؟ في ذلك المساء، قاد الأب جيم إلى مزرعة كروفورد القديمة الصغيرة، حيث عثرا على رودي كروفورد وكلبه. كان رودي صبيًّا في حوالي عمر جيم، فتى شاحب، شعره بنيٌّ محمرّ وأملس، وبان على وجهه النمش. كان كلبه يملك أذنين بنيّتين جميلتين، وأنفٌ وذيلٌ بنيّان وأجمل عينين عسليّتين تراهما في وجه كلب. في اللحظة التي رأى فيها جيم ذلك الكلب الظريف، مع الخطّ الأبيض الذي على جبهته والذي ينقسم إلى قسمين بين عينيه ويحيط أنفه، عَلِم أنّه عليه أن يحصل عليه.

سأل بلهفةٍ: "هل تريد بيع كلبك؟"

قال رودي: "لا أريد بيعه، لكنّ جيك يقول أنّ عليّ بيعه وإلّا سيغرقه. يقول إنّ العمّة فيني لا تقبل بوجود كلبٍ معها في أرجاء

البيت."

سأل جيم خائفًا من أن يكون سعره باهظًا: "كم تريد ثمنه؟"

تنهّد رودي ثمّ أمسك بكلبه.

قال بصوتٍ أجش: "خذه، لن أبيعه. لا أريد المال أبدًا مقابل برونو. كلّ ما أريده هو أن يحصل على منزلٍ جيّد وأن تكون لطيفًا معه."

قال جيم بلهفة: "آه، بالطّبع سأكون لطيفًا معه، لكن عليك أن تأخذ الدولار، فلن أشعر أنّه كلبي إذا لم تأخذه، ولن آخذه."

دفع الدولار إلى يد رودي المتردّدة، ثمّ أخذ برونو وحمله بالقرب من صدره. نظر الكلب الصغير إلى سيّده. لم يستطع جيم رؤية عينيه لكنّه رأى عينيّ رودي.

"إذا كنت تريده كثيرًا..."

ردّ رودي قائلًا: "أريده ولكن لا يمكنني الحصول عليه. جاء خمسة أشخاصٍ إلى هنا يريدونه ولم أكن لأسمح لأحدهم بأخذه. كان جيك غاضبًا للغاية لكنّني لا أهتم. لم يكونوا مناسبين، لكنّك مختلفٌ عنهم، وأريدك أن تحصل عليه لأنّني لا أستطيع، وخذه بعيدًا عن عينيّ بسرعة!"

سمع جيم كلام رودي وأخذ الكلب الصغير الذي كان يرتجف بين ذراعيه لكنه لم يعترض على الذهاب مع صاحبه الجديد. حمله جيم بحبّ طوال طريق العودة إلى إنجلسايد.

"أبي، كيف عرف آدم أن الكلب كان كلبًا؟"

ابتسم الوالد ابتسامةً عريضة وأجاب: "لأنّ الكلب لا يمكن أن يكون أيّ شيءٍ غير الكلب، أليس كذلك؟"

كان جيم متحمّسًا بشدّةٍ للنوم طوال هذه الليلة. لم يرَ قط كلبًا يحبّه كثيرًا مثل برونو، لا عجب أنّ رودي كره فراقه. لكنّ برونو سرعان ما

سينسى رودي ويحبّه، وسيصبحان أصدقاء. يجب أن يتذكّر أن يطلب من والدته التأكّد من أنّ اللّحام أرسل العظام.

قال جيم: "أحبّ الجميع وأحبّ كلّ ما في العالم. يا ربّ، احفظ كلّ قطّةٍ وكل كلبٍ في العالم ولكن بشكلٍ خاصّ برونو."

أخيرًا نام جيم، وربّما يكون الكلب الصغير الراقد عند أسفل السرير واضعًا ذقنه على أقدامه الممدودة قد نام أيضًا، وربّما لم ينم.

***

24



توقّف

كوك روبن عن أكل الديدان وأكل الأرز والذرة والخس وبذور الكبوسين، لقد كبر حتى أصبح حجمه ضخمًا. وصار "روبن الكبير" في إنجلسايد مشهورًا محليًّا، وقد تحوّل صدره إلى اللون الأحمر الجميل. كان يحطّ على كتف سوزان ويراقبها وهي تقوم بالحياكة. كان يطير لمقابلة آن عندما تعود بعد غياب ويقفز أمامها إلى المنزل، وكان يأتي إلى نافذة والتر كلّ صباح بحثًا عن الفتات. كان يستحمّ في حوضٍ في الفناء الخلفيّ، في زاوية سياج شجيرة الورد البريّ، ويثير ضجّةً مزعجة إذا لم يجد الماء فيه. اشتكى الطبيب من أن أقلامه وأغراضه كانت دائمًا متناثرة في جميع أنحاء المكتبة، لكنّه لم يجد أحدًا يقف في صفّه، حتّى أنّه استسلم عندما وقف كوك روبن في يومٍ من الأيّام على يده بلا خوف ليلتقط بذرة زهرة. كان الجميع مسحورًا بكوك روبن، ربّما باستثناء جيم، الذي كان قلبه متعلّقًا ببرونو والذي كان يتعلّم شيئًا فشيئًا درسًا قاسيًا، وهو أنّه يمكنك شراء كلبٍ ولكن لا يمكنك شراء حبّه.

في البداية، لم يشكّ جيم في هذا مطلقًا، بالطبع سيشعر برونو

بالحنين إلى منزله وبالوحدة لبعض الوقت، لكنّ جيم اعتقد أنّه سيتغيّر، لكنّه لم يفعل. كان برونو أكثر كلبٍ صغيرٍ مطيعٍ في العالم. كان يفعل ما يُقال له بالضبط وحتى سوزان اعترفت بأنّه لا يمكن العثور على حيوانٍ يتصرّف بشكلٍ أفضل من برونو. لكنّه كان حزينًا للغاية ويائسًا، فاقدًا للشغف في الحياة. كانت عيناه تلمعان بقلقٍ في البداية عندما يخرجه جيم، وكان يهزّ ذيله ويمشي بغرور. ولكن بعد فترةٍ وجيزةٍ، انطفأت لمعة عينيه وكان يهرول بهدوءٍ بجانب جيم حانيًا رأسه. كان الجميع لطيفًا معه، وكانوا يقدّمون له أشهى العظام وأغناها باللحم، لم يكن أحدٌ يعترض على نومه أسفل سرير جيم كلّ ليلة. لكنّ برونو ظلّ غريبًا وبعيدًا عنهم، لا يمكنه أن يحبّهم. أحيانًا في الليل كان جيم يستيقظ ويمدّ يده ليربّت على برونو، ولكنّ برونو لم يلعقه أو يضربه بذيله، فكان يقبل المداعبات لكنّه لم يستجب لها.

استعدّ جيم لمواجهة المصاعب. كان لدى جيمس ماثيو بلايث قدرٌ كبيرٌ من الإصرار ولن يهزمه كلب، لن يهزمه الكلب الذي اشتراه بنزاهةٍ وصدقٍ بالمال الذي بالكاد ادّخره من مخصصاته. كان على برونو أن يتغلّب على حنينه إلى رودي، يجب أن يتوقف عن النظر إليه بعينيّ مخلوقٍ ضائعٍ مثيرٍ للشفقة، يجب أن يتعلم أن يحبّه.

كان على جيم أن يدافع عن برونو، بسبب الأولاد في المدرسة، الذين يشكّون في مدى حبّه للكلب، كانوا يحاولون دائمًا الإساءة إليه.

سخر بيري ريس: "كلبك لديه براغيث كبيرة ." هزمه جيم هزيمةً قاسيةً قبل أن يسحب بيري كلامه ويقول إنّ برونو لم يكن لديه براغيث، ولا حتى برغوث واحد.

يتفاخر روب راسل قائلًا: "يغضب الجرو الذي أملكه مرّةً في الأسبوع، أراهن على أنّ جروك العجوز لم يغضب في حياته. إذا كان

لديّ كلبٌ مثل هذا، كنت سأضعه في مفرمة اللحم."

قال مايك درو: "كان لدينا كلبٌ مثل هذا ذات مرّة، لكننا أغرقناه."

قال سام وارن بفخر: "كلبي ضخمٌ ومخيف، إنه يقتل الدجاج ويمضغ كلّ الملابس في اليوم الذي نغسلها فيه. أراهن أنّ كلبك العجوز ليس شجاعًا بما يكفي لفعل ذلك."

اعترف جيم بحزنٍ سرًّا من دون أن يخبر سام، أنّ برونو بالفعل لم يكن بتلك الشجاعة، لكنّه تمنّى لو كان كذلك. ولقد جرحه واتي فلاج عندما صرخ: "لديك كلبٌ جيّد، لم ينبح يوم الأحد." لم يكن برونو ينبح في بقيّة الأيّام.

لكن مع كلّ ذلك، كان برونو كلبًا صغيرًا لطيفًا.

كاد جيم أن يبكي عندما سأل: "برونو، لماذا لا تحبّني؟ سأفعل كلّ شيءٍ من أجلك، يمكننا أن نحظى بكثيرٍ من المرح معًا." لكنّه لم يعترف لأيّ شخصٍ بالهزيمة.

سارع جيم إلى المنزل في إحدى الأمسيات بعد أكلِ بلح البحر في هاربور ماوث، لأنّه علِم من صوتِ البحر أنّ العاصفة قادمة، وكان كلّ ما حوله كئيبًا. اندفع جيم إلى إنجلسايد بينما كان يعلو صوت الرعد.

صرخ: "أين برونو؟"

كانت هذه هي المرّة الأولى التي يذهب فيها من دون برونو. كان يعتقد أن المشي الطويل إلى هاربور ماوث سيكون صعبًا على كلبٍ صغير. لم يعترف جيم لنفسه أنّ المشي الطويل مع كلبٍ حزين مثل برونو سيكون صعبًا عليه هو أيضًا.

اكتشف جيم أنّ لا أحد يعرف مكان برونو، لم يره يأحدٌ منذ أن غادر جيم بعد العشاء. بحث عنه في كلّ مكان لكنّه لم يعثر عليه، وكان المطر ينهمر بكثرة، وكانت السماء تلمع بسبب البرق. هل ضاع برونو في

الخارج في تلك اللّيلة السوداء؟ كان برونو يخاف من العواصف الرعدية. المرّات الوحيدة التي بدا فيها أنّه اقترب من جيم بحبّ، كانت عندما اختبأ بالقرب منه بينما كانت السماء ترعد وتبرق.

قلق جيم حتّى أنه عندما انقضت العاصفة قال جيلبرت:

"يجب أن أصعد إلى هاد على أيّ حال لأرى كيف أصبح روي ويستكوت، يمكنك القدوم أيضًا يا جيم، وسنذهب إلى بيت كروفورد القديم في طريقنا إلى المنزل، أعتقد أنّ برونو عاد إلى هناك."

قال جيم: "إنّها على بعد ستّة أميال! لن يمشي تلك المسافة كلّها!"

لكنّه قد مشى تلك المسافة بالفعل، عندما وصلوا إلى منزل كروفورد القديم المهجور المظلم، كان هناك مخلوقٌ صغيرٌ يرتجف ويرتعش من البرد مستلقيًا على عتبة الباب المبلّل، وينظر إليهم بعينين متعبتين وحزينتين. لم يبد أيّ اعتراضٍ عندما ضمّه بذراعيه وحمله إلى العربة عبر العشب الكثيف الذي يصل إلى الركبة.

كان جيم سعيدًا. ما أروع منظر القمر وهو ينير السماء الغائمة! كم كانت زكيّةً روائح الغابات المبلّلة بالمطر أثناء قيادتهما للسيّارة! ما أجمله من عالم!

"أعتقد أنّ برونو سيكون سعيدًا في إنجلسايد بعد ذلك يا أبي."

قال الوالد: "ربّما."

كان يكره أن يحبّط معنويات جيم، لكنه شعر أنّ قلب برونو الصغير مكسورٌ بسبب فقدان منزله.

لم يأكل برونو كثيرًا من قبل ولكن بعد تلك اللّيلة أكل بشكلٍ أقلّ وأقلّ. جاء يومٌ لم يأكل فيه إطلاقًا، فاستدعوا الطبيب البيطري من أجله ولكن لم يجد فيه أيّة علّة.

قال البيطريّ لجيلبرت على حِدة: "لقد عرفت خلال مسيرتي

المهنيّة كلبًا واحدًا مات من الحزن وأعتقد أن هذا الكلب سيكون الثاني."

أعطاهم "منشطًا" أخذه برونو من دون اعتراض ثمّ استلقى مرّةً أخرى، ورأسه على قدميه محدّقًا. وقف جيم ينظر إليه لفترةٍ طويلة ويديه في جيوبه، ثمّ ذهب إلى المكتبة لإجراء محادثةٍ مع أبيه.

ذهب جيلبرت إلى المدينة في اليوم التالي، وقام ببعض الاستفسارات، وأحضر رودي كروفورد إلى إنجلسايد. عندما صعد رودي إلى الشرفة، سمع برونو خطواته من غرفة المعيشة، ورفع رأسه وأذنيه. في اللحظة التالية ركض بجسده الصغير الهزيل فوق البساط تجاه الفتى الشاحب ذو العينين البنيّتين.

قالت سوزان بنبرةٍ رهيبةٍ في تلك الليلة: "زوجة الطبيب العزيزة، كان الكلب يبكي فعلًا. نزلت دموعه حقًا على أنفه. أنا لا ألومك إذا كنت لا تصدّقين ذلك، فما كنت لأصدّق بنفسي لو لم أره بأمّ عيني."

أمسك رودي ببرونو واضعًا رأسه على صدره ونظر إليه بتحدٍّ وبتوسلٍ في الوقت عينه.

"لقد اشتريتَه، وأنا أعلم ذلك، لكنّه ملكي. كان جايك يكذب عليّ، فلقد قالت العّمة فيني إنّها لن تمانع وجود برونو معنا، لكنّني اعتقدت أنّه لا يجب أن آخذه مرّةً أخرى. هذا هو دولارك، لم أستطع أن أنفق سنتًا منه."

تردّد جيم للحظةٍ فقط، ثمّ رأى عينيّ برونو وفكّر باشمئزازٍ من نفسه "يا لي من خنزير!" بعدها أخذ الدولار من رودي.

ابتسم رودي فجأةً وغيّرت الابتسامة وجهه العابس تمامًا، ولكن كلّ ما يمكن أن يقوله كان كلمة شكرًا.

نام رودي مع جيم في تلك الليلة، وتمدّد برونو بينهما مفعمًا

بالحيويّة. ولكن قبل أن ينام، ركع رودي ليقول صلاته وجلس برونو على ركبتيه بجانبه، ووضع قدميه الأماميّتين على السرير. لو كانت الكلاب تصلّي، لكان الرائي قد ظنّ أنّ برونو يصلّي صلاة شكرٍ وفرحٍ متجدّدٍ في الحياة.

عندما أحضر له رودي الطعام، أكله برونو بلهفةٍ وهو ينظر إليه طوال الوقت. قفز برشاقةٍ خلف جيم ورودي عندما نزلا إلى جلين. صرّحت سوزان: "لم أر في حياتي كلبًا مفعمًا بالحيويّة مثل برونو."

لكن في المساء التالي، بعد عودة رودي وبرونو إلى منزلهما، جلس جيم على درجات الباب الجانبي في ضوء البومة لفترةٍ طويلة. رفض الذهاب للحفر بحثًا عن ذخيرة القراصنة في وادي قوس المطر مع والتر، فهو لم يعد يشعر بالحماس ولا بشغف القرصنة. لم يكن حتّى ينظر إلى شرمب الذي كان في قمّة الفرح وهو يضرب ذيله مثل أسد الجبل الشرس. لماذا كانت القطط تسعد في إنجلسايد عندما ترى أنّ الكلاب تحطّم قلوبهم؟

كما وغضب من ريلا عندما أحضرت له الفيل الأزرق المصنوع من المخمل، فكيف تحضر له الأفيال المخمليّة وهو حزينٌ لرحيل برونو! جاءت نان واقترحت أن يعترفا بأخطائهما ويدعوان الله.

قال جيم بصرامة: "هل تظنّين أنّني ألوم الله على ما حدث؟ أنت لا تفكّرين بطريقةٍ منطقيّةٍ يا نان بلايث."

خرجت نان من الغرفة محطّمة القلب، ولم يكن لديها أدنى فكرةٍ عمّا يعنيه جيم، الذي كان ينظر إلى الغروب بوجهٍ عابس. كانت الكلاب تنبح في جميع أنحاء جلين. كان آل جنكينز على الطريق في الخارج ينادون بعضهم، وكانوا يتناوبون على ذلك. يمكن للجميع الحصول على كلب، حتى قبيلة جنكينز، الجميع باستثنائه. صار يتخيّل الحياة بلا

كلابٍ كأنّها صحراء.

جاءت آن وجلست على الدرج، وحرصت على عدم النظر إليه، لكنّ جيم شعر بتعاطفها معه.

قال بصوتٍ مختنق: "أميّ، لماذا لا يحبني برونو رغم أنّني أحبّه كثيرًا؟ هل تعتقدين أنّني من النوع الذي لا تحبّه الكلاب؟"

"لا يا حبيبي، تذكّر كيف أحبّك جيب. الأمر أنّ برونو قد أعطى كلّ الحبّ في قلبه لرودي. هناك كلابٌ من هذا القبيل، يميل قلبها لشخص واحد فقط."

قال جيم برضا ولكن بحزن، وهو ينحني ويقبّل شعر أمّه المموّج الناعم: "لكنني لن أمتلك كلبًا آخر."

اعتقدت آن أنّ جيم سيتحسّن، فلقد شعر بنفس الشعور عندما مات جيبي. ولكنّه لم يفعل، كان الجرح عميقًا في قلب جيم هذه المرّة. كان على الكلاب أن تأتي وتذهب إلى إنجلسايد، الكلاب التي كانت ملكًا للعائلة فقط وكانت كلابًا لطيفة. كان جيم يداعبها ويلعب معها كما فعل الآخرون. ولكن لم يكن هناك كلبٌ خاصٌ بجيم حتّى استحوذ "مونداي الصغير" على قلبه وأحبّه بإخلاصٍ يفوق حبّ برونو، وبتفانٍ لم يسبق له مثيل في تاريخ جلين. ولكنّ ذلك كان بعد عام، وصعد صبيٌّ وحيدٌ إلى سرير جيم في تلك الليلة وقال: "أتمنّى أن أكون فتاة، لكي أبكي كثيرًا من دون أن يسخر أحدٌ منّي!"

***

25



كانت نان ودي ذاهبتان إلى المدرسة التي بدأت في آخر أسبوعٍ من شهر آب.

في صباح اليوم الأول، سألت دي بجديّة: "هل سنعرف كلّ شيء بحلول اللّيل يا أمي؟" يبدو أنّ دي تظنّ أنّ المدرسة ستعلّمها كلّ الأمور في يومٍ واحد.

الآن، في أوائل أيلول، اعتادت آن وسوزان على ذلك، حتى أنهما استمتعا برؤية الطفلتين الصغيرتين تغادران بفرحٍ كلّ صباح، بثيابهما المرتّبة، معتقدتان أنّ الذهاب إلى المدرسة يعدّ مغامرةً رائعة. كانتا دائمًا تأخذان تفّاحةً في السلّة لإعطاءها للمعلّمة وترتديان ثيابًا من القماش القطني المزركش باللونين الورديّ والأزرق. وبما أنّهما لا تشبهان بعضهما أبدًا، فلم تلبسهما آن نفس الملابس أبدًا. لم تستطع ديانا، بشعرها الأحمر، ارتداء اللّون الورديّ، الذي كان مناسبًا لنان، التي كانت الأجمل بينهما. كانت تملك عينين بنيّتين، وشعرًا بنيًّا، وبشرةً جميلة، كانت تهتمّ بها حتى في سنّ السابعة، كان مظهرها يوحي بالنجوميّة. رفعت رأسها بفخر حتّى بان ذقنها الصغير، كانت هذه حيلةٌ

تعلّمتها من أمّها.

قالت السيّدة أليك ديفيز: "ستقلّد كلّ حيل أمّها ووضعيّاتها، برأيي لقد أخذت بالفعل عنها مظهرها وأناقتها."

لم يكن التوأمان مختلفين في المظهر فقط، فكانت دي على الرغم من شبهها بوالدتها، طفلة أبيها إلى حدٍّ كبير، فيما يتعلّق بالمزاج والصفات. كان لديها ميله إلى العمل، وتفكيره السليم، وروح الدعابة المميّزة التي لديه. أما نان فقد ورثت موهبة والدتها في الخيال وكانت بالفعل تجعل الحياة ممتعة لنفسها بطريقتها الخاصة. على سبيل المثال، لم تكن الإثارة تنتهي عندها هذا الصيف وهي تعقد صفقات وتقول: "إذا حصل كذا وكذا، فسأفعل كذا وكذا."

بدأ جميع أطفال إنجلسايد في الحياة الكلاسيكية القديمة ولعبوا ألعابًا شتّى ثم شجعوا على تقديم العرائض الصغيرة الخاصة بهم أيضًا بأيّ لغةٍ يختارونها. سيكون من الصعب معرفة ما الذي جعل نان تفكّر أنّ السلوك الجيّد والشجاعة سيضمنان لها تحقيق مطالبها.

ربما كانت معلمة سانداي سكول، الصغيرة والجميلة مسؤولةً بشكلٍ غير مباشر عن ذلك من خلال تحذيراتها المتكرّرة بأنّهن إذا لم يكنّ فتياتٍ صالحات، فلن يستجيب الله لدعواتهنّ. كان من السهل قلب هذه الفكرة من قبل آن والتوصل إلى استنتاجٍ مفاده أنّه إذا كنت قد فعلت هذا أو ذاك، فتوقّع أن الله سيستجيب لدعواتك. كان مطلب نان الأول في الربيع ناجحٌ للغاية لدرجة أنّه كان أكبر من بعض الإخفاقات واستمرّت نان طوال الصيف في فعل ذلك. لا أحد يعرف عن الأمر، ولا حتى دي. احتفظت نان بسرّها وأخذت تصلي وتدعو في أوقاتٍ وأماكن مختلفة، بدلًا من الدعاء في الليل فقط. أخبرتها دي بأنّها لا توافق على ذلك.

قالت لنان بقسوة: "لا تصلّي كلّما أردتِ شيئًا ما، أنتِ تحدّين من قيمة الصلاة وتجعلينها أمرًا عاديًّا."

سمعت آن ذلك، وبّختها وقالت: "الله معنا دائمًا يا عزيزتي ليمنحنا القوة والشجاعة. ونان محقةٌ تمامًا في الصلاة إليه و يمكنها فعل ذلك أينما تريد." رغم ذلك، لو كانت آن تعلم الحقيقة حول هوس ابنتها الصغيرة، لكانت ارتعبت بعض الشيء.

قالت نان في إحدى الليالي في شهر أيّار: "إذا جعلت سنّي ينمو قبل حفلة آيمي تايلور الأسبوع المقبل يا الله، فسوف أتناول كلّ جرعةٍ من زيت الخروع التي تعطيني إيّاها سوزان دون أيّ اعتراض."

في اليوم التالي، ظهر السن الذي تسبّب غيابه في فجوةٍ قبيحة وطويلةٍ جدًا في فم نان الجميل، وبحلول يوم الحفلة كانت قد اكتملت الفجوة. هل هناك دليلٌ أكبر من ذلك؟ وفت نان بوعدها وكانت سوزان مندهشة وسعيدة كلّما أعطتها زيت الخروع حيث أنّ نان كانت تتناوله دون أن تعبس أو تعترض، على الرغم من أنّها كانت تتمنّى في بعض الأحيان لو وضعت حدًا زمنيًا في دعائها، لمدّة ثلاثة أشهرٍ مثلًا.

لم يستجب الله دائمًا لدعوات نان، ولكن عندما دعته أن يرزقها زرًا مميّزًا لسلسلة الأزرار الخاصّة بها لأنّ جمع الأزرار قد انتشر في كلّ مكانٍ بين فتيات جلين الصغيرات، مؤكّدةً له أنّه إذا فعل فلن تتذمّر عندما تضع سوزان لها الصحن المكسور. في اليوم التالي، وجدت سوزان زرًّا على فستانٍ قديم في العليّة، كان زرًّا أحمر جميل مرصّع بما ظنّته نان أحجار الماس.

حسد الجميع نان بسبب هذا الزر الأنيق، وعندما رفضت دي الطبق المكسور في تلك اللّيلة قالت نان بدهاء: "أعطني إيّاه يا سوزان، من الآن سآخذه أنا." أخبرتها سوزان أنّها غير أنانيّة بشكلٍ ملائكيّ، عندئذٍ

تباهت نان بنفسها. كان الجميع قد توقّع هطول الأمطار في الليلة السابقة، لكنّ نان حظت بيومٍ رائعٍ في نزهة سانداي سكول من خلال وعدها بتنظيف أسنانها كلّ صباح دون أن يطلب منها أحدٌ فعل ذلك. استعادت خاتمها المفقود مقابل أن تحافظ على نظافة أظافرها. وعندما سلّمها والتر رسمه للملاك الطائر الذي لطالما أرادته، أكلت على العشاء الدهن مع اللحم الهبر دون أيّ اعتراضٍ أو تذمّر.

ومع ذلك، عندما دعت الله أن يجعل دبّها القديم والمرقّع صغيرًا مرّةً أخرى، واعدةً بالحفاظ على درج مكتبها مرتّبًا، حدثت مشكلة، فلم يصغر تيدي على الرّغم من أنّ نان كانت تنتظر المعجزة بقلقٍ كلّ صباح وتتمنى أن يستجيب الله دعائها بسرعة. أخيرًا، استسلمت إلى عمر تيدي، ففي النهاية، كان دبًّا عجوزًا لطيفًا وسيكون من الصعب للغاية الحفاظ على درج المكتب القديم مرتّبًا. عندما أحضر والدها دمية دبٍّ جديدةً إلى المنزل، لم تعجبها حقًّا، وعلى الرغم من تأنيب ضميرها، قررت أنّها لن تتعب نفسها بترتيب درج المكتب. عاد إيمانها بعدما كانت تصلّي من أجل استعادة العين المفقودة لدمية القطّة الصينيّة، وفي صباح اليوم التالي، كانت العين في مكانها على الرغم من أنّها منحرفةٌ إلى حدٍّ ما، ممّا جعل القطّة تبدو حولاء قليلًا. عثرت عليها سوزان عندما كانت تكنّس وألصقتها بالغراء، لكنّ نان لم تكن تعرف ذلك ونفّذت بفرحٍ وعدها بالسير أربع عشرة مرّةً حول الحظيرة. ما الفائدة من المشي أربع عشرة مرّةً حول الحظيرة؟ كرهت نان فعل ذلك، كان الصبيان دائمًا يريدون منها ومن دي التظاهر بأنّهما حيواناتٌ في وادي قوس المطر، وربّما كان في عقلها الناشئ تفكيرٌ غامضٌ بأنّ الله الذي يعطي ويأخذ، يحبّ التوبة من عباده. على أيّ حال، فكّرت في العديد من الأنشطة الشيّقة الغريبة في ذلك الصيف، ممّا جعل سوزان تتساءل

كثيرًا من أين حصل الأطفال على تلك الأفكار.

"لماذا تفترضين يا زوجة الطبيب العزيزة، أنّ نان يجب أن تتجوّل مرّتين في غرفة المعيشة كلّ يوم دون أن تمشي على الأرض؟"

"دون أن تمشي على الأرض! كيف بإمكانها فعل ذلك يا سوزان؟"

"من خلال القفز من قطعة أثاثٍ إلى أخرى، بما في ذلك الدرابزين. انزلقت بالأمس ونزلت رأسًا على عقب في مكوك الفحم. هل تظنّين أنّها بحاجةٍ إلى جرعةٍ من دواء علاج الديدان؟"

تمّت الإشارة دائمًا إلى تلك السنة في سجلات إنجلسايد على أنّها السنة التي كاد فيها الوالد يصاب بالتهابٍ رئويّ والتي كانت الأم فيها تعاني منه. ذات ليلة، كانت آن تعاني من نزلة بردٍ أليمة، وذهبت مع جيلبرت إلى حفلةٍ في شارلوت تاون. كانت ترتدي ثوبًا جديدًا وصارخًا للغاية، وقلادة اللآلئ التي أهداها إيّها جيم. فبدت فاتنةً لدرجة أنّ جميع الأطفال الذين حضروا لرؤيتها قبل مغادرتها اعتقدوا أنّهم محظوظون لأن لديهم أمٌ مثل آن يفتخرون بها.

تنهّدت نان: "يا لها من تنّورةٍ تحتيّةٍ لطيفة! هل سيكون لديّ تنانير تحتيّة جميلة مثل هذه عندما أكبر يا أمّي؟"

قال الوالد: "أشكّ في أنّ الفتيات سيرتدين التنانير الداخليّة على الإطلاق بحلول ذلك الوقت. أعترف بأنّ الفستان مذهل حتّى لو لم يعجبني الترتر. الآن، لا تحاولي أن تغويني يا سيّدة. لقد منحتك جميع الإطراءات في هذه الليلة. تذكّري مقولة "الحياة هي مجرّد كيمياء عضويّة متوازنة بدقّة" التي قرأناها اليوم في صحيفة ماديكال جورنال، هذه العبارة ستجعلكِ متواضعة. لا الترتر ولا الحرير سيجعلانك أفضل من غيرك. يقول الدكتور فون بيمبورغ أنّنا لسنا سوى مجموعةٍ من الذرات."

"لا تقتبس لي كلام ذلك الرهيب فون بيمبورغ. لا بدّ أنّه كان يعاني من عسر الهضم المزمن. قد يكون مجموعةً من الذرات، لكنّني لست كذلك."

بعد ذلك بأيّامٍ قليلة، كانت آن مريضةً للغاية وكان جيلبرت شديد القلق. بدت سوزان متعبة ومرهقة، وجاءت الممرضة وذهبت بملامح قلقة، وعمّ الخوف والحزن في إنجلسايد. لم يخبر أحدٌ الأطفال بخطورة مرض والدتهم، وحتّى جيم لم يدرك ذلك تمامًا. لكنّهم شعروا جميعًا بالقلق والخوف وكانوا هادئين وحزينين. للمرّة الأولى، لم يكن هناك ضحكٌ في غابة القيقب ولا ألعابٌ في وادي قوس المطر، لكنّ الأسوأ من ذلك كلّه أنه لم يُسمح لهم برؤية أمّهم.

لم يجدوا أمّهم تستقبلهم بابتساماتٍ عندما يعودون إلى المنزل، ولم تأتي لتقبّلهم وتتمنّى لهم ليلةً سعيدة، ولم تكن أمّهم معهم لتهدئتهم وتتعاطف معهم وتفهمهم، ولم تكن موجودةً لتضحك على النكات، لم يضحك أحدٌ مثل أمّهم. كان أسوأ بكثير ممّا كانت عليه عندما كانت خارج المنزل، فعندما تذهب كانوا يعلمون أنّها ستعود، أمّا الآن فلا يعرفون شيئًا عنها. لم يكن أحدٌ يخبرهم بأيّ شيء، كانوا فقط يتجاهلون الحديث عن الأمر.

عادت نان إلى المنزل من المدرسة شاحبةً للغاية بسبب أمرٍ أخبرتها به آيمي تايلور.

"يا سوزان، أميّ... أمّي لن تموت، صحيح يا سوزان؟"

قالت سوزان بحدّة وبسرعة: "بالطبع لا." ارتجفت يداها وهي تسكب كأس حليب لنان، ثمّ سألتها: "من أخبرك ذلك؟"

"آيمي أخبرتني يا سوزان، قالت إنّها تعتقد أنّ أمّي ستبدو جثةً جميلة المظهر!"

"لا تهتمّي بما قالته يا صغيرتي، جميع أفراد عائلة تايلور يحبّون الثرثرة ونشر الشائعات. والدتك العزيزة مريضة للغاية لكنّها ستُشفى، كوني متأكّدة من ذلك. هل نسيتِ أنّ والدك هو الذي يتولّى أمرها؟"

كان والتر ينظر إلى سوزان بوجهٍ شاحب وشفتين ترتجفان وسألها من أعماق قلبه: "الله لن يترك أمّي تموت، أليس ذلك صحيحًا يا سوزان؟" كان من الصعب جدًا على سوزان أن تجيب على سؤال والتر، كانت خائفةً للغاية من أن تكون الأجوبة التي كانت تقولها للأطفال، مجرّد أكاذيب. كانت سوزان مذعورةً بشدّة. كانت الممرضة قد هزّت رأسها بعد ظهر ذلك اليوم، ورفض الطبيب النزول لتناول العشاء.

تمتمت سوزان: "الله أعلم بما سيحصل." كانت تغسل أطباق العشاء، وكسرت ثلاثةً منهم، ولأوّل مرّةٍ في حياتها البسيطة كانت تشكّ في أنّ ما قدّره الله لن يكون خيرًا.

تجوّلت نان بحزنٍ في أرجاء المنزل. وكان الوالد جالسًا بجانب طاولة المكتبة واضعًا يديه على رأسه. دخلت الممرضة وسمعتها نان وهي تقول إنّها تعتقد أن الأزمة ستحل في تلك الليلة.

سألت دي: "ما هي الأزمة؟"

قالت دي بحذر: "أعتقد أنّها ذلك الشيء الذي تخرج منه فراشة، فلنسأل جيم."

كان جيم يعلم معناها، وأخبرهما بذلك قبل أن يصعد إلى الطابق العلويّ ليغلق الباب على نفسه في غرفته. اختفى والتر، فقد كان يستلقي على وجهه تحت السيدة البيضاء في وادي قوس المطر، وكانت سوزان قد أخذت شيرلي وريلا إلى الفراش. خرجت نان بمفردها وجلست على الدرج، وكان خلفها في المنزل هدوءٌ رهيبٌ غير معتاد. كانت

جلين أمامها مليئةً بأشعّة الشمس المسائيّة، لكنّ الطريق الأحمر الطويل كان يغطّيه الغبار، وكانت الأعشاب المنحنية في حقول المرفأ بيضاء بسبب الجفاف، فلم تمطر منذ أسابيع، ما جعل الأزهار تذبل في الحديقة، تلك الأزهار التي لطالما أحبّتها آن.

كانت نان تفكّر مليًّا. الآن حان الوقت للصلاة والدعاء إلى الله. ماذا كانت ستفعل لو شفى الله والدتها؟ ينبغي أن تفعل شيئًا هائلًا. تذكّرت نان ما قاله ديكي درو لستانلي ريس في المدرسة ذات يوم "أتحدّاك أن تمشي في المقبرة في الليل." ارتجفت نان في ذلك الوقت. كيف يمكن لأيّ شخصٍ أن يمشي في المقبرة في الليل؟ كيف يمكن لأيّ شخصٍ أن يفكّر في ذلك؟ كانت نان تخاف من المقبرة بشكلٍ لا يعلمه أحدٌ في إنجلسايد. أخبرتها آيمي تايلور ذات مرّة أنّها مليئة بالموتى، قالت آيمي بغموض: "وهم لا يبقون أمواتًا دائمًا." كانت نان تمشي بجانبها بصعوبةٍ في وضح النهار.

بعيدًا، كانت الأشجار على التلّ الذهبيّ الضبابّي تلامس السماء، وكانت نان في كثيرٍ من الأحيان تفكّر في أنّها لو تستطيع الوصول إلى هذا التل يمكنها أن تلمس السماء أيضًا، لكنّها لم تستطع الوصول إلى ذاك التل، عليها فقط أن تبذل قصارى جهدها هنا في إنجلسايد.

قامت برفع كفّيها الصغيرين المصابين بحروق الشمس ورفعت وجهها الملطخ بالدموع إلى السماء.

همست: "يا ربّ، إذا جعلت والدتي تتحسن، فسوف أمشي في المقبرة ليلًا. يا إلهي، من فضلك، أرجوك. وإذا فعلت هذا فلن أدعوك مرّةً أخرى أبدًا."



26



لم يأت الموت في آخر ساعات الليل على إنجلسايد، بل جاءت الحياة. لا بدّ أنّ الأطفال الذين ناموا أخيرًا، شعروا حتى أثناء نومهم أنّ المرض قد انسحب بصمتٍ وبسرعةٍ كما جاء، لأنّهم عندما استيقظوا في صباح يومٍ غائمٍ وممطر، كانت أشعّة الشمس في عيونهم. جاءت سوزان بالبشارة، وكانت تبدو أصغر بعشر سنوات عندما أخبرتهم أنّ الأزمة قد انتهت وأنّ أمّهم ستعيش.

كان يوم السبت، لذا لم تكن هناك مدرسة، لكن لم يكن بإمكانهم الخروج على الرغم من أنّهم أحبّوا اللعب تحت المطر. كان المطر غزيرًا، وكان عليهم أن يكونوا هادئين للغاية في الداخل، لكنّهم لم يشعروا بهذا القدر من السعادة من قبل. استلقى جيلبرت على سرير الغرفة الاحتياطيّة لينام نومًا عميقًا فهو لم يعرف النوم لمدّة أسبوع كامل، ولكن قبل ذلك كان قد أرسل رسالةً إلى المنزل في المرتفعات الخضراء في آفونلي حيث كانت سيّدتان مسنّتان ترتجفان في كلّ مرّةٍ رنّ فيها جرس الهاتف.

لم تكن سوزان في الآونة الأخيرة تحبّ صنع الحلويّات، لكنّها

الآن صنعت حلوى البرتقال للعشاء، ووعدت بتحضير كعكة المربّى للسهرة، وخبزت عجينة مزدوجة من بسكويت باترسكوتش. زقزق كوك روبن في كلّ أرجاء البيت، وحتى الكراسي بدت كما لو كانت تريد الرقص، ورفعت الأزهار في الحديقة رؤوسها بشجاعةٍ مرّةً أخرى حيث رحّبت الأرض الجافة بالمطر. وكانت نان، وسط كلّ سعادتها، تفكّر في وعدها بالذهاب إلى المقبرة.

لم تكن تفكّر في محاولة التراجع عن ذلك، لكنّها استمرت في تأجيله، على أمل أن تحصل على مزيدٍ من الشجاعة لفعل ذلك. إنّ مجرّد التفكير في الأمر جعل قلبها يخفق بسرعة، كما كانت آيمي تايلور تقول. عرفت سوزان أنّ الطفلة ليست بخير وأعطتها زيت الخروع دون أيّ تحسّنٍ ملحوظ. أخذت نان الجرعة بهدوء، على الرغم من أنّها لم تستطع التوقّف عن التفكير في أنّ سوزان صارت تعطيها زيت الخروع كثيرًا منذ أن توقّفت عن الاعتراض عليه. ولكن أخذ زيت الخروع أمرٌ بسيطٌ مقارنةً بالسير في المقبرة بعد حلول الظلام. لم تكن نان تعلم كيف ستفعل ذلك، لكنّها تعلم أنّ لا بدّ من فعله.

كانت الأمّ لا تزال ضعيفةً لدرجة أنّه لم يُسمح لأحدٍ برؤيتها إلّا لفترةٍ وجيزة، وبعد ذلك بدت بيضاء ونحيفة للغاية. هل كان ذلك لأنّ نان لم تفي بوعدها؟

قالت سوزان: "علينا أن نمهلها بعض الوقت."

تساءلت نان كيف يمكنك أن تمنح شخصًا الوقت. لكنّها عرفت لماذا لم تتحسّن الأمّ بسرعة، وعزمت على التحرّك أخيرًا. غدًا سيكون يوم السبت وستفعل ما وعدت به في المساء.

أمطرت مرّةً أخرى طيلة الصباح، وظلّت نان تشعر بالقلق، فإذا استمرّ انهمار المطر، لا أحد يمكن أن يتوقّع منها أن تتجوّل في المقبرة.

بحلول الظهيرة، كان المطر قد توقّف ولكن جاء الضباب فوق المرفأ وفوق جلين، وأحاط بإنجلسايد ليجعلها تبدو غريبة ومخيفة، لذا تمسّكت نان بأملها. لكن إذا كان الجوّ ضبابيًا، فلن تستطيع الذهاب أيضًا. ولكن في وقت العشاء هبّت الريح واختفى الضباب. قالت سوزان: "لن يظهر القمر الليلة."

صاحت نان بيأس: "آه، ألا يمكنك صنع قمرٍ يا سوزان؟"

إذا كان عليها أن تمشي في المقبرة فلا بدّ أن يكون هناك قمر لينير لها الطريق.

قالت سوزان " آه يا طفلتي، لا أحد يستطيع أن يصنع الأقمار، قصدت فقط أنّ الطقس سيكون غائمًا ولن نتمكّن من رؤية القمر. وما الفرق الذي يمكن أن يحدثه لك وجود القمر؟"

كان هذا بالضبط ما لم تستطع نان شرحه وكانت سوزان قلقةً أكثر من أيّ وقتٍ مضى. لا بدّ أنّ الطفلة تخفي أمرًا ما، لقد كانت تتصرّف بغرابةٍ طوال الأسبوع. لم تأكل بما يكفي وبدت كئيبة. هل كانت قلقةً على والدتها؟ لكن لم يكن هناك أيّ داعٍ للقلق، فالسيّدة العزيزة كانت تتحسّن بشكلٍ جيّد.

نعم كانت تتحسّن، لكنّ نان كانت تعتقد أنّ أمّها ستتوقّف قريبًا عن التحسّن إذا لم تفي بوعدها. عند غروب الشمس، انسحبت الغيوم وارتفع القمر. لكن يا له من قمرٍ غريب! كان قمرًا ضخمًا أحمر اللّون! لم تر نان مثل هذا القمر من قبل وأرعبها مظهره حتى كادت تفضّل الظلام.

ذهب التوأمان إلى الفراش في الثامنة وكان على نان أن تنتظر حتى تنام دي التي استغرقت وقتًا طويلًا لتغفو، فقد كانت تشعر بالحزن وخيبة الأمل لدرجة أنّها لم تستطع النوم بسهولة. كانت صديقتها إلسي

بالمر، قد عادت إلى المنزل من المدرسة مع فتاةٍ أخرى، واعتقدت دي أنّ لا طعم للحياة بعد ذلك. كانت الساعة التاسعة صباحًا عندما شعرت نان أنّها تستطيع الخروج من السرير بأمان وارتداء الملابس بأصابعها التي كانت ترتجف لدرجة أنّها أغلقت أزرار ثيابها بصعوبة. ثم تسلّلت إلى الأسفل وخرجت من الباب الجانبيّ بينما كانت سوزان تضع الخبز في المطبخ معتقدةً أنّ كلّ من هم تحت مسؤوليّتها آمنين في السرير باستثناء الطبيب المسكين، الذي تمّ استدعاؤه في حالةٍ طارئة إلى منزلٍ في هاربور ماوث حيث ابتلع طفلٌ مسمارًا صغيرًا.

توجّهت نان إلى وادي قوس المطر، وعليها أن تسلك الطريق المختصر إلى أعلى مرعى التل. كانت تعلم أنّ رؤية توأم إنجلسايد تتجوّل على طول الطريق وعبر القرية سيثير الدهشة ومن المحتمل أن يصرّ شخصٌ ما على إعادتها إلى المنزل. كم كانت الساعات المتأخرة من ليل أيلول باردة! لم تفكّر في ذلك ولم ترتدي سترتها. لم يكن وادي قوس المطر في الليل جميلًا ومؤنسًا كما في النهار، وتقلّص القمر إلى حجمٍ معقول ولم يعد أحمر، ولكنّه كان يلقي بظلال سوداء، لطالما كانت نان تخاف الظلال. هل تلك الأشكال التي تراها هي نباتات السراخس الذابلة عند النهر؟

رفعت نان رأسها وقالت ببسالة: "أنا لست خائفة، إنّني فقط أحسّ بشعورٍ غريبٍ في معدتي، لكنّني بطلة."

جميلةٌ هي فكرة كونها بطلة، وشجّعتها على عبور نصف الطريق إلى أعلى التل. ثمّ اجتاح العالم ظلٌّ غريب، كانت سحابةٌ تعبر القمر. فكّرت نان في الطائر الذي أخبرتها عنه آيمي تايلور ذات مرّة، حيث قصّت عليها حكايةً مرعبةً عن طائرٍ أسود كبير ينقضّ عليك في الليل ويأخذك بعيدًا. هل كان ذاك الظلّ الذي عبر فوقها ظلّ الطائر؟ لكنّ

أمّها أخبرتها أنّه لا وجود للطائر الأسود الكبير. قالت نان: "أمي لا تكذب عليّ، يمكن لأيّ أحدٍ أن يكذب عليّ باستثناء أمّي." تابعت المشي حتّى وصلت إلى السياج، وكان الطريق الذي خلفه يؤدّي إلى المقبرة. توقّفت نان لالتقاط أنفاسها.

كانت هناك سحابةٌ أخرى فوق القمر. كان كلّ ما حولها غريبًا، وقاتمًا، وغامضًا.

ارتجف نان واندفعت نحو السياج وهي تقول: "كم هو كبيرٌ هذا العالم!" لو أنّها عادت إلى إنجلسايد فقط! لكنّ الفتاة البالغة من العمر سبع سنوات قالت قبل أن تتسلّق السياج: "الله يراني."

سقطت على الجانب الآخر فجُرحت ركبتها وتمزّق ثوبها. عندما وقفت، اخترقت الأعشاب الحادّة نعالها وجرحت قدمها، لكنّها عبرت الطريق إلى بوّابة المقبرة وهي تعرج.

كانت المقبرة القديمة تقع في ظل أشجار التنوب في نهايتها الشرقية، ومن أحد الجوانب كانت الكنيسة الميثودية، ومن ناحيةٍ أخرى كان منزل قسّ الكنيسة المشيخية، الذي كان مظلمًا وصامتًا أثناء غياب القس. أفسحت السحابة المجال للقمر الذي ظهر وأنار المقبرة المتلئة بظلال راقصة من شأنها أن تدركك إذا اقتربت منها. ثمّ رأت صحيفةً استغنى أحدهم عنها، تتطاير أمامها كساحرةٍ عجوزٍ راقصة، وعلى الرغم من أنّ نان عرفت أنّها مجرّد صحيفة، إلاّ أنّها كانت جزءًا لا يتجزأ من هذه اللّيلة العجيبة. كانت نان تستمع إلى حفيف الأشجار التي هزّتها رياح الليل. وفجأةً لمست خدّها ورقةٌ طويلةٌ من شجرة الصفصاف قرب البوابة، أحسّت نان عندئذٍ كأنّ عفريتًا قد وضع يده على وجهها. توقّف قلبها للحظة، لكنّها وضعت يدها على مقبض البوابة.

ماذا لو ظهرت ذراعٌ طويلةٌ من القبر وسحبتها إلى الأسفل؟!

استدارت نان التي عرفت الآن أنّه مهما كان السبب، لا يمكنها أبدًا السير في تلك المقبرة ليلًا. وعلا أنين مروّع فجأةً بالقرب جدًّا منها، كان ذلك فقط صوت بقرة السيدة بن بيكر العجوز التي رعتها على الطريق، والتي نهضت من خلف مجموعةٍ من الأشجار. لكنّ نان لم تنتظر لترى مصدر الصوت، ولم تستطع السيطرة عى ذعرها، فهرعت بالنزول إلى التل، وعبرت القرية لتصل إلى الطريق المؤدّي إلى إنجلسايد. اندفعت خارج البوابة بتهوّر عبر ما وصفتها ريلا بـبِركة الوحل. لكنّها أخيرًا وصلت إلى دارها، فرأت إنجلسايد، بأضواءها المتوهّجة في النوافذ. وبعد لحظةٍ، تعثّرت في مطبخ سوزان، بثيابها الملطّخة بالطين وأقدامها المبتلّة و قدمها النازفة.

صاحت سوزان: "يا إلهي!"

قالت نان وهي تلهث: "لم أستطع السير في المقبرة يا سوزان، لم أستطع!"

لم تطرح سوزان أيّ أسئلة في البداية، هرعت إلى نان الباردة والمذهولة ونزعت عنها حذاءها وجواربها المبلّلة، ثمّ نزعت عنها ملابسها وألبستها ثوب النوم وحملتها إلى الفراش. بعد ذلك، نزلت لتحضر لها لقمةً تأكلها. بغّض النظر عن حالة الطفلة، ليس من الممكن تركها تنام على معدةٍ فارغة.

أكلت نان طعامها واحتست كأسًا من الحليب الساخن. كم كان جميلًا أن تعود إلى غرفةٍ دافئة ومنيرة وآمنة في سريرها الدافئ اللطيف! لكنّها لم تخبر سوزان بما حدث، اكتفت بقول: "إنّه سرٌّ بيني وبين الله يا سوزان."

ذهبت سوزان إلى الفراش متعهّدةً أنّها ستكون امرأةً سعيدةً عندما

تنهض السيدة العزيزة مرّةً أخرى.

تنهّدت بلا حولٍ ولا قوّة: "أنا لا أقدر على فهم هؤلاء الأطفال ولا على التعامل معهم."

استيقظت نان مع تلك القناعة الرهيبة في ذهنها بأنّ أمّها ستموت دون أدنى شكّ، فهي لم تفِ بوعدها ولم تستطع أن تتوقّع أن الله سيترك والدتها تعيش. كانت الحياة مروّعةً للغاية بالنسبة لها في الأسبوع التالي. لم تستمتع بأيّ شيء، ولا حتّى بمشاهدة سوزان وهي تحيك في العليّة، وهو الأمر الذي لطالما كانت تجده رائعًا للغاية. أيّا كان ما ستفعله، لن تكون قادرةً على الضحك مرّةً أخرى. أعطت دمية الكلب إلى شيرلي لأن شيرلي كان يريده دائمًا، كانت نان تحبّ ذلك الكلب الذي سحب كين فورد أذنيه أكثر من تيدي العجوز. لطالما أحبّت نان الألعاب القديمة. وأعطت منزلها الثمين المصنوع من الأصداف الذي أحضره لها الكابتن ملاشي من جزر الهند الغربيّة، إلى ريلا على أمل أن يرضى الله، لكنّها كانت تخشى ألّا يحدث ذلك. وعندما عادت قطتها الجديدة إلى المنزل واستمرت في العودة إلى المنزل بعد أن أعطتها لآيمي تايلور لأنّ آيمي كانت تريدها، عرفت نان أنّ الله لم يكن راضيًا، واعتقدت أنّ لن يرضيه سوى السير في المقبرة، وكانت المسكينة تعرف الآن أنّها لا تستطيع فعل ذلك أبدًا. كانت جبانةً وضعيفة، وقال جيم ذات مرّة أنّ الضعفاء فقط لا يفون بوعودهم.

سُمح لآن بالجلوس في السرير. كانت على ما يرام تقريبًا مرّةً أخرى بعد أن كانت مريضة. ستتمكّن قريبًا من إدارة منزلها ثانيةً، وقراءة كتبها والاستلقاء بسهولةٍ على وسائدها، وأكل كلّ ما تريد تناوله، والجلوس بجانب المدفأة، والنظر الى حديقتها ورؤية أصدقائها، والاستماع إلى أحاديث القيل والقال المثيرة، والترحيب بالأيّام المشرقة، والعودة لأن

تكون جزءًا من الحياة العظيمة الزاهية.

تناولت على العشاء ساق خروف محشوة كانت قد أعدّتها سوزان، واستمتعت آن بها. كان جميلًا أن تشعر بالجوع مرّةً أخرى. نظرت إلى كلّ الأشياء التي أحبّتها في غرفتها. عليها أن تحصل على ستائر جديدة يكون لونها بين الأخضر الربيعيّ والذهبيّ الباهت، وبالتأكيد عليها أن تضع خزائن جديدة للمناشف في الحمام. بعد ذلك، نظرت من النافذة وأحسّت بوجود سحرٍ جميل في الهواء النقي، وتمكّنت من لمحِ مياه البحر الزرقاء خلف الميناء من خلال أشجار القيقب. كانت ثمار شجرة البتولا تتساقط على العشب كأنّها ذهب. وبدت الحدائق الشاسعة مقوسة فوق الأرض الوافرة. كانت الأرض ذات ألوانٍ مذهلة وضوءٍ خافت وظلالٍ كبيرة. كان كوك روبن يرقص على قمّة التنوب، وكان الأطفال يضحكون في البستان وهم يقطفون التفاح. عاد الفرح والضحكات إلى إنجلسايد. فكّرت آن بسعادة بأنّ الحياة أكثر من مجرّد "كيمياء عضوية متوازنة بدقّة".

تسلّلت نان إلى الغرفة بأنفٍ أحمر وعينين حمراوين من شدّة البكاء.

"أمّي، ينبغي أن أخبرك، لا أستطيع الانتظار أكثر. أنا لم أف بوعدي للّه."

ارتعشت آن باللمسة الناعمة ليد الطفلة الصغيرة المتشبثة، الطفلة التي تطلب الراحة والعون في مشكلتها الصعبة. استمعت لنان التي كانت تبكي وهي تخبرها القصة كاملة، وتمكّنت آن من الحفاظ على هدوئها. لطالما كانت آن بارعة بالحفاظ على هدوئها وكتم ضحكتها عندما يكون عليها فعل ذلك، بغضّ النظر عمّا إن كانت ستضحك لاحقًا مع جيلبرت على ما حدث. كانت تعلم أنّ قلق نان حقيقيٌّ ومروّعٌ بالنسبة لها، وأدركت أيضًا أنّ عليها الاهتمام بتفكير هذه الفتاة الصغيرة.

"حبيبتي، أنت مخطئةٌ بشكلٍ رهيب بشأن كلّ شيء، الله لا يقوم بالمساومات. الله يعطي ولا ينتظر منك أن تفعلي مثل تلك الأمور، علينا فقط أن نحبّ الله. عندما تطلبين مني أو من والدك شيئًا تريدينه، فإنّنا لا نجر صفقاتٍ معك أليس كذلك؟ والله يعلم ما هو صالحٌ أفضل بكثيرٍ ممّا نفعل نحن."

"ولن يتركك تموتين يا أمّي لأنّني لم أفِ بوعدي؟"

"بالطبع لا يا حبيبتي."

"حتّى لو كنت مخطئةً بما اعتقدته عن الله، ألم يكن عليّ أن أفي بوعدي عندئذٍ؟ كما تعلمين، قلت إنّني سأفعل ذلك. يقول أبي أنّه ينبغي علينا دائمًا الوفاء بوعودنا. ألن يكون من العار ألّا أفعل ذلك؟"

"عندما أتحسن يا عزيزتي، سأذهب معك في إحدى الليالي، وأبقى خارج البوّابة وأعتقد أنّكِ لن تكونين خائفةً أبدًا من السير في المقبرة حينها. هذا سوف يريح ضميرك الصغير المسكين، ولن تقومي بوعودٍ حمقاء أخرى اتّفقنا؟"

وعدتها نان وهي تشعر بالأسف إلى حدٍّ ما أنّها كانت تتخلّى عن شيء، فرغم كلّ العيوب، إلا أنّه كان أمرًا مثيرًا وممتعًا. لكنّ البريق عاد إلى عينيها، وعاد صوتها مفعمًا بالحيويّة كما كان.

"سأذهب وأغسل وجهي ثمّ أعود وأقبّلك يا أمي. وسأقطف لك كلّ أزهار "أنف العجل" التي يمكنني العثور عليها. لقد كان الأمر مروّعًا بدونك يا أمي."

قالت آن عندما أحضرت سوزان عشاءها: "آه يا سوزان، يا له من عالمٍ جميلٍ ومثيرٍ للاهتمام ورائع! أليس كذلك؟"

اعترفت سوزان متذكّرةً صف الفطائر الجميل الذي تركته لتوها في المخزن وقالت: "سأقول إنّه جيّدٌ نوعًا ما."

27



كان شهر تشرين الأوّل شهرًا جميلًا في إنجلسايد في ذلك العام، ومليئًا بالأيّام التي كان عليك فيها الركض والغناء. عادت آن للتجوّل في أنحاء المنزل رافضةً أن تعامل على أنّها لم تشف تمامًا بعد، وصارت تضع خططًا لترتيب الحديقة، وتضحك مجدّدًا.

اعتقد جيم دائمًا أنّ أمّه لديها ضحكةٌ جميلةٌ ومبهجة وهي تجيب على أسئلته التي لا تحصى. "كم تبعد المسافة من هنا إلى غروب الشمس يا أمّي؟ لماذا لا نجمع ضوء القمر يا أمّي؟ هل تعود أرواح الموتى حقًّا في هالووين يا أمّي؟ ما الذي يسبّب السبب؟ ألا تفضّلين الموت بسبب أفعى جرسيّة خشنة على أن تموتي بسبب نمر، لأنّ النمر قد يعبث بك ويأكل منك؟ ما هي الحجيرة يا أمّي؟ هل الأرملة هي حقًّا امرأةٌ تحقّقت أحلامها يا أمّي؟ هذا ما قالته والي تايلور. ماذا تفعل الطيور الصغيرة عندما تمطر بغزارة؟ هل نحن حقًّا عائلة تحبّ الخيال يا أمّي؟ "

سمع جيم في المدرسة أنّ السيدة أليك ديفيز قالت ذلك. لم يكن جيم يحبّ السيدة أليك ديفيز، لأنّها كلّما قابلته مع والدته أو والده،

كانت توجه إصبعها الطويل نحوه وتسأل: "هل جيمي ولدٌ جيّد في المدرسة؟" كانت تناديه جيمي! ربّما كانوا خياليّين قليلًا، ومن المؤكّد أنّ سوزان قد فكّرت في ذلك عندما اكتشفت الممر المؤدي إلى الحظيرة المزيّن ببقعٍ من الطلاء القرمزي.

أوضح جيم: "كان علينا فعلها من أجل معركتنا المزيّفة يا سوزان، إنّها تمثل بقعًا من الدماء."

في الليل، تطير أحيانًا مجموعةٌ من الإوزّ البرّي عبر قمرٍ أحمر اللون منخفض وكان جيم عندما يراها يتألّم بشكلٍ غريب، فقد كان يتمنّى لو يستطيع الطيران معهم أيضًا إلى شواطئ مجهولة ويحضر معه القرود والفهود والببغاوات وأشياء من هذا القبيل واستكشاف الجزر التي تحكمها إسبانيا.

بدت بعض العبارات مغريةً بشكلٍ لا يقاوم بالنسبة إلى جيم، مثل عبارة "الجزر التي تحكمها إسبانيا" وعبارة "أسرار البحر". كان جيم يوميًّا يتخيّل أن يلتفّ عليه ثعبانٌ مميت وأن يخوض معركة مع وحيد القرن الجريح.

كان يشعر بالإثارة عند سماع كلمة تنّين وكانت صورته المفضلة معلّقة على الحائط أسفل سريره، ويظهر فيها فارسٌ مدرّعٌ على حصانٍ أبيض ممتلئ الجسم وجميل، يقف على رجليه الخلفيتين بينما كان الفارس يطعن تنّينًا له ذيلٌ جميل يتدلّى خلفه مشكّلًا حلقاتٍ تنتهي بشوكة. وفي الخلفيّة، ركعت سيّدةٌ في رداءٍ ورديّ اللّون بهدوءٍ وتأنّي بيدين مشبوكتين. لم يكن هناك أدنى شكّ أنّ السيّدة التي كان قد تحطمّ بالفعل رمحها تبدو مثل مايبيلي ريس في مدرسة جلين.

حتى سوزان لاحظت الشبه بينهما واستفزّت جيم الذي غضب واحمرّ خجلًا. لكنّ التنين كان مخيّبًا للآمال قليلًا، لأنّه بدا صغيرًا جدًّا

ووضيعًا تحت الحصان الضخم، ولا يبدو أنّ هناك أيّ بسالةٍ في طعنه. كانت التنانين التي أنقذ جيم منها مايبيل في أحلامه السريّة أقوى وأعظم. كان قد أنقذها يوم الاثنين الماضي من إوزّ السيّدة العجوز سارة بالمر. ربّما لاحظت هيبته وشجاعته عندما أمسك بذلك الطائر من عنقه الطويل وألقاه فوق السياج، ولكن من المحتمل أنّها لم تلاحظ وآهٍ كم أزعجت تلك الفكرة قلب جيم. لكنّ إنقاذها من الطائر لم يكن رومانسيًا إلى حدٍّ ما كإنقاذها من التنين.

هبّت الرياح طيلة شهر تشرين الأوّل، فكانت تهبّ رياحٌ خفيفةٌ في الوادي، وتضرب رياحٌ كبيرة أشجار القيقب، وتعصف على طول الشاطئ الرمليّ، لكنّها تهدأ عند وصولها إلى الصخور، تهدأ ثمّ تعصف من جديد. كانت الليالي بقمرها الأحمر، باردةً بما يكفي لجعل التفكير بالسرير الدافئ ممتعًا، وتحوّل لون شجيرات التوت إلى قرمزي، أمّا السراخس الميتة فكانت بنيّة اللّون وحمراء، وبدت أشجار السماق محترقةً خلف الحظيرة بسبب ألوانها الناريّة، وكانت المراعي الخضراء هنا و هناك مثل البقع على حقول الحصاد في جلين الشماليّة وكان الأقحوان أحمرًا وذهبيّ اللون في الزاوية التي نبتت فيها أشجار التنوب على العشب. كانت السناجب تثرثر بفرحٍ في كلّ مكان وصراصير اللّيل تعزف الألحان للرقصات الخياليّة على آلاف التلال. كانت أشجار التفاح مليئةً بالثمار التي احتاجت للقطف وكان الجزر ينتظر من يسحبه من التربة. في بعض الأحيان، يذهب الأولاد للتنقيب عن "صقور البقر" مع الكابتن ملاشي عندما تسمح لهم الأمواج الغامضة التي تأتي لتعانق اليابسة ثمّ تعود إلى أعماق البحار.

فاحت رائحة حريق الأوراق في جميع أنحاء جلين، فقد كانت سوزان تصنع أول فطائر التوت البري في الحظيرة وبجانبها كومةٌ من

القرع الأصفر الكبير.

بقيت أصوات الضحك تعلو في إنجلسايد من الفجر حتى غروب الشمس، وحتى عندما كان الأطفال الأكبر سنًّا في المدرسة، كان شيرلي وريلا كبيرين بما يكفي الآن لمواكبة عادة الضحك. جيلبرت ضحك أيضًا أكثر من المعتاد هذا الخريف. أحبّ جيم الأب الذي يضحك كثيرًا، الطبيب برونسون من موبراي ناروز لم يضحك أبدًا. قيل أنّه اعتمد في مهنته على مظهره الذي يُظهر من خلاله حكمته؛ لكنّ جيلبرت كان يمارس عمله بشكلٍ أفضل وكان الناس دائمًا يضحكون على نكاته.

في كلّ يومٍ يكون فيه الجوّ دافئًا، كانت آن تنشغل في حديقتها التي تصبح نبيذيّة اللّون، حيث تسقط أشعة الشمس المتأخرة على أشجار القيقب القرمزيّة، وتستمتع في رؤية الحزن المميّز والجمال العابر لهذا المنظر. في يومٍ من الأيام الغائمة عند الظهر، زرعت هي وجيم جميع بصيلات الزنبق التي ستصبح زنابق ورديّة، وحمراء، وبنفسجيّة، وصفراء، في شهر حزيران.

"أليس من الجيّد أن تستعدّ للربيع بينما تعلم أنّ عليك مواجهة الشتاء يا جيم؟" قال جيم: "ومن الجيّد أن أجعل الحديقة جميلة. سوزان تقول إن الله هو الذي يجعل كلّ شيءٍ جميلًا ولكن يمكننا أن نجمّلها نحن أيضًا بأيدينا، أليس كذلك يا أمّي؟"

"بالطّبع يا جيم، لنا الشرف في ذلك."

ومع ذلك، لم تكتمل الفرحة، فقد كان أهل إنجلسايد قلقين بشأن كوك روبن. فقد قيل لهم أنّه عندما تهاجر طيور أبو الحناء، يهاجر معها.

نصحه الكابتن ملاشي: "عليك أن تحبسه حتى تذهب بقيّة الطيور وينزل الثلج، بعدها سوف ينسى قليلًا ويظل بخير حتى يأتي الربيع."

لذا كان كوك روبن سجينًا نوعًا ما، وأصبح مضطربًا للغاية. صار يطير حول المنزل لا سبب أو يجلس على عتبة النافذة وينظر بحزنٍ إلى بقيّة الطيور التي كانت تستعدّ للهجرة. فقد كوك روبن شهيّته، ولم تعد تغريه الديدان ومكسّرات سوزان. فكّر الأطفال بجميع العوامل التي قد تكون السبب في ذلك: البرد والجوع والوحدة والعواصف والليالي السوداء والقطط. لكنّ كوك روبن سمع تلك الادّعاءات وتمنّى لو كان في وسعه الإجابة.

كانت سوزان آخر من استسلم، كانت محبطةً للغاية لعدة أيّام. لكن أخيرًا قالت: "دعوه يذهب، إنّ احتجازه ضدّ الطبيعة."

أطلقوا سراحه في اليوم الأخير من شهر تشرين الأوّل، بعد أن كان قد احتجز لمدّة شهر. قبّله الأطفال قبلة الوداع بالدموع، وطار بعيدًا بفرح، وعاد في صباح اليوم التالي إلى عتبة سوزان بحثًا عن الفتات ثمّ نشر جناحيه لينطلق للرحلة الطويلة. كانت ريلا تبكي فقالت لها آن: "قد يعود إلينا في الربيع، يا حبيبتي." لكنّ كلام الأمّ لم يكن ليطمئن الطفلة الصغيرة.

بكت قائلةً: "لكنّ الربيع بعيدٌ للغاية."

ابتسمت آن وتنهّدت، فالمواسم التي بدت طويلة جدًا للطفلة ريلا بدت أنّها تمرّ بسرعةٍ كبيرة بالنسبة لها. انتهى صيفٌ آخر، أضاءته مشاعل لومباردي الذهبية. قريبًا لن يكون أطفال إنجلسايد أطفالًا بعد الآن. لكنّهم ما زالوا أطفالها الذين ترحّب بهم عند عودتهم إلى المنزل في الليل، والذين يملؤون حياتها بالدهشة والبهجة، والذين تحبّهم وتشجّعهم وأحيانًا توبّخهم لأنّهم كانوا في بعض الأحيان أشقياء للغاية، على الرغم من أنّهم بالكاد يستحقّون أن تناديهم السيدة أليك ديفيز "مجموعة شياطين إنجلسايد" عندما سمعت أنّ بيرتي شكسبير

درو قد احترق قليلًا أثناء لعب دور هنديٍّ أحمر محترق على المحك في وادي قوس المطر.

استغرق جيم ووالتر وقتًا أطول لفكّ رباطه أكثر مما كان متّفقًا عليه، كما أنّهما احترقا أيضًا، لكن لم يشفق عليهما أحد.

كان شهر تشرين الثاني شهرًا كئيبًا في ذلك العام، شهر الريح الشرقية والضباب. في بعض الأيام لم يكن هناك سوى ضبابٍ باردٍ يمرّ فوق البحر الرمادي. تساقطت الأوراق الأخيرة لأشجار الحور التي كانت ترتعش بسبب الرياح. بدت الحديقة ميتة بعد أن فقدت لونها وسحرها باستثناء الهليون، الذي كان لا يزال رائعًا بكثافته ولونه الذهبيّ. اضطرّ والتر إلى التخلّي عن مكان دراسته في شجرة القيقب وتعلّم دروسه في المنزل. لقد أمطرت وأمطرت وأمطرت. اشتكت دي بيأس: "ألن تتوقّف الأمطار أبدًا؟" ثم جاء أسبوعٌ مشرق سطعت فيه أشعة شمس الصيف. وفي الأمسيات الباردة القاسية، كانت الأمّ تضع عود الثقاب في الموقد، وسوزان تخبز البطاطا مع العشاء.

كانت المدفأة الكبيرة مركز المنزل في تلك الأمسيات، وكان الاجتماع حولها بعد العشاء أجمل وقتٍ في اليوم. خاطت آن وخطّطت لخزائن الملابس الشتوية الصغيرة فكانت تقول: "يجب أن يكون لدى نان فستانٌ أحمر، لأنها ترتدي اللون الأحمر كثيرًا." وفكّرت أحيانًا في هانا وهي تنسج معطفها الصغير كلّ عام لصاموئيل الصغير. كانت الأمّهات على حالهنّ لقرون، مصدر للحبّ والعطاء، الراحلات والحاضرات على حدٍّ سواء.

درّست سوزان الأطفال، وبعد ذلك قاموا بفعل ما يحلو لهم. كان والتر، الذي يعيش في عالم الخيال والأحلام الجميلة، منغمسًا في كتابة سلسلةٍ من الرسائل من السنجاب الذي يعيش في وادي قوس

المطر إلى السنجاب الذي يعيش خلف الحظيرة. تظاهرت سوزان بالسخرية من الرسائل عندما قرأها عليها، لكنّها قامت سرًا بنسخها وإرسالها إلى ريبيكا ديو.

"لقد وجدت هذه الرسائل تستحقّ القراءة يا عزيزتي الآنسة ديو، على الرغم من أنّكِ قد تعتبرينها تافهةً للغاية بحيث لا يمكنك النظر إليها. في هذه الحالة، أعلم أنكِّ ستعفين عن امرأةٍ عجوزٍ شغوفةٍ بإزعاجك بها. يعتبر والتر ذكيًا جدًّا في المدرسة، وعلى الأقل، هذه المؤلفات ليست شعرًا. يمكنني أيضًا أن أضيف أنّ جيم الصغير نال تسعةً وتسعين في امتحانه الحسابيّ الأسبوع الماضي، ولا أحد يستطيع أن يفهم سبب عدم نيله العلامة الكاملة. ربّما لا ينبغي أن أقول ذلك يا آنسة ديو العزيزة، لكنّني مقتنعةٌ تمامًا أنّ هذا الطفل وُلد ليكون عظيمًا. قد لا نعيش لنرى ذلك، لكنّه ربّما يصبح رئيسًا لكندا."

كان شرمب يتشمّس تحت أشعة الشمس وكانت بوسي ويلو قطّة نان التي بدت دائمًا كسيّدةٍ صغيرةٍ أنيقة باللونين الأسود والرمادي، تتسلّق أرجل الجميع بلا استثناء. احتجّت سوزان على ذلك المنظر: "لدينا قطّتان وآثار الفئران في كلّ مكان في المخزن." تحدّث الأطفال حول مغامراتهم الصغيرة سويًّا وهم يسمعون هدير المحيط البعيد خلال ليلة الخريف الباردة.

في بعض الأحيان، كانت الآنسة كورنيليا تتلقّى مكالمةً قصيرة بينما يتبادل زوجها الآراء في متجر كارتر فلاج. بعد ذلك، قام الأطفال الصغار بفتح آذانهم الطويلة، لأنّ الآنسة كورنيليا كانت تنقل دائمًا أحدث الإشاعات وكانوا دائمًا يسمعون أكثر الأخبار المهمّة عن الناس. سيجلسون في الكنيسة يوم الأحد القادم ويستمتعون بمشاهدة الأشخاص الذين سمعوا الأخبار عنهم، والتفكير بما يعرفوه عنهم رغم

مظهرهم الأنيق.

"المنزل دافئ هنا يا عزيزتي آن. إنها ليلةٌ قارسة وبدأت الثلوج تتساقط. هل الطبيب بالخارج؟"

قالت آن: "نعم، لم أكن سعيدةً بذهابه، لكنّهم اتصلوا من هاربور هيد وقالوا إنّ السيّدة بروكر شو أصرّت على رؤيته." كانت سوزان تزيل بسرعة وبخفية عظم سمكةٍ ضخمة من سجادة الموقد، أحضرها شرمب، وصارت تدعو أن لا تلاحظ الآنسة كورنيليا ذلك.

قالت سوزان: "إنّها ليست مريضة، لكنّني سمعت أنّها حصلت على ثوب نوم دانتيل جديد ولا شكّ أنّها تريد من طبيبها أن يراها فيه."

وقالت الآنسة كورنيليا: "أحضرته ابنتها ليونا إلى المنزل من بوسطن من أجلها، جاءت مساء الجمعة بأربعة صناديق. يمكنني أن أتذكّر أنّها رحلت إلى الولايات المتحدة قبل تسع سنوات، وهي تجرّ حقيبة جلادستون قديمة مكسورة مليئة بالأغراض التي كانت تخرج منها. كان ذلك عندما كانت تشعر بالحزن بعد أن انفصل عنها فيل تورنر. حاولت إخفاء مشاعرها ولكنّ الجميع كانوا يعرفون ذلك. الآن عادت إلى الاعتناء بوالدتها. أحذرك يا آن، ستحاول مغازلة الطبيب. لكنّني لا أعتقد أنّ الأمر سيعنيه حتّى لو كان رجلًا. وأنت لست مثل السيدة زوجة الطبيب برونسون في موبراي ناروز، لقد قيل لي إنّها تغار جدًّا من مريضات زوجها."

قالت سوزان: "ومن الممرّضات أيضًا."

قالت الآنسة كورنيليا: "حسنًا، بعض هؤلاء الممرضات جميلاتٌ للغاية بالنسبة لوظيفتهن، مثل جاني آرثر التي تأخذ قسطًا من الراحة بين الحالات وتحاول منع الشابين اللذين يحبّانها من معرفة بعضهما البعض."

قالت سوزان بحزم: "على الرغم من أنّها فاتنة، إلا أنّها لم تعد صغيرةً، وسيكون من الأفضل لها أن تختار رجلًا وتستقر. انظري إلى خالتها يودورا، قالت إنها لم تنوي أن تتزوج حتى تقع في الحبّ، وانظري إلى النتيجة! تحاول مغازلة كلّ رجلٍ تراه رغم أنّها تبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا على الأقلّ، لأنّها اعتادت على ذلك. هل سمعت يا زوجة الطبيب العزيزة، ماذا قالت لابنة عمها فاني عندما تزوجت؟ قالت: "أنت تأخذين ما تبقّى لي." لقد علمت أنّ تلك كانت شرارة الحرب بينهما ولم تتكلّما منذ ذلك الحين."

تمتمت آن شاردة: " اللسان سلاحٌ ذو حدّين."

"كلامك جواهر يا عزيزتي. بالحديث عن ذلك، أتمنى أن يكون السيد ستانلي أكثر حكمةً في خطبه. لقد أساء إلى والاس يونغ وسيغادر والاس الكنيسة. يقول الجميع إنّ خطبة الأحد الماضي كانت موجّهة إليه."

قالت آن: "إذا قام القس بإلقاء خطبةٍ قاسيةٍ قليلًا على فردٍ معيّن، يفترض الناس دائمًا أنه قصدها لذلك الشخص بالذات. قد تناسب القبّعة رأس شخصٍ ما ولكن لا يعني ذلك أنّها صنعت من أجله."

وافقتها سوزان: "هذا كلامٌ منطقيّ، ولا يعجبني والاس يونغ على الإطلاق، فلقد سمح لشركةٍ برسم الإعلانات على أبقاره قبل ثلاث سنوات. في رأيي، هذا يدلّ على حبّه الشديد للمال."

قالت الآنسة كورنيليا: "سيتزوج أخوه ديفيد أخيرًا. قال لي ذات مرّةٍ بعد وفاة والدته: "لقد مضى وقتٌ طويل في اتخاذ قرار بشأن الأمر الذي كان أرخص – الزواج أو التوظيف. قال لي ذات مرّة بعد وفاة والدته: "يمكنك أن تتركي المنزل من دون امرأة يا كورنيليا، لكنّ لن يكون أمرًا سهلًا." كان لديّ شعورٌ أنّه كان يريد أن يباشر في ذلك لكنّه

لم يتلقّ أيّ تشجيعٍ منّي. وأخيرًا سيتزوّج جيسي كينغ."

"جيسي كينغ! لكنّني اعتقدت أنّه يحبّ ماري نورث."

"يقول إنّه لن يتزوّج أيّ امرأةٍ تأكل الملفوف. لكن تقول الشائعات أنّه تقدّم لخطبتها وهي صفعته. وبحسب ما ورد، قالت جيسي كينج إنّها تفضّل رجلًا أجمل منه لكنّه لم يردّ وتقدّم لخطبتها. بعض الرجال يهمّهم أن يحاولوا بغضّ النظر عن العواقب."

قالت لها سوزان: "لا أعتقد يا سيّدة مارشال إليوت، أنّ الناس في هذه الأرجاء يقولون نصف الأمور التي اتُّهموا بقولها. برأيي جيسي كينغ جعلت ديفيد يونغ يحظى بزوجةٍ أفضل بكثير مما يستحقّ، على الرغم من أنّ الجمال الخارجيّ يزول، سأعترف بأنّه قبيح المظهر."

سألت آن: "هل تعلمين أنّ ألدن وستيلا حظيا بابنة صغيرة؟"

"توقّعت ذلك، وأتمنّى أن تكون ستيلا أكثر عقلانيّةً مع ابنتها ممّا كانت ليزيت معها. هل تصدّقين يا عزيزتي آن، أنّ ليزيت بكت لأن طفل ابنة عمّها دورا مشى قبل أن تمشي ستيلا؟"

ابتسمت آن: "نحن الأمّهات عرقٌ أحمق، أتذكّر أنّ النار اشتعلت في قلبي عندما نمت ثلاثة أسنان للصغير بوب تايلور، الذي كان بمثل عمر جيم، قبل أن ينمو لجيم سنٌّ واحد."

قالت الآنسة كورنيليا: "ينبغي أن يخضع بوب تايلور لعمليّة جراحيّة في اللوزتين."

سألها والتر ودي معًا: "لماذا لا نجري أبدًا عمليّاتٍ جراحيّة يا أمي؟" كثيرًا ما يقولان نفس الكلام في الوقت عينه، بعد ذلك، قاما بشبك أصابعهما وتمنّيا أمنية. شرحت دي ما يحدث: "نحن نفكّر ونشعر بنفس الشعور حيال كلّ الأمور."

ذكّرتهم الآنسة كورنيليا بزواجٍ آخر: "لا يمكننا أن ننسى زواج

إلسي تايلور."

"كانت صديقتها المقربة مايسي ميليسون تعزف لحن الزفاف. لقد عزفت لحنًا للموت بدلًا من ذلك. بالطبع قالت إنّها ارتكبت خطأ لأنّها كانت مرتبكة للغاية ولكن هذا لم يمنع الناس من الحديث عنها. لطالما أرادت ماك مورسايد لنفسها، وهو محتالٌ حسن المظهر ومعسول اللسان يقول دائمًا للنساء فقط ما يعتقد أنّهنّ يرغبن في سماعه. لقد جعل حياة إلسي بائسة. آه حسنًا يا عزيزتي آن، لقد ذهب كلاهما منذ وقتٍ طويل إلى سايلنت لاند وتزوّجت مايزي من هارلي روسيل لسنوات، ونسي الجميع أنّه عرض عليها الزواج متوقعًا منها أن تقول "لا" وقالت "نعم" بدلًا من ذلك، حتّى أنّ هارلي بنفسه نسي ذلك. يعتقد أنّه نال أفضل زوجةٍ في العالم ويهنّئ نفسه على أنّه ذكيٌّ بما يكفي للحصول عليها."

قالت سوزان: "لماذا عرض عليها الزواج إذا كان يريدها أن ترفض؟ يبدو لي إجراءً غريبًا للغاية."

أضافت على الفور بتواضع: "لكن بالطبع لن أتوقّع أن أعرف أيّ شيء عن ذلك."

"أمره والده بذلك. لم يكن يريد ذلك، لكنّه اعتقد أنّ الوضع آمن تمامًا. لقد أتى الطبيب."

عندما دخل جيلبرت، تسللت معه موجةٌ صغيرةٌ من الثلج. خلع معطفه وجلس بسرور إلى جانب المدفأة.

"لم أتوقع أن أتأخّر هكذا."

قالت له آن وهي تبتسم للآنسة كورنيليا: "لا شّك أن ثوب النوم الجديد من الدانتيل كان جذّابًا للغاية."

"ما الذي تتحدّثين عنه؟ أظنّ أنّني لا أفهم بعض نكات النساء.

ذهبت إلى جلين الشماليّة لرؤية والتر كوبر."

قالت الآنسة كورنيليا: "أعتبر صمود هذا الرجل لغزًا."

ابتسم جيلبرت: "أنا لا أصبر عليه، كان يجب أن يموت منذ فترةٍ طويلة. قبل عام قلت أنّه سيعيش لشهرين فقط وها هو الآن يفسد سمعتي لأنّه لم يمت بعد."

"إذا كنت تعرف آل كوبر كما أعرفهم، فلن تخاطر بالتنبؤات بشأنهم. ألا تعرف أنّ جدّه عاد إلى الحياة بعد أن حفروا القبر وأحضروا التابوت؟ ورفض متعهّد الموتى إعادته أيضًا. ومع ذلك، أفهم أنّ والتر كوبر يستمتع كثيرًا بالتدرّب على جنازته. حسنًا، هناك أجراس مارشال، وهذه الجرّة من مخلّل الكمثرى هي لك يا عزيزتي آن."

ذهبوا جميعًا إلى الباب لتوديع الآنسة كورنيليا، في حين كان والتر ينظر بعينيه الرماديّتين إلى الليل العاصف.

قال بحزن: "أتساءل أين هو كوك روبن الليلة وما إذا كان يفتقدنا." ربما كان كوك روبن قد ذهب إلى ذلك المكان الغامض الذي كانت تشير إليه السيّدة إليوت دائمًا باسم الأرض الصامتة.

قالت آن: "كوك روبن في أرضٍ جنوبيّةٍ مشمسة، وسيعود في الربيع، أنا متأكّدة تمامًا من ذلك، ولم يتبقّ سوى خمسة أشهر. كان عليكم أن تخلدوا إلى النوم منذ وقتٍ طويل يا صغاري."

كانت دي تقول في حجرة المؤن: "هل ترغبين في إنجاب طفلٍ يا سوزان؟ أعرف من أين يمكنك الحصول على طفلٍ جديد."

"آه، أين؟"

"هناك طفل جديد في منزل آيمي. تقول آيمي إنّ الملائكة أحضروه وتعتقد أنّهم لم يرسلوه بلا سبب. لديهم ثمانية أطفال الآن دون احتساب ذلك الطفل. لقد سمعتك تقولين بالأمس إنّك

تشعرين بالوحدة لرؤية ريلا تكبر، لن يكون لديك طفلةٌ الآن. أنا متأكّدة من أنّ السيّدة تايلور ستعطيك طفلها."

"يا للطريقة التي يفكّر بها الأطفال فينا! إنّ تكوين عائلاتٍ كبيرة أمرٌ تقليديّ بالنسبة لآل تايلور. لم يكن والد أندرو تايلور يستطيع معرفة عدد أطفاله، كان عليه دائمًا أن يتوقّف ويحصيهم. لكنّني لا أعتقد أنّني سوف آخذ أيّ أطفالٍ جدد الآن."

"تقول آيمي تايلور إنك عانس يا سوزان. هل أنت كذلك؟"

قالت سوزان بلا تردّد: "هذا ما قدّره الله لي."

"هل تحبّين أن تكوني عانسًا يا سوزان؟"

"لا أستطيع أن أقول بصدق إنّني أحبّ ذلك يا صغيرتي." تذكّرت الكثير من الزوجات اللواتي تعرفهنّ وأضافت سوزان: "لكنّني علمت أنّ هناك بعض التعويضات. الآن خذي فطيرة التفاح هذه لوالدك وسأحضر له الشاي، لا بدّ أنّ المسكين جاع كثيرًا."

قال والتر النعسان وهو يذهب إلى الطابق العلويّ: "لدينا أجمل منزلٍ في العالم، أليس كذلك يا أمّي؟ لكن ألا تعتقدين أنّه سيكون أفضل لو كان لدينا القليل من الأشباح؟"

"أشباح؟"

"نعم. منزل جيري بالمر مليءٌ بالأشباح، لقد رأى سيّدة طويلة بيضاء يدها يد هيكل عظميّ. أخبرت سوزان بذلك وقالت إنّه إمّا كان يكذب أو يتخيّل."

"سوزان على حق. أمّا بشأن إنجلسايد، فلم يعش هنا سوى الناس السعداء، لذلك ترى أنّه من غير الممكن أن نصبح أشباحًا. الآن قل صلواتك واخلد إلى النوم."

"أمّي، أعتقد أنني كنت شقيًّا الليلة الماضية. قلت: "أعطنا غدًا

خبزنـا اليومـيّ" بـدلًا مـن أن أقول اليـوم، بدا الأمـر أكثـر منطقيّة. هل تعتقدين أنّ هذه خطيئة يا أمّي؟"

***

28



عاد كوك روبن عندما أزهرت إنجلسايد ووادي قوس المطر مرّةً أخرى، وهلّ جمال الربيع الأخضر الساحر، ولم يعد وحده، بل أحضر عروسًا معه! بنى الاثنان عشًا في شجرة تفاح والتر واستأنف كوك روبن جميع عاداته القديمة، لكنّ عروسه كانت أكثر خجلًا أو أقلّ مغامرة ولم تسمح لأيّ شخصٍ بالاقتراب منها. اعتقدت سوزان أنّ عودة كوك روبن أعجوبة إيجابيةّ وكتبت لريبيكا ديو عنها في تلك الليلة بالذات.

كان الضوء يُسلّط على مختلف الأمور ومختلف الأشخاص في دراما الحياة الصغيرة في إنجلسايد. لقد مرّوا بفصل الشتاء دون أن يحدث أمرٌ غريبٌ وخارجٌ عن المألوف لأحدهم، وفي حزيران جاء دور دي لخوض مغامرة.

بدأت فتاةٌ جديدةٌ في القدوم إلى المدرسة، وعندما سألها المعلّم عن اسمها، قالت: "أنا جيني بيني" كما يمكن للمرء أن يقول "أنا الملكة إليزابيث". في اللحظة التي أجابت فيها شعرت دي إنّك إن لم تعرف جيني بيني يعني أنّك غير معروف، وعدم خضوعك لجيني بيني يعني أنّك غير موجود على الإطلاق. على الأقلّ، هذا ما شعرت به ديانا

بلايث حيال ذلك، حتّى لو لم تستطع وصف شعورها بهذه الكلمات بالضبط.

كانت جيني بيني تبلغ تسع سنوات في حين كانت دي في الثامنة من عمرها، لكن منذ البداية استطاعت أن تكون أعلى من "الفتيات الكبار" اللواتي هنّ في سنّ العاشرة والحادية عشرة. وجدت الفتيات أنّهنّ لا يستطعن ازدراءها أو تجاهلها. لم تكن جميلة لكنّها كانت جذابة، كان الجميع ينظر إليها مرّتين. كان وجهها دائريًا أبيض وكان شعرها أسود وناعم وكان لون عينيها الكبيرتين أزرق داكن مع رموش سوداء طويلة متشابكة. عندما ترفع تلك الرموش ببطء وتنظر إليك بتلك العينين المحتقِرة تشعر أنّك مجرّد حشرة صغيرة. إنّك تفضّل أن تحتقرك جيني بيني على أن يتودّد إليك شخصٌ غيرها، وأن يتمّ اختيارك كصديقٍ مؤقّت لجيني بيني كان شرفًا عظيمًا، فلقد كانت أسرار جيني بيني مثيرة. من الواضح أنّ آل بيني لم يكونوا مثل عامّة الشعب، كما ويبدو أنّ عمّة جيني التي تدعى لينا، كانت تمتلك عقدًا رائعًا من الذهب والعقيق أعطاها لها عمّها الذي كان مليونيرًا.

كان لدى أحد أبناء عمومتها خاتمٌ من الألماس بقيمة ألف دولار، وفاز ابن عمّها الآخر بجائزة فنّ الخطابة والإلقاء على أكثر من ألفٍ وسبعمئة متسابق. كان لديها عمّةٌ تعمل كمبشرة وعملت بين الفهود في الهند. باختصار، قبلت تلميذات جلين جيني بيني في تقديرها الخاص لبعض الوقت على الأقل، ونظرن إليها بإعجابٍ وحسدٍ مختلطَين، وتحدّثن عنها كثيرًا على موائد العشاء لدرجة أنّ أهاليهنّ اضطرّوا لملاحظة ذلك.

بعد أن كانت دي تخبرهم عن "القصر" الذي تعيش فيه جيني، مع الخشب الأبيض حول سقفه، ونوافذه الخمس الكبيرة، وبستان البتولا

الرائع خلفه، ورفّ الرخام الأحمر في الردهة، سألت آن ذات مساء: "من هي هذه الفتاة الصغيرة التي تبدو دي منجذبةً لها يا سوزان؟ بيني هو اسمٌ لم أسمعه من قبل في فوروينْدز. هل تعرفين أيّ شيء عنها؟"

"إنّها عائلةٌ جديدة انتقلت إلى مزرعة كونواي القديمة على بايس لاين، يا عزيزتي زوجة الطبيب. وقيل إنّ السيّد بيني نجّارٌ لا يستطيع أن يكسب رزقه من أعمال النجارة كونه مشغولًا للغاية في محاولة إثبات أنّه لا يوجد إله، وقرّر بعدها تجربة أن يصبح مزارعًا. كلّ ما يمكنني أن أفهمه هو أنّهم أناسٌ غرباء. يفعل صغارهم ما يحلو لهم. يقول إنّ أهله لطالما كانوا يتحكّمون به عندما كان طفلًا ولن يفعل ذلك لأطفاله. لهذا السبب تأتي جيني إلى مدرسة جلين، على الرغم من أنّ مدرسة موبراي ناروز أقرب ويرتادها بقيّة أطفاله، لكنّ جيني قرّرت أن تأتي إلى جلين. يقع نصف مزرعة كونواي في هذه المنطقة، لذلك يدفع السيّد بيني أسعارًا للمدرستين، وبالطبع يمكنه إرسال أطفاله إلى كليهما إذا كان يرغب في ذلك. على الرغم من أنّ جيني تبدو ابنة أخته وليس ابنته، فلقد توفيّ والداها. يقولون أنّ جورج أندرو بيني هو من وضع الخروف في قبو الكنيسة المعمدانيّة في موبراي ناروز. أنا لا أقول إنّهم غير محترمين، لكنّهم جميعًا غير مهذبين يا زوجة الطبيب العزيزة، والمنزل مقلوبٌ رأسًا على عقب. إن كنت تريدين نصيحتي، فينبغي على ديانا ألّا تختلط بقبيلةٍ كهذه."

"لا يمكنني منعها بالضبط من مرافقة جيني في المدرسة يا سوزان. أنا لا أعرف حقًّا أيّ شيء سيّء عن الطفلة، على الرغم من أنّني متأكّدة من أنّها تبالغ في الكلام عن أقاربها ومغامراتها. ومع ذلك، من المحتمل أنّ دي ستتجاوز هذا الإعجاب قريبًا ولن نسمع المزيد عن جيني بيني."

لكنّهم استمروا في سماع المزيد. أخبرت جيني دي أنها أحبّتها أكثر

من جميع الفتيات في مدرسة جلين، شعرت دي حينئذٍ أنّ الملكة قد انحنت إليها، واستجابت لها بحبّ. لم تنفصل بعدها الفتاتان في فترات الاستراحة، وصارتا تكتبان رسائل لبعضهما البعض خلال عطلة نهاية الأسبوع، وتتشاركان العلكة، وتتبادلان الأزرار وتتعاونان في جمع الأوساخ، وأخيرًا طلبت جيني من دي العودة معها من المدرسة والبقاء طوال الليل معها.

رفضت الأمّ بحزمٍ شديد وبكت دي كثيرًا.

قالت وهي تبكي: "لقد سمحتِ لي بالبقاء طوال الليل مع برسيس فورد."

قالت آن بشكلٍ غامض بعض الشيء "كان الوضع مختلفًا." ليس تكبّرًا، ولكن كلّ ما سمعته عن عائلة بيني جعلها تدرك أنّهم لا يصلحون بتاتًا كأصدقاء لأطفال إنجلسايد، وكانت قلقةً للغاية في الآونة الأخيرة بسبب تأثّر دي كثيرًا بجيني التي سيطرت على عقل طفلتها الصغيرة.

صرخت دي باكية: "لا أرى أيّ اختلاف. جيني فتاةٌ مهذبة مثل بيرسيس! لم تمضغ العلكة أبدًا. لديها ابنة عمّ تعرف كلّ قواعد الآداب وقد تعلّمتها جيني جميعًا منها. تقول جيني أننا لا نعرف ما هي آداب السلوك، وقد خاضت أكثر المغامرات إثارة."

سألتها سوزان "من قال أنّها فعلت ذلك؟"

"أخبرتني بنفسها. أهلها ليسوا أغنياء ولكن لديهم أقارب أثرياء ومحترمون للغاية. جيني لديها عمّ يعمل كقاضي وابن عمّ والدتها قبطان أكبر سفينة في العالم. جيني هي التي قامت بتعميد سفينته عندما أبحرت أوّل مرة. ليس لدينا عمّ قاضٍ أو عمّة مُبشّرة للفهود أيضًا."

"البرص يا عزيزتي، ليس الفهود."

"قالت جيني إنّها فهود، أعتقد أنّها تعرف أكثر لأنّها عمّتها. وهناك

أشياء كثيرة في منزلها أريد أن أراها، كغرفتها المغطّاة بالببغاوات، وردهتهم المليئة بالبوم المحشوّ. ولديهم سجادة معقوفة في الصالة عليها رسمة منزل، وستائر مغطّاة بالورود، ومنزلٌ حقيقيّ للّعب بناه عمّها لهم، و تعيش جدّتها معهم وهي أكبر معمّرة في العالم. تقول جيني إنّها عاشت قبل الطوفان، قد لا تتاح لي فرصةٌ أخرى لرؤية شخصٍ عاش قبل الطوفان."

قالت سوزان: "قيل لي أنّ عمرها يناهز المئة عام، لكن إذا قالت جيني إنّها عاشت قبل الفيضان، فهي تكذب. و الله وحده يعلم ما قد تصابين به لو ذهبت إلى مكانٍ كهذا."

احتجّت دي: "تقول جيني إنّهم أصيبوا بالنكاف والحصبة والسعال الديكي والحمى القرمزية جميعًا في عام واحد."

تمتمت سوزان: "لن أتفاجأ لو علمت بإصابتهم بالجدريّ. يبدو أنّ الناس صاروا مسحورين!"

شهقت دي: "جيني ستخضع لعمليّة للوزتيها، لكنّ هذا غير معدي، أليس كذلك؟ جيني لديها ابنة عمّ ماتت عندما أزالت لوزتيها، نزفت حتّى الموت دون أن تستعيد وعيها. لذا فمن المحتمل أنّ ذلك سيحصل لجيني أيضًا، إذا كان الأمر وراثيًّا. إنّها ضعيفةٌ للغاية، أغمي عليها ثلاث مرّات الأسبوع الماضي. لكنّها مستعدّة تمامًا، وهذا أحد أسباب حرصها الشديد على جعلي أقضي الليلة معها، لذلك يجب أن أتذكّرها بعد وفاتها. من فضلك يا أمّي، سأذهب من دون القبّعة الجديدة ذات الأشرطة التي وعدتني بها إذا سمحت لي بالذهاب."

لكنّ الأمّ كانت مصرّة على كلامها وذهبت دي إلى وسادتها باكية. لم تعطف نان عليها لأنّها لم تكن تحبّ جيني بيني.

قالت آن بقلق: "لا أعرف ما الذي أصاب الطفلة، لم تتصرّف بهذه

الطريقة من قبل. كما قلتِ، يبدو أنّ تلك الفتاة بيني قد سحرتها."

"لقد كنتِ محقّةً تمامًا في رفضك السماح لها بالذهاب إلى مكانٍ أقلّ من مستواها، يا زوجة الطبيب العزيزة."

"آه يا سوزان، لا أريدها أن تشعر أنّ هناك من هم أقلّ شأنًا منها، لكنّنا يجب أن نضع حدودًا في مواقف معيّنة. ليست المشكلة في جيني، أعتقد أنّها لا تؤذي بصرف النظر عن عادتها في المبالغة والكذب، لكن قيل لي إنّ الصبية مروّعون حقًّا. تكاد المعلمة في موبراي ناروز أن تفقد عقلها بسببهم."

عندما أخبرت دي جيني أنّ أهلها لن يسمحوا لها بالذهاب سألتها جيني: "هل يضطهدونك هكذا؟ لن أسمح لأيّ شخص بالتحكّم بي بهذه الطريقة، فأنا أحبّ الحريّة كثيرًا، لذلك أنام خارج الأبواب طوال الليل كلّما أردت. أفترض أنّك لم تحلمين أبدًا بفعل ذلك."

نظرت دي بحسرةٍ إلى الفتاة الغامضة التي غالبًا ما كانت تنام الليل في الخارج. لا شكّ في أنّ ذلك شعورٌ رائع!

"هل تلومينني على عدم ذهابي يا جيني؟ ألا تعلمين أنّني أريد الذهاب؟"

"بالطبع أنا لا ألومك. بعض الفتيات لن يقبلن ذلك بالطبع، لكنني أعتقد أنّه ليس بيدك حيلة. كان من الممكن أن نستمتع بوقتنا، كنت قد خطّطت للذهاب لصيد الأسماك تحت ضوء القمر في الجدول الخلفيّ، فنحن نفعل ذلك في الكثير من الأحيان، ولقد اصطدت ذات مرّة سمكة سلمون مرقطّة. لدينا خنازير صغيرة ظريفة للغاية ومهر جديد جميل ومجموعةٌ من الجراء. حسنًا، أعتقد أنني يجب أن أسأل سايدي تايلور إن كانت ترغب في المجيء، لأنّ والداها لا يتحكّمان بها."

احتجّت دي: "أمي وأبي يعاملانني معاملةً حسنة، ووالدي هو أفضل طبيبٍ في جزيرة بي. إي. الجميع يقول ذلك."

قالت جيني بازدراء: "أنتِ تتكبّرين لأنّ لديك أبًا وأمًا بينما ليس لديّ أحد. والدي لديه أجنحة ويرتدي دائمًا تاجًا ذهبيًا. لكنني لا أفتخر بذلك، أليس كذلك؟ الآن دي، لا أريد أن أتشاجر معك ولكنّني أكره الاستماع لأيّ شخصٍ يتفاخر بأفراد عائلته، هذا ليس سلوكًا حسنًا. وقد قررت أن أكون سيّدة. عندما تأتي برسيس فورد التي تتحدّثين عنها دائمًا إلى فوروينذز هذا الصيف، لن أرافقها. تقول العمّة لينا إنّ والدتها غريبة، لقد كانت متزوّجة من رجلٍ ميّت ثمّ عاد إلى الحياة."

"آه، لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق يا جيني. أعرف ما حدث، أخبرتني أمّي أنّ العمّة ليزلي. . ."

"لا أريد أن أسمع عنها. أيًّا كان الأمر، فمن الأفضل عدم الحديث عنه يا دي. لقد رنّ الجرس."

دمعت عينا دي وكادت تختنق وهي تقول: "هل ستسألين سايدي حقًا؟"

"حسنًا، لن أسألها الآن، سأنتظر وأرى ما إذا كنت سأعطيكِ فرصةً أخرى، ولكن إذا فعلت ذلك ستكون الفرصة الأخيرة."

بعد بضعة أيّام، جاءت جيني بيني إلى دي في الفسحة.

"سمعت جيم يقول إنّ أباكِ وأمك قد ذهبا أمس ولن يعودا حتى ليلة الغد."

"نعم، لقد ذهبا إلى آفونلي لرؤية العمّة ماريلا."

"إنّها فرصتك إذن."

"فرصتي؟"

"لإمضاء الليل معي."

"آه جيني، لكنّني لا أستطيع."
"بالطّبع تستطيعين. لا تكوني ساذجة، لن يعرفا أبدًا."
"لكنّ سوزان لن تسمح لي."
"ليس عليك أن تسأليها، فقط تعالي إلى المنزل معي بعد المدرسة. يمكن أن تخبرها نان أين ذهبتِ حتّى لا تشعر بالقلق. ولن تخبر والداك بما حدث. ستكون خائفةً جدًّا من أن يلقيا اللوم عليها."

كانت دي خائفة ومتردّدة، كانت تعلم جيّدًا أنّها لا يجب أن تذهب مع جيني، لكن لم يكن بإمكانها مقاومة الإغراء. وجهّت جيني سحر عينيها غير العاديّتين إلى دي.

وقالت بطريقةٍ دراماتيكيّة: "هذه فرصتك الأخيرة، لا يمكنني الاستمرار في صداقة فتاةٍ تعتقد أنّها أكبر من القدوم إلى منزلي. إذا لم تأتِ فسنفترق إلى الأبد."

حسم هذا الأمر. كانت دي لا تزال خاضعةً لسحر جيني بيني، ولم تستطع أن تتقبّل فكرة الفراق إلى الأبد. ذهبت نان إلى المنزل بمفردها بعد ظهر ذلك اليوم لتخبر سوزان أنّ دي ذهبت لقضاء الليلة مع جيني بيني.

لو كانت سوزان نشيطةً كعادتها، لكانت قد ذهبت مباشرةً إلى بينيس وأحضرت دي إلى المنزل. لكنّ سوزان كانت قد أرهقت كاحلها في ذلك الصباح، وبينما كان بإمكانها الركض وإعداد الوجبات للأطفال، عرفت أنّها لا تستطيع السير لمسافة ميلٍ واحد على طريق بايس لاين. لم يكن لدى آل بيني هاتف ورفض جيم ووالتر الذهاب بشكلٍ قاطع، فقد دُعيا إلى أكل بلح البحر في المنارة وذلك أمرٌ لن تفعله دي لهما. كان على سوزان أن تستسلم.

عادت دي وجيني إلى المنزل عبر الحقول، ما جعل المسافة أكثر

من ربع ميل بقليل. كانت دي سعيدة، بالرغم من أنّها شعرت بتأنيب الضمير. رأت الفتاتان الكثير من المناظر الجميلة كأجمّة السراخس الصغيرة، وأغوار الأخشاب الخضراء العميقة، والجوف الذي تدخله الرياح وتخوض في أعماقه المليئة بأزهار الأقحوان، والممرّ المتعرّج تحت أشجار القيقب الصغيرة، والجدول الذي أحاطت بضفافه الأزهار الملوّنة، ومرجٌ مشمسٌ مليءٌ بالفراولة. شعرت دي وكأنّها اكتشفت لتوّها جمال العالم، وكانت مفتونةً به وكادت تتمنّى ألّا تتحدّث جيني كثيرًا. كان لا بأس في أن تتكلّم في المدرسة ولكن في ذلك الموقع الجميل، لم تكن دي متأكّدة من رغبتها في سماع قصّة جيني عندما سمّمت نفسها عن طريق الخطأ من خلال تناول النوع الخاطئ من الأدوية. وصفت جيني آلامها وعذابها بدقّة، لكنّها كانت غامضةً إلى حدٍّ ما فيما يتعلّق بعدم موتها بعد كلّ ما حدث. كانت قد فقدت الوعي حسبما قالت لكنّ الطبيب نجح في إنقاذها في اللحظات الأخيرة.

"على الرغم من أنّني لم أكن كما كنت منذ ذلك الحين. دي بلايث، ما الذي تحدّقين فيه؟ لا أعتقد أنّك كنت تستمعين على الإطلاق."

قالت دي بشعورٍ بالذنب: "آه نعم، لقد كنت أستمع، وأعتقد أنّك عشت أجمل حياةٍ يا جيني. لكن انظري إلى المنظر."

"المنظر؟ ما معنى منظر؟"

"يا إلهي! المنظر هو شيءٌ تنظرين إليه مثل ذلك."

وأشارت حينها بيدها إلى مشهد المروج والغابات والتل الذي تعلوه الغيوم أمامهما، مع منظر البحر الأزرق الذي يظهر من بين التلال.

تنهّدت جيني ثمّ قالت: "لا أرى سوى الكثير من الأشجار القديمة والأبقار، لقد رأيت هذه الأشياء مئة مرّة. أنت فتاةٌ مضحكة يا دي

بلايث بسبب تخيّلاتك وكلامك العجيب. لا أريد أن أجرح مشاعرك، لكن في بعض الأحيان أعتقد حقًّا أنّك تسرحين في عالمٍ آخر، وأعتقد أنّ هذا ليس بإرادتك، فيقولون إنّ والدتك تهذي هكذا دائمًا. حسنًا، هذا هو منزلنا."

حدّقت دي في منزل بيني وشعرت بالصدمة وخيبة الأمل. هل هذا هو "القصر" الذي تحدّثت عنه جيني؟ كان كبيرًا بلا شكّ، وله خمس نوافذ كبيرة، لكنّه كان بأمسّ الحاجة إلى الطلاء وفقد الكثير من "الدانتيل الخشبيّ". كانت الشرفة متدليّة بشكلٍ سيئ وكانت نافذة الباب الأمامي الجميلة مكسورة. كانت الستائر مقعوفة، وكان هناك العديد من الألواح الزجاجيّة ذات الورق البنيّ، ولم يكن في "بستان البتولا الجميل" خلف المنزل سوى عددٍ قليل من الأشجار القديمة النحيلة. وكانت الحظائر مخرّبة، والفناء مليئًا بالآلات الصدئة القديمة والحديقة تبدو كغابةٍ من الأعشاب. لم تر دي مثل هذا المكان في حياتها من قبل، وللمرّة الأولى خطر لها أن تتساءل عمّا إذا كانت جميع حكايات جيني صحيحة. هل يمكن لأيّ فتاةٍ أن تنجو بحياته بهذا القدر وهي في سن التاسعة فقط، كما زعمت؟

لم يكن المنظر داخل المنزل أفضل بكثيرٍ من خارجه. كانت الردهة التي قادتها إليها جيني متعفّنة ومغبّرة. والسقف مليئ بالشقوق وكان لونه باهتًا، لاحظت دي أنّ الموقد الرخامي الشهير كان مطليًّا فقط، وملفوفًا بوشاحٍ يابانيّ بشع مثبّت في مكانه بصفٍّ من الأكواب. كان لون ستائر الدانتيل بشعًا أيضًا والستائر نفسها مليئةً بالثقوب. كانت الستائر الطويلة من ورقٍ أزرق، وممزّقة كثيرًا، وعليها صور ورودٍ كثيرة. أمّا بالنسبة للردهة المليئة بالبوم المحشوّ، فقد كان هناك علبة زجاجية صغيرة في إحدى الزوايا تحتوي على ثلاثة طيورٍ شعثاء،

أحدها بلا عينين. بالنسبة إلى دي التي اعتادت على جمال ومهابة إنجلسايد، بدت الغرفة وكأنّها مشهدٌ من حلمٍ سيء. لكنّ الغريب هو أنّ جيني بدت هادئة غير مدركة لأيّ تناقضٍ بين أوصافها والواقع. تساءلت دي عمّا إذا كانت تحلم أنّ جيني أخبرتها كذا وكذا.

لم يكن الأمر بهذا السوء في الخارج، كان بيت الألعاب الصغير الذي بناه السيد بيني في زاوية شجرة التنوب يبدو وكأنّه منزلٌ حقيقيّ في صورةٍ مصغّرة، وكان مثيرًا للاهتمام للغاية. وكانت الخنازير الصغيرة والمهر الجديد ظريفين. أمّا بالنسبة لمجموعة الجراء الهجينة فقد كانت مرحةً ولديها فرو كثيف، وكان أحدها مميّزًا، بأذنيه الطويلتين البنيّتين والبقعة البيضاء التي على جبينه ولسانه ذي اللون الوردي الفاتح وكفوفه البيضاء. شعرت دي بخيبة أملٍ شديدة عندما علمت أنّ جميع الكلاب ملكٌ لشخصٍ آخر.

قالت جيني: "على الرغم من أنّني لا أعلم ما إن كان بإمكاننا أن نعطيك واحدًا حتى لو لم تكن كذلك، فلقد سمعنا أنّه لا يمكن للكلاب أن تبقى في إنجلسايد على الإطلاق، لا بدّ أنّكم غريبون وغامضون. يقول عمّي إنّ الكلاب تعرف أمورًا لا يعرفها الناس."

صرخت دي: "أنا متأكّدة من أنّهم لا يعرفون أيّ أمرٍ سيئ عنّا!"

"حسنًا، آمل ذلك. هل يعامل والدك أمّك بقسوة؟"

"كلاّ، بالطبع لا يفعل ذلك!"

"حسنًا، سمعت أنّه ضربها حتى صارت تصرخ، لكن بالطبع لم أصدّق ذلك. أليست مروّعةً الأكاذيب التي يقولونها الناس؟ سأدافع عنك دائمًا."

كان على دي أن تكون ممتنّة للغايةً لهذا الكلام، لكنّها بطريقةٍ ما لم تكن كذلك. لقد بدأت تشعر كثيرًا بأنّها ليست في المكان المناسب،

وتلاشى أمام عينيها البريق الذي كانت تراه في جيني فجأةً دون رجعة. لم تشعر بالإثارة القديمة عندما أخبرتها جيني عن الوقت الذي كادت أن تغرق فيه وهي تسقط في طاحونة. لم تصدّق ذلك، لا بدّ من أنّ جيني تخيّلت تلك الأحداث فقط. ومن المحتمل أن تكون قد صنعت من نسج خيالها العم المليونير وخاتم الألماس ذو الألف دولار ومبشرّة الفهود. شعرت دي بأنّها حمقاء وساذجة.

ولكن ما زالت هناك الجدّة، بالتأكيد لم تكن جيني تكذب بشأنها. عندما عادت دي وجيني إلى المنزل، استقبلتهما العمة لينا، وهي سيّدة لها صدرٌ كبير وخدّين حمراوين وترتدي ثوبًا قطنيًّا، وأخبرتهما أنّ الجدّة أرادت رؤية دي.

أوضحت جيني: "تلازم جدّتي الفراش، لا يمكنها المجيء لرؤية الزوار فنأخذهم نحن إليها، وتغضب إذا لم نفعل ذلك."

حذّرت العمّة لينا قائلةً: "لا تنسي أن تسأليها عن آلام ظهرها، إنّها تكره أن ينسى الناس سؤالها عن حال ظهرها."

قالت جيني: "والعمّ جون، لا تنسي أن تسألينها عن حال العمّ جون."

سألت دي: "من هو العمّ جون؟"

أوضحت العمّة لينا: "إنّه أحد أبناءها الذي توفي منذ خمسين عامًا. مرض لسنواتٍ قبل وفاته، واعتادت الجدّة نوعًا ما على سماع الناس يسألونها عنه، وهي تفتقد ذلك الآن."

وقفت دي في الخلف عند باب غرفة الجدّة. وخافت فجأة بشكلٍ لا يصدّق من المرأة العجوز.

سألتها جيني: "ما الخطب؟ لن يؤذيكِ أحد!"

"هل عاشت حقًا قبل الفيضان يا جيني؟"

"بالطبع لا. من قال هذا؟ ستبلغ من العمر مئة عام إذا عاشت حتى عيد ميلادها القادم. تعالي!"

دخلت دي بحذرٍ شديد إلى غرفة نومٍ صغيرةٍ مزدحمة، وكانت الجدّة تستلقي على سريرٍ ضخم. كان وجهها متجعدًا ومنكمشًا بشكلٍ لا يصدّق، بدا كأنّه وجه قردٍ عجوز. حدّقت بدي بعينين حمراوتين غائرتين وقالت بتذمّر: "توقّفي عن التحديق. من أنتِ؟"

قالت جيني بهدوء: "هذه ديانا بلايث يا جدّتي."

"اسمٌ جميل! يقولون أنّ أختك مغرورة."

صرخت دي: "نان ليست مغرورة." هل كانت جيني تتكلّم بالسوء عن نان؟

"أنتِ وقحةٌ قليلًا، ألستِ كذلك؟ لم أترعرع على التحدّث بهذه الطريقة مع من هم أفضل منّي. إنّها مغرورة، فأيّ شخصٍ يمشي رافعًا رأسه، كما أخبرتني جيني الصغيرة، هو شخصٌ مغرور. إنّها واحدةٌ من الناس المتكبّرين! لا تكذّبيني."

بدت الجدّة غاضبةً للغاية لدرجة أنّ دي استفسرت على عجلٍ عن حال ظهرها.

"من قال إنّ ظهري يؤلمني؟ هذه وقاحة! لا شأن لأحدٍ في ظهري. تعالي إلى هنا، اقتربي من سريري!"

تقدّمت دي إليها، متمنيّةً لو لم تكن في هذه الغرفة. ماذا ستفعل بها هذه المرأة العجوز المخيفة؟

تشبّثت الجدّة بحذر بحافّة السرير ووضعت يدًا تشبه المخلب على شعر دي.

"لديكِ شعرٌ أحمرٌ نوعًا ما ولكنّه ناعم. فستانك جميل، ارفعيه وأرني تنورتك الداخليّة."

سمعت دي كلامها، شاكرةً أنّها كانت ترتدي ثوبها الداخلي الأبيض المزركش بالدانتيل الذي حاكته سوزان. ولكن أيّ نوعٍ من الأسرة يطلب من فتاةٍ أن تظهر ثوبها الداخليّ؟

قالت الجدّة: "أحكم دائمًا على الفتاة من خلال تنوراتها الداخليّة، لا بأس بتنورتّك. الآن أرني سروالك التحتيّ."

لم تجرؤ دي على الرفض، فرفعت التنّورة.

"عليه دانتيل أيضًا! يا لكم من مسرفين. ولم تسألي عن جون أبدًا!"

شهقت دي: "كيف حاله؟"

"ما أجرأك! تقولين كيف حاله؟ كلّ ما تعرفينه هو أنّه قد يكون ميّتًا. الآن أخبريني، هل صحيحٌ أنّ أمك تملك كشتبان من الذهب الخالص؟"

"نعم، أهداها إيّاه أبي في عيد ميلادها الأخير."

"حسنًا، لم أصدّق ذلك أبدًا. أخبرتني جيني الصغيرة بالأمر، لكن لا يمكنك أبدًا تصديق أيّ كلمةٍ تقولها جيني. كشتبان من الذهب الخالص! لم أسمع بذلك قط. حسنًا، من الأفضل لك أن تخرجي وتتناولي طعامك. موضة الأكل لا تنتهي. ارفعي بنطالك يا جيني، إنّه يتدلّى أسفل فستانك في إحدى الساقين. دعينا نتحلّى بالآداب على الأقل."

قالت جيني بسخط: "سروالي ليس متدليًّا."

"آل بيني يرتدون البنطال بينما آل بلايث يرتدون السراويل، وهذا هو الفرق بينكما وسيبقى هكذا دائمًا. لا تناقضيني."

اجتمع جميع أفراد عائلة بيني حول طاولة العشاء في المطبخ الكبير. لم تر دي أيًا منهم من قبل باستثناء العمّة لينا، ولكن عندما ألقت نظرة سريعة على المائدة، فهمت سبب عدم رغبة أمّها وسوزان في مجيئها إلى هنا. كان مفرش المائدة ممزقًا ومغطًى ببقع المرق القديمة، ولم

تكن الأطباق متطابقة. أمّا بالنسبة لآل بيني، لم تكن دي قد جلست على مائدةٍ مع مثل هؤلاء الناس من قبل وتمنّت لو كانت بأمانٍ في إنجلسايد، لكن عليها تقبّل ذلك الآن.

جلس العمّ بن، كما تسمّيه جيني، على رأس الطاولة، وكانت لحيته حمراء ورأسه أصلع فيه شعيرات شائبة. كان شقيقه الأعزب باركر نحيلًا وكثيف الشعر، قد جلس في مكانٍ مناسبٍ للبصق في الصندوق الخشبي، وكان يفعل هذا بشكلٍ متكرّر. كان هناك صبيّان، واحدٌ اسمه كيرت يبلغ من العمر اثني عشر عامًا، وجورج أندرو وعمره ثلاثة عشر عامًا، عيونهما زرقاء شاحبة ومريبة وكانا يحدّقان بجرأة، وبشرتهما تظهر من خلال الثقوب في ثيابهما الممزقة. كانت يد كيرت مربوطةً بخرقةٍ ملطّخة بالدماء، بعد أن جرحها بزجاجةٍ مكسورة. كانت أنابيل بيني في الحادية عشر من عمرها، و كانت غيرت في العاشرة. إنّهما فتاتان جميلتان إلى حدٍّ ما بعيونٍ بنيّةٍ مستديرة. أمّا توبي، البالغة من العمر عامين، كان لديها شعرٌ مجعّدٌ رائع ووجنتان ورديّتان. والطفل ذو العينين السوداوين في حضن العمّة لينا، كان سيكون ظريفًا لو كان نظيفًا.

سألت جيني: "كيرت، لماذا لم تنظف أظافرك عندما عرفت أنّ لدينا زوّارًا؟ أنابيل، لا تتحدّثي وفمك ممتلئ."

ثمّ قالت لصديقتها دي: "أنا الوحيدة التي أحاول تعليم هذه العائلة الأخلاق."

قال العمّ بن بصوتٍ مدوٍّ: "اخرسي."

صرخت جيني: "لن أصمت، لا يمكنك أن تجعلني أصمت!"

قالت العمّة لينا بهدوء: "لا تقللي من الاحترام مع عمّك. عليكنّ أن تتصرّفن مثل السيّدات يا فتيات. كيرت، مرّر البطاطا للآنسة بلايث."

ضحك كيرت: "آه، الآنسة بلايث."

على الأقلّ شعرت ديانا بالإثارة، فلأوّل مرةٍ في حياتها يدعوها أحدهم بالآنسة بلايث.

تعجّبت دي من أنّ الطعام كان جيدًا ووفيرًا. كانت الطفلة الجائعة ستستمتع بالوجبة لو كانت متأكّدة فقط من أنّها نظيفة، ولو لم يتشاجر الجميع على المائدة. كانت المعارك الخاصة مستمرّةً طوال الوقت بين جورج أندرو وكيرت، وبين كيرت وأنابيل، وبين جيرت وجين، وحتّى بين العمّ بن والعمّة لينا. لقد خاضوا شجاراتٍ مروّعة وأطلقوا على بعضهم البعض أشدّ الاتّهامات. صارت العمّة لينا تذكر للعمّ بن كلّ الرجال الأنيقين الذين أرادوا الزواج منها، وقال العمّ بن إنّه تمنّى لو تزوّجت أيّ واحد منهم.

صارت دي تفكّر أنّها محظوظةٌ لأنّ والداها لا يتشاجران بهذه الطريقة، وشعرت بالحنين إلى إنجلسايد. ثمّ قالت دون تفكير: "لا تمصّ إبهامك يا توبي." لقد كانوا يطلبون ذلك من ريلا عندما أرادوا منها كسر عادة مصّ إبهامها.

على الفور احمرّ وجه كيرت غضبًا، وصرخ: "اتركيه وشأنه! يمكنه أن يمصّ إبهامه إذا كان يحبّ ذلك! نحن لسنا محكومين حتى الموت مثلكم أنتم يا أطفال إنجلسايد. من تظنّون أنفسكم؟"

قالت العمة لينا: "كيرت، كيرت! ستعتقد الآنسة بلايث أنّك شخصٌ بلا أخلاق."

كانت هادئة تمامًا وتبتسم مرّةً أخرى، وضعت ملعقتين صغيرتين من السكر في شاي العمّ بن وقالت: "لا تهتميّ به يا عزيزتي، تناولي قطعةً أخرى من الفطيرة."

لم ترد دي قطعةً أخرى من الفطيرة، أرادت فقط العودة إلى المنزل،

ولم تعلم كيف ستفعل ذلك.

بينما كان يحتسي آخر رشفة شايٍ له مصدرًا صوتًا مزعجًا، صاح العمّ بن: "حسنًا، لقد طفح الكيل. ما هذه الحياة؟ استيقظ في الصباح، اعمل طوال اليوم، ثمّ تناول ثلاث وجبات واذهب إلى الفراش."

ابتسمت العمّة لينا قائلةً: "يحبّ بن إلقاء النكت."

قال بن: "بالحديث عن النكات، رأيت القس الميثودي في متجر فلاج اليوم. لقد حاول مناقضتي عندما نكرت وجود الله. قلت له: "أنت تتحدّث يوم الأحد. لقد حان دوري الآن، أثبت لي أنّ الله موجود." فقال لي: "أنت من تتحدّث." لقد ضحكوا جميعًا مثل الأطفال الصغار. اعتقدت أنّه كان ذكيًا."

ينكرون وجود الله! شعرت دي أنّ حياتها تتدمرّ، وأرادت أن تبكي.

***

29



كان الوضع أسوأ بعد العشاء. قبل ذلك، كانت هي وجيني بمفردهما على الأقلّ، أمّا الآن أصبح الجميع معهما وازدحمت الغرفة. أمسك جورج أندرو بيدها و ركض بها عبر بركةٍ من الوحل قبل أن تتمكّن من الهروب منه. لم يعامل أحدٌ دي بهذه الطريقة في حياتها. قام جيم ووالتر بمضايقتها، وكذلك فعل كين فورد لكنّها لم ترَ في حياتها صبيانًا كهؤلاء.

قدّم لها كيرت علكةً كان يمضغها وغضب عندما رفضتها.

صرخ: "سأضع فأرًا حيًّا عليك! بلهاء وحمقاء ولديك أخٌ مخنث!"

على الرغم من خوفها الشديد إلّا أنّها لم تكن لتسمح لأحدٍ بأن يتكلّم عن والتر بالسوء فقالت دي: "والتر ليس مخنثًا!"

"إنّه يكتب الشعر. هل تعرفين ما الذي كنت سأفعله لو كان أخي يكتب الشعر؟ كنت أغرقته كما يغرقون القطط الصغيرة."

قالت جين: "بالحديث عن القطط، هناك الكثير من القطط البرية في الحظيرة، دعونا نذهب ونطاردهم."

أخبرتهم دي أنّها ببساطةٍ لن تذهب لصيد القطط معهم.

قالت بفخر: "لدينا الكثير من القطط الصغيرة في المنزل، نملك إحدى عشرة واحدة."

صرخت جين: "أنا لا أصدّق ذلك! ليس لديكم الكثير منها! لم يكن لدى أحدٍ من قبل إحدى عشرة قطّةً صغيرة. ليس من الصواب أن يكون لديكم هذا العدد."

"قطّةٌ أنجبت خمسة والقطّة الأخرى أنجبت ستّة. ولن أذهب إلى الحظيرة بأيّ حال. لقد سقطت من الدور العلويّ في حظيرة آيمي تايلور الشتاء الماضي، كنت سأُقتل لولا كومة من القش."

قالت جين بوجهٍ عابس: "حسنًا، كنت قد وقعت من الشقة ذات مرّةٍ لو لم يمسك بي كيرت."

لا يحقّ لأحدٍ أن يسقط من الدور العلويّة إلّا هي. دي بلايث تخوض المغامرات! ما أوقحها!

قالت دي: "عليكِ أن تقولي "كنت سأقع." ومنذ تلك اللحظة انتهى كلّ ما كان بينها وبين جيني.

ولكن كان لا بدّ أن يمضي الليل بطريقةٍ ما. لم يذهبوا إلى الفراش حتى وقتٍ متأخر لأنه لم يذهب أيٌّ من آل بيني إلى الفراش مبكرًا. دخلت جيني في العاشرة والنصف غرفة النوم الكبيرة التي فيها سريرين. وكانت أنابيل وغيرت تستعدّان لسريريهما. نظرت دي إلى الأسرّة الأخرى، ورأت وسائد غير مرتّبة على الإطلاق، وكان اللحاف بحاجةٍ إلى الغسيل. وكانت ورقة "الببغاء" الشهيرة مخرّبة وحتى الببغاوات لم تكن تشبه الببغاوات. ورأت جرةً من الجرانيت على الرف بجوار السرير وحوض غسيلٍ من الصفيح مملوءٌ نصفه بالمياه القذرة. لا تستطيع أن تغسل وجهها في ذلك، فكانت للمرّة الأولى مضطرّةً إلى الذهاب إلى الفراش دون أن تغسل وجهها. كان على الأقلّ ثوب النوم

الذي تركته لها العمّة لينا نظيفًا.

عندما نهضت دي من أداء صلاتها ضحكت جيني وقالت: "أيّتها المسكينة، إنّك من الطراز القديم. لقد بدوت مضحكةً ومتديّنةً جدًا وأنت تتلين صلواتك. لم أكن أعرف أنّ ما زال هناك أناسٌ يتلون الصلاة في أيامنا هذه، إنّها ليست جيّدة. لماذا تقولينها؟" قالت دي نقلًا عن سوزان: "عليّ أن أنقذ روحي."

سخرت جيني: "ليست لديّ روح."

قالت دي بتباهٍ: "ربّما ليست لديك، لكنني لست مثلك."

نظرت جيني إليها، لكنّ تعويذة عيونها لم تعد فعّالة، ولن تستسلم دي لسحرها أبدًا مرّةً أخرى.

قالت جيني بحزن: "لستِ كما اعتقدتك يا ديانا بلايث."

قبل أن تتمكّن دي من الرد، اندفع جورج أندرو وكيرت إلى الغرفة.

ارتدى جورج أندرو قناعًا شنيعًا بأنفٍ ضخم، فصرخت دي.

أمرها جورج أندرو قائلًا: "توقّفي عن الصرير مثل خنزيرٍ تحت البوّابة! عليكِ أن تقبّلينا وتتمنّين لنا ليلةً سعيدة."

قال كيرت: "إذا لم تفعلي ذلك، سوف نحبسك في تلك الخزانة المليئة بالفئران."

تقدّم جورج أندرو نحو دي التي صرخت مرّةً أخرى وتراجعت أمامه. أصابها القناع بشلل من الرعب، على الرغم من أنّها كانت تعلم جيّدًا أنّ خلف القناع جورج أندرو ولم تكن خائفةً منه، لكنّها شعرت أنّها ستموت إن اقترب منها هذا القناع الرهيب. في اللحظة التي بدا فيها أنّ الأنف الرهيب يلامس وجهها، تعثرت على كرسيٍّ وسقطت إلى الوراء على الأرض، وأثناء سقوطها ضربت رأسها على الحافة الحادّة لسرير أنابيل. أصيبت بالدوار للحظة، وبعدها

استلقت بعينين مغمضتين.

صرخت غيرت: "لقد ماتت، لقد ماتت!" وبدأت في البكاء.

قالت أنابيل: "آه، ستعاقَب حتمًا يا جورج أندرو إن كنت قد قتلتها!"

قالت كيرت: "ربّما تتظاهر فقط، ضعي دودةً عليها. لديّ بعض الديدان في هذه العلبة، إذا كانت مجرد خدعة فستكشفها الدودة."

سمعت دي ذلك لكنّها كانت خائفة جدًا من فتح عينيها. ربما يذهبون بعيدًا ويتركونها وشأنها إذا اعتقدوا أنها ماتت. لكنّ الأمر سيختلف إذا وضعوا عليها دودة.

قال كيرت: "خزيها بدبّوس، إذا نزفت فهذا يعني أنّها على قيد الحياة."

فكّرت دي في أنّ بإمكانها تحمّل دبوس ولكن ليس دودة.

همست جيني: "إنّها ليست ميّتة، لا يمكن أن تكون ميتة، لكنّها خافت بشدّة فأغمي عليها. ولكن إذا استيقظت فسوف تصرخ في كلّ مكان وسيأتي العمّ بن ويوبّخنا بقسوة. أتمنّى لو لم أطلب منها المجيء إلى هنا أبدًا، تلك الجبانة!"

اقترح جورج أندرو: "ما رأيكم أن نحملها إلى المنزل قبل أن تستعيد وعيها؟"

تمنّت دي لو يفعلون ذلك.

قالت جيني: "لا يمكننا، فمنزلها بعيدٌ للغاية."

"يبعد ربع ميلٍ فقط. سيأخذ كلٌّ منّا ذراعًا أو ساقًا، أنتِ وكيرت وأنا وأنابيل."

لا أحد سوى آل بينيس كان بإمكانه تخيّل مثل هذه الفكرة أو تنفيذها إذا كان عليهم ذلك. لكنّهم اعتادوا فعل أيّ شيءٍ يخطر على بالهم وكان عليهم دائمًا تجنّب التوبيخ من ربّ البيت إن كان ذلك ممكنًا. لم

يكن أباهم يتعب نفسه بتوبيخهم ولكن ضمن الحدود، فإن تخطّوها تكون ليلتهم سوداء.

قال جورج أندرو: "إذا استيقظت ونحن نحملها، فسنفلتها ونهرب."

لم يكن هناك أدنى خطر من استيقاظ دي التي كانت ترتعش شاكرة عندما شعرت بأنها مرفوعة بين الأربعة منهم. تسلّلوا إلى الطابق السفلي وخرجوا من المنزل، عبر الفناء وعن طريق حقل البرسيم الطويل، مرورًا بالغابة إلى أسفل التل. اضطروا إلى وضعها مرّتين أثناء استراحتهم. لقد كانوا متأكّدين تمامًا الآن من أنّها ماتت وكلّ ما أرادوه هو نقلها إلى منزلها دون أن يراهم أحد. إذا لم تكن جيني بيني قد صلّت في حياتها، فهي تصلي الآن ألّا يكون أحدٌ في القرية مستيقظًا. إذا تمكّنوا من إيصال دي بلايث إلى المنزل، فسيقسمون جميعًا أنّها كانت تشعر بالحنين إلى بيتها في وقت النوم لدرجة أنّها أصرّت على العودة إلى المنزل.

ما حدث بعد ذلك لن يكون من شأنهم.

خاطرت دي بفتح عينيها بمجرّد أن خطّطوا لذلك، وبدا لها العالم النائم غريبًا جدًا. كانت أشجار التنوب مظلمةً وغريبة، وشعرت وكأنّ النجوم تضحك عليها. صارت دي تفكّر بأنها لا تحبّ هذه السماء الكبيرة، ولكن إذا كان بإمكانها الانتظار لفترةٍ أطول قليلًا، فستعود إلى المنزل. إذا اكتشفوا أنّها ليست ميتة، فسوف يتركونها هنا ولن تستطيع الوصول إلى المنزل وحدها في الظلام.

عندما أسقط آل بينيس دي على شرفة إنجلسايد، ركضوا بجنون. لم تجرؤ دي على العودة إلى الحياة مبكرًا، لكنّها في النهاية تجرّأت على فتح عينيها. نعم، كانت أخيرًا في المنزل، وبدا الأمر جيّدًا جدًّا لدرجةٍ يصعب تصديقها. لقد كانت فتاةً شقيّةً للغاية لكنّها كانت متأكّدة تمامًا

من أنّها لن تكون كذلك مجدّدًا. جلست وصعد شرمب الدرج خلسةً وصار يدور حولها وهو يخرخر، فحضنته. كم كان لطيفًا ودافئًا وودودًا! لم تكن تعتقد أنّها ستتمكّن من الدخول، كانت تعلم أنّ سوزان ستغلق جميع الأبواب عندما يكون الوالد بعيدًا ولم تجرؤ على إيقاظ سوزان في هذه الساعة، لكنّها لم تمانع، فلقد كانت ليلة حزيران باردةً بشكلٍ كافٍ، لكنّها استلقت في الأرجوحة الشبكية واحتضنت شرمب، وهي تعلم أنّ سوزان والصبيان ونان هم بالقرب منها خلف الأبواب المقفلة.

كم كان العالم غريبًا بعد الظلام! هل كان الجميع فيه نائمين إلّا هي؟ بدت الورود البيضاء الكبيرة على الشجيرة عند الدرجات كأنها وجوهٌ بشريّةٌ صغيرة في الليل. كانت رائحة النعناع جميلة، وكان هناك بريقٌ قادمٌ من اليراعات في البستان. بعد كلّ ما حدث، ستكون دي قادرةً على التباهي بأنّها نامت الليل خارج المنزل.

ولكن لم يحدث ذلك، فقد جاء شخصان عبر البوابة وصعدا الممر. استدار جيلبرت بالطريق الخلفي لفتح نافذة المطبخ بالقوّة، لكنّ آن صعدت السلّم ووقفت مذهولةً أمام الطفلة المسكينة التي كانت هناك حاضنةً القط.

"أمّي، آه يا أمّي!" كانت دي عندئذٍ في أمانٍ بين ذراعي أمّها.

"دي، حبيبتي! ماذا حدث؟"

"آه يا أمي، كنت فتاةً سيّئة، لكنّني آسفةٌ جدًا، وكنتِ على حقّ، وكانت الجدّة مروّعةً للغاية، لكنّني اعتقدت أنّك لن تعودي حتى الغد."

"تلقّى والدك اتّصالًا من لوبريدج، سيجرون عمليّةً للسيّدة باركر غدًا وأراده الطبيب باركر أن يكون هناك، لذلك ركبنا القطار المسائي ومشينا من المحطّة. أخبريني الآن بما حدث."

حكت لها دي القصة بأكملها بحلول الوقت الذي دخل فيه جيلبرت وفتح الباب الأماميّ. كان يعتقد أنّه دخل بصمتٍ وهدوء، لكن كان لسوزان أذنين تسمعان صرير الخفاش عندما كان الأمر يتعلّق بسلامة إنجلسايد، ونزلت وهي تعرج واضعةً غطاءً فوق ثوب النوم.

كان الموقف بحاجةٍ إلى الكثير من الشرح والأسئلة، لكن قامت آن باختصار كلّ شيء.

"لا أحد يلومك يا عزيزتي سوزان. كانت دي شقيّةً للغاية لكنّها تعرف ذلك، وأعتقد أنّها قد نالت عقابها. أنا آسفة لأنّنا أزعجناكِ، ينبغي أن تعودي إلى الفراش مباشرةً وسيقوم الطبيب بفحص كاحلك."

"لم أكن نائمةً يا زوجة الطبيب العزيزة. هل تعتقدين أنّ بإمكاني النوم، وأنا أعلم أين كانت تلك الطفلة المباركة؟ وسأحضر لكما كوبًا من الشاي بغضّ النظر عن حالة كاحلي."

قالت دي من على وسادتها البيضاء: "هل عاملكِ أبي بقسوةٍ في يومٍ من الأيّام يا أمّي؟"

"عاملني بقسوة؟ لماذا يا دي؟"

"قال آل بيني إنّه كان يضربك."

"عزيزتي، بتِ تعرفين كيف هي تلك العائلة الآن، لذا ليس عليكِ أن تقلقي بشأن أيٍّ من كلامهم. دائمًا ما نجد القليل من الثرثرة الخبيثة تنتشر في أيّ مكان، أُناسٌ مثل هؤلاء هم من اخترعوها. يجب ألّا تهتمّي بهذا أبدًا."

"هل ستوبّخينني في الصباح يا أمّي؟"

"كلّا، أعتقد أنّك تعلمت الدرس. الآن اذهبي إلى النوم يا عزيزتي."

آخر ما فكّرت فيه دي قبل نومها هو أنّ لدى أمّها تفكيرٌ منطقيّ، لكن بينما كانت سوزان تتمدد بهدوءٍ في السرير بكاحلها الذي ضمّده

الطبيب باحترافيّة، كانت تقول لنفسها: "يجب أن ألتقط المشط ذو الأسنان الدقيقة في الصباح، وعندما أرى الآنسة الجميلة جيني بيني سألقنّها درسًا لن تنساه."

لم تحصل جيني بيني على الدرس الموعود أبدًا، لأنّها لم تأتِ بعد ذلك إلى مدرسة جلين. بدلًا من ذلك، ذهبت مع إخوانها إلى مدرسة موبراي ناروز، حيث انتشرت شائعاتٌ كثيرة، من بينها كيف أنّ دي بلايث، التي كانت تعيش في "المنزل الكبير" في جلين سانت ماري، كانت دائمًا تبيت عند جيني لكن أغميَ عليها ذات ليلةٍ وتمّ نقلها إلى المنزل في منتصف الليل، من قبل جيني بيني، وحدها ودون مساعدة أحد.

كما وزعمت جيني أنّ شعب إنجلسايد قد ركعوا وقبّلوا يديها بدافع الامتنان، وقد أخرج الطبيب بنفسه، عربته ذات السقف المهدّب وأطرافها الرمادية المرقطة الشهيرة وقادها إلى منزلها. تعهّد الطبيب: "وإذا كان هناك أيّ شيءٍ يمكنني القيام به من أجلك يا آنسة بيني، من أجل لطفك مع طفلتي الحبيبة، فما عليكِ إلّا أن تسمّيه. لن تكون دماء قلبي كافيةً لردّ الجميل، وأنا مستعدٌّ للذهاب إلى أفريقيا الاستوائيّة لمكافأتك على ما فعلتِه."

***

30



وهي

تتأرجح ذهابًا وإيابًا على حافّة رصيف الميناء غنّت دوفي جونسون: "أنا أعرف شيئًا لا تعرفه... شيئًا لا تعرفه... شيئًا لا تعرفه..."

كان الضوء سيسلّط الآن على نان، التي حان دورها لإضافة حكايةٍ إلى ذكريات إنجلسايد، على الرغم من أنّها ستحمرّ خجلًا إن ذكّرها أحدٌ بها، لقد كانت سخيفةً جدًّا. على الرغم من أنّ منظر دوفي وهي تتأرجح كان ساحرًا، إلّا أنّ نان كانت ترتجف عند رؤيتها تفعل ذلك. كانت متأكّدةً من أنّ دوفي سوف تسقط في وقتٍ ما. وما الذي سيحدث بعد ذلك إن سقطت؟ لكنّ دوفي كانت محظوظة ولم تسقط قط.

كانت نان مفتونةً بكلّ ما فعلته دوفي، أو قالت أنّها فعلته لأنّهما ربّما أمرين مختلفين، و كانت نان بريئةً وساذجةً لدرجة أنّها لا تعرف ذلك، لأنّها نشأت في إنجلسايد حيث لم يقل أحدٌ سوى الحقيقة حتى على سبيل المزاح. دوفي التي كانت في الحادية عشرة من عمرها وعاشت في شارلوت تاون طوال حياتها، تعرف أكثر بكثيرٍ من نان، التي كانت في الثامنة من عمرها فقط. قالت دوفي إنّ شارلوت تاون هي المكان الوحيد الذي يعرف فيه الناس كلّ شيء. ما الذي يمكن أن تعرفه وأنت

محبوسٌ في بلدةٍ صغيرةٍ بإمكانيّاتٍ محدودة مثل جلين سانت ماري؟

كانت دوفي تقضي جزءًا من إجازتها مع خالتها إيلا في جلين وقد نشأت بينها وبين نان صداقة حميمة للغاية على الرغم من الاختلاف في أعمارهما. ربّما لأنّ نان نظرت إلى دوفي التي بدت لها كأنّها شخصٌ ناضج، بنظرةٍ من الحبّ الذي يجب أن نعطيه عندما نراه من الطرف الآخر، أو نعتقد أنّنا نراه. كانت دوفي تحب صديقتها المتواضعة والمحبوبة.

قالت للعمّة إيلا: "نان بلايث ليست سيّئة، إنّها حسّاسةٌ قليلًا."

لم يتمكّن المنتقدون في إنجلسايد من رؤية أيّ عيبٍ في دوفي، حتى لو كانت والدتها ابنة عمّ آل باي من آفونلي كما أوضحت آن. ولم تقدّم أيّ اعتراضٍ على صداقتها مع نان، على الرغم من أنّ سوزان منذ البداية لم تثق بتلك العينين الخضراوين والرموش الشقراء. لكنّ دوفي كانت مهذبّةً، وأنيقة، وتتصرّف كسيّدة، ولم تتحدّث كثيرًا. لم تستطع سوزان إبداء أيّ سببٍ لعدم ثقتها بها فظلّت صامتة كيلا تسبّب أيّة مشاكل. ستعود دوفي إلى المنزل عند افتتاح المدرسة وفي هذه الأثناء لم تكن هناك بالتأكيد حاجةٌ للتدقيق بشخصيّتها.

لذلك أمضت نان ودوفي معظم أوقات فراغهما معًا في رصيف الميناء، حيث كانت هناك عمومًا سفينةٌ أو اثنتان، وبالكاد زارت نان وادي قوس المطر في أيلول. لم يهتمّ أطفال إنجلسايد الآخرين كثيرًا بدوفي ولم يحبّوها. فقد خدعت والتر وأحرجته ما أثار غضب دي التي أساءت إلى دوفي بعد ما حدث. يبدو أنّ دوفي كانت تحبّ المقالب كثيرًا، وربّما كان هذا هو السبب في عدم محاولة أيٍّ من فتيات جلين سرقتها من نان.

توسّلت نان: "آه، من فضلك أخبريني."

لكنّ دوفي غمزت فقط بعينها الماكرة وقالت إنّ نان كانت أصغر من أن يقال له مثل هذه الأمور، كان ذلك جنونيًّا.

"من فضلكِ أخبريني يا دوفي."

"لا أستطيع. لقد أخبرتني العمّة كيت بأنّه سرّ ولقد توفيّت. أنا الشخص الوحيد في العالم الذي يعرف ذلك الآن. لقد وعدتها عندما أخبرتني أنّني لن أخبر أحدًا أبدًا. لن تستطيعي كتمان السر، ستبوحين به لأحدهم."

صرخت نان: "لن أخبر أحدًا، أستطيع أن أكتمه!"

"يقول الناس إنّكم في إنجلسايد تخبرون بعضكم البعض بكلّ شيء. سوف تبوحين به لسوزان في لمح البصر."

"أنتِ مخطئة، أعرف الكثير من الأمور التي لم أخبر سوزان بها من قبل، إنّها أسرار. سأقولها لك إذا كنت ستخبرينني بأسرارك."

قالت دوفي: "آه، أنا لست مهتمّةً بأسرار فتاةٍ صغيرةٍ مثلك."

يا لها من إهانة! اعتقدت نان أنّ أسرارها الصغيرة كانت جميلة، شجرة الكرز البرية التي وجدتها تتفتح في خشب التنوب بعيدًا خلف حظيرة السيد تايلور، وحلمها بجنيّةٍ بيضاء صغيرة مستلقيةً على أزهار الزنبق في المستنقع، وتخيلها لقاربٍ يقترب من المرفأ تجرّه بجعاتٌ مربوطةٌ بسلاسل فضيّة، والحبّ الذي بدأت تنسجه حول السيدة الجميلة في منزل ماكاليستر القديم. لقد كانت جميعها رائعة وساحرة بالنسبة لنان وشعرت بالسعادة عندما فكّرت بأنّها لم تخبر دوفي عنها.

لكن ما الذي عرفته دوفي عنها وهي لم تكن تعرفه؟ ظلّت الأسئلة تطارد نان.

في اليوم التالي، تحدّثت دوفي مجدّدًا عن ذلك السرّ.

"لقد كنت أفكر في الأمر يا نان، ربّما يجب أن تعرفيه لأنه يتعلّق

بك. بالطبع ما قصدته العمة كيت هو أنّه لا يجب أن أخبر أيّ شخصٍ سوى الشخص المعنيّ. حسنًا اسمعي، إذا أعطيتني هذا الظبي الصينيّ الخاص بك، سأخبرك بما أعرفه عنك."

"لا يمكنني إعطائك إيّاه يا دوفي. إنّه هديّةٌ من سوزان في عيد ميلادي الأخير، ستحزن كثيرًا إن أعطيتك إيّاه."

"حسنًا إذًا، إن كنت تفضّلين أن يكون لديك ظبيٌ صينيٌّ قديم بدلًا من معرفة أمرٍ مهمٍّ عن نفسك، فيمكنك الاحتفاظ به. لا أكترث، فأنا أفضّل الاحتفاظ بالسر لأنّني أحبّ دائمًا معرفة الأمور التي لا تعرفها الفتيات الأخريات، فهذا يجعلني فتاة مهمّة. سأنظر إليكِ الأحد القادم في الكنيسة وسأفكّر في نفسي "لو فقط تعلمين ما أعرفه عنكِ يا نان بلايث" وسيكون ذلك ممتعًا."

سألتها نان: "هل ما تعرفينه عنّي أمرٌ حسن؟"

"آه، إنّه أمرٌ مذهلٌ وساحر، مثل شيءٍ تقرأينه في القصص. لكن لا عليكِ، أنتِ لستِ مهتمّة وسأبقى الفتاة الوحيدة التي تعرف بالأمر."

عندئذٍ سيطر الفضول على نان، وفكّرت بأنّه لا معنى لحياتها إذا لم تستطع معرفة سرّ دوفي الغامض. فجأةً، شعرت بالإلهام وخطرت في بالها فكرة.

قالت: "دوفي، لا أستطيع أن أعطيكِ الظبي، لكن إذا أخبرتني بما تعرفينه عنّي فسأعطيكِ مظلّتي الحمراء."

لمعت عينا دوفي الباهتتين، لطالما حسدتها على تلك المظلة.

سألتها: "المظلة الحمراء الجديدة التي أحضرتها والدتك من المدينة الأسبوع الماضي؟"

أومأت نان برأسها، وصارت تتنفس بسرعة. هل كان من الممكن أن تخبرها دوفي حقًا؟"

سألتها دوفي: "هل تسمح لكِ والدتك؟"

أومأت نان برأسها ثانيةً متردّدةً قليلًا، فلم تكن متأكّدةً جدًّا من جوابها ولاحظت دوفي ذلك.

قالت بحزم: "يجب أن تكون المظلة معكِ هنا، قبل أن أخبرك. لا مظلّة، لا سرّ."

وعدتها نان على عجل: "سأحضرها غدًا." كلّ ما أرادته هو أن تعرف ما تعرفه دوفي عنها.

قالت دوفي بتردّد: "حسنًا، سأفكّر في الأمر أكثر. لا تتأمّلي كثيرًا، ففي النهاية، أنا لا أتوقّع أن أبوح لكِ بالسرّ. أنتِ صغيرةٌ للغاية، ولقد أخبرتكِ في كثيرٍ من الأحيان بما فيه الكفاية."

توسّلت نان إليها: "أنا أكبر ممّا كنت عليه بالأمس، هيّا يا دوفي، لا تكوني لئيمة."

قالت دوفي بإصرار: "أعتقد أنّ لديّ الحق في الاحتفاظ بسرّي، وأظنّ أنّكِ ستخبرين آن، إنّها والدتك."

أسرارٌ أو غيرها، كانت هناك حدود، فقالت نان بكرامة: "أعرف اسم والدتي. لقد أخبرتكِ أنّني لن أخبر أيّ شخصٍ في إنجلسايد."

"هل تقسمين؟"

"أقسم على ذلك؟"

"لا تكوني غبيّة، بالطبع أعني وعدًا صادقًا."

"أعدك بصدق."

"أصدق من ذلك."

لم تر نان كيف يمكن أن تكون صادقةً أكثر من ذلك، كانت لترفض لو لم ترد ذلك.

قالت دوفي:

"اشبكي يديكِ، وانظري إلى السماء،
أقسمي وتمنّي الموت."
شاركت نان في الطقوس.

قالت دوفي: "ستحضرين المظلة غدًا وسنرى. ماذا فعلت والدتك قبل أن تتزوّج يا نان؟"

قالت نان: "كانت تعلّم في المدرسة، وعلّمت جيّدًا."

"حسنًا ، كنت أتساءل فقط. تعتقد أمّي أنّ والدك أخطأ بالزواج من والدتك. لا أحد يعرف أيّ شيءٍ عن عائلتها. وتقول أمّي أنّه كان يستطيع أن يحظى بكثيرٍ من الفتيات الجميلات. عليّ الذهاب الآن، أوريفوار."

عرفت نان أنّ آخر كلمة تعني أراكِ غدًا. كانت فخورةً جدًا بأنّها تملك صديقةً يمكنها التحدث بالفرنسية. استمرّت في الجلوسِ على الرصيف بعد فترةٍ طويلةٍ من عودة دوفي إلى المنزل. كانت تحبّ الجلوس على رصيف الميناء ومشاهدة قوارب الصيد وهي تخرج وتدخل، وأحيانًا سفينةً تنجرف إلى أسفل المرفأ، متجّهةً إلى أراضٍ بعيدة. كانت مثل جيم، تتمنّى غالبًا أن تبحر بعيدًا في سفينةٍ أسفل المرفأ الأزرق، مرورًا بالكثبان الرمليّة، وبالمنارة حيث أصبح ضوء فوروينذز الدوّار في الليل نقطةً غامضة، وإلى الخارج، إلى الضباب الأزرق الذي كان عند خليج الصيف، وإلى الجزر المسحورة في بحار الصباح الذهبية. طارت نان بأجنحة خيالها في جميع أنحاء العالم وهي جالسةٌ على الرصيف القديم المتدلّي.

لكن بعد ظهر هذا اليوم، لم يشغل عقلها سوى سرّ دوفي. هل ستخبرها دوفي حقًا؟ ماذا سيكون السر؟ ماذا يمكن أن يكون؟ وماذا عن أولئك الفتيات اللواتي كان بإمكان والدها أن يتزوّجهنّ؟ أحبّت

ناني التفكير فيهنّ.

ربّما كانت والدة دوفي واحدةً منهنّ. لكنّ ذلك سيكون مروّعًا، فلا واحدة يمكن أن تكون والدتها باستثناء آن، لم تستطع تصوّر ذلك.

كشفت نان لأمّها في تلك الليلة عندما كانت تقبلّها قبلة الوداع قائلةً: "أعتقد أنّ دوفي جونسون ستخبرني سرًا. بالطبع لن أتمكّن من إخبارك يا أمّي، لأنّني وعدتُها بأنّني لن أفعل ذلك. هل تمانعين يا أمي؟"

قالت نان: "لا أمانع على الإطلاق."

عندما نزلت نان إلى رصيف الميناء في اليوم التالي أخذت معها المظلّة. قالت لنفسها إنّها كانت مظلّتها. لقد أُعطيت لها، لذلك كان لها الحقّ الكامل في أن تفعل ما تحبّ فيها. بعد أن هدّأت ضميرها بهذه الفكرة، ذهبت بصمت دون أن يتمكّن أحدٌ من رؤيتها. التفكير في التخلي عن مظلتها الصغيرة الغالية جعلها تشعر بالحزن، ولكن بحلول هذا الوقت كان هوس نان بمعرفة ما تعرفه دوفي لا يُقاوم.

قالت بلهفة: "ها هي المظلّة يا دوفي، والآن أخبريني بالسرّ."

لقد فوجئت دوفي حقًا، فلم تكن تقصد أبدًا أن تصل الأمور إلى هذا الحد، لم تصدّق أبدًا أنّ والدة نان بلايث سمحت لها بالتخلّي عن المظلّة الحمراء. زمّت شفتيها.

"لا أعرف ما إذا كانت هذه الدرجة من اللون الأحمر تناسب بشرتي، إنّها صارخة نوعًا ما. أظنّ أنني لن أبوح بالسرّ." كانت نفس نان عزيزةً عليها ولم تكن دوفي قد سحرتها بعد، لتجعلها تستسلم بسرعة. لا شيء كان يثير غضبها بسرعةٍ أكثر من الظلم.

"الصفقة تبقى صفقة يا دوفي جونسون! لقد قلتِ المظلة بالسر. ها هي المظلة وعليك أن تفي بوعدك."

قالت دوفي بتذمّر: "آه حسنًا."

شعرت نان بأنّ العالم كلّه توقّف، بأنّ الرياح توقّفت عن العصف وبأنّ الماء توقّف عن السيلان على الأرصفة. اقشعرّت بابتهاجٍ وحماس، فقد كانت ستكتشف أخيرًا ما تعرفه دوفي.

قالت دوفي: "هل تعرفين جيمي توماس في هاربور ماوث؟ جيمي توماس الذي لديه ستُّ أصابع؟"

أومأت نان برأسها. بالطبع كانت تعرف آل توماس، على الأقلّ كانت تعرف البعض منهم. كان يأتي جيمي ذو الستّ أصابع أحيانًا إلى إنجلسايد لبيع الأسماك. قالت سوزان إنّه لا يمكنك أبدًا التأكد من الحصول على أسماكٍ جيّدة منه. لم تعجب نان بمظهره. كان أصلع الرأس، مع زغبٍ من الشعر الأبيض المجعّد على كلا الجانبين، وأنفٍ أحمر معقوف. ولكن ما علاقة آل توماس بالسرّ؟

أكملت دوفي: "وهل تعرفين كاسي توماس؟"

رأت نان كاسي توماس ذات مرّة عندما أحضرها جيمي معه في عربة صيده. كانت كاسي في سنّها تقريبًا، بشعرٍ أحمر مجعّد وعينين جريئتين رماديّتين تميلان إلى الخضرة. كانت قد مدّت لسانها في وجه نان.

أخذت نفسًا طويلًا وقالت: "حسنا هذه هي الحقيقة. أنتِ كاسي توماس وهي نان بلايث."

حدّقت نان في دوفي، ولم يكن لديها أدنى فكرة عمّا قصدته في كلامها. لم يكن لحديثها أيّ معنى.

"أنا ... أنا... ماذا تقصدين؟"

قالت دوفي شافقةً عليها: "أعتقد أنّ كلامي واضحٌ بما فيه الكفاية." بما أنّها أُجبرت على قول ذلك، كانت ستجعله يستحقّ القول، وأكملت: "ولدتِ أنتِ وكاسي في الليلة ذاتها. حدث ذلك عندما كانت عائلة

توماس تعيش في جلين. أخذت الممرضة توأم دي إلى منزلِ توماس ووضعتها في المهد وأخذتكِ إلى والدة دي. كانت ستأخذ دي أيضًا لكنّها لم تجرؤ على فعل ذلك. لقد كرهت والدتك وانتقمت منها بطريقتها الخاصة. ولهذا السبب أنتِ حقًا كاسي توماس ويجب أن تعيشي هناك في هاربور ماوث ويجب أن تستيقظ كاسي المسكينة في إنجلسايد بدلًا من أن تتعرّض للضرب من قبل زوجة أبيها العجوز. دائمًا ما أشعر بالأسف الشديد عليها."

صدّقت نان كلّ كلمةٍ من هذه الحكاية غير المعقولة. لم يكذب عليها أحدٌ في حياتها ولم تشكّ في حقيقة قصّة دوفي أبدًا. لم يخطر ببالها أبدًا أنّ أيّ شخصٍ سيختلق مثل هذه القصة أو يمكنه ذلك، وبالأخصّ صديقتها العزيزة دوفي. حدّقت في دوفي بعينينِ حزينتينِ وبخيبة أملٍ كبيرة.

لهّثت نان: "كيف... كيف اكتشفت عمتك كايت ذلك؟"

قالت دوفي بجديّة: "أخبرتها الممرضة وهي على فراش الموت، أفترض أنّها شعرت بتأنيب الضمير. لم تخبر العمّة كايت أحدًا سواي. عندما أتيتُ إلى جلين ورأيت كاسي توماس، أعني نان بلايث، نظرتُ إليها بتمعّن. شعرها أحمر ولون عينيها مثل لون عينيّ أمّك.

لديكِ عينين بنيّتين وشعرٌ بنيّ، لهذا السبب لا تشبهين دي، يبدو التوائم متشابهين تمامًا دائمًا. ولدى كاسي أذنينِ مسطّحتين مثل أذنيّ والدك. أظنّ أنّه لا يمكنك فعل أيّ شيء حيال ذلك الآن. لكنّني اعتقدت في كثيرٍ من الأحيان أنّه ليس عدلًا، فأنتِ تقضين وقتًا جميلًا ويهتّم والديك بكِ والمسكينة كاسي، أقصد نان، تعيش في فوضى، وفي كثيرٍ من الأحيان لا تحصل حتى على ما يكفي من الطعام. ويضربها العجوز جيمي ذو الستّ أصابع عندما يعود إلى المنزل وهو سكران!

لماذا تنظرين إلّي هكذا؟"

كان ألم نان أكبر ممّا تستطيع تحمّله. كان كلّ شيءٍ واضحًا لها بشكلٍ مروّعٍ الآن. لطالما اعتقد الناس أنّه من المضحك أنها ودي لا تتشابهان مطلقًا. كان هذا السبب إذًا.

"أنا أكرهك لأنّكِ أخبرتني بهذا يا دوفي جونسون!"

هزّت دوفي كتفيها السمينين.

"لم أقل أنّكِ ستحبّين السرّ، لقد طلبتِ منّي أن أخبرك به. إلى أين أنتِ ذاهبة؟"

نهضت نان وكانت شاحبة وتشعر بالدوار.

قالت بائسة: "إلى المنزل لأخبر أمّي."

صرخت دوفي: "يجب ألّا تفعلي ذلك، لا تجرؤي! تذكّري أنّك أقسمتِ أنّك لن تخبري أحدًا!"

حدّقت نان بها. كان صحيحًا أنّها وعدت بألّا تخبر أحدًا. وكانت والدتها تقول لها دائمًا أنّه يجب عليها أن لا تخلف الوعد.

ولم يعجب دوفي مظهر نان وقالت: "أعتقد أنّني سأعود إلى المنزل بمفردي."

انتزعت المظلة منها وركضت بسرعةٍ بساقيها الممتلئتين العاريتين على طول رصيف الميناء القديم. تركت خلفها طفلةً مكسورة القلب، جالسةً وسط أنقاض عالمها الصغير. لم تهتمّ دوفي لها، فلن تكون رقيقة القلب مع نان.

لم يكن خداعها ممتعًا حقًّا. بالطبع كانت ستخبر والدتها بمجرّد وصولها إلى المنزل وتكتشف أنّها تعرّضت للخداع.

فكّرت دوفي بأنّها ستذهب إلى المنزل يوم الأحد ولن ترى نان.

جلست نان على رصيف الميناء لساعات، مكسورة القلب ويائسة.

لم تكن ابنة أمّها! كانت طفلة جيمي ذي الستّ أصابع الذي لطالما خافت منه سرًّا بسبب أصابع قدمه الستة. لا يحقّ لها العيش في إنجلسايد، حيث أحبّها والديها.

تنهّدت نان بألمٍ وحزن، لن يحبّها والديها إذا عرفا الحقيقة، بل سيحبّان كاسي توماس.

وضعت نان يدها على رأسها وقالت: "أشعر بالدوار."

***

31



سألتها

سوزان على مائدة العشاء: "لماذا لم تأكلي أيًّا من طعامك يا صغيرتي؟"

سألتها الأم بقلق: "هل بقيتِ في الشمس لفترةٍ طويلةٍ يا عزيزتي؟ هل يؤلمك رأسك؟"

قالت نان بتوتّر: "نعم."

لكن لم يكن رأسها هو الذي يؤلمها. هل كانت تكذب على والدتها؟ وإذا كانت كذلك، فكم كذبةً أخرى عليها أن تخبرها؟ لأنّ نان كانت تعلم أنّها لن تكون قادرةً على الأكل مرّةً أخرى بعد أن عرفت السر. وعرفت أنّها لا تستطيع إخبار والدتها، ليس بسبب الوعد، فلقد قالت سوزان ذات مرّة أن خلاف الوعد السيئ أفضل من الوفاء به، ولكن كيلا تتأذى مشاعر أمّها.

بطريقةٍ ما، كانت نان متأكّدة من أنّ الخبر سيؤذي أمّها بشدّة، ولا يجب أن تتأذى أمّها أبدًا، ولا والدها.

بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك مشكلة كاسي توماس، فلم تكن لتناديها نان بلايث. أن تفكّر نان في كاسي توماس على أنّها نان بلايث

جعلها تشعر بالفزع إلى حدٍّ يفوق الوصف. شعرت كما لو أنّ ذلك دمّرها تمامًا. إذا لم تكن نان بلايث فلن تكون كاسي توماس، ولن تكون أيّ شخصٍ آخر!

كانت كاسي توماس تطاردها، ولمدّة أسبوع حاصرتها، لأسبوعٍ بائسٍ كانت فيه آن وسوزان قلقتين حقًّا على الطفلة التي لا تأكل ولا تلعب، وكما قالت سوزان فكانت بالكاد تمشي في أرجاء المنزل. هل كان ذلك بسبب عودة دوفي جونسون إلى المنزل؟ لكنّها قالت إنّ ذلك ليس السبب. قالت نان إنّها بخير وإنّها فقط تشعر بالتعب. فحصها والدها ووصف لها جرعةً تناولتها نان من دون أيّ اعتراض. لم تكن الجرعة سيئةً مثل زيت الخروع، ولكن حتّى زيت الخروع لا يعني شيئًا الآن. لم يكن يهمّها سوى كاسي توماس، والسؤال المريع الذي شوّش عقلها واستحوذ عليها.

ألا يجب أن تتمتّع كاسي توماس بحقوقها؟

تشبّثت نان بهويّتها بقلق، وصارت تتساءل إن كان من العدل أن تملك بصفتها نان بلايث كلّ الأشياء التي حُرمت منها كاسي توماس والتي كانت من حقّ الأخيرة. لا، لم يكن ذلك عادلًا. كانت نان متأكّدةً بشكلٍ يائسٍ من أنّ ذلك ليس عادلًا. كانت نان في أعماقها فتاةً عادلةً ونزيهة، وازداد شعورها بأنّها لن تكون عادلةً إلّا بإخبار كاسي توماس.

في النهاية، ربما لن يهتمّ أحد. سينزعج والداها قليلًا في البداية بالطبع، ولكن بمجرّد أن يعرفا أنّ كاسي توماس هي طفلتهما، فإنّ كلّ حبّهما سيذهب إلى كاسي، ولن يهتمّا بنان. كانت الأم ستقبّل كاسي توماس وتغنّي لها في شفق الصيف أغنية نان المفضّلة:

"رأيت سفينةً تبحر، تبحر في البحر،
وآه كم كانت مليئةً بأشياء جميلة لي."

تحدّثت نان ودي كثيرًا عن اليوم الذي ستأتي فيه سفينتهما. ولكن الآن ستنتمي حصتّها من الأشياء الجميلة إلى كاسي توماس. ستشارك كاسي توماس كملكة الخيال في حفل سانداي سكول القادم وترتدي الشريط الجميل اللامع. كم كانت نان تتطلّع إلى ذلك! كانت سوزان ستصنع فطائر الفاكهة لكاسي توماس وكان بوسي ويلو سيخرّ لها. كانت ستلعب مع دمى نان في بيت الألعاب المغطى بالطحالب في بستان القيقب، وتنام في سريرها. هل ستحبّ دي ذلك؟ هل كانت دي ستحبّ كاسي توماس كأختٍ لها؟

جاء يومٌ عرفت فيه نان أنّها لم تعد تتحمّل ذلك، عليها أن تحقّق العدالة. كانت ستنزل إلى هاربور ماوث وتخبر آل توماس الحقيقة، عندها يمكنهم إخبار والديها. لكنّها شعرت أنّها ببساطة لا تستطيع فعل ذلك.

شعرت نان بتحسّنٍ قليلٍ عندما اتّخذت هذا القرار، لكنّها كانت حزينةً للغاية. حاولت تناول القليل من طعام العشاء لأنّها ستكون الوجبة الأخيرة التي تتناولها في إنجلسايد.

فكّرت نان بيأسٍ بأنّها ستظلّ تنادي آن "أمّي" و لن تنادي جيمي ذو الستّ أصابع "أبي"، بل ستقول فقط السيّد توماس بطريقةٍ محترمة، بالتأكيد لن يمانع في ذلك.

لكنّها كانت تشعر بأنّها تختنق، نظرت إلى الأعلى ورأت سوزان تحمل زيت الخروع لأنّها اعتقدت أنّها لن تكون هنا في وقت النوم لتعطيه لها. كان على كاسي توماس أن تبتلعه، وكان هذا هو الأمر الوحيد الذي لم تحسد نان كاسي توماس عليه.

ذهبت نان مباشرةً بعد العشاء. يجب أن تذهب قبل أن يحلّ الظلام وإلّا ستخذلها شجاعتها. ذهبت مرتديةً ثوبها القطني ذو المربّعات،

ولم تجرؤ على تغييره، خشية أن تسأل سوزان أو الأمّ عن السبب. علاوةً على ذلك، كل فساتينها الجميلة تنتمي حقًا إلى كاسي توماس. لكنّها ارتدت المئزر الجديد الذي صنعته لها سوزان، وكان مئزرًا أحمر صغير بنتوءاتٍ دائريّة. أحبّت نان ذلك المئزر، وبالتأكيد لن تحقد كاسي توماس عليها كثيرًا.

سارت إلى القرية وعبرتها وعبرت طريق الرصيف، ونزلت إلى طريق المرفأ. كانت فتاةً صغيرةً شجاعة لا تقهر. لم يكن لدى نان أيّة فكرةٍ أنّها كانت بطلة، على عكس ذلك، شعرت بالخجل الشديد من نفسها لأنّه كان صعبًا للغاية فعل ما هو صواب وعادل، وعدم كره كاسي توماس، وعدم الخوف من جيمي ذي الستة أصابع، والأصعب من ذلك كلّه كان عدم الالتفاف والعودة إلى إنجلسايد.

كانت أمسيةً مظلمة، فبدت فوق البحر سحابةٌ سوداء كبيرة، كخفّاشٍ أسود عظيم. لمع البرق فوق المرفأ وفوق التلال التي وراءه، وكانت مجموعة منازل الصيادين في هاربور ماوث مغمورةً بالضوء الأحمر الذي استطاع اختراق الغيوم، وتوهّجت برك المياه هنا وهناك مثل الياقوت العظيم. وكانت الرياح تدفع السفينة الشراعية البيضاء عبر الكثبان الرمليّة الداكنة والضبابيّة إلى المحيط الغامض، والنوارس تصرخ بغرابة.

لم تعجب نان برائحة بيوت الصيد أو مجموعات الأطفال القذرين الذين كانوا يلعبون ويتشاجرون ويصرخون على الرمال. نظروا بفضولٍ إلى نان عندما توقّفت لتسألهم عن منزل جيمي ذي الست أصابع.

قال أحدهم مشيرًا إلى أحد المنازل: "هذا هو منزله، لكن ما الذي تريدينه منه؟"

اكتفت نان بشكره وأدارت ظهرها له.

صرخت فتاة عليها: "هل أنتِ بلا أخلاق؟ متكبّرة لدرجة ألّا تجيبي على سؤاله على الرغم من أنّه سألكِ باحترام."

وقف الصبيّ أمامها وقال: "أترين هذا المنزل الذي يملكه آل توماس؟ إنّه يحتوي على ثعبان البحر وسأحبسك فيه إذا لم تخبريني بم تريدينه من جيمي ذو الست أصابع."

سخرت منها فتاةٌ كبيرة: "هيّا أيّتها المتعجرفة. أنتِ من جلين ودائمًا ما يعتقد جميع سكّان جلين أنّهم الأفضل. أجيبي على سؤال بيل!"

قال صبيٌّ آخر: "إذا لم تتكلّمي، سأغرق بعض القطط الصغيرة، ومن المحتمل جدًا أن أغرقكِ أيضًا."

قالت فتاةٌ أخرى ذات حاجبين سوداوين مبتسمة: "إذا كان لديك عشر سنتات، فسأبيعك سنًا، لقد اقتلعته البارحة."

قالت نان بشجاعة: "ليست لديّ عشرة سنتات ولن تفيدني أسنانك بأيّة طريقة. دعيني وشأني."

أمرتها ذات الحاجبين السوداوين: "اخرسي!"

بدأت نان الركض، ومدّ أحد الفتيان رجله فتعثّرت بها وسقطت على الرمال. انفجر الآخرون ضحكًا عليها.

قالت ذات الحاجبين السوداوين: "أعتقد أنّكِ لن ترفعي رأسك عاليًا الآن. تبختري هنا بثوبك الصدفيّ الأحمر!"

ثمّ صاح أحدهم: "هناك قارب بلو جاك قادم!" وركضوا جميعًا بعيدًا. انخفضت السحابة السوداء وكلّ بركةٍ حمراء صارت رماديّة.

التقطت نان أنفاسها، وكان ثوبها مغطّى بالرمال وجواربها متّسخة. لكنّها تخلّصت من أولئك الأطفال الذين كانوا يعذبونها. هل سيكون هؤلاء رفاقها في اللعب في المستقبل؟

عليها ألّا تبكي! صعدت درجات السلم المتزعزع الذي قادها إلى

باب جيمي ذي الستّ أصابع. مثل جميع منازل هاربور ماوث، تم رفع منزل جيمي على مجموعةٍ من الأخشاب لكي لا تصل إليه أيّة موجةٍ مرتفعةٍ بشكلٍ غير عاديّ، وكانت المساحة الموجودة تحته مليئةً بمجموعةٍ من الأطباق المكسورة والعلب الفارغة ومصائد سرطان البحر القديمة وجميع أنواع القمامة. كان الباب مفتوحًا ونظرت نان إلى المطبخ الذي لم تره أبدًا في حياتها. كانت الأرضيّة متسخة، والسقف ملطّخٌ وأسود، والحوض مليء بالأطباق المتسخة. كانت على الطاولة الخشبية القديمة المهترئة فضلات طعام وكان الذباب الأسود الكبير يحوم فوقها. كانت امرأة ذات شعرٍ رماديٍّ مجعّد تجلس على كرسيٍّ هزّازٍ وهي ترضع طفلةً سمينةً ومتّسخة.

فكّرت نان في أنّ تلك الطفلة هي أختها.

لم يكن هناك أثرٌ لكاسي أو جيمي، وكانت نان ممتنّةً لذلك.

قالت المرأة بقسوة: "من أنتِ وماذا تريدين؟"

لم تطلب من نان الدخول لكنّها دخلت. بدأت السماء تمطر في الخارج وجعل الرعد المنزل يهتزّ. عرفت نان أنّها يجب أن تقول ما جاءت لقوله قبل أن تخذلها شجاعتها، أو ستستدير وتهرب من ذلك المنزل المخيف وتلك الطفلة الرهيبة وذلك الذباب المروّع.

قالت: "أريد أن أرى كاسي من فضلك. أريد أن أخبرها أمرًا في غاية الأهميّة."

قالت المرأة: "بالتأكيد! يجب أن يكون الأمر مهمًا إن كانت طفلةٌ مثلك ستخبرها به. حسنًا، كاسي ليست في المنزل. أخذها والدها إلى جلين الشماليّة في جولة، ومع اقتراب هذه العاصفة، لا أحد يعرف متى سيعودون. اجلسي."

جلست نان على كرسيٍّ مكسور، وكانت تعرف أنّ أهل هاربور

ماوث فقراء لكنّها لم تكن تعرف أنّ أيًا منهم كانوا على هذا النحو. كانت السيدة توم فيتش من جلين فقيرة، لكنّ منزلها كان جميلًا ومرتبًا مثل إنجلسايد. بالطبع، كان الجميع يعلم أنّ جيمي ذا الستّ أصابع قد شرب بكلّ المال الذي جناه. وأصبح هذا منزلها من الآن فصاعدًا!

فكّرت نان بيأسٍ أنّها ستحاول تنظيفه. كانت مكسورة القلب، ومات شعور التضحية الذي استدرجها إلى هذا المنزل.

كانت المرأة تمسح وجه الطفل المتسخ بمئزرٍ أكثر اتساخًا عندما سألت نان: "لماذا تريدين أن تري كاس؟ إذا كان الأمر يتعلّق بحفل سانداي سكول، فلن تتمكّن من الذهاب وهذا قرارٌ نهائيّ. ليس لديها ثوبٌ لائق. أخبريني من أين أحصل على المال لشراء واحدٍ لها؟"

بعد أن فكّرت في أنّها ستخبر السيّدة توماس بالقصّة كاملةً لأنّه كان عليها أن تعرف ذلك على أيّ حال، قالت نان بحزن:

"لا، الأمر لا يتعلّق بالحفل. جئت لأخبرها بأنّها أنا وأنا هي!"

لا تُلام السيّدة توماس على عدم فهمها الموضوع بوضوح.

قالت: "يبدو أنّكِ مجنونة. ما معنى هذا الكلام؟"

رفعت نان رأسها، فقد تخطّت المرحلة الأصعب وقالت: "أعني أنّني ولدت أنا وكاسي في نفس الليلة وبدّلتنا الممرضة لأنّها كانت حاقدة على أمّي، ولذلك يجب أن تعيش كاسي في إنجلسايد وتأخذ حقّها."

كانت هذه العبارة الأخيرة قد سمعتها من معلّمتها في سانداي سكول، لكنّ نان اعتقدت أنّها جعلت لخطابها الضعيف نهاية محترمة."

حدّقت السيّدة توماس فيها.

"هل أنا مجنونةٌ أم أنتِ؟ لا معنى لما قلتِه. من قال لكِ مثل هذا الهراء؟"

"دوفي جونسون."

هزّت زوجة جيمي ذو الستّ أصابع رأسها الأشعث وضحكت. كانت لديها ضحكةٌ جذابة على الرغم من أنّها كانت متّسخة. قالت: "لو كان هذا صحيحًا لكنت عرفت به. كنت أغسل لخالتها طوال الصيف وهذه الطفلة بغيضة! يا إلهي، إنّها تعتقد أنّها ذكيّة بخداعها للنّاس! حسنًا أيّتها الآنسة الصغيرة، ما اسمكِ؟ من الأفضل ألّا تصدّقي كلّ ما تقوله دوفي، وإلاّ فستوقعك في المشاكل."

لهثت نان: "هل تقصدين أنّ ما قالته ليس صحيحًا؟"

"نعم، يبدو أنّكِ طيّبة القلب لتصدّقي أمرًا كهذا، ومن الواضح أنّ كاس أكبرَ منكِ بسنة. على أيّةِ حال، من تكونين؟"

"أنا نان بلايث." فرحت نان عندما قالت تلك الجملة، كان من الجميل أن تشعر بأنّها نان بلايث مرّةً أخرى.

"نان بلايث! أحد توأمَي إنجلسايد! أتذكّر تلك الليلة التي وُلدتِ فيها. لقد ذهبتُ إلى إنجلسايد في مهمّة. لم أكن متزوّجةً من جيمي آنذاك، للأسف تزوّجته، وكانت والدة كاس على قيد الحياة وبصحّةٍ جيّدة، ومشت كاس أوّل خطواتها. تشبهين والدة والدك، كانت هناك في تلك الليلة أيضًا، فخورةً كواحدةٍ من آل بانش بحفيدتيها التوأمين. أنتِ تفكّرين بطريقةٍ غير منطقيّة بتصديقكِ لتلك القصص المجنونة."

قالت نان بفخرٍ بعض الشيء: "أنا معتادةٌ على تصديقِ الناس."

ولكنّها كانت سعيدةً للغاية لدرجة أنّها لم ترغب في الردّ على ما قالته السيّدة توماس عنها.

قالت زوجة جيمي ذي الستّ أصابع ساخرة: "حسنًا، من الأفضل التخلّص من هذه العادة في عالمٍ كهذا. توقّفي عن مرافقة الأطفال الذين يحبّون خداع الناس. اجلسي يا فتاة. لا يمكنكِ العودة إلى المنزل

حتّى يتوقّف هذا المطر. إنّها تمطر والظلام حالك." لكنّ السيّدة توماس كانت تتحدّث إلى نفسها، فكانت نان قد ذهبت بالفعل، صاحت المرأة: "لقد ذهبت! ذهبت الطفلة!"

وبالفعل ابتلّت نان بالكامل بسبب الأمطار. ولم يحملها إلى المنزل في تلك العاصفة سوى الفرح الذي شعرت به بعدما طمأنتها السيدة توماس. كانت الريح تعصف في وجهها، وهطل المطر عليها، ودفعها قصف الرعد المروّع إلى الاعتقاد بأنّ العالم قد انفجر. لكنّ الوهج الأزرق للبرق المتواصل أظهر لها الطريق. انزلقت وسقطت مرارًا وتكرارًا. لكنّها في النهاية وصلت متمايلةً إلى ردهة إنجلسايد والماء يسيل من ثيابها المبلّلة.

ركضت الأم وحضنتها بذراعيها.

"حبيبتي، لقد قلقنا عليك كثيرًا! أين كنتِ؟"

قالت سوزان بتوتّر: "آمل فقط ألّا يصاب جيم ووالتر بالزكام وهما يبحثان عنكِ في هذا المطر."

كانت نان تتنفّس بصعوبة، لم تستطع إلاّ أن تلهث، وهي تشعر بغمرةٍ من ذراعي أمّها فقالت: "آه يا أمّي، أنا حقًّا نان بلايث، أنا نفسي. أنا لست كاسي توماس ولن أكون أبدًا سوى نان بلايث مرّةً أخرى."

قالت سوزان: "الصغيرة المسكينة تهذي، يبدو أنّها تناولت طعامًا لا يناسبها."

حمّمت آن نان ووضعتها في الفراش قبل أن تسمح لها بالتحدث. ثمّ سمعت القصة كاملة.

"هل أنا حقًّا طفلتك يا أمّي؟"

"بالطبع يا حبيبتي. كيف يمكنك التفكير في أنّكِ لستِ طفلتي؟"

"لم أعتقد أبدًا أنّ دوفي ستكذب عليّ، أتوقّع أن يكذب عليّ شخصٌ

آخر، لا دوفي. هل يمكننا الوثوق بأحد يا أمّي؟ حتى جين بيني أخبرت دي بقصصٍ مروّعة."

"إنّهما فتاتان فقط من بين كلّ الفتيات الصغيرات اللواتي تعرفانهما يا عزيزتي. لم تكذب عليكِ أيٌّ من رفيقاتك الأخريات. هناك أشخاصٌ في العالم من هذا القبيل، كبار وصغار كذلك. عندما تصبحين أكبر سنًّا بقليل، ستكونين قادرةً أكثر على تمييز الجيّدين من السيّئين.

"أتمنى ألّا يعرف والتر وجيم ودي كم كنت غبيّة."

"لا داعي لأن يعرفوا ذلك، ذهبت دي إلى لوبريدج مع والدك، ولن نخبر الصبيين إلّا بأنّكِ ذهبِت بعيدًا جدًا على طريق هاربور وعلقتِ في العاصفة. لقد كان من الغباء تصديق دوفي ولكنّكِ كنتِ فتاةً صغيرةً شجاعةً جدًّا بذهابك إلى هناك لتعطي ما كنتِ تعتقدين أنّه حق الصغيرة المسكينة كاسي توماس. أمّكِ فخورة بك."

انتهت العاصفة، وكان القمر يسطع في عالمٍ باردٍ وسعيد.

كان آخر ما فكّرت به نان وهي تنام هو أنّها سعيدةٌ جدًّا بأنّها نان بلايث.

جاء جيلبرت وآن لاحقًا لرؤية الوجوه الصغيرة النائمة التي كانت قريبةً جدًا من بعضها البعض. نامت ديانا زامّةً فمها الصغير لكنّ نان نامت مبتسمة. سمع جيلبرت القصة وكان غاضبًا جدًا لدرجة أنّ دوفي جونسون كانت محظوظةً للغاية بأنّها كانت على بعد ثلاثين ميلًا عنه، لكنّ آن كانت تشعر بتأنيب الضمير.

قالت: "كان عليّ معرفة ما الذي كان يزعجها. لكنّني كنت مهتمّةً كثيرًا بأشياء أخرى هذا الأسبوع، أمورٌ لا تهمّ حقًّا مقارنةً بتعاسة الطفلة. فكّر فيما عانته حبيبتي المسكينة."

انحنت فوقهم تائبةً، وراضية بأنّهم لا يزالون أطفالها، لتحبّهم

وتحميهم. ما زالوا يأتون إليها بكلّ حبٍّ كلّما شعروا بالحزن. سيكونون لها لبضع سنوات ولكن ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ ارتجفت آن. كانت الأمومة جميلة جدًّا، لكن بنفس الوقت فظيعة.

همست: "أتساءل ما تحمله الحياة لهم."

قال جيلبرت ساخرًا: "على الأقلّ دعينا نأمل ونثق في أنّ كلًّا منهم سيحصل على زوجٍ جيّدٍ كالذي حصلت عليه والدتهما."

***

32



قال الطبيب: "ستأتي جمعيّة مساعَدَة السيدات لحشو اللحف في إنجلسايد. أخرجي كل الأطباق الفاخرة يا سوزان، وجهّزي نفسك لسماع الأحاديث التي ستعمّ القرية عن هذه الوليمة."

ابتسمت سوزان بوجهٍ متعب، بصفتها امرأةً متسامحة مع افتقار الرجل إلى فهم الأشياء الحيويّة، لكنّها لم تشعر في الرغبة في الابتسام، على الأقلّ حتى تسوية كلّ ما يتعلّق بعشاء جمعيّة المساعَدة.

صارت تتمتم: "فطيرة الدجاج الساخنة والبطاطا المهروسة والبازلاء بالكريمة كطبقٍ رئيسيّ. وستكون هذه فرصةً جيّدة لاستخدام مفرش المائدة الجديد، يا عزيزتي زوجة الطبيب، لم يسبق لهذا مثيلٌ في جلين وأنا واثقةٌ من أنّه سيحدث ضجّةً كبيرة. إنني أتطلّع لرؤية وجه أنابيل كلو عندما تراه. وهل ستستخدمين سلّتك الزرقاء والفضيّة للزهور؟"

"نعم، سأملأها بأزهار الثالوث والسراخس ذات اللون الأصفر والأخضر من بستان القيقب. وأريدكِ أن تضعي تلك الأزهار الثلاث الرائعة من إبرة الراعي الخاصة بك في مكانٍ ما في الجوار، في غرفة

المعيشة إذا قمنا بالحشو هناك أو على درابزين الشرفة إذا كان الجوّ دافئًا بما يكفي للعمل في الخارج. أنا سعيدةٌ لأنّ لدينا الكثير من الزهور المتبقيّة. لم تكن الحديقة جميلةً أبدًا كما كانت هذا الصيف يا سوزان. ولكنّني أقول هذا كلّ خريف، أليس هذا صحيحًا؟"

كانت هناك أشياء كثيرة يجب تسويتها، من يجب أن تجلس إلى جانب من؟ لن يكون من المفيد أبدًا على سبيل المثال، أن تجلس زوجة السيد سايمون ميليسون إلى جانب زوجة السيد ويليام ماكريري، لأنّهما لم تتحدّثا مع بعضهما أبدًا بسبب بعض الخلافات القديمة الغامضة التي تعود إلى أيّام الدراسة. ثمّ كان هناك سؤال حول من تجب دعوتها، لأنّه كان يحقّ للمضيفة أن تدعو بعض الضيوف غير أعضاء جمعيّة المساعَدة.

قالت آن "سأقوم بدعوة السيدة بيست والسيدة كامبل."

بدت سوزان غير راضية عن ذلك.

قالت: "إنّهما جديدتان في القرية يا زوجة الطبيب العزيزة، إنّهما مخيفتان لا يمكن الوثوق بهما."

"كنت أنا والطبيب من الوافدين الجدد ذات مرّةٍ يا سوزان."

"لكنّ عمّ الطبيب كان هنا لسنواتٍ قبل ذلك. لا أحد يعرف أيّ شيءٍ عن آل كامبل وآل بيست. إنّه بيتك يا زوجة الطبيب العزيزة ومن أنا لأعترض على أيّ شخصٍ تريدين دعوته؟ أتذكّر ذات مرّةٍ عندما كان حشو اللحاف في منزل زوجة السيد كارتر فلاج منذ سنواتٍ عديدةٍ ودعت السيدة فلاج امرأةً غريبة. جاءت في ثوبٍ من الصوف الخفيف يا زوجة الطبيب العزيزة، قالت إنّها لا تعتقد أنّ جمعيّة مساعدة السيدات تستحقّ التأنّق! على الأقلّ لن يكون هناك خوفٌ من ذلك مع السيدة كامبل، إنّها أنيقةٌ للغاية على الرغم من أنّني لا أستطيع أن أرى نفسي

ذاهبةً إلى الكنيسة مرتديةً اللون الأزرق."

لا تستطيع نان فعل ذلك أيضًا، لكنّها لم تجرؤ على الابتسام.

"اعتقدت أنّ الفستان كان جميلًا مع شعرها الرماديّ يا سوزان. وبالمناسبة، تريد السيّدة كامبل وصفتك لتوابل الكشمش. تقول إنّها تناولت بعضًا منه في عشاء هارفست هوم وكان لذيذًا."

"آه حسنًا يا زوجة الطبيب العزيزة، لا يستطيع الجميع إعداد هذه التوابل." ولم يعد هناك أيّ اعتراضٍ على الفساتين الزرقاء. قد تظهر السيّدة كامبل من الآن فصاعدًا في زيّ مواطنٍ من جزر فيجي إذا أرادت ذلك وستجد سوزان أعذارًا لها.

أصبحت الأشهر أطول، ولكن يبدو أنّ الخريف كان مشتاقًا للصيف وكان يوم حشو اللحف وكأنّه يومٌ من أيام حزيران وليس تشرين الأوّل. جاءت كلّ امرأةٍ من أعضاء "مساعَدة السيّدات" من اللواتي كان من الممكن حضورهنّ، متطلّعة بسرورٍ إلى النميمة وتناول العشاء في إنجلسايد، بالإضافة إلى رؤيةِ بعض الأزياء الجميلة الجديدة بما أنّ زوجة الطبيب قد زارت المدينة مؤخرًا.

سوزان، التي صمدت رغم الطهي الذي تكدّس عليها، كانت تراقب الوضع، وترشد السيدات إلى غرفة الضيوف بهدوء مع العلم أنّه لم يكن لدى أيٍّ منهنّ مئزرٌ مزيّن بدانتيل كروشيه بعمق خمس بوصات مصنوع من خيوط نامبر وان هاندريد. حصلت سوزان على الجائزة الأولى في معرض شارلوت تاون الأسبوع السابق بهذا الدانتيل. التقت هناك بريبيكا ديو وقضيتا يومًا ممتعًا، وعادت سوزان إلى المنزل في تلك الليلة وهي أكثر النساء فخرًا في جزيرة الأمير إدوارد.

استطاعت سوزان السيطرة على تعابير وجهها لكنّها كانت حرّةً بأفكارها، وحقودةً إلى حدٍّ ما.

صارت سوزان تقول بينها وبين نفسها: "سيليا ريس هنا، تبحث عن شيء تضحك عليه كالمعتاد. حسنًا، أنا متأكّدة أنّها لن تجد هذا على مائدة عشائنا. ترتدي ميرا موراي المخمل الأحمر، في رأيي أنّه مبالغٌ به بالنسبة لجلسةٍ كهذه، لكنّني لا أنكر أنّها تبدو جميلةً فيه. على الأقلّ ليست ترتدي الصوف الخفيف. أجاثا درو ترتدي كعادتها النظارة ذات السلسلة. أمّا سارة تايلور، فقد تكون هذه آخر مرّةٍ تشارك فيها معهنّ، يقول الطبيب إن قلبها في حالةٍ سيّئة، لكنّها نشيطةٌ وشغوفةٌ للغاية! والحمد للّه أنّ السيدة دونالد ريس لم تحضر ماري آنا معها ولكن لا شك أنّنا سنسمع الكثير. وجاين بور من جلين الشماليّة حضرت لكنّها ليست عضوًا في المساعَدة. حسنًا، سألتزم بعدّ الملاعق بعد العشاء، لأنّ تلك العائلة كلها مشهورةٌ بالسرقة. لا تُتعب كانديس كروفورد نفسها في كثيرٍ من الأحيان في حضور اجتماع المساعدة، ولكنّ حشو اللّحف فرصةٌ جيّدة للتباهي بيديها الجميلتين وخاتمها الماسيّ. وبالطبع ستظهر تنورة إيما بولوك التحتيّة أسفل فستانها، إنّها امرأةٌ جميلة ولكنّها جاهلة مثل كلّ تلك القبيلة. تيلي ماكاليستر، إيّاكِ أن توقعي الجيلي على مفرش المائدة كما فعلتِ أثناء حشو اللحف في منزل السيدة بالمر. ستحصل مارثا كروذرز على وجبةٍ لائقة لأوّل مرة. إنّه لأمرٌ سيءٌ للغاية أنّ زوجها لم يكن ليأتي أيضًا، سمعت أنّه يجب أن يعيش على المكسرات أو شيء من هذا القبيل. سمعتُ عن زوجة السيّد الشيخ باكستر أنّ الشيخ قد أبعد هارولد ريس بعيدًا عن مينا أخيرًا. كان لدى هارولد دائمًا عظم الترقوة بدلًا من العمود الفقري والرجل الجبان لا يفوز أبدًا بشريكة حياة كما يقول الإنجيل. حسنًا، لدينا ما يكفي لِلحافين وبعض إبر الخياطة."

تمّ نصب الألحفة على الشرفة الواسعة وكان الجميع يعملون

بأصابعهم وألسنتهم. كانت آن وسوزان تستعدّان لتناول العشاء في المطبخ، وكان والتر، الذي ظلّ خارج المدرسة في ذلك اليوم بسبب التهابٍ طفيفٍ في الحلق جالسًا على درج الشرفة، غير قادرٍ على رؤية حشو اللحف بسبب ستارة من الكَرْم حجبت الرؤية. كان يحبّ دائمًا الاستماع إلى أحاديث من هم أكبر منه سنًّا. كانوا يتكلّمون عن أمورٍ مذهلة وغامضة يمكن أن تفكّر بها مرارًا بعد ذلك، وتؤلّف منها قصصًا دراميّة في عقلك، الأمور التي تعكس الخير والشر، الكوميديا والمآسي، الدعابات والأحزان، لكلّ عشيرةٍ في فوروينذز.

من بين جميع النساء الحاضرات، أحبّ والتر السيّدة ميرا موراي أكثر من غيرها، بضحكتها الجميلة والتجاعيد الصغيرة الظريفة حول عينيها. يمكنها أن تروي أبسط قصّة وتجعلها تبدو دراميّة، كانت تجعل الجوّ سعيدًا أينما ذهبت. وقد بدت جميلةً جدًا في المخمل الأحمر الكرزيّ، مع التموّجات الناعمة في شعرها الأسود، والحلقين الأحمرين الصغيرين في أذنيها. كان يكره زوجة السيّد توم تشب التي كانت نحيفةً مثل الإبرة، ربّما لأنّه سمعها ذات مرّةٍ تسمّيه "الطفل المريض". كان يعتقد أنّ زوجة السيد آلان ميلجريف تبدو كدجاجةٍ رماديّة ناعمة وأنّ زوجة السيّد جرانت كلو لا تشبه سوى برميلٍ له قدمين. كانت الشابة زوجة السيّد ديفيد رانسوم بشعرها الناعم، فاتنةً للغاية، حتّى أنّ سوزان قالت عندما علمت بأنّها تزوّجت ديف، إنّها فاتنةٌ للغاية لتكون زوجة مزارع. وبدت العروس الشابة زوجة السيد مورتون ماكدوجال مثل جروٍ أبيض نعسان. لم يبدُ على خيّاطة جلين إيديث بيلي، بضفائرها الرماديّة وعينيها السوداوين الجميلتين، أنّها عانس. كان يحبّ السيّدة ميد، المرأة الأكبر سنًّا بينهنّ، التي كانت تتمتّع بعينين جميلتين، متسامحة وتستمع أكثر بكثيرٍ ممّا تتحدّث، ولم يكن

يحبّ سيليا ريس، التي كانت تبدو أنها تستمتع بمكر، كما لو كانت تضحك على الجميع.

لم تبدأ السيّدات الحديث بعد، كنّ تتناقشن حول أحوال الطقس، وتقرّرن ما إذا كان ينبغي أن يعملن بشكلٍ دائريٍّ أو معيّن، لذلك كان والتر يفكّر في جمال اليوم، العشب الكبير والأشجار الرائعة، والعالم الذي بدا فاتنًا ومذهلًا. كانت الأوراق الملوّنة تنجرف ببطءٍ إلى أسفل، لكن نباتات الخطميّ الورديّ كانت لا تزال تعانق جدار القرميد وكانت هناك أشجار الحور والحور الرجراج على طول الطريق المؤدّي إلى الحظيرة. كان والتر غارقًا في حبّ ما حوله لدرجة أنّه لم يعد يسمع محادثة حشو اللّحف قبل أن يعيده تصريح زوجة السيد سيمون ميليسون إلى الواقع.

"إنّ هذه العشيرة مشهورةٌ بجنازاتها المثيرة. هل تنسى أيٌّ منكنّ ما حدث في جنازة بيتر كيرك؟"

فتح والتر أذنيه، فقد بدا هذا الحديث مثيرًا للاهتمام. ولكن لم تكمل زوجة السيّد سايمون حديثها، فخاب أمله.

يبدو أنّ الجميع قد حضر الجنازة أو سمع القصة، لكن لماذا بدت جميع النساء غير مرتاحاتٍ حيال ذلك؟

قالت زوجة السيّد توم تشب بأمانة: "ليس هناك شكٌّ في أنّ كل ما قالته كلارا ويلسون عن بيتر كان صحيحًا، لكنّ الرجل المسكين في قبره الآن، لذا دعونا نتركه وشأنه." تكلّمت بطريقةٍ توحي بأنّ أحدًا قد اقترح إخراج رفاته من القبر.

قالت زوجة السيّد دونالد ريس: "تقول ماري آنا دائمًا مثل هذه الأمور الحكيمة. هل تعرفن ما قالته في ذلك اليوم عندما بدأت جنازة مارجريت هوليستر؟ قالت: "يا أمّاه، هل ستكون هناك أيّة

مثلّجاتٍ في الجنازة؟"

تبادلت بعض النساء الابتسامات الماكرة، فيما تجاهلت معظمهنّ زوجة السيد دونالد. لقد كان حقًّا الأمر الوحيد الذي يمكن فعله عندما تبدأ في الكلام عن ماري آنا كما تفعل دائمًا لسببٍ أو من دونه. إذا شجّعتها بأقلّ قدرٍ على الحديث فإنها تفرح بطريقةٍ جنونيّة ولا تتوقّف عن الكلام. كانت عبارة "هل تعرفن ما قالته ماري آنا؟" في جلين دليلًا على بداية حديثٍ طويل.

قالت سيليا ريس: "بالحديث عن الجنازات، عندما كنت فتاة، كان هناك شخصٌ غريب الأطوار في موبراي ناروز. كان ستانتون لاين قد خرج غربًا وانتشرت الأخبار بأنّه قد مات. كتب أهله برقيّةً يطلبون فيها إرسال الجثة إلى المنزل، وكان الأمر كذلك، لكنّ والاس ماكاليستر متعهد دفن الموتى، نصحهم بعدم فتح النعش. كانت بداية الجنازة جيّدة عندما دخل ستانتون لاين بنفسه وكان سليمًا. لم يتمّ اكتشاف الهويّة الحقيقيّة للجثة."

تساءلت أجاثا درو: "ماذا فعلوا به؟"

"آه لقد دفنوه، قال والاس إنّه لا يمكن تأجيلها. لكن لا يمكنك أن تسمّيها جنازةً بحق، فلقد كان الجميع سعداء جدًا بعودة ستانتون. قام السيّد داوسون بتغيير الترنيمة الأخيرة من ترنيمة "ارتاحوا أيّها المسيحيّون" إلى ترنيمة "يفاجئنا ضوءٌ أحيانًا"، لكنّ معظم الناس اعتقدوا أنّه من الأفضل تركه بمفرده."

"هل تعرفن ما قالته لي ماري آنا في ذلك اليوم؟ قالت: "أمّاه، هل يعرف القساوسة كلّ شيء؟"

قالت جين بور: "دائمًا ما يفقد السيد داوسون السيطرة على نفسه في الأزمات، كانت جلين الشماليّة جزءًا من مسؤوليّته في ذلك الوقت

وأتذكّر أنه في يوم أحدٍ صرف المصلين ثمّ تذكر أنّه لم يجمع التبرعات منهم. فلم يكن بيده أن يفعل سوى حمل لوحة التبرعات والركض بها في الساحة. أضافت جين: "تبرّع ناسٌ لم يتبرّعوا من قبل ولم يتبرّعوا بعد ذلك اليوم. لم يحبّوا أن يرفضوا كلام الوزير، لكنّه كان آنذاك بلا كرامة."

قالت الآنسة كورنيليا: "كنت أكره في السيد داوسون طول صلواته في الجنائز، فقد كانت طويلةً بلا رحمة. قال الناس إنّهم يحسدون الجثة. لقد تعدّى حدوده في جنازة ليتي غرانت، حيث رأيتُ أنّ والدتها كانت على وشك الإغماء، فنكزتُه في ظهره بمظلّتي وأخبرتُه أنّه صلّى لوقتٍ كافي."

قالت زوجة السيّد جورج كار ودموعها تنهمر: "لقد دَفن جارفيس المسكين." كانت تبكي دائمًا عندما تتحدّث عن زوجها رغم أنّه مات منذ عشرين عامًا.

علّقت كريستين مارش: "كان شقيقه قسًّا أيضًا، كان في جلين عندما كنت فتاة. أقمنا حفلةً موسيقيّة في القاعة ذات ليلة و كان جالسًا على المنصة لأنّه كان أحد المتحدثين. كان متوتّرًا مثل شقيقه وصار يهزّ كرسيّه بسبب التوتر وبعدها وقع هو والكرسيّ معًا على الحافة ليسقط على صفّ الزهور ونباتات المنزل التي رتبناها حول القاعدة. كلّ ما كان يمكن رؤيته هو قدميه وهما تعلوان فوق المنصة. أفسد ذلك وعظه لي بطريقةٍ ما بعد ذلك اليوم. كانت قدماه كبيرةً جدًا."

قالت إيما بولوك: "ربّما كانت جنازة لاين مخيّبةً للآمال، لكنّها على الأقلّ كانت أفضل من عدم إقامة أيّة جنازةٍ على الإطلاق. هل تتذكّرن الفوضى التي حدثت في جنازة كرومويل؟"

تذكرت النساء ما حدث وعلت أصوات ضحكاتهنّ. قالت السيّدة

كامبل: "دعونا نسمع القصة. تذكّري يا سيّدة بولوك، أنا غريبةٌ هنا ولا أعرف أيًّا من القصص الملحميّة للعائلة."

لم تعرف إيما ما تعنيه كلمة "الملحميّة" لكنّها أحبّت سرد القصة.

"عاش أبنر كروموِيل في القرب من لوبريدج في واحدةٍ من أكبر المزارع في تلك المنطقة وكان عضوًا في برنامج أم.بي.بي في تلك الأيام. لقد كان أحد أكبر الزعماء في حزب المحافظين وكان يعرف جميع الأشخاص المهمّين في الجزيرة. كان متزوجًا بجولي فلاج، التي كانت والدتها من عائلة ريس وجدّتها من آل كلو، لذا كانا على علاقةٍ مع كلّ عائلةٍ تقريبًا في فوروِيندز أيضًا. ذات يوم جاء خبر وفاة كروموِيل في صحيفة ديلي إنتربرايز التي كتبت أنّ السيّد أبنر كروموِيل توفيّ فجأةً في لوبريدج وستقام جنازته في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم التالي. بطريقةٍ ما لم يرَ أبنر كروموِيلز الخبر، وبالطبع لم تكن هناك هواتف في تلك الأيّام. في صباح اليوم التالي، غادر أبنر متوجّهًا إلى هاليفاكس لحضور مؤتمرٍ ليبرالي. في الساعة الثانية، بدأ الناس بالوفود لحضور الجنازة، وجاؤوا مبكرًا للحصول على مقاعد مناسبة، معتقدين أنّه سيكون هناك حشدٌ كبير كون أبنر رجلًا بارزًا. و صدِّقوني كان الحشد كبيرًا. امتدّت سلسلةٌ من العربات لأميالٍ حول الطرق واستمرّ الناس في التدفق حتّى حوالي الساعة الثالثة. كانت السيّدة أبنر تحاول بجنونٍ إقناعهم بأنّ زوجها لم يمت. في البداية لم يصدّقها البعض. قالت لي وهي تبكي أنّهم ظنّوا أنّها سرقت الجثة، وعندما اقتنعوا، تصرّفوا كما لو كانوا يعتقدون أنّ أبنر يجب أن يموت، وداسوا في جميع أحواض الزهور التي كانت عزيزةً عليها. كما وجاء عددٌ لا بأس به من أقاربه الذين هم على صلةٍ بعيدةٍ منه متوقّعين العشاء والنوم في منزله ولم تكن قد طبخت كميّة كبيرة من الطعام. ينبغي الاعتراف بأنّ

جولي لم تكن حكيمةً أبدًا. عندما وصل أبنر إلى المنزل بعد ذلك بيومين وجدها منهارةً وضعيفةً في سريرها وبقيت على تلك الحالة لشهور. كانت بالكاد تأكل لمدّة ستّة أسابيع. سمعت أنّها قالت لو كانت هناك بالفعل جنازة لما شعرت بالضيق هكذا. لكنّني لم أصدق أنّها قالت ذلك حقًا."

علّقت زوجة السيّد ويليام ماكريري: "لا يمكنك التأكّد من صحّة ذلك، يقول الناس دائمًا هذه الأشياء الفظيعة. فعندما يكونون مستاءين، تظهر الحقيقة. ذهبت أخت جولي بالفعل وغنّت في الجوقة كالمعتاد يوم الأحد الأول بعد دفنِ زوجها."

قالت أجاثا درو: "حتّى جنازة الزوج لا يمكن أن تُحبط كلاريس لفترةٍ طويلة، كانت قويّة، وكانت دائمًا ترقص وتغنّي."

قالت ميرا موراي: "لقد اعتدتُ أن أرقص وأغنّي على الشاطئ، حيث لا يسمعني أحد."

قالت أجاثا: "آه، لكنّكِ أصبحتِ أكثر حكمة منذ ذلك الحين."

ردّت ميرا موراي: "كلّا، لقد أصبحت أكثر حماقةً لأن أرقص على طول الشاطئ."

تابعت إيما قصّتها قبل أن تُحرم من ذلك فقالت: "في البداية اعتقدوا أنّ الخبر كُتِبَ كمزحة، لأنّ أبنر كان قد خسر في الانتخابات قبل أيّامٍ قليلة، ولكن اتّضح أنّه كان من أجل أماسا كرومويل، الذي كان يعيش بعيدًا في الغابة الخلفيّة على الجانب الآخر من لوبريدج، ولم تكن هناك صلةٌ بينهما. لقد مات حقًّا، لكن مرّت فترةٌ طويلةٌ قبل أن يغفر الناس لأبنر خيبة الأمل، إن كانوا قد فعلوا ذلك مسبقًا."

قالت زوجة السيد توم تشب مدافعةً عنهم: "حسنًا، لقد كانت قيادة كلّ تلك المسافة غير مريحةٍ بعض الشيء، وتمامًا في وقت الزراعة

أيضًا، لتجد أنّ تعبك ذهب هباءً."

قالت زوجة السيّد دونالد ريس: "والناس يحبّون الجنازات ويعتبرونها في غاية الأهميّة."

"أعتقد أنّنا جميعًا مثل الأطفال. لقد اصطحبت ماري آنا إلى جنازة عمّها جوردون واستمتعَتْ بها فقالت: "أمّاه، ألا يمكننا أن نخرجه ونستمتع بدفنه مرّة أخرى؟"

ضحكت السيّدات على هذا باستثناء زوجة السيّد الشيخ باكستر الجديّة ذات الوجه الطويل النحيف والتي وخزت اللحاف بلا رحمة. لم يكن هناك شيءٌ مقدّسٌ في الوقت الحاضر، بل كان الجميع يضحك على كلّ شيء، لكنّها لن تقبل أن تضحك على أمرٍ مرتبطٍ بالجنائز بصفتها زوجة أحد الشيوخ.

سألت السيّدة آلان ميلغريف: "بالحديث عن أبنر، هل تتذكّرن النعي الذي كتبه أخوه جون لزوجته؟ بدأ بقول:

"لقد قدّر الله لأسباب لا يعرفها غيره، أن يأخذ عروستي الجميلة ويترك زوجة ابن عمي ويليام القبيحة على قيد الحياة." لا يمكن لأحدٍ نسيان الضجة التي أحدثها ذلك النعي!"

سألت السيّدة بست: "كيف وافقوا على طباعة مثل هذا النعي؟"

"لأنّه كان مدير التحرير في" إنتربرايز "حينها. كان يعشق زوجته بيرثا موريس، وكان يكره السيّدة ويليام كرومويل لأنّها لم تكن تريده أن يتزوّج بيرثا، فكانت تعتقد أنّ بيرثا طائشةٌ للغاية."

قالت إليزابيث كيرك: "لكنها كانت جميلة."

وافقتها السيدة ميلجراف قائلة: "أجمل امرأةٍ رأيتها في حياتي، لقد ورثت الجمال من عائلتها، فكلّ آل موريس جميلو المظهر. لكنّها كانت متقلّبة المزاج كثيرًا، لا أحد يعرف أبدًا كيف لم تغيّر رأيها في

الزواج من جون. يقولون أنّ والدتها ساعدتها في هذا. كانت بيرثا مغرمةً بفريد ريس لكنّه اشتهر بمغازلته للنساء."

قالت لها زوجة السيد موريس: "عصفورٌ في اليد ولا عشرة على الشجرة."

قالت ميرا موراي: "لقد سمعت هذا المثل طوال حياتي، وأتساءل عمّا إذا كان صحيحًا. ربّما يمكن للطيور على الأشجار أن تغنّي بينما لا تستطيع تلك الموجودة في اليد فعل ذلك."

لم يعرف أحدٌ ما سيقوله ولكنّ السيّدة توم تشب قالت ما أرادت قوله على أيّ حال.

"أنتِ دائمًا غريبة الأطوار يا ميرا."

قالت زوجة السيّد دونالد: "هل تعرفن ما قالته لي ماري آنا في ذلك اليوم؟ قالت لي: "يا أمّاه، ماذا سأفعل إذا لم يطلب أحد الزواج بي؟"

دفعت سيليا ريس بمرفقها إيديث بيلي وسألت: "يمكننا كعوانس أن نجيب على هذا السؤال، أليس ذلك صحيحًا؟"

كرهت سيليا إيديث لأنّ إيديث كانت لا تزال جميلةً إلى حدٍّ ما ولم تكن عجوزة تمامًا.

قالت السيدة غرانت كلو: "كانت جيرترود كروmويل قبيحة، كان جسمها نحيلًا للغاية لكنّها كانت مدبّرة منزل رائعة. كانت كلّ شهرٍ تغسل كلّ ستارةٍ تملكها، في حين أنّ بيرثا كانت بالكاد تغسل ستائرها كلّ سنة. وكانت ستائر نوافذها دائمًا ملتوية. قالت جيرترود إنّها كانت تشعر بالقشعريرة كلّما تجاوزت منزل جون كرومويل. ومع ذلك، كان جون كرومويل يعشق بيرثا واستطاع ويليام أن يتقبّل جيرترود. الرجال غريبو الأطوار، يقول الناس إنّ ويليام استيقظ متأخرًا في صباح زفافه وارتدى ملابسه على عَجَلٍ حتّى وصل إلى الكنيسة مرتديًا حذاءً قديمًا

وجوارب غريبة."

ضحكت زوجة السيّد جورج كار وقالت: "حسنًا، كان وضعه أفضل من أوليفر راندوم، لقد نسي أن يرتدي بذلة رسمية، وكانت من المستحيل أن يرتدي بذلة يوم الأحد القديمة، فلقد كانت مرقّعة. لذلك، استعار أفضل واحدةٍ لدى أخيه، لائمتهُ قليلًا."

قالت السيّدة سايمون: "على الأقلّ تزوّج ويليام بجيرترود، أمّا أختها كارولين لم تتزوّج. تشاجرت هي وروني درو بشأن القسّ الذي كان سيزوّجهما ولم يتزوّجا على الإطلاق. كان روني غاضبًا للغاية لدرجة أنّه ذهب وتزوّج إدنا ستون قبل أن يهدأ. حضرت كارولين العرس، ورفعت رأسها عاليًا لكنّ وجهها كان يشبه وجه الأموات."

قالت سارة تيلور: "لكنّها أمسكت لسانها على الأقلّ، على عكس فيليبا آبي. عندما هجرها جيم موبراي، ذهبت إلى حفل زفافه وقالت أسوأ العبارات بصوتٍ عالٍ طوال الحفل. كانوا جميعًا أنجليكانيون، بالطبع." استنتجت أنّهم أنجيلاكيّون، كما لو أنّ ذلك يفسّر تقلّباتهم.

سألت سيليا ريس: "هل ذهبت حقًا إلى حجرة الاستقبال بعد ذلك، مرتديةً كلّ المجوهرات التي قدّمها لها جيم أثناء خطوبتهما؟"

"كلّا، أنا متأكّدة أنّها لم تفعل! لا أعرف كيف تنتشر مثل هذه القصص. أحيانًا تظنّين أنّ بعض الناس لا يفعلوا شيئًا في حياتهم سوى تكرار القيل والقال. أظنّ أنّ جيم موبراي عاش ليتمنّى لو كان وفيًّا لفيليبا. لم تجعله زوجته يشعر بالإثارة تجاهها، ومع ذلك كان دائمًا يعاني أوقاتًا عصيبةً في غيابها."

قالت كريستين كروفورد: "المرّة الوحيدة التي رأيت فيها جيم موبراي كانت تلك الليلة التي كادت فيها الحشرات أن تقتحم التجمّع في قدّاس الذكرى السنوية في لوبريدج. وما لم تنهه الحشرات، أكمله

جيم موبراي. كانت ليلةً حارّةً وكانت جميع النوافذ مفتوحة، فتدفّقت مئات الحشرات. التقطوا سبعًا وثمانين حشرةً ميّتة على منصة الجوقة في صباح اليوم التالي، وأصيبت بعض النساء بحالةً هستيريّة عندما طارت الحشرات بالقرب من وجوههنّ. عند الممرات بالقرب مني، كانت تجلس زوجة القس الجديد السيّدة بيتر لورينج. كانت ترتدي قبّعةً كبيرةً من الدانتيل مع ريش الصفصاف."

قالت زوجة السيّد الشيخ باكستر: "كانت تبالغ في أناقتها وتُعتبر مبذرة بالنسبة إلى زوجة قسّ."

وأكملت: "سمعت جيم موبراي يهمس أنّه سينفض الحشرة عن قبّعة السيدة بريتشر. كان جالسًا خلفها مباشرةً، انحنى إلى الأمام ووجّه ضربةً إلى الحشرة وأخطأها، لكنّه أسقط القبّعة التي انزلقت أسفل الممرّ إلى درابزين المناولة. كاد جيم أن يقع في مأزق. عندما رأى الوزير قبّعة زوجته تطير في الهواء، أضاع السطر الذي كان يقرأه في خطبته، ولم يتمكّن من العثور عليه مرّةً أخرى واستسلم بيأس. غنّت الجوقة الترنيمة الأخيرة، وكانت تطرد الحشرات طوال الوقت. نزل جيم وأعاد القبّعة إلى السيّدة لورينج. كان يتوقع أن تلومه، لأنّ الناس يقولون أنّها جريئة، لكنّها وضعتها على شعرها الأشقر الجميل مرّةً أخرى وضحكت عليه قائلة: "لو لم توقِع القبّعة، لكان بيتر قد استمرّ لمدّة عشرين دقيقةٍ أخرى في خطبته ولكنّا ظللنا جميعًا نحدّق بشدّة غاضبين." بالطبع، كانت لطيفةً لأنها لم تغضب، لكنّ الناس اعتقدوا أنّها تكلّمت بطريقةٍ غير لائقةٍ عن زوجها."

قالت مارثا كروذرز: "لكن علينا ألّا ننسى كيف وُلِدَت."

"لماذا؟ كيف؟"

"كانت بيسي تالبوت من الغرب. اشتعلت النيران في منزل والدها

ذات ليلةٍ ووسط كلّ تلك الفوضى والأجواء المضطربة وُلدت بيسي في الحديقة تحت النجوم."

قالت ميرا موراي: "كم هذا رومانسيّ!"

"رومانسي! أعتبر هذا غير لائقٍ."

قالت ميرا حالمة: "لكن فكّري في أن تولدي تحت النجوم! لقد قُدّر لها أن تكون طفلة النجوم، متلألئة وجميلة ورائعة مع وميضٍ في عينيها."

قالت مارثا: "لقد كانت تتمتّع بكلّ تلك الصفات، سواء كانت النجوم مسؤولة عن ذلك أم لا. لقد مرّت بأوقاتٍ عصيبةٍ في لوبريدج حيث اعتقدوا أنّ زوجة القسّ يجب أن تكون امرأةً جديّة ومحترمة. أمسكها أحد الشيوخ وهي ترقص حول مهد طفلها ذات يوم وأخبرها أنّها لا يجب أن تفرح بابنها حتّى تكتشف ما إذا كان قد تم انتخاب زوجها أم لا."

"بالحديث عن الأطفال، قالت ماري آنا ذات يوم: "هل لدى الملكات أطفال؟"

قالت السيّدة آلان: "لابدّ أنّ هذا كان ألكسندر ويلسون، لقد كان رجلًا عصبيّ المزاج، سمعت أنّه لم يكن يسمح لعائلته بالتفوّه بكلمةٍ واحدة في أوقات الوجبات، ولم يستطع أحدٌ الضحك في منزله."

قالت ميرا: "لا أستطيع تخيّل بيتٍ بدون ضحك!"

"إنّه مدنّس."

تابعت السيّدة آلان: "اعتاد ألكسندر أن يأخذ استراحاتٍ لا يتحدّث خلالها إلى زوجته لمدة ثلاثة أيام في كلّ مرّة، لقد كان هذا مصدر ارتياحٍ لها."

قالت السيّدة جرانت كلو بصلابة: "كان ألكسندر ويلسون رجل

أعمالٍ جيّد وصادق على الأقل. فقد ترك خلفه بعد وفاته أربعين ألف دولار." كان ألكسندر المذكور هو ابن عمّها الرابع وكان آل ويلسون منحازين لأقربائهم.

قالت سيليا ريس: "من المؤسف أنّه اضطرّ إلى تركها."

قالت السيدة كلو: "لم يترك شقيقه جيفري سنتًا واحدًا، عليّ أن أعترف أنّه كان الكسول وغير المسؤول في تلك العائلة. كان يضحك ويمزح كلّ الوقت وصرف كلّ الأموال التي جناها، كان صديقًا للجميع، وتوفيّ مفلسًا. ماذا استفاد من حياته وقد أمضى عمره في اللهو والضحك؟"

قالت ميرا: "ربما لم يستفد كثيرًا، لكن فكّري في الجهود التي بذلها في حياته، كان دائمًا يعطي البهجة والتعاطف والودّ وحتى المال. أخيرًا ملك الكثير من الأصدقاء بعد أن لم يكن لألكسندر صديقٌ في حياته."

ردّت السيّدة آلان: "أصدقاء جيف لم يدفنوه، كان على ألكسندر أن يفعل ذلك، وأن يضع له شاهد قبر رائع أيضًا كلّفه مئة دولار."

سألت سيليا درو: "ولكن عندما طلب منه جيف قرضًا بقيمة مئة دولار مقابل عمليّة كانت من الممكن أن تنقذ حياته، ألم يرفض ألكسندر ذلك؟"

احتجّت السيّدة كار على ذلك قائلة: "دعونا نتوقّف عن هذا الكلام، أصبحنا لئيماتٍ للغاية، في النهاية، نحن لا نعيش في عالمٍ مثاليّ وكلّ شخصٍ لديه بعض العيوب."

قالت السيّدة ميليسون معتقدةً أنّ الوقت قد حان لإضفاء البهجة على المحادثة: "سيتزوّج ليم أندرسون بدوروثي كلارك اليوم، ولم يمرّ عام منذ أن أقسم على أنّه سيفجّر رأسه إذا لم تتزوّجه جين إليوت."

قالت السيّدة تشب: "يقول الشباب مثل هذه الأمور الغريبة، لقد

أبقوا الأمر سرًّا، لم يتسرّب الخبر أبدًا حتى مرّت ثلاثة أسابيع منذ أن كانا مخطوبين. كنت أتحدّث مع والدته الأسبوع الماضي ولم تلمّح أبدًا إلى حفل زفافٍ بهذه السرعة. لست متأكّدةً من أنّني أهتمّ كثيرًا، لامرأةٍ من آل سبينكس."

قالت أجاثا درو: "أنا مندهشة من أنّ دوروثي كلارك تزوّجته، فلقد اعتقدت في الربيع الماضي أنّها وفرانك كلو كانا سيرتبطان."

"سمعت دوروثي تقول إنّ فرانك كان أكثر رجلٍ مناسبٍ لها لكنّها في الحقيقة لم تستطع تحمّل فكرة رؤية ذلك الأنف في السرير كلّ صباحٍ عندما تستيقظ."

اهتزّت زوجة السيّد الشيخ باكستر وهي تحاول كتم ضحكتها لرفضها الضحك مع البقيّة.

قالت سيليا وهي تغمز من خلف اللحاف: "لا يجب أن تقولي مثل هذه الأمور أمام فتاةٍ صغيرة مثل إيديث."

سألت إيما بولوك: "هل لا زالت أدا كلارك مخطوبة؟"

قالت السيّدة ميليسون: "لا، ليست مخطوبةً تمامًا، إنّها متفائلةٌ فقط، لكنّها ستورّطه. كلّ هؤلاء الفتيات لديهنّ موهبة اختيار الأزواج، تزوّجت أختها بولين أفضل مزارعٍ في الميناء."

قالت السيّدة ميلجراف: "بولين امرأةٌ جميلة، لكنّ أفكارها سخيفة أكثر من أيّ وقتٍ مضى."

"أحيانًا أعتقد أنّها لن تتعلم أن تكون امرأةً منطقيّةً أبدًا."

قالت ميرا موراي: "آه بلى ستصبح كذلك، ذات يوم ستنجبُ أطفالًا وتتعلّم الحكمة منهم، كما فعلت أنا وأنتِ."

سألت السيدة ميد: "أين سيعيش ليم ودوروثي؟"

"آه، لقد اشترى ليم مزرعة في جلين الشماليّة. في عقار كاري

القديم حيث قتلت السيّدة المسكينة زوجة روجر كاري زوجها."

"قتلت زوجها!"

"آه، أنا لا أقول أنّه لا يستحقّ ذلك، لكنّ الجميع اعتقدوا أنّها بالغت في الأمر قليلًا. نعم، لقد وضعت مبيد الأعشاب في فنجانه أو حساءه؟ أدرك الجميع ذلك ولكن لم يقم أحدٌ بفعل أيّ شيءٍ بشأن الجريمة. أعطني البكرة من فضلك يا سيليا."

قالت السيدة كامبل مذهولةً: "لكن هل تقصدين القول يا سيّدة ميليسون إنّها لم تُحاكَم أبدًا أو تُعاقب؟"

"حسنًا، لم يرغب أحدٌ في إيقاع جارته في مأزقٍ كهذا. كانت عائلة كاري مترابطةً بشكلٍ جيّد في جلين الشماليّة. بالإضافة إلى ذلك، كانت زوجة السيد روجر كاري يائسة. بالطبع لا أحد يوافق على القتل كعادة ولكن إذا كان هناك أيّ رجلٍ يستحقّ القتل فهو روجر كاري. ذهبت إلى الولايات المتّحدة وتزوّجت مرّةً أخرى. لقد ماتت منذ سنوات، وعاش زوجها لفترةٍ أطول منها. حدث كلّ هذا عندما كنتُ فتاة، كانوا يقولون إنّ شبح روجر كاري قد مشى."

قالت السيّدة باكستر: "بالتأكيد لا أحد يؤمن بالأشباح في هذا العصر."

سألتها تيلي ماكاليستر: "لماذا لا نؤمن بالأشباح؟ الأشباح مثيرةٌ للاهتمام. أعرف رجلًا كان يطارده شبحٌ يضحك عليه دائمًا ويسخر منه. كان ذلك يجعله غاضبًا جدًا. أعطني المقصّ من فضلك يا سيّدة ماكدوغال."

كان لا بدّ من سؤال العروس الصغيرة عن المقصّ مرّتين وتسليمه بخجل، فلم تكن معتادةً بعد على أن تُدعى بالسيّدة ماكدوغال.

قالت كريستين كروفورد: " كان منزل ترواكس القديم فوق المرفأ

مسكونًا لسنوات، كانت تُسمع أصوات قرعٍ وطرقٍ في كلّ المنزل، كان ذلك غامضًا للغاية."

قالت السيدة باكستر: "كان كلّ أفراد عائلة تروكس سيئين."

قالت السيدة ماكاليستر: "بالطبع إذا كنتِ لا تؤمنين بالأشباح فلن تجديهم، لكنّ أختي عملت في منزل في نوفا سكوشا كان مسكونًا وتُسمع فيه أصوات ضحك."

قالت ميرا: "يا له من شبحٍ مرح! لن أمانع وجوده."

قالت السيدة باكستر الشكّاكة: "من المحتمل أنّ بومةً كانت تصدر تلك الأصوات."

قالت أجاثا درو بنبرة حزن: "لقد رأت والدتي ملائكةً حول فراش الموت."

قالت السيدة باكستر: "الملائكة ليسوا أشباحًا."

سألت السيّدة تشب: "بالحديث عن الأمّهات، كيف حال خالتك باركر يا تيلي؟"

"وضعه سيّءٌ للغاية بسبب الدوار، لا نعرف ما ستكون نتيجته. لكنّ هذا يؤخرنا عن شراء ملابسنا الشتوية حيث أنّنا لا نعلم إن كان علينا شراء ثيابٍ سوداء اللون. لكنّني قلت لأختي في اليوم السابق عندما كنا نتحدّث عن الأمر أنّه من الأفضل أن نحضر فساتين سوداء على أيّة حال، ولا يهمّ ما سيحدث بعد ذلك."

"هل تعرفن ما قالته ماري آنا في ذلك اليوم؟ قالت لي أنّها ستتوقّف عن أن تدعو الله أن يجعل شعرها مجعّدًا. فلقد دعت كلّ ليلةٍ لمدّة أسبوع ولم يتغيّر شعرها."

قالت زوجة السيّد بروس دنكان بمرارة: "إنّني أدعوه منذ عشرين عامًا."

لم تتحدّث من قبل ولم ترفع عينيها الداكنتين عن اللحاف. اشتهرت بحشوها الجميل للملاحف ربّما لأنها لم تمنعها الأحاديث من وضع كلّ غرزةٍ في المكان الذي ينبغي أن تكون فيه بالضبط."

ساد الصمت بينهنّ قليلًا. يمكنهنّ جميعًا تخمين ما دعته، لكنّه لم يكن أمرًا يمكن مناقشته أثناء حشو اللحف. لم تتكلّم السيّدة دنكان مرّةً أخرى.

بعد وقتٍ قصير، سألت مارثا كروذرز: "هل صحيحٌ أنّ ماي فلاج وبيلي كارتر قد انفصلا وأنّه سيرتبط بامرأةٍ من آل ماكدوغال الذين يقطنون في الميناء؟"

"نعم، لكن لا أحد يعرف ما حدث."

قالت كانديس كروفورد: "إنّه لأمرٌ محزنٌ كيف تُفسد الأمور الصغيرة العلاقات في بعض الأحيان. ديك برات وليليان ماكاليستر على سبيل المثال، كان ديك سيتقدّم لها عندما ذهبا في نزهةٍ وبدأ أنفه ينزف فاضطرّ إلى الذهاب إلى النهر حيث التقى بفتاةٍ غريبةٍ هناك أعطته منديلها، فوقع في حبّها وتزوّجا في غضون أسبوعين."

سألت زوجة السيّد سايمون: "هل سمعتنّ ما حدث لجيم ماكاليستر الكبير ليلة السبت الماضي في متجر ميلت كوبر في هاربور هيد؟"

كانت تعتقد حينها أنّ الوقت قد حان لتقدّم إحداهنّ موضوعًا أكثر بهجة من الأشباح والهجران.

أكملت: "لقد اعتاد على الجلوس على الموقد طوال الصيف، لكنّ ليلة السبت كانت باردة وكان ميلت قد أشعل النار. لذلك عندما جلس جيم المسكين، أحرق..."

لم تقل زوجة السيد سايمون ما الذي أحرقه لكنها ربّتت على جزءٍ من جسمها بصمت.

أظهر والتر رأسه من خلال ستارة الكرم وقال بجديّة: "مؤخرته."
كان يعتقد بصدقٍ أنّ زوجة السيد سايمون لا تستطيع تذكّر الكلمة الصحيحة.

ساد صمتٌ مروّعٌ بين النساء. هل كان والتر بلايث هناك طوال الوقت؟ كانت كلّ واحدةٍ منهنّ تستعيد ذكرياتها من الحكايات التي رُويت لتذكر ما إذا كان أيٌّ منها غير لائقٍ بشكلٍ رهيبٍ لآذان الصغار. قيل أنّ زوجة الطبيب بلايث كانت منزعجةً للغاية ممّا سمعه أطفالها. وقبل أن تتعافى ألسنتهم التي كانت شبه مشلولةٍ بعد ما حدث، خرجت آن وطلبت منهم الحضور لتناول العشاء.

قالت إليزابيث كيرك: "بعد عشر دقائق فقط يا سيدّة بلايث سنُنهي اللحافين."

تم الانتهاء من اللحف، وإخراجها، ونفضها، ورفعها والإعجاب بها.

قالت ميرا موراي: "أتساءل من سينام تحتها."

قالت آن: "ربّما تحمل أمٌّ جديدةٌ طفلها الأوّل تحت أحدها."

قالت الآنسة كورنيليا بشكلٍ غير متوقع: "أو يتعانق الأطفال الصغار تحتها في ليلةٍ باردة في المرج."

قالت السيّدة ميد: "أو يتدفأ بها عجوزٌ مسكينٌ مصابٌ بالروماتيزم."

قالت السيّدة باكستر بحزن: "أتمنّى ألاّ يموت أحدٌ تحتها."

قالت السيدة دونالد وهم يدخلون غرفة الطعام: "هل تعرفن ما قالته ماري آنا قبل مجيئي؟ طلبت منّي ألّا أنسى أنّه عليّ أكل كلّ ما في طبقي."

عندئذ جلست وأكلت وشربت جميعهنّ شكرًا لله، لأنّهنّ قمنَ بعملٍ جيّد في فترة ما بعد الظهر، و بعد كلّ شيء، لم يكن هناك سوى

القليل من الخبثِ في معظمهنّ.

بعد العشاء ذهبن إلى المنزل، وسارت جين بور حتى القرية مع زوجة السيد سيمون ميليسون.

قالت جين بحزن: "يجب أن أتذكر كلّ التجهيزات لأخبر أمّي بها." ولم تكن تعلم أنّ سوزان كانت تعدّ الملاعق، فقالت: "إنّها لا تخرج أبدًا لأنّها تلازم الفراش لكنّها تحب أن تسمع عن هذه الأمور. كانت لتسعد لو كانت على تلك الطاولة."

وافقت السيدة سايمون بحسرة: "لقد كانت مثل صورةٍ ترينها في مجلّة، يمكنني طهي عشاءٍ جيّد مثل أيّ شخصٍ آخر، لكن لا يمكنني تجهيز طاولةٍ بطرازٍ واحد. أمّا بالنسبة إلى والتر الصغير، فيمكنني أن أصفع مؤخرته بفرح، لأنتقم منه!"

كان الطبيب يقول: "أفترض أنّ إنجلسايد امتلأت بالأحاديث عن الشخصيّات الميتة؟"

قالت آن: "لم أكن أحشو اللحف، لذا لم أسمع ما قيل."

قالت الآنسة كورنيليا التي تريّثت لمساعدة سوزان في ربط اللحف: "أنتِ لا تشاركين معهنّ أبدًا يا عزيزتي. عندما تعملين معهنّ، لن يتكلّمن مطلقًا، سيعتقدن أنّك لا توافقين على القيل والقال."

قالت آن: "هذا يعتمد على نوع تلك الأحاديث."

قالت الآنسة كورنيليا وهي تتذكّر قصة جنازة أبنر كرومويل الوهمية بابتسامة:

"حسنًا، لم يقل أحدٌ أمرًا فظيعًا جدًا اليوم. معظم الأشخاص الذين تحدثنا عنهم ماتوا، أو لا بد أنهم ماتوا. كانت المشكلة فقط في رواية السيّدة ميليسون لقصّة القتل القديمة المروّعة تلك مرّةً أخرى عن مادج كاري وزوجها. لا زلت أذكر كل شيء، ولم يكن هناك دليلٌ على أنّ

مادج فعلت ذلك، باستثناء أنّ قطّةً ماتت بعد أن أكلت من الحساء. كانت الهرّة مريضةً منذ أسبوع. إذا سألتِني، فقد مات روجر كاري بسبب التهاب الزائدة الدوديّة، رغم أنّه لم يكن أحد يعرف بالطبع أنّه مصابٌ بالزائدة الدودية في ذلك الوقت."

قالت سوزان: "وأعتقد أنه من المؤسف حقًا أنّهم لم يكتشفوا ذلك على الإطلاق. الملاعق كلّها موجودة يا زوجة الطبيب العزيزة، وما زال مفرش المائدة كما هو."

قالت الآنسة كورنيليا: "حسنًا، عليّ أن أعود إلى المنزل، سأرسل لكِ بعض الأضلاع الإضافية الأسبوع المقبل عندما يذبح مارشال الخنزير."

حلّ المساء وكان والتر يجلس مرّةً أخرى على الدرج بعينين حالمتين.

وتساءل من أين جاء الليل؟ هل أحضره شبحٌ عظيمٌ بأجنحةٍ تشبه الخفافيش من جرّةٍ أرجوانيّة إلى جميع أنحاء العالم؟ كان القمر يعلو وكانت ثلاث شجرات تنوب قديمة لوتها الرياح، تبدو وكأنّها ثلاث ساحراتٍ عجائز هزيلات محدبّات الظهر يتأرجحن فوق تلٍّ مقابل. هل كان ذلك جنيّ غاباتٍ صغير بأذنين فرويتين ينحني في الظلّ؟

لنفترض أنّه فتح الباب في جدار القرميد الآن، ألن يخطو، ليس إلى الحديقة المعروفة جيّدًا، ولكن إلى أرضٍ غريبةٍ للجنّ، حيث كانت الأميرات تستيقظن من نومهنّ المسحور، حيث ربّما يجد ويتتبّع الصدى كما أراد دائمًا؟ لم يجرؤ على الكلام، قد يتلاشى هذا الخيال إن فعل.

قالت الأمّ وهي تخرج: "عزيزي، لا يجب أن تجلس هنا بعد الآن. الجوّ بارد، تذكّر أنّ حلقك سيؤلمك."

أيقظه كلام أمّه من أحلامه، فذهب بعض الضوء السحريّ. كان العشب لا يزال مكانًا جميلًا ولكنّه لم يعد أرضًا خياليّة كما كان يتخيّل، ثمّ نهض.

"أمي، هل ستخبرينني ماذا حدث في جنازة بيتر كيرك؟"

فكّرت آن للحظة، ثمّ ارتجفت.

"ليس الآن يا عزيزي، ربما في وقتٍ ما."

***

33



كانت آن وحدها في غرفتها بعد أن تمّ استدعاء جيلبرت. جلست عند نافذتها لبضع دقائق وهي تتأمّل رقّة الليل وتستمتع بالجمال الساحر الغريب لغرفتها المضاءة بنور القمر. فكّرت آن بأنّ هناك دائمًا بعض الغرابة في غرفةٍ أنارها القمر، فكانت تشعر بأنّها أصبحت غرفةً أخرى، غير مؤنسة وغير مألوفة. شعرت بأنّ الغرفة معزولةٌ للغاية وبعيدةٌ عنها، وتشعرها بأنّها امرأةٌ دخيلة.

كانت متعبة قليلًا بعد يومها المزدحم وكانت الأجواء هادئةً بطريقةٍ جميلة الآن، فلقد كان الأطفال نائمون، واستعادت إنجلسايد نظامها. لم يُسمع صوتٌ في المنزل باستثناء صوت طرقٍ خافتٍ قادمٍ من المطبخ حيث كانت سوزان تعدّ خبزها.

ولكن من خلال النافذة المفتوحة، جاءت أصوات الليل التي كانت آن تعرفها وتحبها. وحمل الهواء الساخن أصوات الضحك من الميناء. وكان شخصٌ ما يغنّي في جلين وبدا غناؤه مثل النوتات المؤثرة لأغنيةٍ قديمة. ورسم ضوء القمر مساراتٍ فوق الماء لكن إنجلسايد كانت مغطّاة بالظلال. كان حفيف الأشجار مخيفًا، وعلا صوت البومة القادم

من وادي قوس المطر.

شعرت آن أنّ الصيف سعيد ثمّ تذكّرت بحزنٍ أنّ العمّة هايلاند كيتي من جلين الشماليّة قالت ذات مرّة: "لا يأتي الصيف نفسه مرّتين."

لا يأتي أبدًا نفس الصيف مرّةً ثانية، سيأتي صيْفٌ آخر، لكنّ الأطفال سيكونون أكبر قليلًا وستذهب ريلا إلى المدرسة، ففكّرت آن بحزن، لن يبقى معها أطفال في المنزل. أصبح جيم في الثانية عشرة من عمره، جيم الذي كان بالأمس طفلًا صغيرًا في منزل الأحلام القديم. كان طول والتر يزداد بسرعة، وفي ذلك الصباح بالذات سمعت نان دي تتكلّم عن صبيٍّ في المدرسة، وقد احمرّ وجهها خجلًا بالفعل وأخفضت رأسها ذي الشعر الأحمر. حسنًا، هكذا كانت الحياة، فيها فرح وألم، أملٌ وخوفٌ، وتغيير. يحدث دائمًا تغيير! لا يمكنك فعل شيءٍ حيال ذلك. عليكَ أن تتخلّى عن الماضي وتستقبل الحاضر بقلبك، تتعلّم أن تحبّه ثمّ تتركه بدوره. الربيع الذي لطالما كان جميلًا، يجب أن يخضع للصيف وعلى الصيف أن ينسحب ليأتي الخريف. ميلادٌ ثمّ فرحٌ ثمّ موت.

فكّرت آن فجأةً في سؤال والتر عمّا حدث في جنازة بيتر كيرك. لم تفكّر في الأمر لسنوات، لكنّها لم تنسه. كانت متأكّدة أنّه لم ينسى أحدٌ من الذين كانوا في الجنازة ما حدث وقتئذٍ ولن ينسوه. جلست هناك في المساء المضاء بنور القمر تتذكّر كلّ ما حدث.

حدث الأمر في شهر تشرين الثاني، أوّل تشرينٍ قضوه في إنجلسايد، بعد أسبوعٍ من أيّام الصيف الحارّة. عاش آل كيرك في موبراي ناروز ولكنّهم أتوا إلى كنيسة جلين وكان جيلبرت طبيبهم، لذلك ذهب هو وآن إلى الجنازة.

كان الطقس يومها معتدلًا وهادئًا وغائمًا كما تتذكر آن. كان لون

المنظر الطبيعيّ لشهر تشرين الثاني من حولهم بني وبنفسجي، مع بقعٍ من ضوء الشمس هنا وهناك على المرتفعات والمنحدرات حيث أشرقت الشمس من خلال الصدع في السحب. كان "كيركويند" قريبًا جدًا من الشاطئ لدرجة أنّ نسمةً من الهواء المالح كانت تهبّ عبر أشجار التنوب الغاضبة خلفه. لقد كان منزلًا كبيرًا وفاخر المظهر، لكنّ آن اعتقدت دائمًا أنّ الجملون على شكل الحرف اللاتيني "" يشبه تمامًا وجهًا طويلًا وضيّقًا وشرّيرًا.

توقفت آن للحديث إلى مجموعةٍ صغيرةٍ من النساء على العشب المتيبس الذي لم تنبت فيه الأزهار. كنّ جميعهنّ تعملن بجدّ، وكانت الجنازة بالنسبة لهنّ مثيرةً للإهتمام.

قالت زوجة السيدّ بريان بلايك بحزن: "نسيت إحضار منديلي. ماذا سأفعل عندما أبكي؟"

سألت أخت زوجها كاميلا بلايك بصدق: "لم عليك البكاء؟"

لم تحبّ كاميلا النساء اللواتي يبكين بسهولة شديدة. وأكملت: "لا علاقة لك ببيتر كيرك، وأنتِ لم تحبّيه أبدًا."

قالت السيّدة بلايك بقسوة: "أعتقد أنّه من المناسب البكاء في جنازة، لأنّه يظهر شعورك بعد استدعاء أحد الجيران إلى داره الأبديّ."

قالت السيّدة كيرتس رود ببرود: "إذا لم يبكِ أحدٌ في جنازة بيتر باستثناء أولئك الذين يحبونه، فلن تكون هناك الكثير من العيون الباكية. هذه هي الحقيقة فلماذا نخفيها ونتصنّع الحبّ؟ لقد كان عجوزًا مخادعًا ويتظاهر بالتقوى، وأنا أعرف أنّه كذلك إن كان لا أحد آخر يعلم. من تلك المرأة القادمة من البوّابة الصغيرة؟ لا تقولي لي إنّها كلارا ويلسون."

همست زوجة السيّد برايان بريبة: "إنّها هي."

قالت كاميلا بلايك: "حسنًا، بعد وفاة زوجة بيتر الأولى، أخبرته أنّها لن تدخل منزله مرّةً أخرى أبدًا إلّا حين تحضر جنازته، ولقد وفت بوعدها."

وكانت آن تنظر بفضول إلى كلارا ويلسون وهي تمشي بالقرب منهنّ، دون أن ترى أحدًا، كانت تحدّق بعينيها الملوّنتين اللّامعتين إلى الأمام مباشرة، ففسّرت لها كاميلا بأنّ كلارا هي أخت زوجة بيتر الأولى. كانت امرأةً نحيفة الجسم بحاجبين داكنين ووجهٍ قاتم وشعر أسود فوقه قلنسوة سخيفة لا تزال النساء المسنات يرتدينها، فيها بعض الريش، مع شبك منسدلٍ على الأنف. لم تنظر أو تتحدّث إلى أحد، بينما كانت تمشي بتنورتها السوداء الطويلة من قماش التفتا التي لامست العشب، وتصعد درجات الشرفة.

قالت كاميلا ساخرةً: "جيد كلينتون واقفٌ عند الباب، وتعابير الحزن تظهر على وجهه. من الواضح أنّه يعتقد أنّ الوقت قد حان لدخولنا. لقد كان دائمًا يفتخر بأنّ كلّ شيء يسير في جنازاته وفقًا للجدول الزمني. لم يغفر لويني كلو أبدًا إغماءها قبل الخطبة. لم يكن الأمر سيئًا للغاية بعد ذلك. حسنًا، ليس من المرجح أن يغمى على أحدهم في هذه الجنازة. أوليفيا ليست من الفتيات اللواتي يحدث ذلك لهنّ."

قالت السيّدة ريس:"جيد كلينتون هو متعهّد دفن الموتى في لوبريدج، لماذا لم يستدعوا متعهّد دفن الموتى في جلين؟"

"من؟ كارتر فلاج؟ السبب أيتها المرأة العزيزة، أنّ كارتر وبيتر كانا عدوّين طوال حياتهما. كما تعلمين، أراد كارتر آيمي ويلسون."

قالت كاميلا: "أرادها الكثير من الرجال، لقد كانت فتاةً جميلةً للغاية، بشعرها الأحمر النحاسيّ وعينيها السوداوتين الجميلتين. على

الرغم من أنّ الناس اعتقدوا أنّ كلارا هي الأجمل، غريبٌ أنّها لم تتزوّج أبدًا. ها قد جاء القس أخيرًا، والكاهن السيّد أوين لوبريدج معه. بالطبع هو ابن عمّ أوليفيا. لا بأس به، باستثناء أنّه يقول كلمة "آه" كثيرًا في صلاته. من الأفضل أن ندخل وإلّا سيصاب جيد بنوبة غضب."

توقفت آن للنظر إلى بيتر كيرك وهي في طريقها إلى كرسيٍّ تجلس عليه. لم تحبّه قط، وفكّرت في المرّة الأولى التي رأته فيها أنّ تعابير وجهه قاسية. إنّه وسيمٌ نعم، لكن لديه عينينِ رماديّتين حتّى أنّهما تصبحان منتفختين، وفمٌ بشفتين رقيقتين لشخصٍ بخيلٍ لا يرحم. وقد كان معروفًا بالأنانيّة والتكبّر في تعامله مع إخوانه من الرجال، رغم اعترافه بالتقوى، ورغم صلواته غير المتقنة. سمعتُ أحدهم يقول ذات مرّة: "يريد دائمًا أن يشعرنا بأهمّيته." ومع ذلك، على العموم، تمّ احترامه وتقديره.

كان متعجرفًا في وفاته كما في حياته وكان هناك أمرٌ غريبٌ بشأن أصابعه الطويلة جدًا التي تم تشبيكها على صدره الثابت ممّا جعل آن ترتجف. فكّرت لو كانت تلك الأصابع تحمل قلب امرأة ونظرت إلى أوليفيا كيرك الجالسة أمامها في حدادها. كانت أوليفيا امرأةً طويلة وجميلة وفاتنة، لديها عينان زرقاوتين كبيرتين. قال بيتر كيرك ذات مرّة: "كلّ النساء جميلات بالنسبة لي." لم تُبدِ أيّ ردّة فعل ولم تتأثر، ولم يكن هناك أثرٌ واضح لدموعها، ولكن، كانت أوليفيا امرأةً غريبةً حينها، ولم يكن الغرباء عاطفيّين. على الأقلّ جلست بتهذيب، وكانت الأرملة الأكثر حزنًا في العالم ترتدي أثقل ثياب حدادٍ.

فاحت في الهواء رائحة عطر الزهور التي كانت تغمر تابوت بيتر كيرك، الذي لم يكن يعرف الزهور أبدًا. أرسل الكثيرُ أكاليلًا من الزهور، من بينهم مكتبه والكنيسة وجمعية المحافظين وأمناء المدرسة والتشيز

بورد، لكن لم يرسل ابنه الوحيد المعزول منذ فترةٍ طويلةٍ شيئًا. عشيرة كيرك عمومًا كانت قد أرسلت مرساةً ضخمة من الورود البيضاء عليها عبارة "لترسو السفينة أخيرًا" ببراعم الورد الأحمر، وكما أحضرت أوليفيا بنفسها إكليلًا كان عبارةً عن مجموعةٍ من زنبق الكالا. ارتعش وجه كاميلا بلايك عندما نظرت إلى الإكليل وتذكّرت آن أنّها سمعت ذات مرّة كاميلا تقول إنّها كانت في كيركويند بعد فترةٍ وجيزةٍ من زواج بيتر الثاني عندما رمى بيتر من النافذة زنبق كالا محفوظ بوعاء أحضرته العروس معها. قال إنّه لم يرد أن يصبح منزله مليئًا بالأعشاب.

يبدو أنّ أوليفيا قد تعاملت مع الأمر بهدوء ولم يكن هناك المزيد من زنابق كالا في كيركويند. هل من الممكن أنّ أوليفيا... لكن آن نظرت إلى وجه السيدة كيرك الهادئ ورفضت الشكوك. في النهاية، كان بائع الزهور بشكلٍ عامّ هو من اقترح الزهور.

غنّت الجوقة "الموت مثل بحرٍ ضيّق يفصل تلك الجنّة عن أرضنا." ولفتت آن نظر كاميلا وعرفت أنّهما كانتا تتساءلان تمامًا عن كيف من الممكن أن يدخل بيتر كيرك الجنّة. كادت آن تسمع كاميلا وهي تقول: "تخيّلي بيتر كيرك بقيثارةٍ وهالةٍ إذا كنتِ تجرؤين."

قرأ الكاهن السيد أوين فصلًا وصلّى ذاكرًا كلمة "آه" مرّاتٍ كثيرة والعديد من التضرعات التي قد تريح القلوب الحزينة. قدّم قسّ جلين خطابًا اعتبره الكثيرون في السر مفرطًا للغاية، حتّى أنّه أجاز حقيقة أنّه لا بدّ من قول شيئًا جيدًّا عن الموتى. لقد شعروا أنّ القول إنّ بيتر كيرك هو أبٌ حنون وزوجٌ صالح وجارٌ طيّب ومسيحيٌّ مخلص كانت إساءة لاستخدام اللّغة. احتمت كاميلا بمنديلها، حتّى لا تذرف الدموع، وسعل ستيفن ماكدونالد مرّة أو مرّتين. لابدّ أنّ السيّدة برايان استعارت منديلًا من شخصٍ ما، لأنّها كانت تستخدمه وهي تبكي، لكنّ عينيّ

أوليفيا الزرقاوين اللتين كانت تنظر بهما إلى أسفل، لم تدمعان.

أخذ جيد كلينتون نفسًا بعد شعوره بالارتياح، فكلّ شيءٍ سار بشكلٍ جميل. ترنيمةٌ أخرى، ثمّ المسيرة المعتادة لإلقاء نظرةٍ أخيرةٍ على "الرفات"، وستضاف جنازة ناجحة أخرى إلى قائمته الطويلة.

كان هناك اضطرابٌ طفيفٌ في زاويةٍ من الغرفة الكبيرة وشقّت كلارا ويلسون طريقها عبر متاهة الكراسي إلى الطاولة بجانب النعش، استدارت هناك وواجهت الجمعيّة. انزلقت قبّعتها السخيفة إلى جانبٍ واحد، وظهر طرفٌ من شعرها الأسود الكثيف منها وتدلّى على كتفها. لكن لا أحد يعتقد أنّ كلارا ويلسون بدت سخيفة. كان وجهها الشاحب الطويل محمرًّا، وعيناها الحزينتين مشتعلتين. كان دمها يغلي، يبدو أنّ المَرارة، مثل بعض الأمراض المستعصية المزمنة تتغلغل في كيانها.

"لقد استمعتم إلى مجموعةٍ من الأكاذيب، أنتم أيها الأشخاص الذين أتيتم إلى هنا لتقديم احترامكم، أو إشباع فضولكم، أيّهما كان. الآن سأخبركم بالحقيقة بشأن بيتر كيرك. أنا لست منافقةً، لم أخف منه أبدًا عندما كان على قيد الحياة ولا أخافه الآن بعد وفاته. لم يجرؤ أحدٌ على قول الحقيقة عنه في وجهه ولكن سأقولها الآن، هنا في جنازته حيث تمّت تسميته بالزوج الصالح والجار الطيّب. زوجٌ صالح! تزوّج أختي آيمي، أختي الجميلة آيمي. كلّكم تعلمون كم كانت لطيفةً وجميلة. لقد جعل حياتها بائسة، عذبها وأهانها، وكان يستمتع بذلك. آه، كان يذهب إلى الكنيسة بانتظام ويصلّي صلواتٍ طويلة ويسدّد ديونه. لكنّه كان طاغيةً ومتنمّرًا، حتّى أنّ كلبه كان يهرب عندما يسمع صوت خطواته.

"أخبرت آيمي أنها ستندم على الزواج به. لقد ساعدتها في صنع فستان زفافها، كنت أفضّل أن أصنع كفنها. لقد كانت المسكينة مجنونةً

به في ذلك الوقت، لكنّها لم تكن تعرف حقيقته إلّا بعد أن مرّ أسبوعٌ على زواجهما. كانت والدته عبدة وكان يتوّقع أن تكون زوجته مثلها. قال لها: "لن يكون هناك جدالٌ في بيتي." لم تكن تحبّ الجدال، كان قلبها مكسورًا. آه، أعرف ما مرّت به حبيبتي الجميلة المسكينة. لقد تعدّى حدوده معها في كلّ شيء. لم يكن بإمكانها الحصول على حديقة زهور، ولم يكن بإمكانها حتى الحصول على قطّة، لقد أعطيتها قطّةً فأغرقها. كان عليها أن تدفع له عن كلّ سنتٍ تنفقه. هل سبق لأيٍّ منكم رؤيتها بملابس لائقة؟ كان يمنعها من ارتداء أفضل قبعاتها عندما يتوقّع أن تمطر. لا يمكن للمطر أن يفسد أي قبعة، الفتاة المسكينة، وهي التي كانت تحب أن ترتدي أجمل الملابس! كان دائمًا يسخر من شعبها.

لم يضحك أبدًا في حياته. هل سمعه أحدٌ منكم حقًّا يضحك؟ نعم، لقد كان يبتسم دائمًا بهدوء ولطف عندما كان يفعل أكثر الأمور جنونًا. ابتسم عندما أخبرها بعد وفاة طفلها الصغير أنّها كان من الممكن أن تموت هي أيضًا لو كان لديها طفلٌ شقيّ. ماتت بعد عشر سنواتٍ من ذلك، وكنت سعيدةً لأنّها ارتاحت منه. أخبرته أنّني لن أدخل منزله مرّةً أخرى إلّا لحضور جنازته، وسمعني البعض منكم عندما قلت ذلك، ولقد وفيت بوعدي والآن أتيت وأخبرتكم حقيقته." ثمّ قالت مشيرةً إلى ستيفن ماكدونالد: "إنّها الحقيقة، أنت تعرف ذلك." وكرّرت الكلام نفسه مشيرةً إلى كاميلا بلايك وأوليفيا كيرك التي لم تحرّك ساكنًا، وإلى القس المسكين الذي شعر كما لو أنّها طعنته بإصبعها. أكملت: "بكيت في حفل زفاف بيتر كيرك لكنّني أخبرته أنّني سأضحك في جنازته، وحقًّا سأفعل ذلك."

مشت بغضبٍ وانحنت فوق النعش. انتقمت من أخطائه التي استمرّت لسنوات. وشفت غليل غضبها أخيرًا. اهتزّ جسدها كلّه بالنصر

والرضا وهي تنظر إلى الوجه الهادئ البارد لرجلٍ ميّت. كان الجميع ينتظر ضحكة الانتقام، لكنّها لم تضحك. تغيّر وجه كلارا ويلسون الغاضب فجأةً، وانهارت مثل طفلةٍ صغيرة. بكت كلارا، وانهمرت الدموع الحارقة من عينيها.

استدارت ولا تزال الدموع تتدفق على خديها المجعّدين لتغادر الغرفة. لكنّ أوليفيا كيرك نهضت أمامها ووضعت يدها على ذراعها. للحظة، نظرت المرأتان إلى بعضهما البعض. ساد الصمت في الغرفة وبدا وكأنّه مشهد ملحمي.

قالت أوليفيا كيرك: "شكرًا لكِ يا كلارا ويلسون." كان وجهها غامضًا أكثر من أيّ وقتٍ مضى، لكن كان صوتها منخفضًا وهادئًا، جعل آن ترتجف. شعرت وكأنّ حفرةً انفتحت فجأة أمام عينيها. قد تكره كلارا ويلسون بيتر كيرك، حيًّا وميّتًا، لكنّها شعرت أنّ كُرهها له كان ضئيلًا مقارنةً بكُرهِ أوليفيا كيرك له.

خرجت كلارا وهي تبكي، مارّةً بجانب جيد المحدّق بعد أن أُفسِدت إحدى جنائزه. كان القسّ ينوي إعلان ترنيمةٍ أخيرة "نائمٌ في يسوع"، لكنّه قرّر عدم فعل ذلك وأعلن ببساطة منح البركة مرتعشًا. ولم يُصدر جيد الإعلان المعتاد أنّ بإمكان الأصدقاء والأقارب أن يلقوا نظرة فراقٍ الآن على "الرفات". شعر أنّ الأمر الوحيد اللائق الذي ينبغي له فعله هو إغلاق غطاء التابوت في الحال ودفن بيتر كيرك بعيدًا عن الأنظار في أسرع وقتٍ ممكن.

أخذت آن نفسًا طويلًا وهي تنزل درجات الشرفة، وشعرت أنّ الهواء النقيّ البارد جميل، بعد خروجها من تلك الغرفة الخانقة المعطرة حيث كان الألم يعذّب امرأتين أمامها.

كان طقس ما بعد الظهر باردًا وغائمًا أكثر. ومجموعاتٌ صغيرةٌ من

الناس هنا وهناك على العشب تناقش ما حدث بهمس. لا يزال من الممكن رؤية كلارا ويلسون وهي تعبر حقل أعشابٍ يابسة في طريقها إلى المنزل.

قال نيلسون بذهول: "حسنًا، ألم يصدمنا ما حدث؟"

قال الشيخ باكستر: "هذا مروّع، إنّها صدمة!"

استفسر هنري ريس: "لماذا لم يوقفها أحدنا؟"

ردّت كاميلا: "لأنّكم جميعًا أردتم سماع ما ستقوله."

سمع العمّ ساندي ماكدوغال كلمةً جديدةً أعجبته خلال تواجده في الكنيسة وصار يكرّرها فقال: "لم يكن ذلك لائقًا، ليس لائقًا. يجب أن تكون الجنازة لائقةً مهما حدث، لائقة."

قال أوغسطس بالمر: "يا إلهي، أليست الحياة مضحكة؟"

قال العجوز جيمس بورتر بتأمّل: "أذكر عندما أصبح بيتر وآيمي أصدقاء، كنت أتودّد إلى امرأتي في نفس الشتاء. كانت كلارا امرأةً حسنة المظهر آنذاك. وكانت تصنع فطيرة كرزٍ لذيذة للغاية."

قال بويس وارين: "كانت دائما فتاةً سليطة اللسان، توقّعتُ أن تفجّر لنا مفاجأةً من نوعٍ ما عندما رأيتها قادمة، لكنّني لم أتخيّل أبدًا أن تكون بهذا الشكل. وأوليفيا! هل كنتم تتوقّعون حدوث ذلك؟ النساء غريبات للغاية."

قالت كاميلا: "ستكون قصةً رائعة نتذكرها لبقيّة حياتنا. في النهاية، أعتقد أنّه إذا لم تحدث أمورٌ مثل هذه، فسيكون التاريخ مملًّا."

جمع جيد اليائس حاملي النعش فحملوا التابوت، وعندما انطلقت عربة الموتى أسفل الممر، تبعها موكبٌ من العربات التي كانت تسير ببطء، وسُمع صوت كلبٍ يعوّي حزنًا في الحظيرة. ربّما بعد كلّ شيء، حزِن كائنٌ حيٌّ واحدٌ على بيتر كيرك.

انضمّ ستيفن ماكدونالد إلى آن بينما كانت تنتظر جيلبرت. كان رجلًا طويل القامة من جلين الشماليّة برأسٍ يشبه رأس إمبراطورٍ رومانيٍّ قديم. كانت آن تحبّه دائمًا.

قال "يبدو أنّها ستثلج، ويبدو لي أنّ شهر تشرين الثاني هو شهر الحنين إلى الوطن. هل تشعرين بهذا يا سيّدة بلايث؟ "

"نعم، نفتقد الربيع الذي ولّى."

"الربيع... الربيع! سيّدة بلايث، أنا أتقدّم في السن. أجد أنّني أتخيّل أن الفصول تتغير، الشتاء ليس كما كان، ولا أميّز الصيف، أمّا الربيع، فلا ربيع الآن. على الأقلّ، هذا ما نشعر به عندما لا يعود الناس الذين اعتدنا على معرفتهم لمشاركة الفصول معنا. مسكينةٌ كلارا ويلسون الآن، ما رأيك في كلّ ما حصل؟"

"آه، كان ذلك مفجعًا. تلك الكراهيّة..."

"نعم كما ترين، كانت تحبّ بيتر منذ فترةٍ طويلة، كانت تهيم به. كانت كلارا الفتاة الأكثر جمالًا في موبراي ناروز، بشعرها المجعّد الداكن على وجهها الأبيض، لكنّ آيمي كانت فتاةً ضاحكةً ومرحة. تخلّى بيتر عن كلارا وارتبط بآيمي. غريبةٌ هي طبيعة البشر يا سيّدة بلايث. "

سُمعت ضجّةٌ غريبةٌ قادمةٌ من أشجار التنوب التي مزّقتها الرياح خلف كيركويند. بعيدًا، وبعد أن هبّت عاصفةٌ ثلجيّة، ارتدى التلّ ثوبه الأبيض، حيث كان صفٌ من اللومبارديين يسير تحت السماء الرماديّة. كان الجميع يسارعون للفرار قبل أن تصل العاصفة إلى موبراي ناروز.

تذكّرت آن عينيّ أوليفيا كيرك وهي تشكر كلارا ويلسون فتساءلت آن أثناء العودة إلى المنزل: "هل لي الحقّ في أن أكونَ سعيدةً في حين النساء الأخريات في غاية البؤس؟"

نهضت آن من عندِ نافذتها، حدثت القصة منذ اثني عشر عامًا تقريبًا. ماتت كلارا ويلسون وذهبت أوليفيا كيرك إلى الساحل حيث تزوّجت مرّةً أخرى. كانت أصغر بكثيرٍ من بيتر.

فكّرت آن أنّ الوقت يشفي أكثر ممّا نعتقد، وإنّه لخطأ فظيعٌ أن نعتز بالكراهيّة لسنوات، وأن نحتفظ بها في قلوبنا وكأنّها شيءٌ ثمين. لكنّها تعتقد أنّ ما حدث في جنازة بيتر كيرك هي قصّةٌ لا يجب أن يعرفها والتر أبدًا. فلم تكن بالتأكيد قصّةً للأطفال."

***

34



جلست ريلا على درج الشرفة في إنجلسايد واضعةً إحدى ساقيها على الأخرى. كانت تملك ساقين سمينتين سمراوين قليلًا وطريفتين! كانت مشغولةً جدًّا بحزنها. وإذا تساءلتم عن سبب حزن الطفلة الصغيرة فلقد نسيتم طفولتها عندما كانت أبسط تفاهات الكبار مآسي مظلمة ومروّعة بالنسبة لها. دخلت ريلا في عالمٍ من اليأس لأنّ سوزان أخبرتها أنّها ستخبز إحدى كعكاتها الفضية والذهبية لدار الأيتام في ذلك المساء وعلى ريلا حملها إلى الكنيسة في فترة ما بعد الظهر.

لا تسألوني لماذا شعرت ريلا بأنّها تفضل الموت على حمل كعكة عبر القرية إلى كنيسة جلين سانت ماري المشيخية. لدى الأطفال أفكارٌ غريبةٌ في بعض الأحيان، وبطريقةٍ ما، كانت لدى ريلا فكرة أنّ رؤيتها وهي تحمل كعكةً في مكانٍ ما كان أمرًا فاضحًا ومهينًا. ربّما كان سبب ذلك أنّها ذات يوم عندما كانت في الخامسة من عمرها فقط، قابلت العجوز تيلي بايك وهي تحمل كعكةً في الشارع مع جميع أولاد القرية الصغار وهم يصرخون عليها ويسخرون منها. عاشت العجوز تيلي في هاربور ماوث وكانت امرأةً عجوزًا شعثاء وقذرة للغاية.

هتف الأولاد:

" تيلي بايك العجوز
وقفت وسرقت كعكة
تسبب لها ألمًا في المعدة."

لم تستطع ريلا تحمّل أن تُصنّف مع تيلي بايك. أصبحت الفكرة في ذهنها مفادها أنّها لا يمكن لها أن تكون سيّدة وتحمل الكعك. لذلك جلست بهدوءٍ على السلّم وكان فمها الصغير، ذو السنّ الأماميّ المفقود بدون ابتسامته المعتادة. فبدلًا من أن تبدو كما لو أنّها تتأمّل أزهار النرجس البري وتفهمها أو كما لو أنّها شاركت الوردة الذهبية سرًا بينهما، بدت وكأنّها طفلةٌ محطّمةٌ إلى الأبد. كانت عيناها العسليتان الكبيرتان اللتان تغمضان عندما تضحك جذابتيّن بالعادة، لكنّهما عندئذٍ كانتا حزينتين ومعذبتين.

قالت لها العمّة كيتي ماكاليستر ذات مرّة: "وكأنّ الجنيّات لمست عينيك." وأقسم والدها بأنّها وُلدت فاتنة وابتسمت للطبيب باركر بعد نصف ساعةٍ من ولادتها. تستطيع ريلا حتى الآن، التحدث بعينيها بطريقةٍ أفضل من لسانها، لأنّها كانت تعاني من لثغة واضحة. لكنّها ستتخطّى ذلك، فلقد كانت تنمو بسرعة. في العام الماضي، كان والدها قد قاس طولها بواسطة غصن الورد، وهذا العام بغصن الفلوكس، وقريبًا سيستخدم النباتات الخطميّة لقياسها، وهذا يدلّ على أنّها ستكون طويلةً بشكلٍ كافٍ لتذهب إلى المدرسة. كانت ريلا سعيدةً للغاية ومكتفية جدًا بنفسها حتى جاء هذا الخبر الرهيب من سوزان. رفعت ريلا رأسها إلى السماء بسخط، وقالت إنّ سوزان لا تعرف معنى الشعور بالعار. من المؤكّد أنّ ريلا لفظتها "الثعور بالعار" لكن بدا أنّ السماء الزرقاء الجميلة فهمت قصدها.

ذهب الوالدان إلى شارلوت تاون في ذلك الصباح، وكان جميع الأطفال الآخرين في المدرسة، لذلك كانت ريلا وسوزان وحدهما في إنجلسايد. في العادة، تكون ريلا مسرورةً في مثل هذه الظروف. فلم تكن تشعر بالوحدة أبدًا، بل كانت تسعد بالجلوس هناك على الدرج أو على حجرها الأخضر المطحلب في وادي قوس المطر، مع قطّةٍ خرافيّةٍ أو اثنتين لترافقانها، وتصنع الخيالات حول كلّ ما تراه عيناها كزاوية العشب التي بدت وكأنّها أرضٌ صغيرةٌ من الفراشات، وأزهار الخشخاش تطفو فوق الحديقة، وتلك السحابة العظيمة وحدها في السماء، والنحل الطنّان الكبير يحوم فوق أزهار الكبوسين، زهرة العسل التي تتدلّى لتلمس شعرها الأحمر والبنيّ بإصبعٍ أصفر، والريح التي هبت، إلى أين تتجّه؟ وترى كوك روبن، الذي عاد مرّةً أخرى وراح يتبختر على طول درابزين الشرفة، متسائلًا لماذا لا تلعب ريلا معه، ريلا التي لم تكن تفكّر سوى في الحقيقة الرهيبة بأنّها يجب أن تحمل كعكةً وهي تعبر القرية إلى الكنيسة للاجتماع الذي كانوا يقيمونه من أجل الأيتام. كانت ريلا تدرك جيّدًا أنّ دار الأيتام كانت في لوبريدج وأنّ أطفالًا صغارًا فقراء يعيشون هناك وليس لديهم آباءٌ أو أمّهات. شعرتْ بالأسف الشديد عليهم، ولكن حتّى من أجل الأيتام لم تكن الصغيرة ريلا بلايث مستعدّةً لأن تُرى في الأماكن العامّة وهي تحمل كعكة.

ربّما إذا هطل المطر فلن تضطرّ إلى الذهاب. لم يكن الجوّ يوحي بأنّ السماء ستمطر، لكنّ ريلا شبكت يديها بأصابعها السمينة الظريفة، وقالت بصدق:

"أرذوك يا الله، اذعلها تمطر كثيرًا. اذعلها تمطر بغذارة."

ثمّ فكّرت ريلا في حلٍّ آخر ينقذها وقالت "أو اذعل كعكة ثوذان

تحترق... تحترق بشدّة."

للأسف، عندما جاء وقت العشاء، كانت الكعكة التي صُنعت بإتقان، ممتلئة ومثلجة، موضوعةً على طاولة المطبخ. كانت "كعكة الذهب والفضة" كعكة ريلا المفضلة، وكانت تبدو فاخرةً للغاية، لكنّها شعرت أنها لن تستطيع أبدًا أن تأكلها مرّةً أخرى.

ألم يكن ذلك صوت الرعد الذي سمع من فوق التلال المنخفضة عبر الميناء؟ ربما سمع الله دعاءها، وربّما سيحدث زلزالٌ قبل أن يحين وقت ذهابها إلى الكنيسة. ألا تستطيع أن تتظاهر بألمٍ في معدتها في أسوأ الأحوال؟ كلّا، ارتجفت ريلا، فإن تظاهرت بذلك ستعطيها سوزان زيت الخروع، لذلك كانت تفضّل الزلزال!

لم يلاحظ بقيّة الأطفال أنّ ريلا كانت هادئةً للغاية وهي جالسة على كرسيّها العزيز، مع البطة البيضاء الجميلة المصنوعة من الصوف. يا لهم من أطفالٍ أنانيّين! لو كانت الأمّ في المنزل لكانت لاحظت هدوءها، فقد لاحظت على الفور كم كانت مضطربةً في ذلك اليوم المروّع عندما ظهرت صورة الأب في صحيفة إنتربرايز. كانت ريلا تبكي بمرارةٍ في فراشها عندما جاءت أمّها واكتشفت أنّ طفلتها اعتقدت أنّ الصحف تعرض فقط صور القتلة. لم تستغرق آن وقتًا طويلًا في إعادة الوضع لما كان عليه وتهدئة من روع ريلا. هل تودّ الأمّ أن ترى ابنتها تحمل كعكةً في جلين مثل تيلي بايك العجوز؟

وجدت ريلا صعوبةً في تناول العشاء، على الرغم من أنّ سوزان قد وضعت طبقها الأزرق الجميل، الذي أرسلته لها العمّة ريتشل ليند في عيد ميلادها الأخير، مع إكليلٍ من براعم الورد عليه، والذي كان مسموحًا لها عمومًا باستخدامه في أيّام الأحد فقط. فكّرت ريلا بأنّه غريبٌ أن يُقدَّم لك الصحن الأزرق وبراعم الورد، عندما يكون عليك

أن تفعل أمرًا مهينًا! ومع ذلك، كانت فطائر الفاكهة التي أعدّتها سوزان للتحلية لذيذة.

ناشدت ريلا سوزان قائلةً: "ثوذان، ألا تــثــتطيع نان ودي أن تأخذا الكعكة بعد المدرثة؟"

ظنّت سوزان بأنّ ريلا كانت تمزح فقط وقالت: "دي ذاهبة إلى منزل جيسي ريس ونان تعاني ألمًا في ساقها. بالإضافة إلى أنّه سيكون قد فات الأوان. اللجنة تريد جميع الكعك بحلول الساعة الثالثة حتى تتمكّن من تقطيعها وترتيب الطاولات قبل عودتهم إلى المنزل لتناول العشاء. لماذا لا تريدين الذهاب أيتها الطفلة ممتلئة الجسم؟ تحبّين دائمًا الذهاب لإرسال البريد."

كانت ريلا ممتلئة الجسم قليلًا لكنّها كرهت أن يقول لها أحدٌ ذلك.

أوضحت بجديّة: "لا أريد أن أجرح مشاعري."

ضحكت سوزان. بدأت ريلا تقول أشياء تضحك الأسرة، ولم تفهم أبدًا سبب ضحكهم لأنّها كانت دائمًا جادّةً في كلامها. وحدها آن لم تضحك، حتّى عندما اكتشفت أنّ ريلا تعتقد أنّ أبيها قاتل لم تضحك على أفكارها.

أوضحت سوزان: "الهدف من الاجتماع هو كسب المال للصبية والبنات الفقراء الذين ليس لديهم أيّ آباءٌ أو أمّهات." تحدّثت سوزان وكأنّ ريلا طفلةٌ لا تفهم!

قالت ريلا: "أنا أقرب إلى اليتيمة، ليس لديّ ثوى أب واحد وأم واحدة."

ضحكت سوزان مرّةً أخرى، يبدو أنّ لا أحد كان يفهمها.

"أنتِ تعرفين أنّ والدتك وعدت اللّجنة بهذه الكعكة يا صغيرتي. ليس لديّ وقتٌ لأخذها بنفسي ويجب أن يحصلوا عليها، لذا ارتدي

جبهامكِ الأزرق وانطلقي."

قالت ريلا بيأس: "أثيبت دميتي بالمرض. يجب أن أضعها في الفراش وأبقى معها. ربما تعاني ذيادة في الأمونيا."

شعرت ريلا أنّ سوزان ردّت ببرودٍ وقسوة عندما قالت: "ستكون دميتك بخيرٍ حتى تعودي. يمكنك الذهاب والعودة في غضون نصف ساعة."

لم يكن هناك أمل. حتى أنّ الله لم يستجب لدعواتها، فلم تكن هناك علامةٌ على هطول الأمطار. صعدت ريلا، التي كانت على وشك البكاء ما منعها من الاعتراض أكثر، ووضعت ثوب سموكينج قطنيّ جديد والقبّعة التي ترتديها كلّ أحد، المزيّنة بأزهار الأقحوان. ربّما لو بدت أنيقة، لن يعتقد الناس أنّها مثل العجوز تيلي بايك.

قالت لسوزان باعتزاز: "أعتقد أنّ وجهي نظيف، لكن هل يمكنكِ من فضلكِ أن تتأكّدي ما إذا كان خلف أذناي نظيفًا؟"

كانت خائفةً من أن توبّخها سوزان لارتدائها أفضل فستانٍ وقبّعة. لكنّ سوزان تفحّصت أذنيها فقط، وسلّمتها سلّةً فيها الكعكة، وأخبرتها أن تكون مأدّبة وتوسّلت إليها ألّا تتوقّف للتحدّث إلى كلّ قطةٍ تلتقي بها.

ظهرت تعابير التمرّد على وجه ريلا وهي تنظر إلى يأجوج ومأجوج وذهبت. نظرت إليها سوزان بحنان.

عادت سوزان إلى العمل غير مدركةٍ للعذاب الذي كانت تسبّبه للطفلة الصغيرة وهي التي كانت مستعّدة للتضحية بحياتها من أجلها، فكانت تفكّر بحزنٍ وفخرٍ في آنٍ واحد بأنّ الطفلة أصبحت كبيرةً بما يكفي لتحمل كعكةً بمفردها إلى الكنيسة.

آخر مرّةٍ شعرت فيها ريلا بالخوف الشديد كانت عندما نامت في

الكنيسة وسقطت عن الكرسيّ. كانت تحب النزول إلى القرية عادةً، فلقد كانت فيها الكثير من الأمور الممتعة التي يمكن رؤيتها، ولكن في ذلك اليوم، لم تلق ريلا أيّة نظرةٍ على حبل غسيل الملابس الرائع الخاص بزوجة السيد كارتر فلاج، مع كلّ تلك الألحفة الجميلة المعلّقة عليه، ولم تتأثّر أبدًا بالغزال الحديديّ الجديد الذي وضعه السيد أوغسطس بالمر في ساحته. لم تكن قد مرّت به من قبل دون أن تتمنّى أن يكون لديهم مثله على العشب في إنجلسايد. ولكن لم يكن يهمّها أبدًا الآن غزال حديديّ. تدفقت أشعة الشمس الحارقة على طول الشارع مثل النهر وكان الجميع في الخارج. مرّت فتاتان تهمسان لبعضهما البعض. هل كان حديثهما عنها؟ لقد تخيّلت ما قد تقولان. حدّق فيها رجلٌ يقود على طول الطريق. كان يتساءل حقًا عما إذا كانت هذه الطفلة ابنة بلايث، وقد ذُهِل هذا الرجل الذي يدعى جورج بجمالها! لكنّ ريلا شعرت بأنّه استطاع اختراق السلة بعينيه ورؤية الكعكة. وعندما مرّت آني درو مع والدها، كانت ريلا متأكّدة أنّها كانت تضحك عليها. كانت آني درو في العاشرة من عمرها وكانت فتاةً كبيرةً جدًا في عينيّ ريلا.

ثم كان هناك حشدٌ كاملٌ من الفتيان والفتيات في ركن راسل. كان عليها أن تمشي بجانبهم. وكان أمرًا مروّعًا أن تشعر أنّهم كانوا ينظرون إليها ثمّ إلى بعضهم البعض. مرت بجوارهم بفخرٍ لدرجة أنّهم اعتقدوا جميعًا أنّها فتاةٌ متعالية ويجب أن تتواضع قليلًا. سيبرهنون لتلك الطفلة التي تشبه القطة بأنّهم أفضل منها! متكبّرة مثل كلّ فتيات إنجلسايد! فقط لأنّهن يعشن في المنزل الكبير!

تبخترت ميلي فلاج خلفها، مقلّدةً مشيتها فسببت سحبًا من الغبار فوق كلتيهما.

صاح سليكي درو: "أين تذهب الطفلة بتلك السلّة؟"

سخر بيل بالمر: "هناك لطخةٌ على أنفك، يا ذات الوجه الملطّخ بالمربّى."

قالت سارة وارين: "هل أكلت القطة لسانك؟"

سخرت بيني بنتلي: "أنتِ نكرة!"

توقف سام فلاج الضخم عن قضم الجزرة النيئة لفترةٍ كافية ليقول: "ابقي على جانبك من الطريق وإلّا سأجعلكِ تأكلين خنفساء."

قالت مامي تايلور ضاحكةً: "انظروا إلى وجهها وهو يحمرّ خجلًا."

قال تشارلي وارن: "أراهن أنّك ستأخذين كعكة إلى الكنيسة المشيخية، نصف عجينةٍ مثل كلّ كعكات سوزان بيكر."

لن يدع الكبرياء ريلا تبكي، لكن كان هناك حدٌّ لما يمكن للمرء أن يتحمّله. في النهاية، لقد تكلّموا بالسوء عن كعكة إنجلسايد.

قالت بجرأة: "في المرّة القادمة التي يكون فيها أيٌّ منكم مريضًا، سأخبر والدي ألّا يعطيه أيّ دواء."

ثمّ حدّقت في فزع. لا يمكن أن يكون ذلك كينيث فورد القادم من زاوية طريق المرفأ! لا يمكن أن يكون هو! كان هو!

لم يكن ذلك يُحتمل. كان كين ووالتر صديقين وريلا اعتقدت في قلبها الصغير أنّ كين كان ألطف وأوسم فتى في العالم بأسره. نادرًا ما كان ينتبه لها، على الرغم من أنه مرّةً أعطاها بطّةً مصنوعةً من الشوكولاتة. وفي أحد الأيام التي لا تُنسى، جلس بجانبها على حجرٍ مطحلبٍ في وادي قوس القزح وأخبرها قصّة "الدببة الثلاثة والبيت الصغير في الغابة". لكنها كانت راضية بالحبّ من بعيد. والآن أمسكها هذا المخلوق الرائع وهي تحمل كعكة!

"عجبًا يا ممتلئة الجسم! الحرّ شديد، أليس كذلك؟ آمل أن أحصل

على قطعةٍ من تلك الكعكة الليلة."

إذًا عرف أنّها كانت كعكة! الجميع عرف ذلك!

كانت ريلا تمر عبر القرية وتعتقد أنّ الأسوأ قد انتهى عندما حدث الأسوأ، نظرت إلى أسفل الطريق الجانبي ورأت معلمتها في سانداي سكول، الآنسة آيمي باركر، قادمةً على طول الطريق. كانت الآنسة آيمي باركر لا تزال على مسافةٍ بعيدةٍ لكنّ ريلا عرفتها من فستانها، ذلك الفستان المصنوع من قماش الأورجاندي ذي اللون الأخضر الفاتح وعليه مجموعاتٌ من الزهور البيضاء الصغيرة، كانت ريلا قد أطلقت عليه سرًّا "فستان زهرة الكرز". ارتدته الآنسة آيمي في مدرسة سانداي الأحد الماضي وظنّت ريلا أنّه أجمل فستانٍ رأته على الإطلاق. لكنّ الآنسة آيمي كانت ترتدي دائمًا مثل هذه الفساتين الجميلة. كانت أحيانًا ترتدي فساتين مصنوعة من الدانتيل ومكشكشة، وأحيانًا فساتين من الحرير.

كانت ريلا تعشق الآنسة آيمي. كانت جميلةً ولطيفةً للغاية، ببشرتها الشديدة البياض وعينيها البنيّتين وابتسامتها الحزينة الحلوة. تعتقد ريلا أنّ ابتسامتها حزينة لأنّ فتاةً صغيرةً أخرى همست لها ذات يوم، أنّ الرجل الذي كانت ستتزوّجه الآنسة آيمي قد مات. كانت سعيدةً للغاية لأنّها كانت في فصل الآنسة آيمي. كانت تكره أن تكون في فصل الآنسة القبيحة فلوري فلاج، فلا تستطيع ريلا تحمّل معلّمةٍ قبيحة.

عندما قابلت ريلا الآنسة آيمي خارج سانداي سكول وابتسمت الآنسة آيمي وتحدثت معها، شعرت ريلا أنّ تلك اللحظة كانت إحدى اللحظات المميزة في حياتها. وعندما أومأت لها الآنسة آيمي برأسها في الشارع فأحسّت ريلا بابتهاجٍ غريبٍ ومفاجئ، وعندما دعت الآنسة آيمي كلّ فصلها إلى حفلة فقاعات الصابون، حيث جعلوا الفقاعات

حمراء بعصير الفراولة، أحسّت ريلا بأنّها في نعيمٍ مطلق.

لكن لم تكن ريلا تتحمّل لقاء الآنسة آيمي، وهي تحمل الكعكة. إلى جانب ذلك، كانت الآنسة آيمي ستبتكر حوارًا لحفل مدرسة سانداي الأحد المقبل وكانت ريلا تأمل سرًّا أن تطلب الآنسة منها أن تأخذ دور الجنيّة فيه، جنيةٌ ترتدي ملابس قرمزيّة اللون مع قبّعةٍ خضراء صغيرة. ولكن لن يكون هناك فائدة من الأمل في ذلك إذا رأتها الآنسة تحمل كعكة.

لن تدع ريلا الآنسة آيمي تراها! كانت تقف على الجسر الصغير فوق النهر، والذي كان عميقًا جدًا وأشبه بجدولٍ هناك. انتزعت الكعكة من السلة وألقتها في النهر حيث التقت أشجارٌ فوق بركةٍ مظلمة. قُذفت الكعكة من خلال الأغصان وسقطت في الماء. شعرت ريلا بالراحة والحريّة والنجاة، عندما التفتت للقاء الآنسة آيمي، التي رأت الآن أنّها كانت تحمل طردًا من الورق البنيّ كبير الحجم. ابتسمت الآنسة آيمي لها من تحت قبّعةٍ خضراء صغيرة عليها ريشةٌ برتقاليّة صغيرة.

لهثت ريلا بحبّ: "آه، أنت جميلة يا معلّمتي، جميلةٌ للغاية."

ابتسمت الآنسة آيمي مرّةً أخرى. حتى عندما كان قلبها مكسورًا، كانت الآنسة آيمي تسعد بمثل هذا الثناء الصادق.

"أتوقّع إنّها القبعة الجديدة يا عزيزتي. كما تعلمين، ريشها فاخر ." ثمّ ألقت نظرةً خاطفة على السلّة الفارغة وقالت: " أفترض أنّك كنتِ تأخذين كعكتك من أجل الاجتماع. للأسف أنّكِ جئت ولستِ ذاهبة الآن. أنا ذاهبة لأعطيهم كعكتي، إنّها كعكة شوكولاتة كبيرة وطريّة."

حدّق ريلا في شفقةٍ غير قادرةٍ على النطق بكلمةٍ واحدة. كانت الآنسة آيمي تحمل كعكة، لذلك لا يعقل أن يكون حمل الكعكة أمرًا مهينًا. آه، ماذا فعلت؟ لقد ألقت كعكة سوزان الجميلة، كعكة الذهب

والفضة في الجدول وقد أضاعت فرصة الصعود إلى الكنيسة مع الآنسة آيمي حيث كانت كلتاهما ستحملان الكعك!

بعد أن ذهبت الآنسة آيمي، ذهبت ريلا إلى المنزل وفي قلبها سرٌّ رهيب. جلست في وادي قوس المطر حتى وقت العشاء، حين لم يلاحظ أحدٌ أنها كانت هادئة جدًا.

كانت خائفةً للغاية من أن تسألها سوزان لمن أعطت الكعكة ولكن لم يسألها أحدٌ أسئلةً محرجة. بعد العشاء، ذهب الآخرون للّعب في وادي قوس المطر، لكنّ ريلا جلست بمفردها على الدرج حتى غروب الشمس، وكان الجوّ عاصفًا وكانت السماء ذهبيّة اللون خلف إنجلسايد، وظهرت الأضواء في القرية أدناه. كانت ريلا دائمًا تحبّ مشاهدة الأضواء تلمع هنا وهناك، في جميع أنحاء جلين، لكنّها الليلة لم تكن مهتمّةً بأيّ شيء. لم تكن أبدًا حزينةً هكذا في حياتها.

هي فقط لا ترى كيف يمكنها الاستمرار في العيش. أصبحت السماء أرجوانيّة اللون وكانت لا تزال حزينةً أكثر. شمّت رائحة كعك سكّر القيقب، فلقد انتظرت سوزان برودة المساء لتخبز للعائلة، لكنّ كعكات سكّر القيقب كانت مجرد تفاخر، مثل أيّ طعامٍ آخر.

صعدت الدرج بائسةً وذهبت إلى الفراش لتنام تحت لحاف الزهور الوردية الجديد الذي كانت تفتخر به ذات يوم. لكّنها لم تستطع النوم، فكان شبح الكعكة التي غرقت لا زال يطاردها.

كانت الأمّ قد وعدت اللجنة بهذه الكعكة، ماذا سيكون رأيهم في أمّها حين لا إرسالها؟ وربّما كانت ستبدو أجمل كعكةٍ هناك! لم تسمع ريلا سوى صوت الريح في تلك الليلة. شعرت وكأنّ الريح توبّخها، كما لو كانت تقول لها مرارًا وتكرارًا: "سخيفة... سخيفة... سخيفة."

أتت سوزان حاملةً كعكة سكر القيقب وقالت: "ما الذي يبقيكِ

مستيقظةً يا طفلتي؟"

"آه يا ثوذان، لقد ثئمتُ من نفسي."

بدت سوزان مضطربة. فكّرت في الأمر، وتذكّرت أنّ الطفلة بدت متعبةً وقت العشاء. وفكّرت أنّ الطبيب بالطبع قد ذهب فآخر من يستفيد من أصحاب الخبرة عائلاتهم. ثمّ بصوت عالٍ قالت: "سأرى ما إذا كانت حرارتك مرتفعة، يا صغيرتي."

"لا، لا يا ثوذان. الأمر فقط أنّني فعلتُ أمرًا مروّعًا يا ثوذان. الشيطان جعلني أفعل ذلك، لا، لا، ليس الشيطان يا ثوذان، إنّها أنا. لقد رميتُ الكعكة في الجدول."

قالت سوزان مذهولةً: "يا إلهي! ما الذي جعلك تفعلين ذلك؟"

سمعت سوزان صوتًا يقول: "تفعل ماذا؟" كانت آن، التي عادت إلى المنزل قادمةً من المدينة. تراجعت سوزان بكلّ سرور، شاكرةً أنّ زوجة الطبيب ستتولّى المهمّة. روت ريلا القصة كاملةً وهي تبكي.

"عزيزتي، لا أفهم. لماذا تعتقدين أنّ أخذ كعكةٍ إلى الكنيسة أمرٌ مهين؟"

"ظننت أنّني ثأكون مثل تيلي بايك العجوز يا ماما. لقد أزعجتك! آه يا أمّي، إذا ثامحتِني فلن أكون شقيّةً مرّةً أخرى، وثأخبر الجماعة أنّكِ أرثلتِ الكعكة."

"لا تهتمّي بالجماعة يا عزيزي. سيكون لديهم فائضٌ من الكعك، لديهم الكثير دائمًا. ليس من المحتمل أن يلاحظ أيّ شخصٍ أنّنا لم نرسل كعكة. لن نخبر أيّ شخصٍ بما حدث. ولكن بعد هذه الحادثة، تذّكري دائمًا يا بيرثا ماريلا بلايث أنّ سوزان ووالدتك لن تطلبا منكِ فعل أيّ عملٍ مشين."

كانت الحياة جميلةً مرّةً أخرى. جاء الوالد إلى الباب ليقول لأبناءه:

"تصبحون على خير، يا قططي الصغيرة." وتسلّلت سوزان لتقول إنّهم سيأكلون فطيرة دجاجٍ على العشاء غدًا.

"مع الكثير من المرق يا ثوذان؟"

"نعم الكثير منه."

"وأرجو أن أتناول بيضةً بنيّةً على الفطور يا ثوذان، رغم أنّني لا أثتحقّها."

"ستحصلين على بيضتين بنيّتين إن أردتِ. والآن عليكِ أن تأكلي كعكتك وتذهبي للنوم أيّها الصغيرة."

أكلت ريلا كعكتها، ولكن قبل أن تنام نزلت من السرير وجثت على ركبتيها. قالت بجديّةٍ شديدة: "يا الله، اجعلني طفلةً ثالحةً ومطيعةً دائمًا، بغضّ النظر عمّا قيل لي أن أفعله. وبارك في الآنثة العذيذة إيمي وجميع الأيتام المثاكين."

***

35



لعب

أطفال إنجلسايد معًا، وتمشّوا معًا، وخاضوا جميع أنواع المغامرات معًا، ومع ذلك، كان لكلٍّ منهم حياته الداخليّة الخاصّة به من الحلم والخيال، بالأخصّ نان التي ابتكرت الدراما السريّة لنفسها منذ البداية من كلّ ما سمعته أو شاهدته أو قرأته وأقامت في عوالمَ من العجب والرومانسيّة، لم تكن متوقَّعةً تمامًا في دائرة أسرتها. في البداية، نسجت رقصات الجنيّات والجان في الوديان المسكونة وحوريّات الغابات في أشجار البتولا. كانت هي وشجرة الصفصاف العظيمة عند البوابة تهمسان أسرارًا، أمّا منزل بيلي القديم الفارغ في الطرف العلويّ لوادي قوس المطر فكان بقايا برجٍ مسكون. فكّرت في أنّها قد تكون ابنة أحد الملوك مسجونةً لأسابيع في قلعةٍ وحيدةٍ بجانب البحر، وتخيّلت لأشهرٍ أنّها كانت ممرّضةً في مستعمرة الجذام في الهند، أو في أرضٍ بعيدةٍ جدًّا جدًّا. لطالما كانت عبارة "بعيدة جدًّا جدًّا" ساحرةً بالنسبة لنان، كالموسيقى الخافتة فوق تلٍّ عاصف.

عندما كبرت، ألّفت دراما حول الأشخاص الواقعيّين الذين رأتهم في السنين القليلة التي عاشتها، خصوصًا الناس الذين كانت تراهم في

الكنيسة. أحبّت نان أن تنظر إلى الناس في الكنيسة، لأنّ الجميع كانوا يرتدون ملابس أنيقة. كان تقريبًا معجزة، فلقد بدوا مختلفين تمامًا عمّا كانوا عليه في أيّام الأسبوع.

كان الناس المحترمون الذين يشغلون مختلف مقصورات الأسرة سيصابون بالدهشة، وربّما ببعض الرعب إذا عرفوا الخيال الذي نسجته عنهم البكر الرزينة ذات العينين البنيّتين في مقصورة إنجلسايد. كانت أنيتا ميليسون الطيّبة ذات الحاجبين السوداوين ستشعر بالدهشة لو علمت أنّ نان بلايث صوّرتها على أنّها خاطفةٌ للأطفال، تغليهم وهم على قيد الحياة لصنع جرعاتٍ من شأنها أن تبقيها صغيرةً إلى الأبد. تصوّرت نان هذا بوضوح لدرجةٍ أنّها خافت حتى الموت عندما قابلت أنيتا ميليسون ذات مرّة في ممرٍّ مليءٍ بأزهار الحوذان الذهبيّة التي كانت تتمايل وقت الشفق. كانت غير قادرةٍ أبدًا على الردّ على تحيّة أنيتا الوديّة، واستنتجت أنيتا أنّ نان بلايث حقًّا صغيرة متكبّرة ووقحة، وتحتاج إلى القليل من التدريب على الأخلاق الحميدة. لم تتخيّل السيدة الشاحبة رود بالمر أبدًا أنّها سمّمت شخصًا وكانت تموت ندمًا. لم يكن لدى الشيخ جوردون ماكاليستر صاحب الوجه المهيب أيّة فكرةٍ أنّ ساحرةً قد لعنته عند ولادته، والنتيجة هي أنّه لا يستطيع أن يبتسم أبدًا. ولم يكن البريء فريزر بالمر ذو الشارب الداكن يعلم أنّ نان بلايث عندما نظرت إليه كانت تفكّر أنّ هذا الرجل قد ارتكب عملًا شريرًا متهوّرًا، وأنّه بدا وكأنّه يخفي سرًّا رهيبًا ويحاول ألّا يشعر بتأنيب الضمير. ولم يكن لدى أرشيبالد فايف أيّ شكٍّ في أنّ نان بلايث عندما رأته قادمًا، كانت مشغولةً في تأليف بيتِ شعرٍ للردّ على أيّة ملاحظةٍ قد يدلي بها، لأنّه لا يمكن التحدّث إليه إلّا بالأشعار. لم يتحدّث معها أبدًا، لأنّه كان يخاف للغاية من الأطفال، لكن لم تكن هناك نهايةٌ لمرح

نان بعد تأليفها بيت شعرٍ بعزمٍ وبسرعة.

"أنا بخير سيّد فايف، شكرًا لك،
كيف حالك أنت وزوجتك؟"

أو،

"نعم، إنه يومٌ جميل،
مناسبٌ لصنع الأكاليل."

لا أحد يعلم ما الذي كانت ستقوله السيّدة مورتون كيرك إذا قيل لها أنّ نان بلايث لن تأتي إلى منزلها أبدًا إن دعتها للمجيء، لأنّ نان رأت آثار أقدامٍ حمراء على عتبة بابها، وأمّا شقيقة زوجها، إليزابيث كيرك الهادئة واللطيفة فلقد تخيّلت نان أنّها عانس لأنّ عشيقها قد مات عند المذبح قبل حفل الزفاف مباشرة.

كان الأمر ممتعًا ومشوّقًا للغاية، ولم تفقد نان قدرتها على التمييز بين الحقيقة والخيال حتّى استحوذت على عقلها "السيدة ذات العينين الغامضتين."

لا فائدة من التساؤل عن كيفيّة نموّ الأحلام. لا يمكن لنان بنفسها أن تخبركم كيف حدث ذلك. لقد بدأت الأحلام في البيت المظلم، الذي لطالما رأته نان مكتوبًا بأحرف كبيرة. كانت تحبّ أن تدور رواياتها حول الأماكن وكذلك الأشخاص، وكان البيت المظلم هو المكان الوحيد في الجوار، باستثناء منزل بيلي القديم، الذي أقحم نفسه في الرواية. لم تر نان البيت من قبل، بل كانت تعرف فقط أنّه موجود، خلف شجرة تنوب كثيفة داكنة على طريق لوبريدج الجانبي، وكان مهجورًا منذ الأزل حسبما قالت سوزان. لم تكن نان تعرف ما معنى الأزل لكنّها كانت بالنسبة لها كلمةً رائعة، مناسبةً تمامًا للمنازل المظلمة.

ركضت نان دائمًا بجنونٍ عبر الممرّ المؤدّي إلى المنزل المظلم عندما كانت تذهب على طول الطريق الجانبيّ لزيارة صديقتها دورا كلو. كان ممرًّا طويلًا مقوّسًا بالأشجار مع عشبٍ كثيفٍ ينمو بين أخاديده وسراخس مرتفعة تحت أشجار التنوب. كان بالقرب من البوابة المهدّمة غصنٌ طويل رماديّ من خشب القيقب، وبدت البوّابة تمامًا مثل ذراع عجوزٍ ملتوية تصل إلى أسفل لتضمّها. لم تعرف نان أبدًا متى قد تصل إلى أبعد من ذلك وتمسكها، شعرت بالإثارة لأنّها استطاعت الهرب منها.

ذات يوم، تفاجأت نان عندما سمعت سوزان تقول إنّ توماسين فير قد أتت للعيش في البيت المظلم، أو منزل ماكاليستر القديم، كما صاغتها سوزان بطريقةٍ واقعيّة.

قالت الأم: "أعتقد أنّها ستشعر بالوحدة قليلًا، فالبيت بعيدٌ ويصعب الوصول إليه."

قالت سوزان: "لن تمانع في ذلك، فهي لا تخرج من المنزل، ولا حتّى إلى الكنيسة. لم تذهب إلى أيّ مكانٍ منذ سنوات، على الرغم من أنّهم يقولون إنها تمشي في حديقتها ليلًا. حسنًا عند التفكير في ما آل إليه حالها، هي التي كانت جذابةً وفاتنة. كم قلب يا تراها كسرت في زمانها! وانظري إليها الآن! حسنًا، هذا تحذير ويمكنك تصديق كلامي."

لم تقل سوزان لمن كان التحذير ولم تشرح ولم يتكلّم أحد، لأنّه لم يكن أحدٌ في إنجلسايد مهتمًّا جدًّا بتوماسين فير. لكنّ نان، التي سئمت قليلًا من كلّ قصص أحلامها القديمة وكانت متحمّسة لقصّةٍ جديدة، انتهزت فرصة مجيء توماسين فير إلى المنزل المظلم. شيئا فشيئًا، ويومًا بعد يوم، وليلةً بعد ليلة، يمكن للمرء أن يصدّق أيّ شيء في

الليل، فلقد ألّفت أسطورةً عنها حتّى تطوّر كلّ شيءٍ بطريقةٍ غامضة وأصبح حلمًا أعزّ على نان من أيّ حلمٍ عرفته حتى الآن. لم يسبق أن كان أي شيء يبدو ساحرًا وحقيقيًا مثل هذه الرؤية للسيّدة ذات العينين الغامضتين. عينين جميلتين سوداوين كبيرتين... عينين غائرتين... عينين مسكونتين! مليئتين بالندم على القلوب التي كُسرت! عينين شريرتين، فلقد اعتقدت نان أنّ أيّ شخصٍ كسر القلوب ولم يذهب إلى الكنيسة أبدًا لا بدّ أن يكون شريرًا. كان الأشرار مثيرين للاهتمام جدًّا. كانت السيّدة تعزل نفسها من العالم كتكفيرٍ عن جرائمها.

هل يمكن أن تكون أميرة؟ كلاّ، كانت الأميرات نادرات في جزيرة الأمير إدوارد. لكنّها كانت طويلةً ونحيفة وبعيدة وجميلة كالأميرات، بضفيرتيها السوداوين الكثيفتين على كتفيها، اللتين تصلا إلى قدميها. سيكون لها وجهٌ أبيض، وأنفٌ إغريقيٌّ جميل، مثل أنف أرتميس ذات القوس الفضيّ، ويدان بيضاوان جميلتان كانت ستهزهما وهي تمشي في الحديقة ليلًا، في انتظار العاشق الحقيقّي الوحيد الذي احتقرته وعلمت بعد فوات الأوان أن تحبّه. هل ترون كيف كانت الأسطورة تكبر في خيالها؟ كانت تتخيّل أنّ تنانير السيدة الطويلة المخمليّة تزحف فوق العشب بلونها الأسود أثناء مشيها. كانت ترتدي حزامًا ذهبيًا وأقراطًا رائعة من اللؤلؤ في أذنيها وعليها أن تعيش حياتها في العزلة والغموض حتى يأتي الحبيب لتحريرها، ثمّ تتوب عن شرّها القديم وقسوة قلبها وتمدّ يديها الجميلتين إليه وتثني رأسها الفخور أخيرًا في خضوع. كانا سيجلسان بجانب النافورة، فقد كانت في الحديقة نافورةٌ في ذلك الوقت، وكانا سيقطعان وعودًا مرّةً أخرى وكانت ستتبعه "فوق التلال وبعيدًا، وراء الحافّة الأرجوانيّة القصوى،" تمامًا كما فعلت الأميرة النائمة في القصيدة التي قرأتها الأمّ لها ذات ليلةٍ من المجلّد

القديم الذي أعطاها لها الأب تينيسون منذ وقتٍ طويلٍ جدًّا. لكنّ عشيق السيّدة ذات العينين الغامضتين أعطاها جواهر لا مثيل لها.

سيكون المنزل المظلم مؤثثًا بطريقة جميلة بالطبع، وستكون فيه غرفٌ وسلالم سرّية، وستنام السيّدة ذات العينين الغامضتين على سريرٍ مصنوعٍ من عرق اللؤلؤ تحت ظلّةٍ من المخمل الأرجوانيّ. وسوف يحرسها كلب السلوقي، بل اثنين منه أو حتّى حاشية كاملة. وستستمع دائمًا إلى موسيقى قيثارةٍ بعيدةٍ جدًّا. لكنّها لن تسمعه ما دامت شرّيرةً حتّى يأتي حبيبها ويسامحها، وها هو ذا.

بالطبع كان يبدو هذا سخيفًا. تبدو الأحلام سخيفةً للغاية عندما تُروى بكلماتٍ وحشيّةٍ وقاسية. نان البالغة من العمر عشر سنوات لم تروي أحلامها، بل عاشتها فقط. أصبح حلم السيّدة الشريرة ذات العينين الغامضتين حقيقيًّا بالنسبة لها مثل الحياة الواقعيّة التي كانت تدور حولها. استحوذ على عقلها، وظلّ جزءًا منها منذ عامين وحتّى الآن. وبطريقةٍ ما، بطريقةٍ غريبةٍ، صارت نان تصدّق ذلك الحلم. ومهما حدث لن تخبر أحدًا، ولا حتّى أمّها عنه. كان كنزها المميّز، وسرّها الذي لا يمكن البوح به، والذي بدونه لن تستطيع تخيّل استمرار الحياة. كانت تفضّل أن تعزل نفسها لتحلم بالسيدة ذات العينين الغامضتين بدلًا من اللّعب في وادي قوس المطر.

لاحظت آن هذا الميول وقلقت قليلًا حياله، فلقد كانت نان تتعدّى الحدود بهذه الطريقة. أراد جيلبرت إرسالها إلى آفونلي للزيارة، لكنّ نان، ولأوّل مرّة، اعترضت بشدّة وطالبت بعدم إرسالها. قالت بشفقةٍ إنّها لا تريد مغادرة المنزل، وفكّرت أنّها ستموت إن ابتعدت كثيرًا عن السيّدة الحزينة الجميلة ذات العينين الغامضتين. صحيحٌ أنّ ذات العينين الغامضتين لم تغادر منزلها، لكنّها قد تخرج يومًا ما، وإذا

خرجت وكانت نان بعيدة فستفوّت فرصة رؤيتها. كم سيكون رائعًا أن تلمحها! سيكون الطريق الذي تمرّ به جميلًا إلى الأبد. سيكون اليوم الذي تخرج فيه مختلفًا عن جميع الأيّام الأخرى، وكانت ستضع دائرةً حوله في التقويم. وصلت نان إلى النقطة التي كانت ترغب بشدّةٍ في رؤيتها مرّةً واحدة فقط. كانت تعلم جيّدًا أنّ الكثير ممّا تخيّلته عنها لم يكن سوى خيال، لكن لم يكن لديها أدنى شكّ في أنّ توماسين فير كانت شابّة وجميلة وشريرة ومغرية. في ذلك الوقت، كانت نان متأكّدة تمامًا من أنّها سمعت سوزان تقول هذا، وطالما كانت كذلك، يمكن أن تستمر ّنان في تخيّل أمورٍ عنها إلى الأبد.

لم تصدّق نان أذنيها عندما قالت لها سوزان ذات صباح:

"هناك طردٌ أريد أن أرسله إلى توماسين فير في منزل ماكاليستر القديم. أحضره والدك من البلدة الليلة الماضية. هل يمكنك أخذه بعد ظهر اليوم يا طفلتي؟"

بكلّ هذه السهولة! التقطت نان أنفاسها. هل ستفعل ذلك؟ هل تتحقّق الأحلام بهذه الطريقة؟ كانت سترى البيت المظلم، وسترى سيّدتها الجميلة الشريرة ذات العينين الغامضتين. سوف تراها حقًّا، وربّما تسمعها وهي تتكلّم، وربّما تلمس يدها البيضاء النحيلة! يا له من نعيم! أما بالنسبة للكلاب السلوقيّة والنافورة وما إلى ذلك، فقد عرفت نان أنّها تخيّلتها فقط ولكن من المؤكّد أنّ الواقع سيكون رائعًا بنفس القدر.

راقبت نان الساعة طوال فترة الظهيرة، حيث رأت الوقت يمرّ ببطءٍ شديد. أصبح وقت الذهاب أقرب وأقرب. وعندما ظهرت سحابةٌ رماديّة منذرةً بالسوء وبدأت الأمطار تتساقط، لم تستطع نان منع نفسها عن ذرف الدموع.

همست بتذمّر: "لسوء حظي أنّها ستمطر اليوم."

ولكن سرعان ما توقّف المطر وأشرقت الشمس مرّةً أخرى. بالكاد أكلت نان غداءها من فرط الإثارة.

"أمّي، هل يمكنني ارتداء ثوبي الأصفر؟"

"لماذا تريدين أن ترتديه لزيارة الجارة يا طفلتي؟"

الجارة! بالطبع لم تفهم الأمّ الأمر، لا تستطيع أن تفهم.

"من فضلك يا أمّي."

وافقت آن، فالفستان الأصفر سيصبح صغيرًا على نان قريبًا. لذلك ستسمح لنان بالاستفادة منه الآن طالما أنّها تستطيع ذلك.

كانت ساقا نان ترتجفان وهي تنطلق، والطرد الصغير الثمين في يدها. سلكت طريقًا قصيرًا عبر وادي قوس المطر، إلى أعلى التل، ثمّ إلى الطريق الجانبيّ. كانت قطرات المطر لا تزال على أوراق الكبوسين مثل اللآلئ الكبيرة؛ وكان الهواء نضرًا، والنحل يطنّ فوق البرسيم الأبيض الذي يحيط بالجدول وكان اليعسوب الأزرق النحيف يتلألأ فوق الماء، كانت تسمّيهم سوزان إبر الشيطان، وفي مرعى التل أومأت الأقحوانات لها وتمايلت ولوّحت وضحكت لها، بضحكاتٍ رائعةٍ بلونيها الأصفر والأبيض. كان كلّ ما حولها جميلًا للغاية وكانت سترى السيدة الشريرة ذات العينين الغامضتين. ماذا ستقول لها السيدة؟ وهل كان من الآمن الذهاب لرؤيتها؟ ماذا لو بقيت معها بضع دقائق ووجدت أنّ مئة عامٍ قد مرّت، كما في القصة التي قرأتها هي ووالتر الأسبوع الماضي؟

***

36



شعرت نان بإحساسٍ غريبٍ في عمودها الفقري عندما وصلت إلى الممرّ. هل تحرّك غصن القيقب الميت؟ لا، لقد هربت منه، كانت قد تخطّته.

قالت: "نعم أيّتها الساحرة العجوز، أنتِ لم تمسكيني!"

كانت تسير في الممرّ حيث لم يستطع الوحل والشقوق فيه أن تفسد ترقّبها. وبعد بضع خطوات، كان البيت المظلم أمامها، وسط تلك الأشجار المظلمة المبلّلة وخلفها. كانت ستراه أخيرًا! ارتجفت قليلًا، ولم تكن تعلم أنّ ذلك كان بسبب خوفها سرًّا من فقدان حلمها. وهو دائمًا كارثة بالنسبة للصغار والكبار.

شقّت طريقها عبر فجوةٍ في من أشجار التنوب الصغيرة التي كانت تلتقي في نهاية الممر. أغمضت عينيها. هل تجرؤ على فتحها؟ للحظة استحوذ عليها الرعب المطلق وللحظة كانت ستستدير وتهرب. ففي النهاية، كانت السيّدة شريرة. من كان يعلم ما قد تفعله بها؟ قد تكون ساحرةً حتّى. كيف لم يخطر ببالها من

قبل أن تكون السيّدة الشريرة ساحرة؟

ثمّ فتحت عينيها بحزمٍ وحدّقت بشفقة.

هل كان هذا هو البيت المظلم؟ قصر أحلامها المظلم، والفخم الذي كان يشبه الأبراج؟ هذا هو؟!

كان المنزل كبيرًا وفي يومٍ ما أبيض اللون، لكنه أصبح الآن رماديًّا موحلًا. كانت المصاريع المكسورة التي كانت خضراء في الماضي تتأرجح هنا وهناك. والدرجات الأماميّة مكسورة، كما قد تحطّمت معظم ألواح الزجاج في الرواق المهجور. وكُسرت الزخارف الملتفّة حول الشرفة. كان مجرّد منزلٍ قديمٍ متهالك وخرب!

نظر نان حولها بيأس. لم يكن هناك نافورة ولا حديقة، ولا ما يشبه الحديقة حتى. كانت المساحة أمام المنزل محاطةً بسياجٍ مخرّب، ومليئةً بالأعشاب والحشائش المتشابكة التي يصل ارتفاعه حدّ الركبة. وقام خنزير هزيل بالتخريب وراء السياج. نمت نباتات الأرقطيون على طول منتصف الطريق. ونمت في الزوايا مجموعةٌ متناثرة من الأزهار الذهبيّة المتوهّجة، وكانت هناك مجموعةٌ رائعةٌ من زنابق النمر الصامدة، وفقط عند الدرجات البالية، حوض من نباتات القطّيفة.

مشت نان ببطءٍ متّجهةً إلى حوض القطيفة. اختفى البيت المظلم من ذهنها إلى الأبد. لكنّ السيّدة ذات العينين الغامضتين بقيت.

بالتأكيد كانت واقعيّة، عليها أن تكون كذلك! ماذا قالت سوزان عنها منذ زمنٍ طويل؟

سمعت نان صوتًا خافتًا إلى حدٍّ ما وودود يقول: "يا إلهي، كنت على وشك أن أرتعب بسببك!"

نظرت نان إلى شكل المرأة التي ظهرت فجأة من جانب حوض القطيفة. من كانت؟ لا يمكن أن تكون ... رفضت نان أن تصدّق أنّ هذه

كانت توماسين فير. سيكون هذا فظيعًا!

فكّرت نان حزينةً وبخيبة أمل: "لماذا؟ إنّها عجوز!"

إذا كانت تلك توماسين فير، فهي امرأةٌ عجوز بشكلٍ واضح، و كانت نان تعرف الآن أنّها كانت توماسين فير. وكانت سمينة! بدت مثل سرير الريش المربوط بخيطٍ في المنتصف، والذي كانت سوزان تقارن به السيدات البدينات. كانت حافية القدمين، وترتدي ثوبًا أخضر باهتًا مائلًا للصفرة، وقبّعة رجلٍ عجوزٍ من اللباد على شعرها الرماديّ الخفيف. كان وجهها مستديرًا على شكل الحرف اللاتيني ▯، وكان أحمر اللون ومتجعّد، وكان أنفها أفطس. كان لون عينيها أزرق فاتح، محاطتين بخطوط تجاعيد رائعة المظهر.

آه يا سيّدتي، سيّدتي الشريرة الفاتنة ذات العينين الغامضتين أين أنتِ؟ ماذا حدث لكِ؟ أنتِ موجودة!

سألتها توماسين فير: "حسنًا الآن، ما اسمكِ أيّتها الفتاة اللطيفة؟"

تشبثّت نان بأخلاقها وأجابت: "أنا... أُدعى نان بلايث. جئتُ لأحضر لك هذا."

أخذت توماسين الطرد بسرعة فرحةً به.

"حسنًا، أنا سعيدةٌ لاستعادة نظاراتي! أحتاجها لقراءة التقويم أيّام الأحد. وأنتِ فتاةٌ من فتيات بلايث؟ يا له من شعرٍ جميل! لطالما أردت أن أرى بعضكم. لقد سمعت أنّ والدتكِ تربيكم بطريقةٍ منظّمةٍ للغاية وعوّدتكم على الانتظام. هل أحببتِ ذلك؟"

"أحببتُ ماذا؟" ثمّ فكّرت نان بأنّ السيدة الشريرة الساحرة، لم تقرأ التقويم أيّام الأحد، ولم تتحدّث في حياتها عن الأمّهات.

"أنّها ربّتكِ بتلك الطريقة."

قالت نان وهي تحاول أن تبتسم وبالكاد استطاعت ذلك: "تعجبني

الطريقة التي نشأتُ عليها."

"حسنًا، والدتك امرأة جميلة حقًا، ولقد حافظت على جمالها. أعترف أنّني في المرّة الأولى التي رأيتها فيها في جنازة ليبي تايلور، اعتقدت أنّها كانت عروسًا، فلقد بدت سعيدةً للغاية. أعتقد دائمًا عندما أرى والدتك تدخل غرفةً ما، أنّ الجميع يستمتع بها كما لو كانوا يتوقّعون حدوث شيء ما. كما أنّ الأزياء الجديدة ميّزتها أيضًا، فمعظمنا لا تلائمنا تلك الملابس. ولكن تعالي واجلسي بعض الوقت، أنا سعيدةٌ برؤية شخصٍ ما، لأنّني أشعر بالوحدة أحيانًا. لا يمكنني تحمّل تكلفة الهاتف. أعتبر الزهور رفيقاتي، هل رأيت من قبل قطيفة أجمل من هذه؟ ولديّ قطة."

أرادت نان الفرار إلى أقصى أجزاء الأرض، لكنّها شعرت أنه لن يكون من المفيد أبدًا إيذاء مشاعر السيّدة العجوز برفضها الدخول. مشت توماسين وكانت تنورتها التحتيّة تظهر أسفل تنورتها، وقادت الطريق أعلى الدرجات المتداعية إلى غرفةٍ كان من الواضح أنّها غرفةٌ مشتركة للمطبخ وغرفة المعيشة. كانت نظيفةً ومبهجة بدقّة مع نباتاتٍ نراها عادة في البيوت المزدهرة. كانت رائحة الخبز المطبوخ حديثًا تفوح في المنزل.

طلبت توماسين من نان بلطفٍ الجلوس وهي تدفع الكرسيّ الهزّاز إلى الأمام مع أحد الوسائد المرقّعة الجميلة. "سوف أبعد زنابق كالا هذه عن طريقك. انتظري حتّى أضع طقم أسناني السفلي. ألستُ أبدو مضحكةً بدونه؟ لكنّه يؤلمني قليلًا. حسنًا، سأتحدّث بطريقةٍ أوضح الآن."

تقدمّت قطّةٌ مرقّطة لتلقي التحيّة عليهما، وهي تموء بطرقٍ مختلفة. آه لقد تلاشى حلم الكلاب السلوقية!

قالت توماسين: "هذه القطّة بارعة في اصطياد الجرذان. هذا المكان ممتلئٌ بها. لكنه يحمي من المطر وقد سئمت العيش مع الأقارب. لم أستطع أن أتصرّف على طبيعتي أو أفعل ما أريد. كنت أؤمر كما لو أنّني حثالة. كانت زوجة جيم الأسوأ، فقد اشتكت لأنّني كنت أتأمّل القمر ذات ليلة. حسنًا، ماذا لو فعلت ذلك؟ هل كنت أؤذي القمر؟ قلت لها أنّني لن أتحمّل انتقاداتها بعد الآن. لذلك أتيت إلى هنا بمفردي وسأبقى هنا ما دمت حيّة. الآن، ماذا تريدين أن تتناولي؟ هل يمكنني صنع شطيرة بصلٍ لك؟"

"لا. لا، شكرًا لك."

"إنّها مفيدةٌ عندما تكونين مصابةً بنزلة برد. لقد كنت أعاني من نزلة برد، ألم تلاحظي ذلك من صوتي؟ لكنّني فقط أقوم بربط قطعة من الفانيلا الحمراء بزيت التربنتين وشحوم الإوز حول حلقي عندما أذهب إلى الفراش. إنّه أفضل حلّ."

الفانيلا الحمراء ودهن الإوز! هل قالت زيت التربنتين؟!

"متأكّدة من أنّكِ لا تريدين شطيرة؟ إذا لا تريدين واحدة، سأرى ما لديّ في صندوق البسكويت."

كانت قطع البسكويت على شكل ديوكٍ وبطّ، وكانت لذيذةً بشكلٍ مدهش وتذوب في الفم. نظرت السيّدة فير إلى نان مبتهجةً بعينيها المستديرتين الباهتتين.

"الآن ستحبّينني، أليس ذلك صحيحًا؟ أحبّ أن أشعر بأنّني محبوبةٌ من قبل الفتيات الصغيرات."

لهثت نان: "سأحاول ذلك." كانت في تلك اللحظة تكره توماسين فير المسكينة لأنّنا لا نستطيع أن نكره سوى أولئك الذين يدمّرون أوهامنا.

"أتعلمين، لديّ بعض الأحفاد الصغار في الغرب؟"

لديها أحفاد!

"سأريك صورهم. جميلة، أليست كذلك؟ تلك صورة عزيزي بوبا المسكين. مرّت عشرون عامًا على وفاته."

كانت صورة بوبا المسكين عبارة عن صورة كبيرة مرسومة بالكريون لرجلٍ ملتحٍ له شعرٌ أبيض مجعّد يحيط برأسٍ أصلع.

آه، إذًا هذا هو الحبيب المحتقر!

قالت السيّدة فير باعتزاز: "لقد كان زوجًا صالحًا رغم أنّه غدا أصلعًا في الثلاثين من عمره. ولكن يا إلهي، لقد كان لديّ ذوقٌ في العشاق عندما كنت فتاة. أنا عجوزٌ الآن ولكنّني حظيت بوقتٍ رائع عندما كنت صغيرة. أولئك العاشقين في ليالي الأحد! يتصارعون على الجلوس قربي! وأنا أرفع رأسي متغطرسةً وكأنّني ملكة! كان بوبا بينهم منذ البداية، ولكن حينها لم يكن لديّ ما أقوله له. كنت أفضّل أن يكونوا أكثر أناقة. ثمّ جاء أندرو ميتكالف، كنت قريبةً جدًّا من الهروب معه، لكنّني كنت أعلم أنّ الحظ لن يحالفني. لا تهربي أبدًا، فالهرب يجلب لك سوء الحظ ولا تصدّقي أيّ شخصٍ يخبرك كلامًا خلاف ذل ك."

"أنا لن أهرب، بالتأكيد لن أفعل."

"في النهاية تزوجتُ بوبا، فلقد نفد صبره أخيرًا وأعطاني أربعًا وعشرين ساعةً لأقبل به أو أتركه. أراد منّي والدي أن أستقرّ. لقد شعر بالتوتر عندما أغرق جيم هيويت نفسه لأنني لم أقبل به. كنت أنا وبوبا سعداء حقًّا عندما اعتدنا على بعضنا البعض. قال إنّني كنت مناسبةً له لأنّني لا أفكّر كثيرًا، فلقد كان بوبا يحبّ النساء اللواتي لا يبالغن في التفكير. قال إنّ التفكير يجعلهنّ مزيّفات وغير رومانسيّات. لم تكن تناسبه الفاصوليا المخبوزة أبدًا فكان يعاني من نوبات ألم الظهر، لكنّ

بلسم البلمجيليا خاصّتي كان يخفف ألمه دائمًا. كان هنا ك أخصائيّ في البلدة قال إنّه يمكنه علاجه بشكلٍ دائم ولكنّ بوبا كان يقول دائمًا إنك إذا وقعت في أيادي الأخصائيين لن يسمحوا لك بالتخلّي عنهم مرّةً أخرى أبدًا أبدًا. أفتقد رؤيته وهو يطعم الخنزير. كان مغرمًا جدًّا بلحمه. لا آكل لحم الخنزير المقدّد دون أن أفكّر فيه. تلك الصورة المقابلة لبوبا هي صورة الملكة فيكتوريا. أحيانًا أقول لها: "إذا نزعوا عنك الدانتيلِ والجواهر يا عزيزتي، أشكّ في أن تكوني أفضل منّي."

قبل أن تدع نان تذهب، أصرّت على أن تأخذ كيسًا من النعناع ومزهريّة زجاجيّة ورديّة لحمل الزهور، وكوبًا من هلام عنب الثعلب.

"هذا لأمّك. لطالما كان حظّي سعيدًا مع هلام عنب الثعلب. سأنزل إلى إنجلسايد يومًا ما. أريد أن أرى الكلاب الصينيّة. أخبري سوزان بيكر أنني ممتنةٌ جدًا على أوراق اللفت التي أرسلتها لي في الربيع."

أوراق اللفت!

" شعرت بالحزن لأنّني وددت شكرها في جنازة جايكوب وارن لكنّها ذهبت بسرعة. أحبّ أن أقضي وقتي في الجنازات. لم تحصل جنازةٌ منذ شهر. أشعر دائمًا أنّ الوقت ممل عندما لا تكون هناك جنازات. تُقام دائمًا الكثير من الجنازات الرائعة على طريق لوبريدج، لا يبدو ذلك عادلًا. تعالي لزيارتي مرّةً أخرى، أستفعلين ذلك؟ أحسّ أنّك مميّزة يقول الإنجيل "الإحسان أفضل من الفضة والذهب" وأعتقد أنّ هذا صحيح."

ابتسمت بسرورٍ شديدٍ لنان، وكانت لديها ابتسامةٌ حلوة. ترى فيها توماسين الجميلة في شبابها. ابتسمت نان ثانيةً أيضًا. كانت عيناها تلمعان، وكان عليها أن تهرب قبل أن تبكي حقًا.

قالت توماسين فير العجوز، وهي تنظر إلى نان من نافذتها: "يا لها

من طفلةٍ لطيفة وخلوقة. ليست موهوبةً بالكلام كوالدتها، ولكن ربّما لم يؤثر هذا سلبيًّا عليها. يعتقد معظم الأطفال اليوم أنهّم أذكياء عندما يكونون وقحين. زيارة هذه المخلوقة الصغيرة لي جعلتني أشعر نوعًا ما بشبابي مرّةً أخرى."

تنهّدت توماسين وخرجت لإنهاء قَطع القطيفة وحفر بعض الأرقطيون.

قالت: "الحمد لله، ما زلت رشيقة."

عادت نان إلى إنجلسايد بحلمٍ ضائع. حتّى المرج المليء بالأقحوانات لا يمكن أن يلفت نظرها الآن، ودعاها خرير المياه عبثًا. أرادت العودة إلى المنزل والابتعاد عن أعين البشر. التقت بفتاتين ضحكتا بعد أن فارقتاها. هل كانتا تضحكان عليها؟ كان الجميع سيضحك لو عرفوا! الصغيرة السخيفة نان بلايث التي لفّقت قصة خياليّة حول ملكة غامضةٍ وشاحبة ووجدت بدلًا من ذلك أرملة بوبا الفقيرة والنعناع.

النعناع!

لن تبكي نان، فلا يجب أن تبكي الفتيات البالغات من العمر عشرة أعوام. لكنّها شعرت بكآبةٍ لا توصف. لقد خسرت شيئًا ثمينًا وجميلًا، كان مصدرًا سرّيًا للبهجة، وحسب اعتقادها لا يمكن أن يكون لها مرّةً أخرى. وجدت إنجلسايد مليئةً برائحة توابل البسكويت اللذيذة، لكنّها لم تذهب إلى المطبخ لتنتزع البعض من سوزان. على العشاء، كان من الواضح أنّها شبه فاقدةٍ للشهيّة، رغم أنّها علمت أنّ سوزان ستعطيها زيت الخروع إن بقيت كذلك. لاحظت آن أنّ نان كانت هادئةً للغاية منذ عودتها من منزل ماكاليستر القديم، وهي التي كانت عادةً تغنّي حرفيًّا من طلوع الفجر حتّى حلول الليل وبعده. هل كان المشي الطويل

في يومٍ حارّ، كثيرًا على الطفلة؟

ذهبت آن إلى غرفة التوأم عند الغسق بمناشف جديدة ووجدت نان جالسةً على مقعد النافذة تحضن نفسها، بدلًا من أن تراقب النمور في الأدغال الاستوائية مع الآخرين في وادي قوس المطر، فسألتها: "لماذا هذا التعبير البائس يا ابنتي؟"

لم تقصد نان إخبار أيّ شخص بأنّها كانت سخيفة للغاية، ولكن بطريقةٍ ما فهمت الأمّ ما حدث.

"آه يا أمّي، هل كلّ شيءٍ في الحياة مخيّب للآمال؟"

"كلّا يا عزيزتي. هل تودّين أن تخبريني ما الذي خيّب ظنّك اليوم؟"

"توماسين فير امرأةٌ جيّدة يا أمّي، وأنفها مرفوع!"

سألت آن بحيرةٍ صادقة: "لكن لماذا يجب أن تهتمّي بما إذا كان أنفها مرفوعًا أم لا؟"

روت بعد ذلك نان كلّ القصة، واستمعت آن بتعابير وجهها المعتادة الجادّة، وهي تدعو ألّا تضحك رغمًا عنها. تذكّرت الطفلة التي كانت في المرتفعات الخضراء القديمة. تذكّرت الغابة المسكونة وفتاتين صغيرتين كانتا خائفتين للغاية من خَيالهما. وعرفت المرارة المروّعة لفقدان الحلم.

"لا يجب أن تأخذي زوال تخيّلاتك وأحلامك على محمل الجّد يا عزيزتي."

قالت نان بيأس: "الأمر خارجٌ عن سيطرتي، لو أستطيع أن أبدأ حياتي من جديد، فلن أتخيّل أيّ شيءٍ أبدًا. ولن أفعل ذلك مرّةً أخرى."

"أنتِ حمقاءٌ يا عزيزتي، لا تقولي ذلك. إنّه لمن الجميل أن تكون لدينا مخيّلة واسعة، ولكن مثل كلّ نعمةٍ أخرى، يجب أن نستحوذ عليها وأن لا نسمح لها بالاستحواذ علينا. أنتِ تأخذين تخيّلاتك على محمل

الجدّ. إنّ ذلك ممتع، أنا أعرف هذا الشعور، ولكن عليكِ أن تتعلّمي أن تبقي على هذا الجانب من الحدّ الفاصل بين ما هو واقعيّ وخياليّ. بعد ذلك، القدرة على الهروب كما تشائين إلى عالمٍ جميلٍ خاصٍ بك ستساعدكِ بطريقةٍ مثيرةٍ للدهشة على تخطّي المراحل الصعبة في الحياة. أمكنني دائمًا حلّ مشكلة بسهولةٍ أكبر بعد أن قمت برحلة أو رحلتين إلى جزر الخيال."

شعرت نان أنّها استعادت كرامتها بكلمات الراحة والحكمة هذه. في النهاية، لم تعتقد الأم أنّ ما حدث سخيفٌ للغاية. ولا شكّ أنّ هناك في مكانٍ ما في العالم سيّدةٌ جميلةٌ شريرة بعينين غامضتين، حتى لو لم تكن تعيش في البيت المظلم والآن بعد أن فكّرت نان في الأمر، اعتقدت أنّه في النهاية لم يكن مكانًا سيئًا، مع القطيفة البرتقاليّة والقطة المرقّطة اللطيفة وإبرة الراعي وصورة بوبا المسكين. لقد كان حقًا مكانًا مبهجًا وربّما في يومٍ من الأيّام ستذهب لرؤية توماساين فير مرّةً أخرى وتحصل على المزيد من ذلك البسكويت اللذيذ. لم تعد نان تكره توماسين.

تنهّدت نان بين تلك الأذرع الحبيبة التي كانت ملجأ وملاذًا لها وفكّرت أنّ أمّها لطيفةٌ للغاية.

ظهر الغسق البنفسجيّ الرماديّ فوق التل. أظلمت ليلة الصيف حولهم، وكانت ليلة هادئة. برز نجمٌ من فوق شجرة التفاح الكبيرة. وعندما جاءت السيدة مارشال إليوت واضطرّت الأم إلى النزول، عادت نان سعيدةً مرّةً أخرى. قالت الأم إنّها ستعيد ترتيب غرفتهم بورقٍ جميلٍ أصفر وستحضر صندوق أرزٍ جديدٍ لها ولِدي للاحتفاظ بالأشياء. لكنّه لن يكون صندوقًا على شكل أرزة. سيكون صندوق كنزٍ مسحور لا يمكن فتحه ما لم تنطق بعض الكلمات الغامضة. كلمة قد

تهمسها ساحرة الثلج لك، ساحرة الثلج البيضاء الجميلة والباردة. وقد تخبرك ريحٌ رماديّة حزينة كلمةً أخرى. عاجلًا أم آجلًا ستجد كلّ الكلمات وتفتح الصندوق، لتجده مليئًا باللآلئ والياقوت والماس الوافر. ألم تكن كلمة وفرة كلمةً لطيفة؟

آه، السحر القديم لم يفنى، ما زال العالم مليئًا به.

***

37



سألتها

دليلة جرين خلال فترة الاستراحة بعد الظهر: "هل يمكنني أن أكون أعزّ صديقةٍ لك هذا العام؟"

كان لدليلة عينين مستديرتين للغاية، كان لونهما أزرق داكن، وشعرها بنيٌّ ناعم، وفمها صغيرٌ ورديّ، وصوتٌ مثير فيه قليلٌ من الارتعاش. تأثرت ديانا بلايث بسحر هذا الصوت على الفور.

كان معروفًا في مدرسة جلين أنّ ديانا بلايث كانت إلى حدٍّ ما في حيرةٍ من أمرها لأنّها بحاجةٍ إلى صديقة. لمدّة عامين، كانت هي وبولين ريس صديقتين مقرّبتين، لكنّ عائلة بولين انتقلت وشعرت ديانا بالوحدة الشديدة. كانت بولين فتاةً جيّدة. من المؤكّد أنّها كانت تفتقر إلى السحر الغامض الذي كانت تتميّز به جيني بيني المنسيّة تقريبًا، لكنها كانت فتاةً عمليّة، ومرحة، وعاقلة. كانت تلك الصفة الأخيرة ما قالته سوزان عنها، وكان ذلك أعلى مدحٍ يمكن أن تمنحه سوزان لأحد. كانت راضيةً تمامًا عن بولين كصديقةٍ لديانا.

نظرت ديانا إلى دليلة بريبة، ثمّ نظرت عبر الملعب إلى لورا كار، التي كانت أيضًا فتاةً جديدة. قضت هي ولورا وقت الفسحة معًا

وانسجمتا للغاية. لكنّ لورا كانت بسيطةً إلى حدٍّ ما، مع نمشٍ وشعرٍ أشقر كثيف ومجعّد. لم يكن لديها أيٌّ من جمال دليلة جرين ولا ذرّةٍ من جاذبيّتها.

فهمت دليلة نظرة ديانا وانسحبت وعلامات الحزن تظهر على وجهها. بدت عيناها الزرقاوتين دامعتين وعلى وشك ذرف الدموع.

قالت دليلة وهي تمدّ يديها بطريقةٍ دراماتيكيّة: "إذا كنتِ تحبّينها فلا يمكنكِ أن تحبّيني. اختاري بيننا." كان صوتها أكثر إثارةً من أيّ وقتٍ مضى ممّا أصاب ديانا بالقشعريرة. وضعت يديها في يديّ دليلة ونظرتا إلى بعضهما البعض بصدق وشعرتا بالوفاء والتفاني. على الأقلّ هكذا شعرت ديانا.

سألتها دليلة بشغف: "ستحبّينني إلى الأبد، أليس ذلك صحيحًا؟"

تعهّدت ديانا بنفس الشغف وقالت: "إلى الأبد."

أمسكت دليلة يد ديانا ونزلتا معًا إلى النهر. أدرك باقي أفراد الصف الرابع أنّ تحالفًا جديدًا قد عُقد. تنهّدت لورا كار التي رغم حبّها الكبير لديانا بلايث إلّا أنّها عرفت أنّها لا تستطيع منافسة دليلة.

كانت دليلة تقول: "أنا سعيدةٌ للغاية لأنّك ستدعينني أحبّك. أنا حنونةٌ للغاية، حبّ الناس أمرٌ خارجٌ عن سيطرتي. أرجو أن تكوني لطيفةً معي يا ديانا. أنا طفلة الحزن، لقد لُعنتُ عند الولادة، فلا أحد يحبّني."

ابتكرت دليلة طريقةً لإظهار كثيرٍ من الشعور بالوحدة والألم في قولها أنّ لا أحد يحبّها. شدّت ديانا على يدها وقالت: "لن تضطرّي أبدًا إلى قول ذلك بعد هذا يا دليلة. سأحبّك دائمًا."

"إلى الأبد؟"

أجابت ديانا: "إلى الأبد." تبادلتا قبلًا على الخدّين، كما في إحدى

الطقوس. صار الصبيان على السياج يصيحون بسخرية، لكن من كان يهتمّ بهم؟

قالت دليلة: "ستحبينني أكثر من لورا كار بكثير. الآن بعد أن أصبحنا أصدقاء أعزّاء، يمكنني أن أخبرك بما لم أكن أتصوّر إخبارك به لو كنتِ قد اخترتها. إنّها مخادعة بطريقةٍ مخيفة. إنّها تتظاهر بأنّها صديقتك أمامك، وتسخر منك من وراء ظهرك وتقول أسوأ الأشياء. ذهبت فتاةٌ أعرفها إلى مدرسة موبراي ناروز وأخبرتني ذلك. لقد نجوتِ منها. أنا مختلفةٌ تمامًا عنها، أنا صديقةٌ مخلصة يا ديانا."

"أنا متأكّدة من أنّك كذلك. ولكن ماذا تقصدين بقولك أنّكِ طفلة الحزن يا دليلة؟

بدا أنّ عيني دليلة اتّسعتا حتّى أصبحتا هائلتان للغاية.

همست: "لديّ زوجة أب."

"زوجة أب؟"

قالت دليلة بمزيدٍ من الارتعاش في صوتها: "عندما تموت والدتك ويتزوّج والدك مرّةً أخرى تصبح لديكِ زوجة أب. الآن أنتِ تعرفين كلّ شيءٍ يا ديانا. لو كنتِ تعرفين الطريقة التي أُعامل بها! لكّنني لا أشتكي أبدًا، أعاني في صمت."

لو كانت دليلة قد عانت حقًا في صمت، فقد يتساءل المرء من أين حصلت ديانا على كلّ المعلومات التي أمطرتها على أهل إنجلسايد خلال الأسابيع القليلة التالية. كانت في خضم شغفٍ جامحٍ من العشق والتعاطف مع دليلة المضطهدة والحزن عليها، وكان عليها أن تتحدّث عنها إلى أيّ شخصٍ يستمع إليها.

قالت آن: "أفترض أنّ هذا الإعجاب الجديد سيأخذ مجراه في الوقت المناسب. من تكون دليلة يا سوزان؟ لا أريد أن يكون أطفالي

متكبّرين لكنّني لا أريد أن تتكرّر تجربتنا مع جيني بيني."

"آل جرين محترمون جدًّا يا زوجة الطبيب العزيزة ومشهورون في لوبريدج. لقد انتقلوا إلى سكن الصيّاد القديم هذا الصيف. السيّدة جرين هي الزوجة الثانية ولديها طفلان. لا أعرف الكثير عنها ولكن يبدو لي أنّها لطيفةٌ وليّنة. لا أصدّق أنّها تستغلّ دليلة كما تقول دي."

حذّرت آن ديانا: "لا تصدّقي كلّ ما تخبرك به دليلة، قد تبالغ قليلًا. تذكّري جيني بيني."

قالت دي بسخط: "لا تشبه دليلة جيني بيني البتة يا أمّي، ليست مثلها ولا حتّى بشيءٍ واحد. إنّها صادقة حقًّا. إذا رأيتها فقط يا أمّي، ستعرفين أنّها لا تستطيع أن تكذب. جميعهم يتنمّرون عليها في المنزل لأنّها مختلفةٌ تمامًا، وهي فتاةٌ حنونة. لقد تعرّضت للاضطهاد منذ ولادتها وزوجة أبيها تكرهها. ينفطر قلبي عندما أسمعها تتحدّث عن معاناتها. إنّها حقًّا لا تحصل على ما يكفي من الطعام يا أمّي. إنّها لا تعرف أبدًا شعور الشبع. يرسلونها إلى الفراش دون عشاءٍ في كثيرٍ من المرّات يا أمّي وتبكي حتّى تغفو."

"هل بكيت يومًا لأنّك كنتِ جائعةً يا أمي؟"

قالت الأمّ: "في كثيرٍ من الأحيان."

حدّقت ديانا في والدتها، مصدومةً من جوابٍ غير متوقّع لسؤالها البلاغيّ.

"قضيت أغلب أوقاتي جائعةً جدًا قبل مجيئي إلى المرتفعات الخضراء، ذلك عندما كنت في دار الأيتام وقبل ذلك. لكنني لم أهتم قط بالحديث عن تلك الأيام."

قالت دي، وهي تستجمع أفكارها المشوّشة: "حسنًا، يجب أن تكوني قادرةً على فهم دليلة إذًا. عندما تكون جائعةً للغاية، تجلس

وتتخيّل الطعام. فقط فكّري فيها وهي تتخيّل طعامًا تأكله!"

قالت آن: "أنتِ ونان تفعلان هذا." لكنّ دي لم تستمع.

"معاناتها ليست جسديّة فقط بل نفسيّة. تريد أن تصبح مبشرة يا أمّي لتكريس حياتها، وكلّهم يضحكون عليها."

وافقت آن على ذلك قائلةً: "هذا تصرّفٌ قاسٍ منهم." لكنّ نبرتها جعلت دي تشعر أنّها تشكّ في كلام دليلة.

سألتها بتذمّر: "أمّي، لماذا تشكّين في ذلك؟"

ابتسمت الأمّ قائلة: "للمرّة الثانية، يجب أن أذكّرك بجيني بيني. لقد صدّقتِها أيضًا."

قالت ديانا باعتزاز: "كنت طفلةً حينها وكان من السهل خداعي." شعرت أنّ والدتها لم تكن متعاطفةً ومتفهّمة كعادتها فيما يتعلّق بدليلة جرين. بعد ذلك تحدّثت ديانا فقط مع سوزان عنها، لأنّ نان أومأت برأسها عندما ذُكر اسم دليلة. فكّرت ديانا بحزن أن نان تشعر بالغيرة فقط.

لا يعني ذلك أنّ سوزان كانت متعاطفةً للغاية، لكن كان على ديانا التحدث إلى شخصٍ ما عن دليلة ولم تؤذِ سخرية سوزان مثل سخرية الأم. لم تتوقّع دي من سوزان أن تفهمها تمامًا. لكنّ أمّها في يومٍ من الأيّام كانت فتاة، وكانت تحب العمّة ديانا، وكان لدى أمّها قلبًا رقيقًا ومتعاطفًا. كيف لم يؤثر فيها سوء معاملة العزيزة المسكينة دليلة؟

قالت ديانا بحكمة: "ربّما تشعر بالغيرة قليلًا أيضًا، لأنّني أحبّ دليلة كثيرًا، يُقال أنّ الأمّهات يصبحن غيّوراتٍ هكذا أحيانًا، ويحببنَ التملّك."

وقالت دي لسوزان: " يغلي دمي عندما أسمع عن الطريقة التي تُعامل بها دليلة من قِبل زوجة أبيها. إنّها ضحيّةٌ في ذلك المنزل يا

سوزان. لا يقدّمون لها أيّ طعامٍ سوى القليل من الحساء على الإفطار والعشاء، بكميّةٍ ضئيلةٍ جدًّا. ولا يُسمح لها بوضع السكر فوقه. لقد توقّفت عن تناول السكّر معه لأنّه جعلني أشعر بالذنب يا سوزان."

"آه هكذا إذًا. حسنًا، لقد ارتفع سعر السكر سنتًا، ربّما هذا هو السبب."

تعهّدت ديانا بأنّها لن تخبر سوزان بأيّ شيءٍ عن دليلة، لكنّها كانت غاضبةً في المساء التالي لدرجة أنّها لم تستطع كتم مشاعرها.

"سوزان، والدة دليلة طاردتها الليلة الماضية بإبريق شاي ساخن. فكّري في هذا يا سوزان. بالطّبع تقول دليلة إنّها لا تفعل ذلك إلّا عندما تكون مغتاظة. غالبًا تحبس دليلة في حجرةٍ مظلمة ومسكونة. يا للأشباح التي رأتها الطفلة المسكينة يا سوزان! هذا يضرّ صحّتها. في المرّة الأخيرة التي حبسوها في الحجرة، رأت أغرب مخلوقٍ أسود صغير يجلس على دولاب الغزل ويصدر صوت طنين."

سألتها سوزان بجديّة: "أيّ نوعٍ من المخلوقات؟" كانت قد بدأت تستمتع بمحَنِ دليلة وتعابير دي ولهجتها، وضحكت هي وزوجة الطبيب سرًّا عليها.

"لا أعرف، لقد كان مجرّد مخلوق، لكنّه كاد أن يدفعها إلى الانتحار. أخشى حقًّا أنها ستنتحر يومًا ما. أتعلمين يا سوزان أنّ عمّها انتحر مرّتين؟"

سألتها سوزان بقسوة: "ألم تكن مرّة واحدة كافية؟"

ذهبت دي غاضبة، لكن في اليوم التالي، كان عليها أن تعود بقصّة مصيبةٍ أخرى.

"لم تحظَ دليلة بدميةٍ أبدًا يا سوزان. لقد تأمّلت أن تحصل على دميةٍ كهديّة في عيد الميلاد الماضي. وماذا تعتقدين أنّها وجدت في

الصندوق بدلًا من ذلك يا سوزان؟ وجدت سوطًا! إنّهم يجلدونها كلّ يومٍ تقريبًا، أتعلمين هذا؟ فكّري في هذه الطفلة المسكينة وهي تُجلد يا سوزان."

وحده الله يعلم ما كانت ستفعل سوزان لو حاول أيّ شخصٍ أن يجلد أحد أطفال إنجلسايد، لكنّها قالت: "لقد تعرّضتُ للجلد في الكثير من المرّات عندما كنت صغيرة، ولم يؤثر هذا عليّ الآن."

قالت دي: "عندما أخبرت دليلة عن أشجار عيد الميلاد لدينا، بكت يا سوزان. لم يكن لديهم شجرةٌ لعيد الميلاد أبدًا في منزلهم. لكنّها مصمّمة على أنّها ستحصل على شجرةٍ هذا العام. لقد وجدت مظلّة قديمة ليس بها سوى الأضلاع وهي ذاهبة لوضعها في سطلٍ وتزيينها لتصبح شجرةً لعيد الميلاد. أليس هذا مثيرًا للشفقة يا سوزان؟"

قالت سوزان: "ألا تتوافر الكثير من أشجار التنوب الصغيرة؟ أصبح هناك الكثير منها خلف منزل هانتر القديم في السنوات الأخيرة. أتمنّى لو سميّت تلك الفتاة بأيّ اسمٍ غير دليلة. يا له من اسمٍ لطفلةٍ مسيحيّة!"

قالت ديانا: "اسمها مكتوبٌ في الإنجيل يا سوزان. تفتخر دليلة جدًا باسمها. اليوم في المدرسة يا سوزان، أخبرت دليلة أنّنا سنأكل الدجاج على العشاء غدًا. ماذا تتوقّعين أنّها قالت يا سوزان؟"

قالت سوزان بشكلٍ قاطع: "أنا متأكّدة من أنّني لن أستطيع تخمين ما قالته. ولا يجب أن تتكلّمي خلال الحصّة."

"آه لا نتكلّم. تقول دليلة أنّه يجب ألّا نخالف أيًّا من القواعد، لكنّها تفكّر بطريقةٍ إبداعيّة فنحن نكتب رسائل لبعضنا البعض ونتبادلها. حسنًا، ما قالته دليلة هو أنّها سألتني إن كنت أستطيع أن أحضر لها عظمة، ما جعلني أدمع. سوف آخذ لها عظمة مع الكثير من اللحم عليها، فهي تحتاج طعامًا جيّدًا. عليها أن تعمل مثل العبدة يا سوزان،

عليها القيام بكلّ الأعمال المنزليّة، تقريبًا كلّها. وإذا لم تنجز ذلك بالشكل الصحيح، فإنّهم يوبّخونها بقسوة أو يُجبرونها على الأكلِ في المطبخ مع الخدم."

"لدى آل جرين صبيٌّ فرنسيٌّ صغير مستأجَر."

"حسنًا، عليها أن تأكل معه. ويجلس بجوربين بلا حذاء ويأكل بأكمام قميصه. تقول دليلة إنّها لا تمانع هذه الأشياء الآن لأنّني أحبّها، فحبّي لها وصداقتنا خفّفت من حزنها. ليس لديها من تحبّها سواي، أتصدّقين هذا يا سوزان؟!"

قالت سوزان متظاهرةً بالقلق والصدمة وخطورة ما سمعته: "هذا فظيع!"

"تقول دليلة لو كان لديها مليون دولار لكانت ستعطيني إيّاها كلّها يا سوزان. بالطبع لن آخذها لكنّ هذا يظهر طيبة قلبها."

ما زالت سوزان لا تتأثر بكلام دي فقالت: "التبرع بمليون مثل التبرع بمئة إذا لم تملكي أيًّا منهما."

***

38



شعرت ديانا بسعادةٍ غامرة. ففي النهاية، لم تكن أمّها تغار، ولم تكن تحبّ التملك، بل لم تكن تفهم.

كان الوالدان سيتجّهان إلى آفونلي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع وأخبرتها الأمّ أنّها تستطيع أن تطلب من دليلة جرين قضاء يوم السبت وليلته في إنجلسايد.

قالت آن لسوزان: "رأيت دليلة في نزهة مدرسة سانداي. إنّها جميلة وتبدو كسيّدةٍ صغيرة على الرغم من أنّها بالطبع تبالغ في أخبارها. ربّما تكون زوجة أبيها قاسيةً عليها قليلًا، وسمعت أنّ والدها صارمٌ ومتشدّدٌ إلى حدٍّ ما. من المحتمل أنّها تُظلم أحيانًا وتحبّ أن تبالغ في هذا لتنال بعض التعاطف."

لم تقتنع سوزان كثيرًا بكلامِ آن.

قالت: "حسنًا، على الأقلّ أيّ شخصٍ يعيش في منزل لورا جرين سيكون نظيفًا."

كانت ديانا قد وضعت الكثير من الخطط الترفيهيّة لدليلة.

"هل يمكننا الحصول على دجاجةٍ مشويّة يا سوزان محشوّةً كثيرًا؟ وعليكِ أن تصنعي لنا الفطائر. أنتِ لا تعرفين كم تتوق هذه الطفلة المسكينة لتذوّق الفطائر. لا يصنعون فطائر في منزلهم، فزوجة أبيها لئيمةٌ للغاية."

كانت سوزان لطيفةً جدًّا ووافقت على فعل ذلك. ذهب جيم ونان إلى آفونلي وكان والتر في منزل الأحلام مع كينيث فورد. لم يكن هناك شيء يفسد زيارة دليلة وبدت بالتأكيد جيّدة للغاية. وصلت دليلة صباح السبت مرتديةً ملابس أنيقة للغاية من الموسلين الورديّ، يبدو على الأقلّ أنّ زوجة الأب تبلي بلاءً حسنًا فيما يتعلّق بالملابس. وكانت أذناها وأظافرها لا تشوبها شائبة، كما لاحظت سوزان.

قالت بجديّة لديانا: "هذا يومٌ مميّزٌ بالنسبة لي. يا له من منزلٍ كبير! والكلاب الصينيّون رائعون! "

كان كل شيءٍ رائعًا. عملت دليلة المسكينة بجدّ، فلقد ساعدت ديانا في إعداد المائدة لتناول العشاء وجهّزت السلة الزجاجية الصغيرة المليئة بالجلبان العطر لوضعها وسط الطاولة.

قالت لديانا: "آه، أنتِ لا تعرفين كم أستمتع بفعل أمرٍ لمجرّدِ أنّني أحبّ القيام به. أليس هناك أمرٌ آخر لأفعله، من فضلك؟"

كانت سوزان نفسها قد تأثّرت بجمالِ مظهر دليلة وجمال صوتها وقالت: "يمكنك كسر حبّات البندق من أجل الكعكة التي سأصنعها بعد الظهر." ربّما كانت لورا جرين من التتر، فلا يمكنك دائمًا الحكم من خلال مظاهر الناس في الأماكن العامة. كان طبق دليلة ممتلئًا بالدجاج والحشوة والمرق، وحصلت على قطعة فطيرة ثانية دون التلميح إلى ذلك.

وقالت لديانا وهما تغادران الطاولة: "لطالما أردت معرفة كيف

يشعر المرء عندما يحصل على كلّ ما يمكنه تناوله، إنّه شعورٌ رائع."

أظهرت الفتاتان الكثير من الحبّ في فترة بعد الظهر. أعطت سوزان ديانا علبة حلوى وشاركتها ديانا مع دليلة التي أُعجبت بإحدى عرائس دي فأعطتها دي الدمية. نظفتا حوض أزهار الثالوث وانتزعتا بعض نباتات الهندباء التي غزت العشب. ساعدتا سوزان في تلميع الفضة وتحضير العشاء. كانت دليلة نشيطة ومنظمة لدرجة أنّ سوزان استسلمت تمامًا. شوّه فترة بعد الظهر حدثان، فلقد تظاهرت دليلة بتلويث ثوبها بالحبر وفقدت عقدها المصنوع من اللؤلؤ. لكنّ سوزان أزالت الحبر بلطف، وزال بعض اللون أيضًا، بأملاحِ الليمون وقالت دليلة إنّها ليست مهتمّة بالعقد، كلّ ما كان يهمّها هو تواجدها في إنجلسايد مع ديانا العزيزة.

سألت ديانا سوزان عندما حان وقت النوم: "ألن ننام في سرير الغرفة الاحتياطية؟ ينام الزوّار دائمًا في الغرفة الاحتياطيّة يا سوزان."

قالت سوزان: "ستأتي خالتك ديانا مع والديك ليلة الغد. جهزتُ الغرفة الاحتياطيّة لها. يمكنك وضع شرمب على سريرك ولا يمكنك وضعه في الغرفة الاحتياطية."

قالت دليلة وهي تغطّي نفسها: "يا إلهي ما أجمل رائحة ملاءاتك!"

قالت ديانا: "تغليها سوزان دائمًا بساق السوسن."

تنهّدت دليلة.

"أتساءل عمّا إذا كنت تعرفين كم أنّك محظوظة يا ديانا. أتمنّى لو كنت أملك منزلًا مثل منزلك، لكن هذا نصيبي في الحياة، عليّ فقط أن أرضى به."

جاءت سوزان أثناء جولتها الليلية في المنزل قبل أن تتوقّف عن عملها، وطلبت منهم التوقف عن الثرثرة والذهاب إلى النوم. أعطتهم

اثنتين من كعكات سكّر القيقب.

قالت دليلة بصوتٍ مرتعش: "لا يمكنني أن أنسى أبدًا لطفك يا آنسة بيكر."

ذهبت سوزان إلى سريرها وكانت تفكّر في أنّها لم ترى في حياتها فتاةً ذات أخلاقٍ عالية وجذابةً للغاية أكثر من دليلة، ومن المؤكّد أنّها أساءت الحكم عليها. على الرغم من أنه في تلك اللحظة تذكّرت سوزان أنّه بالنسبة لطفلٍ لم يحصل على ما يكفي من الطعام، فإنّ العظام التي أكلتها دليلة جرين ظلّت مغطاةً جيّدًا باللحم!

عادت دليلة إلى المنزل بعد ظهر اليوم التالي وجاء الوالدان والعمّة ديانا في الليل. يوم الإثنين، حدث ما لم يكن في الحسبان. عادت ديانا إلى المدرسة ظهرًا، وسمعت اسمها عندما دخلت رواق المدرسة. داخل الصف، كانت دليلة جرين محاطةً بمجموعةٍ من الفتيات الفضوليّات.

"شعرتُ بخيبة أملٍ كبيرة في إنجلسايد. بعد الطريقة التي تفاخرت بها دي بشأن منزلها، توقّعت أنّها تعيش في قصر. بالطبع إنه كبيرٌ بما يكفي، لكنّ بعض الأثاث رث، والكراسي في حاجةٍ ملحّةٍ إلى تنجيدٍ جديد."

سألتها بيسي بالمر: "هل رأيت الكلاب الصينيّة؟"

"لا شيء مميّز فيها على الإطلاق، ليس لديها شعرٌ حتى. أخبرتُ ديانا على الفور أنّ أملي قد خاب فيها."

كانت ديانا تقف على أرضيّة الرواق وتجمّدت في مكانها. لم تقصد التنصت، لكنّها كانت ببساطة لم تتحرّك من هول الصدمة.

أكملت دليلة: "أشعر بالأسف من أجل ديانا، فالطريقة التي يتجاهل بها والداها عائلتهما أمرٌ فاضح. والدتها مريعة، فهي تذهب وتترك

صغارها مع سوزان العجوز فقط لرعايتهم، وسوزان شبه مختلّة. ومع ذلك تتركهم جميعًا في ذاك المنزل القديم. لن تصدّقن كميّة النفايات التي في مطبخها. زوجة الطبيب كسولة وغير مبالية لدرجة أنّها لا تستطيع الطهي حتّى عندما تكون في المنزل، لذا فإنّ سوزان تدير كلّ شيء بطريقتها الخاصة. كانت ستقدّم لنا وجباتنا في المطبخ لكنّني وقفت وسألتها إن كنتُ ضيفةً أو لا بنبرةٍ حادّة، فقالت سوزان إنّني إذا تحدّثتُ بطريقةٍ وقحة فسوف تحبسني في الخزانة الخلفيّة. قلتُ لها: "أنتِ لا تجرؤين على فعلِ ذلك. يمكنك أن تصرخي على أطفال إنجلسايد يا سوزان بيكر، لكن لا يمكنكِ أن تصرخي عليّ." وبالفعل لم تجرؤ على حبسي. ولقد وقفت في وجه سوزان، لأنّني لن أسمح لها بإعطاء ريلا شرابًا مهدئًا. قلتُ لها: "ألا تعلمين أنّه كالسمّ للأطفال؟"

"لكنّها انتقمت منّي في وقت وجبات الطعام، فلقد قدّمت لي حصصًا صغيرة جدًّا من الطعام! كان هناك دجاج لكنني حصلت على ذيل الدجاجة فقط، ولم يطلب منّي أحدٌ حتى أن آخذ قطعةً ثانية من الفطيرة. وأرادت سوزان منّي النوم في الغرفة الاحتياطيّة لكنّ دي لم تقبل بذلك فقط بدافع اللؤم. إنّها غيورةٌ جدًّا، ولكنّني رغم ذلك ما زلت أشعر بالأسف من أجلها. أخبرتني أنّ نان تقرصها بطريقةٍ رهيبة، حتّى أنّ ذراعيها أصبحا باللون الأسود والأزرق. لقد نمنا في غرفتها وكان القطّ العجوز الأجرب مستلقيًا على قدم السرير طوال الليل، وأخبرت دي أنّه لم يكن نظيفًا. واختفت قلادة اللؤلؤ الخاصّة بي، بالطبع لا أقول أنّ سوزان أخذتها. أعتقد أنّها صادقة، لكنّني أعتقد أنّ اختفاءها أمرٌ مضحك. وألقى عليّ شيرلي زجاجة حبرٍ لوّثت ثوبي لكنّني لا أهتمّ، ستشتري لي أمّي ثوبًا جديدًا. حسنًا ، على أيّ حال، لقد انتزعت كلّ الهندباء من حديقتهم ونظفت طبق الفضة. كان عليكنّ

رؤية ذلك. لا أعرف متى كانت آخر مرّة تم تنظيفه فيها. أقول لكُنّ إنّ سوزان تتساهل عندما لا تكون زوجة الطبيب في المنزل. جعلتها تدرك أنّني لاحظت بعض أخطاءها سألتها: "لماذا لا تغسلي وعاء البطاطا يا سوزان؟" كان عليكنّ رؤية وجهها. انظرن إلى خاتمي الجديد يا فتيات، أعطاني إياه الصبي الذي أعرفه في لوبريدج."

قالت بيجي ماكاليستر بازدراء: "رأيتُ ديانا بلايث ترتدي هذا الخاتم في الكثير من المرات."

قالت لورا كار: "لا أصدّق كلمةً واحدة قلتِها عن إنجلسايد يا دليلة جرين." وقبل أن تتمكّن دليلة من الرد، اندفعت ديانا التي استعادت قوّتها في الحركة والكلام ، إلى الصف وقالت: "يهوذا!" ثمّ فكّرت بندمٍ أنّه لم يكن شيئًا مهذبًا جدًّا لتقوله. لكنّ قلبها كان مفطورًا ودمها كان يغلي فلم تكن قادرةً على انتقاء واختيار كلماتها.

تمتمت دليلة وقد احمرّت غضبًا ربّما لأوّل مرّةٍ في حياتها: "أنا لست كيهوذا!"

"أنتِ كذلك! ليست لديك أيّة ذرّةٍ إخلاص! إيّاكِ أن تتحدّثي معي مرّةً أخرى ما دمتِ حيّة!"

هرعت ديانا خارج المدرسة وركضت إلى المنزل. لم تستطع البقاء في المدرسة بعد ظهر ذلك اليوم، لم تستطع أبدًا! صفقت الباب الأمامي لإنجلسايد خلفها بقوّةٍ شديدة كما لو أنّه لم يُصفق من قبل.

ألقت دي نفسها بقوّةٍ على كتف أمّها وهي تبكي مقاطعةً حديث آن مع سوزان في المطبخ. سألتها آن: " ما الأمر يا حبيبتي؟"

روت دي القصّة بأكملها باكية، بطريقةٍ مفكّكة إلى حدٍّ ما.

"لقد تأذيّت من كلّ قلبي يا أمي. ولن أصدّق أيّ شخصٍ مرّةً أخرى أبدًا! "

"عزيزتي، لن يكون كلّ أصدقائك مثلها، كانت بولين مختلفة."

لكنّ دي كانت ما زالت تتألّم من شعور الخيانة والخسارة فقالت بمرارة: "هذه المرّة الثانية، ولن تكون هناك مرّةٌ ثالثة."

عندما صعدت دي إلى الطابق العلويّ قالت آن بحزن: "أشعر بالأسف أنّ دي فقدت إيمانها بالإنسانيّة. هذه مأساةٌ حقيقيّة بالنسبة لها، فلقد كان حظها سيءٌ مع بعض أصدقائها، أوّلًا جيني بيني، والآن دليلة. المشكلة هي أنّ دي تجذبها الفتيات اللواتي يحكين قصصًا مثيرةً للاهتمام، وأثّرت فيها قصّة الضحيّة التي لفقّتها دليلة."

قالت سوزان التي قد خدعت بعينيّ دليلة وأخلاقها: "إذا سألتني يا زوجة الطبيب العزيزة، فتلك الطفلة هي فتاةٌ وقحة. لن أنسى أنّها نعتت قطّنا بالأجرب! أنا لا أقول أنّ قططنا مثاليّة يا زوجة الطبيب العزيزة، لكن لا يجب أن تتحدّث الفتيات الصغيرات عنها. أنا لست محبّةً للقطط، لكنّ شرمب يبلغ من العمر سبعة سنوات وينبغي على الأقلّ احترامه. أمّا بالنسبة لوعاء البطاطا الخاصّ بي..."

لكنّ سوزان لم تستطع حقًّا التعبير عن مشاعرها تجاه ما قالته دليلة عن وعاء البطاطا.

كانت دي في غرفتها تفكّر في أنّه ربّما لم يفت الأوان على أن تكون الصديقة المفضلة لِلورا كار بعد كلّ ما حدث. كانت لورا مخلصة، حتّى لو لم تكن مثيرةً للاهتمام حقًّا. تنهّدت دي، فلقد فقدت بعض الشغف في الحياة بعد تصديقها لآلام دليلة.

***

39



عصفت رياح شرقيّة مريرة حول إنجلسايد مثل امرأةٍ عجوز سيّئة. كان يومًا باردًا وممطرًا من أواخر أيّام آب التي تأسر قلبك، من الأيام التي يسير فيها كلّ شيءٍ بطريقةٍ خاطئة، ما كان يسمى في أيّام آفونلي القديمة "يوم يونس."

كان الجرو الجديد الذي أحضره جيلبرت إلى المنزل قد خرّب ساق طاولة الطعام، ووجدت سوزان أنّ العث يملأ الخزانة، وأتلفت قطّة نان الجديدة أجمل نبتة سرخس، وكان جيم وبيرتي شكسبير يصنعان أروع مضربٍ في العليّة طوال فترة ما بعد الظهر باستخدام دلاءٍ من الصفيح للطبول، وكانت آن نفسها قد كسرت عاكس الضوء الزجاجيّ الملون. ولكن بطريقةٍ ما استمتعت بسماعه يتحطّم! كانت ريلا تعاني آلامًا في الأذن وشيرلي يعاني من طفحٍ جلديٍّ غريب على رقبته، الأمر الذي أثار قلق آن، لكنّ جيلبرت ألقى نظرةً سريعة وقال شارد الذهن إنّه لا يعتقد أنّ ذلك يعني شيئًا. بالطبع لم يعني ذلك شيئًا بالنسبة له، لأنّ شيرلي ابنه فقط وليس أحد مرضاه! ولا يهمّه أيضًا أنّه دعا عائلة ترينت لتناول العشاء في إحدى الأمسيات من الأسبوع

الماضي ونسي إخبار آن حتّى وصلوا. كان يومًا شاقًّا بالنسبة لها ولسوزان، وكانتا قد خطّطتا لعشاءٍ صغيرٍ كمكافأة لنفسيهما. تتمتّع السيّدة ترينت بسمعة أنّها أذكى مضيفة في شارلوت تاون! أين جوارب والتر السوداء ذات الأصابع الزرقاء؟ هل تعتقد يا والتر، أنّه يمكنك لمرّةٍ واحدة فقط وضع شيءٍ ما في مكانه؟ لا أعرف أين البحار السبعة يا نان. يا إلهي، أرجوكم توقّفوا عن طرح الأسئلة! لا أتساءل عن سبب تسميم سقراط، كان عليهم فعل ذلك."

حدّق والتر ونان مذهولين، فلم يسمعا والدتهما تتحدّث بهذه النبرة من قبل. أزعج مظهر والتر آن أكثر.

"هل من الضروريّ أن أذكّركِ دائمًا بعدم لفّ ساقيكِ حول كرسيّ البيانو يا ديانا؟ شيرلي، هل لطّخت المجلّة الجديدة بالمربى؟ وربّما يخبرني أحدكم لطفًا أين ذهبت مواشير المصباح المعلّق!"

لم يستطع أحدٌ إخبارها، فلقد قامت سوزان بفكّها وإخراجها لتغسلها، وصعدت آن إلى الطابق العلويّ للهروب من عيون أطفالها الحزينة. كانت تمشي ذهابًا وإيابًا وبتوتّرٍ في غرفتها. ماذا دهاها؟ هل تحوّلت إلى واحدةٍ من أولئك النساء المزعجات اللواتي ينفد صبرهنّ بسرعة؟ كانت تنزعج من كلّ شيءٍ هذه الأيّام. أثار أعصابها بعض تصرفات جيلبرت التي لم تكن تهتمّ بها من قبل. لقد سئمت من واجباتٍ مملّةٍ لا تنتهي، وتعبت من تلبية أهواء أسرتها. ذات مرّة كان كلّ ما فعلته لمنزلها وأسرتها يمنحها البهجة، أمّا الآن فيبدو أنّها لا تهتمّ بما فعلته. شعرت طوال الوقت وكأنّها في كابوسٍ وتحاول الفرار من شخصٍ وهي مقيّدةَ القدمين.

أسوأ ما في الأمر هو أنّ جيلبرت لم يلاحظ أبدًا وجود أيّ تغييرٍ فيها. كان مشغولًا ليلًا ونهارًا ويبدو أنّه لم يهتمّ سوى بعمله. الشيء

الوحيد الذي قاله على العشاء في ذلك اليوم هو أن تعطيه الخردل.

فكرت آن بمرارة: "يمكنني التحدث إلى الكراسي والطاولة، بالطبع. لقد صرت بالنسبة له امرأةً عاديّةً اعتاد على وجودها معه في البيت، لا شيء أكثر. لم يلاحظ أبدًا أنّني ارتديت فستانًا جديدًا الليلة الماضية، ولقد مضى وقتٌ طويلٌ منذ أن ناداني بـ "فتاتي آن"، حتى أنني نسيت متى كانت آخر مرّةٍ دعاني فيها بهذا الاسم. حسنًا، أعتقد أنّ جميع الزيجات في النهاية تصل إلى هذه المرحلة. ربّما تمرّ معظم النساء بهذا. إنّه لم يعد يقدّرني. عمله هو الأمر الوحيد الذي يعني له الآن. أين منديلي؟"

أخذت آن منديلها وجلست على كرسيّها لتعذّب نفسها بأفكارها. لم يعد يحبّها جيلبرت بعد الآن، عندما قبّلها، كانت القبلة عادةً بالنسبة له ولم تكن بحبّ، فلقد ذهب كلّ سحر المشاعر التي كانت بينهما. أصبحت النكات القديمة التي ضحكوا عليها ذكرياتٍ مؤلمة. كيف أمكنها أن تعتقد أنّها نكاتٌ مضحكة؟ مونتي تورنر الذي كان يقبّل زوجته بطريقةٍ منتظمة مرّة واحدة في الأسبوع، ومع ذلك كتب ملاحظةً كي لا ينسى تقبيلها. هل تريد أيّة زوجةٍ مثل تلك القبلات؟ وكورتيس أميس الذي التقى بزوجته مرتديةً قبّعةً جديدة ولم يعرفها. والسيّدة كلانسي داري التي قالت: "أنا لا أهتمّ كثيرًا بزوجي لكنّني سأفتقده إذا لم يكن في الجوار." افترضت آن أنّ جيلبرت سيفتقدها إذا لم تكن في الجوار. هل وصل الأمر إلى هذا الحدّ بينهما؟ ونات إليوت الذي أخبر زوجته بعد عشر سنواتٍ من الزواج: "ينبغي لكِ معرفة أنّني تعبتُ من الزواج." لقد تزوّجت بجيلبرت منذ خمسة عشر عامًا! حسنًا، ربّما كلّ الرجال هكذا. من المحتمل أن تقول الآنسة كورنيليا أنّهم كذلك. كان يصعب تحمّلهم بعد فترةٍ من الوقت. لكن إذا كان يجب تحمّل جيلبرت

فلا تريد آن أن تتحمّله. ولكنّ السيدة ثيودور كلو في جمعية مساعدة السيّدات قالت بفخرٍ: "لقد تزوّجنا منذ عشرين عامًا وزوجي يحبّني بقدر ما كان يحبّني في يوم زفافنا." لكنّها ربّما كانت تخدع نفسها أو تحافظ على كرامتها فقط. وكانت تبدو كلّ يومٍ أكبر من عمرها. تساءلت آن عمّا إذا كانت قد صارت تبدو عجوزًا.

لأوّل مرّة شعرت آن بسنواتها وكأنها همومٌ وعبءٌ عليها. ذهبت إلى المرآة ونظرت إلى نفسها بانتقاد. كانت هناك بعض الخطوط المتجعّدة حول عينيها، لكنّها لم تكن مرئيّةً إلّا في ضوءٍ قويّ. كانت خطوط ذقنها غير واضحة حتّى الآن، ولطالما كانت شاحبة. كان شعرها كثيفًا ومموّجًا ولا تتخلّله أيّة شعرةٍ رماديّة. لكن هل أحبّ أحدٌ حقًّا الشعر الأحمر؟ كان أنفها لا يزال جميلًا بالتأكيد. ربّتت عليهِ آن كصديقة، متذكّرةً لحظاتٍ معيّنة من الحياة عندما كان أنفها هو الذي ساعدها على الاستمرار في الحياة. لكنّ جيلبرت لم يعد يقدّر أنفها الآن، قد يكون مقعوفًا أو قصيرًا ومسطّحًا، لن يهتمّ. من المحتمل أنّه نسي أنّ لديها أنف. ربّما سيفتقده لو لم تكن موجودة، مثل السيّدة داري.

قالت آن في كآبة: "حسنًا، يجب أن أذهب وأرى ريلا وشيرلي. على الأقلّ لا يزال أطفالي الأحبّاء المساكين بحاجةٍ إلي. ما الذي جعلني أتعامل معهم بهذا الأسلوب؟ آه، أفترض أنّهم جميعًا يقولون من وراء ظهري أنّني أصبحت غريبة الأطوار."

استمرّ هطول المطر ونحيب الرياح. توقفت الألحان التي عزفتها مقالي الصفيح التي كانت في العليّة، لكنّ الصرير المتواصل لصرصار الليل في غرفة المعيشة كاد يدفعها إلى الجنون. في الظهر، جلب لها رجل البريد رسالتين. كانت إحداهما من ماريلا، لكنّ آن تنهّدت وهي

تطويها. كان خطّ يد ماريلا ضعيفًا ومرتعشًا للغاية. الرسالة الأخرى كانت من السيّدة باريت فاولر من شارلوت تاون والتي كانت آن تعرفها معرفةً سطحيّة. وأرادت السيّدة باريت فاولر من الطبيب والسيّدة بلايث تناول العشاء معها مساء الثلاثاء المقبل في الساعة السابعة "لمقابلة صديقتك القديمة، زوجة السيّد أندرو داوسون من وينيبيغ، كريستين ستيوارت."

أسقطت آن الرسالة. وتدّفقت الذكريات القديمة عليها، البعض منها غير سارّةٍ بالتأكيد. كريستين ستيوارت من ريدموند، الفتاة التي قال الناس لها ذات مرّة أنّها كانت مخطوبةً لجيلبرت، الفتاة التي كانت آن تشعر بغيرةٍ شديدةٍ منها سابقًا. نعم، اعترفت آن الآن بعد عشرين عامًا، أنّها كانت تغار، وأنّها كانت تكره كريستين ستيوارت.

لم تفكّر في كريستين لسنوات، لكنّها كانت تتذكّرها بوضوح. فتاةٌ طويلةٌ بيضاء البشرة، ذات عينين زرقاوين داكنتين، وكان شعرها أسود مزرقّ، وكانت مميّزة نوعًا ما. ولكن كان أنفها طويلًا، نعم، كان طويلًا بوضوح. لكنّها كانت فاتنة، لا يمكن لأحدٍ إنكار أنّ كريستين كانت فاتنةً جدًّا. تذّكرت آن أنها سمعت منذ سنوات أنّ كريستين تزوّجت رجلًا جيّدًا ومناسبًا وانتقلت إلى الغرب.

جاء جيلبرت لتناول العشاء على عجل، فلقد انتشر وباء الحصبة في جلين الشماليّة، وسلّمته آن بصمت رسالة السيدة فاولر.

بإظهار مشاعر إعجابٍ لأوّل مرةٍ منذ أسابيع قال جيلبرت: "كريستين ستيوارت! بالطبع سنذهب. أودّ أن أراها من أجل الماضي الذي كان بيننا. لقد مرّت الفتاة المسكينة بمشاكل كثيرة. أنتِ تعلمين لقد فقدت زوجها منذ أربعِ سنوات."

لم تكن آن تعرف ذلك، وكيف عرف جيلبرت؟ لماذا لم يخبرها

قطّ؟ وهل نسي أنّ يوم الثلاثاء القادم هو الذكرى السنويّة ليوم زواجهما؟ يومٌ لم يقبلا فيه أبدًا أيّة دعوة في السابق، بل كانا يحتفلان به على طريقتهم الخاصّة. حسنًا، لن تذكّره بذلك، ويمكنه رؤية كريستين إذا أراد ذلك. ذات مرّة قالت لها فتاةٌ في ريدموند بطريقةٍ جنونيّة:

"كان هناك انسجامٌ كبير بين جيلبرت وكريستين، أكثر ممّا تعرفين يا آن." كانت قد ضحكت فقط في ذلك الوقت، فلقد كانت كلير هاليت امرأةً حاقدة، لكن ربّما كانت محقّةً نوعًا ما. اقشعرّ بدن آن عندما تذكّرت فجأةً، أنّه بعد فترة وجيزة من زواجها، وجدت صورةً صغيرةً لكريستين في دفتر جيبٍ قديمٍ لجيلبرت. بدا جيلبرت غير مبالٍ وقال إنّه تساءل عمّا حدث لتلك اللقطة القديمة. ولكن هل كانت واحدةً من تلك الأشياء غير المهمّة التي اتضّح أنّ لها أهميّة كبيرة؟ هل كان ممكنًا أنّ جيلبرت أحبّ كريستين؟ هل كانت آن الخيار الثاني فقط؟ جائزة ترضية؟

قالت آن وهي تحاول الضحك: "بالتأكّيد لا أشعر بالغيرة."

كان كلّ شيءٍ سخيفًا للغاية. كان أمرًا عاديًّا كثيرًا أن يحبّ جيلبرت فكرة لقاء صديقةٍ قديمةٍ من ريدموند. كما كان أمرًا عاديًا أن ينسى الرجل المشغول الذي تزوّج منذ خمس عشرة سنة، الأوقات والفصول والأيّام والأشهر. كتبت آن إلى السيّدة فاولر أنها قبلت دعوتها ثمّ أمضت ثلاثة أيّامٍ قبل يوم الثلاثاء على أملٍ يائسٍ أن تضطرّ امرأةٌ ما في جلين الشماليّة إلى إنجاب طفلها بعد ظهر يوم الثلاثاء في حوالي الساعة الخامسة والنصف.

***

40



وصل

الطفل المأمول في وقتٍ قريبٍ جدًّا، فلقد تمّ استدعاء جيلبرت في الساعة التاسعة مساء الاثنين. وبكت آن حتّى غفت واستيقظت في الساعة الثالثة. اعتادت على الاستمتاع في الاستيقاظ في الليل، والاستلقاء والنظر من نافذتها إلى جمال الليل المؤنس، وسماع تنفّس جيلبرت إلى جانبها، والتفكير في الأطفال في الردهة واليوم الجديد الجميل الذي كان ينتظرها، أمّا الآن فالوضع مختلفٌ تمامًا! كانت آن لا تزال مستيقظةً عندما كان الفجر الصافي والأخضر مثل الفلوريت يطلع في سماء الشرق، وعاد جيلبرت إلى المنزل أخيرًا. قال "توأمان" ببرودٍ وهو يرمي بنفسه إلى الفراش واستطاع أن يغفو خلال دقيقة. بالتأكيد توأمان! كان ذلك فجر الذكرى الخامسة عشرة ليوم زفافكِ وكلّ ما يمكن أن يقوله لكِ زوجك هو "توأمان". لم يتذكّر حتّى أن ذلك اليوم كان ذكرى زواجكما.

يبدو أنّ جيلبرت ما زال لم يتذكّر عندما نزل في الساعة الحادية عشرة. لأوّل مرّة لم يذكر ذلك، لأوّل مرّة لم يحضر هديّةً لها. حسنًا، لا يجب أن تعطيه هديّته أيضًا. كانت قد جهّزتها له منذ أسابيع، وكانت

عبارةً عن سكّين جيبٍ بيدٍ فضيّةٍ مع تاريخ زواجهما على جانب والأحرف الأولى من اسمه الأول واسمه الأخير على الجانب الآخر. طبعًا يجب أن يشتريها منها بسنتٍ خشية انقطاع حبّهما. لكن بما أنّه نسي كانت ستنسى أيضًا لتنتقم منه.

بدا جيلبرت في حالة ذهولٍ طوال اليوم. بالكاد تحدّث إلى أيّ شخصٍ وظلّ يفكّر ويمشي في المكتبة. هل كان يتوق لرؤية كريستين مرّةً أخرى؟ ربّما كان يفكّر فيها ويتوق شوقًا إليها طوال تلك السنوات. عرفت آن جيّدًا أنّ هذه الفكرة كانت غير منطقيّة تمامًا ولكن متى كانت الغيرة معقولة؟ لم يكن هناك جدوى من محاولة أن تكون فلسفيًّا. لم يكن للفلسفة تأثيرٌ على مزاجها.

كانوا متّجهين إلى المدينة في قطار الساعة الخامسة. سألت ريلا: "هل يمكننا الدخول ومشاهدة فستانك يا ماما؟"

قالت آن: "آه، إذا كنتِ تريدين ذلك." ثمّ نهضت. كان صوتها مشكوكًا فيه. وأضافت نادمةً: "تعالي يا حبيبتي."

لم يكن لدى ريلا متعةً أكبر من مشاهدة فستان أمّي. لكن حتّى ريلا اعتقدت أنّ أمّها لم تكن مستمتعةً كثيرًا في تلك الليلة.

فكّرت آن في الفستان الذي يجب أن ترتديه، لكنّها قالت لنفسها بحزنٍ أنّ الفستان الذي سترتديه لن يهمّ. لم يلاحظ جيلبرت ذلك قطّ. لم تعد المرآة صديقتها، بدت شاحبةً ومتعبة، وغير مرغوب فيه. لكنّها لا يجب أن تبدو فلاحة وقديمة الطراز أمام كريستين. لم تكن آن تريد أن تجعل كريستين تشعر بالشفقة عليها. هل كان عليها ارتداء الشبك الجديد ذو اللون الأخضر التفاحي فوق قميصٍ تحتيّ عليه رسومات براعم ورد؟ أو ثوبها الحريريّ الكريميّ الشفاف مع سترة إيتون من دانتيل كلوني؟ لقد جرّبت كلاهما وقرّرت ارتداء الشبك. جرّبت

العديد من تصفيفات الشعر واستنتجت أنّ تسريحة البومبادور المتدلّي الجديد كان جذابًا.

شهقت ريلا بإعجاب: "آه، تبدين جميلةً يا أمّي!"

حسنًا، كان من المفترض أن يقول الأطفال والحمقى الحقيقة. ألم تخبرها ريبيكا ديو ذات مرّة بأنّها "جميلة نسبيًا"؟ أمّا بالنسبة لجيلبرت، فقد كان يمدحها في الماضي ولكنّه لم يغازلها منذ أشهر، فآن لا يمكنها أن تتذكّر ولا حتّى كلمة غزلٍ واحدة.

مرّ جيلبرت في طريقه إلى خزانة ملابسه ولم يقل أيّة كلمة عن فستانها الجديد. وقفت آن للحظةٍ وقلبها يحترق من الاستياء، ثمّ خلعت الفستان بفظاظةٍ وألقته على السرير. كانت سترتدي ثوبها الأسود القديم الذي كان ثوبًا مهمًّا وكان يعتبر مميّزًا للغاية في منطقة فوروينذز ولكنّه لم يعجب جيلبرت أبدًا. ماذا تلبس على رقبتها؟ على الرغم من أنّ قلادة جيم كانت عزيزةً لسنوات، إلّا أنّها تفتّتت منذ فترةٍ طويلة. لم تكن لديها قلادةٌ لائقّة حقًا. لذا أخرجت الصندوق الصغير الذي يحتوي على القلب المطليّ بالمينا الورديّ الذي أعطاها إيّاه جيلبرت في ريدموند. نادرًا ما كانت ترتديه الآن، ففي النهاية لم يكن اللون الورديّ ملائمًا مع شعرها الأحمر، لكنّها كانت ستلبسه الليلة. هل سيلاحظ جيلبرت ذلك؟ لقد أصبحت جاهزة، لكن لماذا لم يكن جيلبرت جاهزًا أيضًا؟ ما الذي كان يؤخره؟ آه، لا شكّ أنّه كان يحلق بعنايةٍ فائقة! طرقت الباب بحدّة.

"جيلبرت، سنفوّت القطار إذا لم تسرع."

قال جيلبرت: "أنت تتصرّفين كمعلّمة مدرسة، أهناك خطبٌ ما في قدمك؟"

يمكن أن يمزح في كلّ شيء، أليس كذلك؟ لم تدع نفسها تفكّر كم

بدا وسيمًا في تلك البدلة. في النهاية، كانت الموضات الحديثة لملابس الرجال سخيفةً حقًّا. تفتقر تمامًا إلى الأناقة والجاذبيّة. ثمّ فكّرت آن في أنّه لا بدّ من أنّ تلك الملابس كانت في قمّة الروعة في "أيّام إليزابيث الأولى" عندما كان الرجال يرتدون صُدراتٍ من الساتان الأبيض ومعاطف من المخمل القرمزيّ وشرائط الدانتيل! ومع ذلك لم يكونوا مخنّثين. لقد كانوا أروع الرجال وأكثرهم شجاعةً في العالم.

قال جيلبرت مشتّت الذهن: "حسنًا، تعالي إن كنتِ في عجلةٍ من أمرك."

أصبح دائمًا مشتّت الذهن الآن وهو يتكلّم معها. كانت بالنسبة له الآن مجرّد قطعةٍ من الأثاث، نعم، كان يعاملها وكأنّها مجرّد قطعة أثاث!

قادهم جيم إلى المحطّة. وراقبتهما بإعجاب أثناء ذهابهم سوزان والآنسة كورنيليا التي جاءت لتسأل سوزان عمّا إذا كانوا يستطيعون الاعتماد عليها كالمعتاد في تحضير البطاطا المحلّاة لعشاء الكنيسة.

قالت الآنسة كورنيليا: "ما زالت آن تحافظ على أناقتها ومظهرها الجميل."

وافقت سوزان على ذلك وقالت: "على الرغم من أنّني اعتقدتُ في الأسابيع القليلة الماضية أنّها متعبةٌ قليلًا، إلّا أنّها تحافظ على مظهرها. وما زالت معدة الطبيب مسطّحة وجميلة مثلما كانت في الأيّام الخوالي."

قالت الآنسة كورنيليا: "إنّهما زوجان مثاليّان."

لم يقل الزوجان المثاليان شيئًا مهمًّا أو كلامًا جميلًا طوال الطريق إلى المدينة. بالطبع كان جيلبرت متحمّسًا للغاية بشأن رؤية حبّه القديم لدرجة أنّه لن يتحدّث إلى زوجته! عطست آن، وخشيت أن تكون قد

أُصيبت بنزلة برد. كم سيكون مروّعًا أن تعطس طوال العشاء تحت أعينِ زوجة السيّد أندرو داوسون وكريستين ستيوارت! شعرت بألمٍ في شفتها، ربّما كانت ستصاب بقرحة الزكام. هل عطست جولييت من قبل؟ تخيّلوا أن تصاب بورشيا بتقرّحٍ في يديها، أو أن تصاب أرجيف هيلين بالفواق، أو أن تصاب كليوباترا بطفحٍ جلديّ!

عندما نزلت آن الطابق السفليّ في مسكن باريت فاولر، تعثّرت فوق رأس الدبّ على السجادة في القاعة، وتمايلت من خلال باب غرفةٍ مليئةٍ بالأثاث المحشوّ والأشياء المذهّبة، غرفةٌ أسمتها زوجة السيّد باريت فاولر صالونًا، وسقطت على الكنبة، لحسن الحظ استطاعت الجلوس بشكلٍ طبيعيّ. نظرت بفزعٍ إلى كريستين، ثمّ أدركت لحسن الحظ أنّ كريستين لم تأت بعد. كان ليكون أمرًا مروّعًا لو كانت جالسةً هناك وهي تستمتع بمشاهدة زوجة جيلبرت بلايث تدخل مخمورة! لم يسأل جيلبرت حتّى إذا كان قد أصابها أيّ مكروه. لقد كان بالفعل في محادثةٍ عميقةٍ مع الطبيب فاولر وطبيبٌ آخر يُدعى موراي، ينحدر من نيو برونزويك وكان مؤلفًا لدراسةٍ بارزة عن الأمراض الاستوائية والتي أثارت ضجةً في الدوائر الطبية. لكنّ آن لاحظت أنّه عندما نزلت كريستين، فاحت رائحة نبتة رقيب الشمس، وانتهى الحديث عن تلك الدراسة فورًا. وقف جيلبرت وعيناه تلمعان بوضوح وهو ينظر إلى حبيبته القديمة.

وقفت كريستين للحظةٍ في المدخل، ولم تتعثر برأس الدبّ مثل آن. تذكّرت آن أنّ كريستين كانت لديها عادة قديمة تتمثّل في التوقّف عند المدخل لتتباهى بنفسها. ولا شكّ أنّها اعتبرت هذه فرصةً ممتازةً لتظهر لجيلبرت ما خسره.

كانت ترتدي ثوبًا من المخمل الأرجواني بأكمامٍ طويلة فضفاضة

مخطّطة باللون الذهبيّ، و بذيل السمكة المخطّط بالدانتيل الذهبيّ. وعُصابة ذهبيّة حول شعرها الذي ما زال لونه داكنًا. كما أنّها كانت تزيّن رقبتها بسلسلة طويلة رفيعة من الذهب، ومرصّعة بالألماس. شعرت آن على الفور بأنّها قديمة الطراز، وريفيّة، وناقصة، ورثّة، وتتبع موضةً انتهت منذ ستّة أشهر. كانت تتمنّى لو لم تضع القلب السخيف المطليّ بالمينا.

لم يكن هناك شكٌّ في أنّ كريستين كانت جميلةً كما كانت دائمًا. ربّما تكون أنيقةً جدًّا وحافظت على جمالها، ولقد كانت ذات شخصيّةٍ قويّة وجريئة إلى حدٍّ كبير. ما زال أنفها قصيرًا وذقنها ذقن شخصٍ متوسّط العمر. وبوقوفها في المدخل بتلك الطريقة، بدت قدماها كبيرتين. ويبدو أنّها لم تعد مميّزة كما كانت. لكنّ خدّيها كانا لا يزالان ناعمين، وعيناها الكبيرتان الزرقاوان لا تزالا جميلتين تحت تجاعيدٍ غريبة كانت تُعتبر ساحرةً للغاية في ريدموند. نعم، كانت زوجة السيد أندرو داوسون امرأةً فاتنةً للغاية ولم تترك أيّ انطباعٍ بأنّ قلبها متعلّقٌ في قبر أندرو داوسون أو بأنّها متأثرةٌ جدًّا بوفاته.

استحوذت كريستين على انتباه الغرفة بأكملها لحظة دخولها. شعرت آن كما لو أنّها لم تكن موجودةً على الإطلاق. لكنّها جلست منتصبة. يجب ألاّ ترى كريستين أيّ انحناء يدلّ على أنّ آن أصبحت في منتصف العمر. كانت ستخوض معركة علنًا. تحوّل لون عينيها الرماديّ إلى اللون الأخضر البارز واحمرّ خدّاها البيضاويّان. وذكّرت نفسها بأنّ لها أنفًا جميلًا. لم يركّز الطبيب موراي في آن من قبل، لكنّه فكّر متفاجئًا أنّ بلايث لديه زوجةٌ ذات مظهرٍ استثنائيّ. بدت زوجة السيد داوسون عاديّةً على نحوٍ إيجابيّ بجانبها.

كانت كريستين تقول بخبث: "جيلبرت بلايث، أنت وسيمٌ مثلما

كنت في الأيّام الخوالي. من الجيّد أن أرى أنّك لم تتغيّر."

فكّرت آن أنّ كريستين تتحدّث بنفس النبرة القديمة، لطالما كرهت صوتها الناعم.

قال جيلبرت: "عندما أنظر إليك، أشعر أنّ الوقت لم يمضِ على الإطلاق. أين تعلّمت سرّ الشباب الخالد؟"

ضحكت كريستين.

فكرت آن في تلك اللحظة أنّ ضحكة كريستين رخيصةٌ قليلًا.

قالت بنظرةٍ خاطفةٍ حولها: "يمكنك دائمًا أن تقول مجاملةً جميلة يا جيلبرت. كما تعلم. الدكتور بلايث كان حبيبًا لي في تلك الأيام التي يتظاهر بأنّها كانت بالأمس. وآن شيرلي! أنتِ لم تتغيّري بقدر ما قيل لي، على الرغم من أنّني لا أعتقد أنني سأعرفك لو التقينا صدفةً في الشارع. لون شعركِ أصبح داكنًا أكثر بقليلٍ ممّا كان عليه من قبل، أليس كذلك؟ سبحان الله، لا أصدّق أنّنا التقينا مرّةً أخرى بهذه الطريقة! كنت أخشى عدم قدومك بسبب ألم الظهر."

"ألم الظهر!"

"نعم، ألا تعانين منه؟ ظننت أنّكِ مريضة."

قالت السيدة فاولر معتذرةً: "لابدّ أنّ الأمر التبس عليّ. لقد أخبرني أحدهم أنّكِ كنتِ مصابةً بنوبةٍ شديدةٍ من ألم الظهر."

قالت آن بصوتٍ خافت: "لا بدّ أنّه كان يتكلّم عن زوجة السيد الطبيب باركر من لوبريدج، أمّا أنا فلم أعاني قطّ من ألم الظهر."

قالت كريستين بوقاحةٍ في نبرتها: "هذا من حسن حظكِ، فهو رهيبٌ للغاية، عمّتي تعاني منه بشدّة."

جعل كلامها آن تشعر أنّها من جيل العمّات. تمكّنت آن من الابتسام بشفتيها وليس عينيها. لو كان في إمكانها فقط التفكير في كلامٍ ذكيّ

لتقوله! كانت تعلم أنّها في الساعة الثالثة من تلك الليلة ربما كانت ستفكّر في ردٍّ رائع كانت ستقوله لكنّ ذلك لن يفيدها الآن.

توجّهت كريستين بالحديث إلى آن لكنّها كانت تنظر إلى جيلبرت وقالت: "قيل لي أنّ لديكِ سبعة أطفال."

قالت آن بقليلٍ من الحزن: "ستّةٌ أحياء فقط."

رغم مرور سنواتٍ على وفاتها، إلّا أنّ آن لم تستطع التفكير في جويس البيضاء الصغيرة دون الشعور بالألم.

قالت كريستين: "يا لها من عائلة!"

بدا على الفور أنّه من المخزي والسخيف أن تكون لديك عائلة كبيرة.

قالت آن: "أعتقد أنّكِ لم تنجبين أيّ طفل."

"أنا لم أهتمّ قط بالأطفال." هزت كريستين كتفيها الجميلين لكنّ صوتها كان خشنًا قليلًا. ثمّ تابعت: "أخشى أنّني لا أحبّ أن أكون أمًّا. لم أفكّر مطلقًا في أنّ مهمّة المرأة الوحيدة هي جلب الأطفال إلى عالمٍ مزدحمٍ مسبقًا."

ذهبوا لتناول العشاء بعد ذلك. أخذ جيلبرت كريستين، وأخذ الطبيب موراي السيّدة فاولر، وأخذ الطبيب فاولر آن، وهو رجلٌ قصيرٌ وبدين، لا يستطيع التحدّث إلى أيّ شخصٍ باستثناء طبيبٍ آخر.

شعرت آن أنّ الغرفة كانت خانقةً إلى حدٍّ ما. كانت تفوح فيها رائحةٌ كريهةٌ وغامضة. ربّما كانت السيدة فاولر تحرق البخور. كانت قائمة الطعام جيّدة وصارت آن تأكل دون أيّة شهيّة وابتسمت حتّى شعرت أنّها بدأت تبدو وكأنّها قطة الشيشاير. لم تستطع أن تبعد عينيها عن كريستين التي كانت تبتسم لجيلبرت باستمرار. كانت أسنانها جميلة بل جميلةً للغاية، بدت مثل الأسنان التي تظهر في إعلانات معجون

الأسنان. كانت كريستين تحرّك يديها بطريقةٍ جذابة وباستمرار أثناء حديثها. كانت لديها يدين جميلتين، لكنّهما كبيرتان نوعًا ما.

كانت تتحدّث إلى جيلبرت عن السرعات الإيقاعيّة للعيش. ما الذي قصدته بحقّ الله؟ هل عرفت هي نفسها ما معنى كلامها؟ ثمّ أصبح حديثهما عن مسرحية العاطفة التي تروي قصّة يسوع.

سألت كريستين آن: "هل سبق لكِ أن زرتِ أوبرا ميرغاو؟"

سألت كريستين ذلك السؤال وهي تعرف جيّدًا أن آن لم تزرها! لماذا بدا أبسط سؤالٍ وقحًا للغاية عندما طرحته كريستين؟

قالت كريستين: "بالطبع، فأنتِ مرتبطةٌ بأسرتكِ بشكلٍ رهيب. آه، خمّني من التقيت الشهر الماضي عندما كنت في هاليفاكس؟ رأيتُ صديقتكِ الصغيرة تلك التي تزوّجت القسّ القبيح. ما هو اسمه؟"

قالت آن "جوناس بليك، تزوّجته فيليبا جوردون، وأنا لم أعتقد أبدًا أنّه قبيح."

"لم تعتقدي ذلك؟ بالطّبع تختلف الأذواق. حسنًا على أيّة حال، التقيت بهما. مسكينة فيليبا!" كانت الطريقة التي قالت فيها كريستين كلمة "مسكينة" مؤثرة للغاية.

سألتها آن: "لماذا مسكينة؟ أعتقد أنّها كانت وجوناس سعداء للغاية."

"سعداء! عزيزتي، لو كان بإمكانك رؤية المكان الذي يعيشان فيه! قرية صيدٍ صغيرة بائسة حيث يعتبر اقتحام الخنازير للحديقة أمرًا شيّقًا! قيل لي أنّ جوناس كان لديه كنيسة جيدة في كينغسبورت وتخلّى عنها لأنّه اعتقد أنّ من واجبه الذهاب إلى الصيادين الذين يحتاجون إليه. لا أطيق الناس المتعصبين هكذا. سألتُ فيليبا عن كيفيّة قدرتها على العيش في مكانٍ منعزلٍ وبعيدٍ عن الطريق مثل

هذا، هل تعرفين ما كان جوابها؟"

مدّت كريستين يديها المزيّنتين بالخواتم في سؤالها الأخير.

قالت آن: "ربما قالت ما كنت سأقوله عن جلين سانت ماري. أنّه كان المكان الوحيد في العالم للعيش فيه."

ابتسمت كريستين: "تخيّلي أنّكِ سعيدةٌ هناك."

لاحظت آن مع ابتسامة كريستين أنّ لها فمًا كبيرًا تظهر فيه جميع أسنانها عندما تبتسم. تابعت كريستين: "ألم تشعري أبدًا أنّكِ تريدين أن تنتقلي للعيش في مكانٍ آخر لاستكشاف مناطق أخرى؟ أذكر أنّكِ كنتِ طموحةً للغاية. ألم تكتبي كتاباتٍ صغيرة وحكيمة إلى حدٍّ ما عندما كنتِ في ريدموند؟ كانت خياليّة وغريبة بالطبع، لكنّها لا تزال جيّدة..."

"لقد كتبتها للأشخاص الذين ما زالوا يؤمنون بأرض الخيال. هناك عددٌ كبيرٌ منهم قد يفاجئك كما تعلمين، وهم يحبّون الحصول على الأخبار من ذلك البلد."

"وهل توقّفتِ عن الكتابة؟"

قالت آن وهي تفكّر في جيم ورفاقه: "ليس تمامًا ... لكنّني أكتب رسائل إنجيليّة الآن."

حدّقت كريستين، ولم تعرف معنى ما سمعته. ماذا قصدت آن شيرلي؟ ولكن في النهاية، كانت آن مشهورةً في ريدموند بسبب خطاباتها الغامضة. لقد حافظت على مظهرها بطريقةٍ مذهل، لكن من المحتمل أنّها كانت واحدةً من هؤلاء النساء اللواتي تزوّجن وتوقّفن عن التفكير. جيلبرت المسكين! لقد استولت عليه قبل أن يأتي إلى ريدموند. لم تكن لديه أيّة فرصة للهروب منها.

كسر الطبيب موراي لوزتين ثمّ سأل: "هل يأكل أيّ أحدٍ الفيلوبيناس في هذه الأيّام؟" نظرت كريستين إلى جيلبرت.

سألته: "هل تتذكّر تلك الفيلوبينا التي أكلناها ذات مرّة؟"

كانت آن تفكّر فيما إن تبادل جيلبرت وكريستين نظرة حبٍّ واشتياق لحظة سؤالها.

ردّ جيلبرت: "وهل يمكنني أن أنساها؟"

لقد غرقا في بحرٍ من ذكرياتهما معًا، بينما كانت آن تحدّق في صورة الأسماك والبرتقال المعلقة فوق خزانةٍ جانبيّة. لم تكن تعتقد قط أنّ لدى جيلبرت وكريستين الكثير من الذكريات المشتركة. "هل تتذكّر نزهتنا فوق آرم؟ هل تتذّكري الليلة التي ذهبنا فيها إلى كنيسة الزنوج؟ هل تتذكّر الليلة التي ذهبنا فيها إلى الحفلة التنكريّة؟ كنتِ سيّدةً إسبانيّة بفستانٍ أسود من المخمل مع طرحةٍ من الدانتيل ومروحةٍ يدويّة."

يبدو أن جيلبرت تذكّر كلّ ذكرياتهما بالتفصيل، لكنّه نسي ذكرى زواجه!

عندما عادوا إلى الصالة، نظرت كريستين من النافذة إلى سماء الشرق التي كانت رماديّةً شاحبة خلف أشجار الحور الداكنة.

"جيلبرت، دعنا نتنزّه في الحديقة. أريد أن أتعلّم مرّةً أخرى معنى طلوع القمر في شهر أيلول."

تساءلت آن: "هل يعني طلوع القمر في شهر أيلول شيئًا لا يعنيه في أيّ شهرٍ آخر؟ وماذا تقصد بـ"مرّةً أخرى"؟ هل تعلّمته من قبل... معه؟"

خرج جيلبرت وكريستين، وشعرت آن بأنّها قد تمّت تنحيتها جانبًا بطريقةٍ لائقةٍ ولطيفة. جلست على كرسيٍّ يطلّ على الحديقة، على الرغم من أنّها لن تعترف حتّى لنفسها بأنّها اختارت ذلك الكرسيّ لهذا السبب. استطاعت أن ترى كريستين وجيلبرت يسيران على الطريق. ماذا كانا يقولان لبعضهما البعض؟ يبدو أنّ كريستين تقول معظم

الحديث. ربّما كان جيلبرت غبيًّا جدًّا في الانفعال بحيث لا يستطيع التحدّث. هل كان يبتسم في طلوع القمر على ذكرياتٍ لم يكن لها نصيبٌ فيها؟ تذكّرت الليالي التي مشتها هي وجيلبرت في حدائق آفونلي تحت ضوء القمر. هل نسيها؟

كانت كريستين تنظر إلى السماء. بالطبع كانت تعلم أنّها كانت تتباهى برقبتها البيضاء الناعمة عندما رفعت وجهها هكذا. هل استغرق القمر قطّ وقتًا طويلًا كهذا ليطلع؟

كان الضيوف الآخرون ينزلون عندما عادا أخيرًا. كان هناك حديثٌ وضحكٌ وموسيقى. غنّت كريستين بطريقةٍ ممتازة. كانت دائما امرأةً تحبّ الموسيقى والغناء. غنّت لجيلبرت "أيام الماضي العزيزة التي لا نتذكرها." انحنى جيلبرت على كرسيٍّ مريح وكان صامتًا بشكلٍ غير مألوف. هل كان ينظر بحزنٍ إلى تلك الأيّام العزيزة؟ هل كان يتخيّل كيف كانت حياته لو تزوّج كريستين؟ اعتقدت آن أنّها عرفت الآن ما كان يفكّر فيه جيلبرت دائمًا من قبل. شعرت في ألمٍ في رأسها. وفكّرت في أنّها إن لم يذهبان قريبًا، فستضرب على رأسها وتصرخ ألمًا. ثمّ تذكّرت أنّ قطارهما سيغادر مبكرًا، وحمدت الله على ذلك.

عندما نزلت، كانت كريستين تقف في الشرفة مع جيلبرت. اقتربت من كتفه وأزالت ورقةً عنه. كان ذلك أشبه بالمداعبة.

"هل أنت بخير حقًّا يا جيلبرت؟ تبدو مرهقًا بشكلٍ مخيف، أعلم أنّك تعمل فوق طاقتك."

اجتاحت موجة من الرعب آني. بدا جيلبرت متعبًا، بدا متعبًا بشكلٍ مخيف، وهي لم تلاحظ ذلك حتّى أشارت كريستين إليه! لن تنسى أبدًا إذلال تلك اللحظة. أدركت أنّها لم تقدّر جيلبرت وكانت تلقي باللوم عليه للسبب نفسه.

التفتت إليها كريستين.

"لقد كان من الرائع مقابلتك مرّةً أخرى يا آن. تمامًا مثل الأيّام الخوالي."

قالت آن: "تمامًا مثلها."

"لكنّني أخبرت جيلبرت للتوّ أنّه بدا عليه التعب قليلًا. يجب أن تعتني به بطريقةٍ أفضل يا آن. كما تعلمين، لقد مر ّوقتٌ منذ أن كنت أحلم حقًا بزوجك. أعتقد أنّه كان حقًا أجمل حبيبٍ لديّ، لكن يجب أن تكوني قد سامحتني لأنّني لم آخذه منك."

تجمّدت آن مرّةً أخرى مذهولة.

وبأسلوبٍ راقٍ كالذي كانت تستخدمه كريستين في أيّام ريدموند قالت آن: "ربّما يشفق على نفسه لأنّكِ لم تأخذيه." ثمّ صعدت إلى عربة الطبيب فاولر في طريقها إلى المحطة.

هزّت كريستين كتفيها الجميلين وقالت: "أنتِ امرأةٌ مضحكة!" كانت مستمتعةً كثيرًا وهي تنظر إليهما وهما يرحلان.

***

41



عندما

كان يساعدها في القطار وبذهنٍ شاردٍ أكثر من أيّ وقت مضى سألها جيلبرت: "هل استمتعتِ بالأمسية؟"

قالت آن: "آه نعم كانت أمسيةً جميلة." لكنّ آن شعرت أنّها قضت الأمسية تحت وطأة الألم حسب العبارة الرائعة التي قالتها جين ويلش كارلايل ذات مرّة.

قال جيلبرت بذهنٍ ما زال شاردًا: "ما الذي جعلك تصففين شعرك بهذه الطريقة؟"

"إنّها الموضة الجديدة."

"حسنًا، إنّه لا يلائمك، قد يناسب شعرًا آخر ولكن ليس شعرك."

قالت آن ببرود: "آه، من المؤسف للغاية أنّ شعري أحمر اللون."

اعتقد جيلبرت أنّه كان حكيمًا في تغيير موضوعٍ كاد أن يسبّب لهما مشكلة، فلقد فكّر أنّ آن كانت دائمًا حساسةً قليلًا بشأن شعرها. في كلّ الأحوال، كان متعبًا جدًّا من الكلام. أرجع رأسه إلى مقعد السيارة وأغمض عينيه. لأوّل مرة لاحظت آن بريقًا بسيطًا من اللون الرمادي في

الشعر الذي كان فوق أذنيه. لكنّ قلبها قسا.

سار الزوجان إلى المنزل بصمتٍ من محطّة جلين سالكين الطريق المختصر إلى إنجلسايد. كانت رائحة شجرة التنوب والسرخس تفوح في الهواء. كان القمر يضيء فوق الحقول المبلّلة بالندى. مرّ جيلبرت وآن بالقرب من منزلٍ قديمٍ مهجور فيه نوافذ حزينة ومكسورة كانت تشعّ ذات يومٍ بالأضواء. فكّرت آن أنّ المنزل يشبه حياتها تمامًا. يبدو أنّ كلّ شيءٍ يحملُ لها معنى كئيبًا الآن. اعتقدت أنّ الفراشة البيضاء القاتمة التي ترفرف أمامهم على العشب كانت مثل شبح الحبّ الباهت. ثمّ علقت قدمها في قوسٍ كروكيه وكادت تسقط بتهوّرٍ في أجمّةٍ من نباتات الفلوكس. ما الذي قصده الأطفال بتركه هناك؟ ستوبّخهم لذلك غدًا!

ثبّتها جيلبرت بيده وهو يقول فقط: " أوبس." هل كان سيتصرّف بهذه الطريقة حيال ذلك لو كانت كريستين تعثرت بينما كانا يخمنّان معنى طلوع القمر في شهر أيلول؟

هرع جيلبرت إلى مكتبه في اللحظة التي صارا فيها داخل المنزل وذهبت آن بصمتٍ إلى غرفتهما، حيث كان ضوء القمر يظهر على الأرضيّة ساكنًا وفضيًّا وباردًا. اتجهت نحو النافذة المفتوحة ونظرت إلى الخارج. من الواضح أنّها كانت الليلة المناسبة لكلب كارتر فلاج الذي كان يعوّي من كلّ قلبه وبكلّ شغف. لمعت أوراق اللومباردي مثل الفضة في ضوء القمر. بدا المنزل حولها يهمس الليلة، يهمس بخبثٍ كما لو أنّه لم يعد صديقها.

شعرت آن بالمرض والبرد والوحدة، ذبلت مشاعر الفرح فيها ومات شغفها في الحياة. لم يكن أيّ شيءٍ يعنيها، بدا كلّ شيءٍ غير محبّبٍ لها وغير واقعيّ.

بعيدًا، كانت الأمواج تحافظ على تجربتها القديمة مع الشاطئ. أصبح بإمكان آن الآن رؤية بيت الأحلام الصغير بعد أن قطع نورمان دوجلاس شجيرة التنوب. كم كانا سعيدين هناك، عندما كان يكفيهما أن يكونا معًا في منزلهما، بتخيّلاتهما، ومداعباتهما، وحتّى بصمتهما! كان جمال الصباح في حياتهما، عندما كان جيلبرت ينظر إليها بابتسامةٍ في عينيه احتفظ بها لها وحدها، وعندما كان يجد كلّ يومٍ طريقةً جديدةً للتعبير فيها عن حبّه، وعندما كانا يتقاسمان الضحك كما يتقاسمان الحزن.

أمّا الآن، فلقد سئم جيلبرت منها. كان الرجال دائمًا هكذا، وسيبقون هكذا دائمًا، يحبّوننا في البدايات ثمّ يملّون ويسأمون منّا. كانت تعتقد أنّ جيلبرت كان استثناءً لكنّها الآن تعرف الحقيقة. ولكن كيف ستتأقلم في حياتها مع هذا الأمر؟

فكّرت بحزن بأنّ لديها أطفالٌ يجب أن تستمرّ في العيش من أجلهم، وبأنّه لا يجب لأحدٍ على الإطلاق أن يعرف ما يحدث، فهي لا تريد أن يشعر أحدٌ بالشفقة عليها.

ما هذا الصوت؟ كان شخصٌ ما يصعد الدرج، ثلاث درجاتٍ دفعةً واحدة في كلّ مرة، كما كان يفعل جيلبرت منذ فترةٍ طويلةٍ في منزل الأحلام، كما لم يفعل منذ وقتٍ طويل. لا يُعقل أن يكون جيلبرت، لكنّه كان!

اقتحم الغرفة، ورمى علبةً صغيرةً على المنضدة، وأمسك بخصر آن وراح يُرَقّصها حول الغرفة مثل تلميذٍ مجنون، وتوقّف للراحة أخيرًا وهو يلهث في ضوء القمر.

"لقد كنتُ على حقٍّ يا آن... الحمد لله، لقد كنتُ على حقّ! قال الأخصائيّ أنّ السيّدة جارو ستكون بخير.

"السيدة جارو؟ جيلبرت، هل جننت؟"

"ألم أخبرك؟ بالتأكيد أخبرتك. حسنًا، أعتقد أنّه كان موضوعًا مؤلمًا لدرجة أنّني أستطع التحدث عنه. لقد كنت قلقًا حتى الموت بشأنهِ خلال الأسبوعين الماضيين. لم أستطع التفكير في أيّ شيءٍ آخر عند الاستيقاظ أو النوم. تعيش السيدة جارو في لوبريدج وكانت مريضة الطبيب باركر. طلب مني الاستشارة، شخّصتُ حالتها بشكلٍ مختلفٍ عنه، كدنا نتشاجر، وكنت على يقينٍ من أنّني على حقّ، وكنتُ مصرًّا أنّ هناك فرصةٌ لها فأرسلناها إلى مونتريال وقال باركر إنّها لن تعيش أبدًا، وكان زوجها مستعدًّا لإطلاق النار عليّ عندما رآني. عندما ذهبت كنت قلقًا ومشتّتًا للغاية، ربّما كنت مخطئًا، وربّما كنت أعذّبها بلا داع. وجدت الرسالة في مكتبي عندما دخلت، كنت على حقّ فلقد أجروا لها عمليّة وقالوا إنّ لديها فرصةً ممتازة للعيش. فتاتي آن، يمكنني القفز فوق القمر من شدّة الفرح! أشعر أنّني صغُرت عشرين عامًا!

كان على آن إمّا أن تضحك أو أن تبكي، لذلك بدأت تضحك. كان جميلًا أن تكون قادرةً على الضحك مرّةً أخرى، وكان جميلًا أن تشعر بالسعادة. عاد كلّ شيءٍ فجأةً على ما يرام.

قالت له بسخرية: "أفترض أنّ هذا هو السبب الذي جعلك تنسى أنّ اليوم هو ذكرى زواجنا؟" أفلتها جيلبرت لينقضّ على العلبة الصغيرة التي أسقطها على الطاولة.

"لم أنسها. قبل أسبوعين كتبتُ إلى تورنتو لأطلب لكِ هذه، ولم يرسلوها حتى الليلة. شعرتُ بالحرج هذا الصباح عندما لم يكن لديّ أيّ هديّةٍ أعطيها لك ولم أتحدّث عن اليوم، اعتقدت أنكِ قد نسيته أيضًا، تمنّيت أن تكوني نسيته. عندما ذهبت إلى المكتب، وجدتُ الهديّة مع رسالة باركر. انظري، أظنّ أنّكِ ستحبّينها."

لقد كانت قلادةً صغيرةً من الألماس، كانت تتلألأ حتّى في ضوء القمر.

"جيلبرت... وأنا لم..."

"جرّبيها. أتمنّى لو كان قد جاء هذا الصباح، لكنت قد حصلت على شيء لارتدائه للعشاء بدلًا من قلب المينا القديم. على الرغم من أنّه بدا جميلًا إلى حدٍّ ما على رقبتك البيضاء الجميلة يا عزيزتي. لماذا خلعتِ ذلك الفستان الأخضر يا آن؟ أعجبني لأنّه ذكّرني بهذا الفستان ذي براعم الورد الذي كنت ترتديه في ريدموند."

إذًا لقد لاحظ الفستان! لا يزال يتذكّر إذًا فستان ريدموند القديم الذي أعجبه كثيرًا!

شعرت آن وكأنّها طائرٌ أُطلق سراحه، كانت تطير فرحًا مرّةً أخرى. كانت ذراعا جيلبرت حولها وكانت عيناه تنظران إلى عينيها تحت ضوء القمر.

"هل تحبّني يا جيلبرت؟ ألست مجرّد امرأةٍ اعتدت على وجودها معك؟ لقد مرّ وقتٌ طويلٌ منذ أن أخبرتني بأنّك تحبّني."

"حبيبتي العزيزة الغالية! لم أكن أعتقد أنّكِ في حاجةٍ إلى الكلمات لتعرفي أنّني أحبّك. لا أستطيع العيش بدونك، فأنتِ دائمًا تمنحينني القوّة. هناك آية في مكانٍ ما في الإنجيل تذكّرني فيكِ ألا وهي: ستفعل له خيرًا لا شرًا طيلة أيّام حياتها."

بدت الحياة سوداء وسخيفةً للغاية قبل لحظاتٍ قليلة، أمّا الآن فشعرت آن أنّ حياتها مبهجة ومليئةً بالألوان بشكلٍ رائعٍ للغاية. انزلقت القلادة الماسيّة على الأرض، دون أن يلتفت إليها أحدٌ في الوقت الحاليّ. كانت قلادةً جميلة، ولكن كانت هناك الكثير من الأشياء الأجمل منها. . . الثقة والسلام واللطف. . . الضحك والعطف. . .

وهذا الشعور القديم الآمن بحبٍّ أكيد.

"آه لو كان بإمكاننا الاحتفاظ بهذه اللحظة إلى الأبد يا جيلبرت!"

"ستكون لدينا بعض اللحظات الجميلة. حان الوقت لنحظى بشهر العسل للمرة الثانية. سيُعقد مؤتمرٌ طبيٌّ كبيرٌ في لندن في شهر شباط المقبل. سنحضر المؤتمر وبعد ذلك سنرى القليل من العالم القديم. سنحظى بعطلةٍ قريبًا، ولن نكون سوى عشاقٍ مرّةً أخرى، سنشعر وكأنّنا تزوّجنا من جديد. لم تكوني على طبيعتك منذ فترةٍ طويلة. أنتِ متعبةٌ ومرهق، وتحتاجين إلى التغيير. لن أؤمن بمقولة أنّ زوجات الأطبّاء لا يحتاجون إلى الأدوية. سنعود مرتاحين ومنتعشين، وسنكون قد استعدنا روح الدعابة الذي لدينا. حسنًا، جرّبي قلادتك ودعينا نذهب إلى الفراش. أنا أتوق للنوم، فلم أحصل على ليلة نومٍ جيّدة منذ أسابيع، بسبب التوائم والقلق حيال السيدة جارو."

فرحت آن بأنّ جيلبرت قد لاحظ حزنها وتعبها في الأيام الماضية، وشعرت بالأسف لأنّ جبلبرت كان منهكًا طوال تلك الفترة وهي لم تلاحظ ذلك.

كانت آن تتباهى أمام المرآة بألماسها حين سألت: "ما الذي كنت تتحدّث عنه أنت وكريستين طوال ذلك الوقت في الحديقة الليلة؟"

تثاءب جيلبرت.

قال: "لا أعرف، كانت كريستين تثرثر فقط. ولكنّها قالت لي حقيقةً واحدة وهي أنّ البرغوث يمكنه أن يقفز مئتي ضعف طوله. هل كنتِ تعلمين ذلك يا آن؟"

شعرت آن أنّها حمقاء، فلقد كانا يتحدّثان عن البراغيث بينما كان يقلبها يشتعل من الغيرة.

"كيف بحقّ الله بدأتما بالحديث عن البراغيث؟"

"لا أستطيع أن أتذكّر... ربّما كانت دوبرمان بينشر السبب."

"دوبرمان بينشر! ما هي دوبرمان بينشر؟"

"نوعٌ جديدٌ من الكلاب، ويبدو أن كريستين خبيرةٌ بالكلاب. لقد كنت مهووسًا بالتفكير بالسيدة جارو حتّى أنّني لم أنتبه تمامًا لما كانت تقوله. بين الحين والآخر سمعتُ بعض الكلمات فقط عن التعقيد والقمع وعن علم النفس الجديد، والفنّ وداء المفاصل والسياسة... والضفادع."

"الضفادع!"

"يجري رجل أبحاثٍ من وينبيغ بعض التجارب عن الضفادع. لم تكن كريستين في حياتها امرأةً مسليّةً للغاية، لكنّها في هذه الليلة كانت مملّةً أكثر من أيّ وقتٍ مضى. وكانت اليوم خبيثة! لم تكن خبيثةً أبدًا."

سألت آن ببراءة: "ما الذي قالته ليجعلك ترى أنّها كانت خبيثةً جدًا؟"

"ألم تلاحظي؟ آه، أفترض أنّكِ لم تنتبهي... أنتِ لستِ من هذا النوع من النساء. حسنًا، لا يهمّ. لقد أثارت ضحكتها أعصابي قليلًا... وقد أصبحت سمينة. الحمد للّه أنّكِ لم تسمني يا فتاتي آن."

قالت آن بلطف: "آه، لا أعتقد أنّها سمينةٌ جدًا، وهي بالتأكيد امرأةٌ فاتنةٌ للغاية."

"إنّها فاتنةٌ نوعًا ما، لكنّ وجهها أصبح مترهّلًا قليلًا، رغمَ أنّها في مثل سنّك إلّا أنّها تبدو أكبر بعشر سنوات."

"وأنت تتحدّث معها عن الشباب الخالد!"

ابتسم جيلبرت وقد أحسّ بالذنب.

قال: "على المرء أن يقول بعض المجاملات أحيانًا. لا يمكننا أن نتحضر دون القليل من النفاق. حسنًا، كريستين ليست عجوزًا سيئة،

حتى لو لم تكن تنتمي إلى عرق جوزيف. وليس خطأها أنّها لم تكن تعلم الحقيقة. ما هذا؟"

"هديّتي لك بمناسبة الذكرى السنوية لزواجنا. وأريد سنتًا مقابلها... فأنا لن أجازف. لقد تحمّلت عذابًا كبيرًا هذا المساء! لقد أوجعتني الغيرة من كريستين."

بدا جيلبرت مندهشًا حقًّا، فلم يخطر بباله أبدًا أنّ آن قد تغار من أيّ شخص.

"لماذا يا فتاتي آن؟ لم أعتقد أبدًا أنّكِ تغارين."

"آه، ولكنّني أغار. قبل سنوات كنتُ أغار بجنون من مراسلاتك مع روبي جيليس."

"هل سبق لي أن راسلت روبي جيليس؟ لقد نسيت. روبي المسكينة! لكن ماذا عن روي غاردنر؟ الجمل لا يرى سنامه، لكنّه يضحك إذا رأى سنام أخيه."

"روي غاردنر؟ كتبت لي فيليبا منذ وقتٍ ليس ببعيد أنّها رأته وأنّه أصبح سمينًا كالفيل. جيلبرت، قد يكون الطبيب موراي رجلًا بارزًا جدًّا في مهنته لكنّه يشبه اللوح تمامًا وبدا الطبيب فاولر مثل الكعكة. كنت تبدو وسيمًا جدًّا ومثاليًّا بجانبهم."

قال جيلبرت: "آه شكرًا... شكرًا، هذا ما ينبغي أن تقوله الزوجة. أودّ أن أردّ لكِ الإطراء بالقول أنّني اعتقدت أنّك بدوتِ جميلةً بشكلٍ استثنائيٍّ الليلة يا آن، على الرغم من ارتدائك لهذا الفستان. كان وجهكِ محمرًّا قليلًا وكانت عيناك رائعتين. آه، أشعر بالراحة عندما أعود للسرير. غريب كيف تعود إلينا خلال حياتنا تلك الآيات القديمة التي تعلّمناها في مدرسة ساندي! هناك آيةٌ أخرى في الإنجيل "سوف أرقد في سلامٍ وأنام،" في سلامٍ وأنام، تصبحين على خير."

كان جيلبرت نائمًا تقريبًا قبل أن ينهي كلمته. جيلبرت العزيز المتعب! لم يكن يهمّه الأطفال الآن، فلا ينبغي لأحدٍ أن يزعج راحته في تلك الليلة، حتّى لو رنّ الهاتف طوال الليل، لن يجيب أبدًا.

لم تكن آن تشعر بالنعاس، كانت سعيدةً للغاية لدرجة أنّها لن تستطيع النوم. كانت تمشي بهدوءٍ في الغرفة، وترتّب الأشياء، وتجدل شعرها، وتبدو وكأنّها امرأةٌ محبوبة. أخيرًا لبست عباءتها وذهبت عبر الصالة إلى غرفة الصبيان، ووجدت والتر وجيم في سريرهما وشيرلي في مهده نائمين تمامًا. كان شرمب، الذي عاش أكثر من أجيالٍ من القطط وأصبح جزءًا من العائلة، ملتفًّا عند قدميّ شيرلي. غرق جيم في النوم أثناء قراءة "كتاب حياة القبطان جيم" الذي كان مفتوحًا على غطاء سريره. لهذا إذًا كان جيم يبدو مستلقيًا تحت أغطية الفراش لوقتٍ طويل! سوف يكبر قريبًا. يا له من رجلٍ صغير قويّ ويمكن الاعتماد عليه! كان والتر يبتسمُ في نومه كشخصٍ يعرف سرًّا ساحرًا. كان القمر يضيء وسادته عبر قضبان النافذة الرصاصيّة ويلقي بظلّ صليبٍ واضح المعالم على الحائط فوق رأسه. بعد سنواتٍ طويلة، كان على آني أن تتذكّر وتتساءل عمّا إذا كان ذلك نذيرًا لكورسيليت، لقبرٍ عليه علامات الصليب "في مكانٍ ما في فرنسا." لكنّ الليلة كان ذلك مجرّد ظلّ، لا شيء آخر. كان الطفح الجلدي قد اختفى تمامًا عن عنق شيرلي. كان جيلبرت على حق، كان دائمًا على حقّ.

كانت نان وديانا وريلا في الغرفة المجاورة، ديانا بشعرها الأحمر المجعّد الجميل ويدها الصغيرة تحت خدّها، ونان برموشٍ طويلةٍ تتدلّى على خدّيها. كانت العينين خلف تلك الجفون ذات العروق الزرقاء عسليّتين مثل عينيّ والدها. وكانت ريلا نائمةً على بطنها. قلبت آن جانبها الأيمن لأعلى لكنّها لم تفتح عينيها.

كانوا جميعًا ينمون بسرعةٍ كبيرة، وفي غضون سنواتٍ قليلةٍ فقط سيصبحون جميعهم شبابًا وشابّات... بداية مرحلة الشباب... انتظار... نجمةٌ بأحلامها الحلوة... وسفنٌ صغيرة تبحر من الملاذ الآمن إلى موانئ غير معروفة. كان الأولاد سيبدأون حياتهم المهنية أمّا البنات فكم ستكون جميلةً رؤيتهنّ وهنّ عرائس جميلات يرتدين الطرحة وينزلن على الدرج القديم في إنجلسايد. لكنّهم ومع ذلك سيبقون أطفالها لبضع سنواتٍ لتحبّهم وترشدهم، ولتغنّي لهم الأغاني التي غنّتها الكثير من الأمّهات. سيبقون أطفالها، وأطفال جيلبرت.

خرجت ونزلت إلى القاعة متّجهةً إلى نافذة المشربيّة. ذهبت كلّ شكوكها وغيرتها واستيائها بعيدًا، وشعرت بالثقة والبهجة والمرح.

قالت وهي تضحك: "أشعر بالبهجة، أنا أشعر تمامًا كما شعرت في ذلك الصباح الذي أخبرني باسيفيك أنّ جيلبرت قد نال الدور."

تحتها كانت الحديقة الجميلة والغامضة ليلًا، وبعيدًا، كانت التلال التي يغمرها ضوء القمر شاعريّة. قبل أشهرٍ كثيرة، كانت ترى ضوء القمر فوق تلال اسكتلندا القاتمة، وفوق ميلروز. . . وفوق كينيلوورث المدمرة. . . وفوق الكنيسة قرب آفون حيث كان شكسبير ينام... وربما حتى فوق الكولوسيوم. . . وفوق الأكروبوليس. . . وفوق الأنهار الحزينة التي تتدفق من الإمبراطوريات المهجورة.

كان الليل باردًا، وسرعان ما ستأتي ليالي الخريف الأكثر برودةً وحدّة، ثمّ ستأتي الثلوج الكثيفة. . . الثلوج البيضاء الكثيفة. . . ثلوج الشتاء الكثيفة الباردة. . . والليالي الجامحة مع الرياح والعواصف. لكن من سيهتمّ؟ سيكون هناك سحر ضوء النار في الغرف الأنيقة. ألم يتكلّم جيلبرت منذ وقتٍ ليس ببعيد عن حطب التفاح الذي كان سيحرقه في المدفأة؟ كانوا يمجدّون أيّام الشتاء القاسية التي كان لابدّ

لها أن تأتي. لن يقلقوا حيال الثلج المنجرف والرياح الشديدة طالما أنّ منزلهم يشتعل بالحب، وطالما أنّ فصل الربيع آتٍ، وطالما أنّ حلاوة الحياة تنتثر في الشوارع.

ابتعدت آن عن النافذة، وكانت ترتدي ثوبًا أبيض، وكان شعرها ضفيرتين طويلتين، فبدت مثلما كانت في أيّام المرتفعات الخضراء... وأيّام ريدموند... وأيّام بيت الأحلام. كانت علامات الفرح الذي غمر قلبها لا تزال تشع كالنور من وجهها. ثمّ جاء عبر المدخل المفتوح صوت تنفس أطفالها الناعم. كان جيلبرت نادرًا ما يشخر، لكنّه كان يشخر بلا شكٍّ الآن. ابتسمت، وفكّرت في كلامٍ قالته كريستين المسكينة التي لم تنجب، والتي كانت تثرثر بسخرية.

وكرّرت آن ما قالته كريستين ببهجة: "يا لها من عائلة!"

***

نلتقي قريبا .. مع آن
والجزء السابع ..



منزلٌ ضخم، عائلةٌ كبيرة، وحياةٌ تضج بالحركة والحب والأحداث المثيرة! من قال إن الحياة في إنجلسايد كئيبة؟

جزءٌ جديدٌ من حياة آن تعيشه هذه المرة مع أسرتها الكبيرة، سوزان المخلصة، القط شرمب، والزوار والأصدقاء الذين لا تخلو حياتها وحياة أولادها منهم...

آن في إنجلسايد هي الرواية السادسة من سلسلة آن شيرلي. سنتعرف على أطفال الطبيب بلايث، ونعيش معهم مغامراتهم الشيّقة وحكاياتهم الخيالية. وممن يا تراهم ورثوا الخيال؟

تتحمل آن مسؤولية أن تكون أمًا، وزوجةً، وربةَ منزلٍ وسيدةَ مجتمع، وتؤدي واجباتها بينما تحتضن أطفالها تحت جناحيها، تحبّهم، وترشدهم، وتغنّي لهم الأغاني التي غنّتها الكثير من الأمّهات. وستظل هكذا إلى أن يكبروا وتفرّقهم طرقات الحياة المختلفة، لكنهم مهما كبروا سيبقون للأبد أطفالها، وأطفال جيلبرت.

flamingopubl & Little Puffin

ISBN 978-9922-9289-7-5







Designed by: MAHER ADNAN